@ketab_n
Follow Me
4.3.2016

نساء صغيرات

٢

لويزا ألكوت

Twitter: @ketab_n

نساء صغيرات

تأليف
لويزا م. الكوت

ترجمة
أمينة السعيد

المجلد الثاني

ويضم الجزئين
الثالث والرابع

الطبعة الثانية

الناشر
مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف - القاهرة
تليفون ٢٩٩٢٤٨ ، ٢٤٨٣٠٩

١٩٨٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع والعشرون

ثرثرة

من المستحسن أن نستهل هذا الفصل من القصة بحديث عن أسرة مارش ، حتى نذهب الى زفاف ميج ، وقد نسينا كل أثر للماضى • واذا اعترض أحد من الكبار على ما تفيض به القصة من عواطف وغزل ، فسنردد قول مسز مارش : « وماذا تنتظرون غير ذلك ، ولى أربع فتيات مرحات يصاحبهن فتى جذاب فى ريعان الشباب ؟ » وعلى أى حال مهما اعترض الكبار ، فان الشباب لن يعترض على مغامرات الهوى فى هذه القصة •

والواقع أن السنوات الثلاث التى انقضت ، لم تحدث سوى تغيرات طفيفة فى حياة هذه الأسرة الوادعة : فقد انتهت الحرب ، وعاد مستر مارش سالما الى بيته الحبيب وكنيسته الصغيرة ، التى وجدت فيه خير راع طيب عطوف • ومستر مارش رجل دءوب على العمل ملىء بالحكمة التى تفضل المعرفة ، تفيض جوانحه رحمة وبرا وأخوة ، وهو يتميز بالتقى والورع الذين يدعمان شخصيته ، ويجعلان منه رجلا مهيبا محبوبا •

وعلى الرغم من فقره ونزاهته ، اللذين حرماه من التمتع بمباهج الدنيا ، فان صفاته الطيبة حببت فيه قلوب أناس كثيرين ، فانجذبوا اليه كما تنجذب جماعة من النحل الى الزهور العطرة • ولم يبخل هو على هؤلاء المعجبين بشىء مما حباه الله به ، انما أعطاهم فى سخاء وكرم عصارة تجاربه الشاقة خلال حياته البالغة خمسين عاما • وقد

Twitter: @ketab_n

وجد الشباب المتطلع فى هذا العجوز الأشيب الوقور ، قلبا فتيا لا يقل عن قلوبهم حرارة ، وكان النساء المثقلات بالهموم ، يلجأن اليه بأحزانهن ، فيجدن منه حنان الصدر وصواب النصح • وكان المذنبون يعترفون لهذا الرجل التقى بذنوبهم ، فيلومهم على ما بدر منهم ، ثم يقودهم الى بر السلام النفسى • وكان ذوو المواهب يجدون فيه نعم الرفيق ، أما أهل الطموح فكانوا يأخذون عنه طموحه الشريف ، وحتى أصحاب الأغراض الدنيوية كانوا يعترفون بجمال آرائه وصدقها ، وان كانت لا تحقق لهم كسبا ماديا •

وكان يبدو ظاهرا أن ادارة البيت انما هى فى يد النساء الخمس الممتلآت حيوية ونشاطا ، ولكن الحقيقة الخافية أن رأس الأسرة المفكر ، وقلبها الموجه ، كان ذلك الشيخ القابع بين كتبه ، فكان النساء يلجأن اليه فى أصعب الظروف ، وينشدن عنده طمأنينة النفس وهدوءها ، ويجدن فيه حنان الزوج والأب والصديق •

وكان البنات يسلمن مقاليد قلوبهن الى الأم ، ويعهدن بزمام نفوسهن الى الأب : ويولين هذين الوالدين اللذين يكدان ويكدحان من أجلهن ، حبا ينمو مع الأيام ويزداد فيربطهن اليهما برباط وثيق جميل ، تنعم به الحياة ، ويخلد بعد الموت •

وكانت مسز مارش كعهدها نشيطة باشة ، وان كان المشيب قد كسا رأسها أكثر من ذى قبل ، ولم يكن لها هم الآن سوى تهيئة شئون ميج ، وقد شغلت هذه المهمة وقتها ، حتى حرمت المستشفيات والبيوت — التى مازالت تعج بالجرحى والأرامل — من زياراتها وعطفها الأموى •

Twitter: @ketab_n

أما جون بروك ، فقد لبى داعى الوطن ، فالتحق بالجيش مدة عام ، ولكنه جرح فى نهايته ، فأعيد الى بلاده ، ولم يسمح له بالقتال ثانية ، ولذلك لم يزين صدره بأوسمة أو نياشين ، رغم أنه كان يستحقها جزاء تضحيته بحبه ومغامرته بحياته ، وهما أثمن ما لديه فى الوجود • وخضع جون لما قضى عليه به من تسريح ، وكرس نفسه للعناية بصحته ، والاستعداد لعمل يمارسه ، ولأعداد بيت الزوجية لميج • ولقد أبى عليه استقلاله وتواضعه أن يقبل العروض السخية التى قدمها له مستر لورنس ، وآثر قبول وظيفة أمين مكتبة ، قانعا بمرتبها الصغير ، الذى يكسبه بكده وكدحه عن المغامرة بمال يقترضه من مستر لورنس •

وراحت ميج تصرف وقتها بين العمل والانتظار ، وقد نمت فيها شخصية المرأة وازدادت خبرتها بشئون البيت ، كما بعث الحب فيها جمالا على جمال ، فأصبحت بهجة للأنظار • وكانت ميج ، ككل فتاة فى مثل سنها ، ذات مطامع وآمال ، فعز عليها أن تكون بداية حياتها الجديدة متواضعة متقشفة • وكان نيد موفات قد تزوج بسالى جاردنر ، وأصبح من العسير على ميج أن تقارن أحوالها المعيشية البسيطة ببيتهما الجميل ، وعربتهما الفاخرة ، وهداياهما الكثيرة ، ومظاهرهما الفخمة • وكم تمنت أن يكون لها مثل ما لصديقتها ، ولكن الغيرة لم تلبث أن انحسرت تماما حين لمست مدى الجهد البالغ الذى يبذله جون فى تهيئة بيت صغير عامر بالحب والاخلاص • وحين جلست معه ذات يوم تحت الشفق الجميل ، تتحدث عن مشروعاتهما الصغيرة ، بدا لها المستقبل أكثر اشراقا وجمالا ، حتى نسيت فخامة حياة سالى ، وأحست أنها قد أصبحت بسعادتها أغنى فتاة فى العالم •

Twitter: @ketab_n

وانقطعت جو عن خدمة العمة مارش ، لأن العجوز أغرمت بآمى الى حد كبير ، وجعلت تغريها على البقاء معها ، باعداد دروس خاصة لها على أيدى أمهر الرسامين .. وانهزمت آمى أمام هذا الاغراء ، وعاشت مع السيدة العجوز ، وكانت تكرس أوقات الصباح لخدمة عمتها ، وبعد الظهر لمسراتها ، ووفقت فى ذلك توفيقا طيبا . أما جو فقد عملت على تقسيم وقتها بين دراسة الأدب ، وبين معونة بث ، التى ظلت وقتا طويلا تعانى من آثار مرضها الشديد . ولم تكن بث عاجزة عن العمل ، ولكنها لم تستطع أن تسترد نشاطها وتورد خديها ، ورغم ذلك ظلت ملك البيت الحارس ، وصديقة أهلها الوفية ، وكانت تقوم بواجباتها مفعمة القلب بالأمل والسعادة .

وكانت جو تفخر بأنها قد أصبحت امرأة ذات دخل : بفضل ما تنشره لها مجلة « سبريد أيجل » لقاء دولار عن كل عمود فى الصحيفة . وكان نشاطها الكتابى ينحصر فى تأليف قصص غرامية تصوغ موضوعاتها بمنتهى المهارة والبلاغة ، ولكن فكرة جديدة اختمرت ذات يوم فى رأسها المتوقد ، فراحت تملأ بتلك الفكرة صفحات وصفحات من أوراقها الخاصة ، ثم تحتفظ بها فى غرفتها المنعزلة ، راجية أن تخلد بها اسم أسرة مارش ، وترفعه الى سماء المجد والفخار .

أما لورى فقد واظب على الذهاب الى الكلية ارضاء لجده ، ثم لم يلبث أن أغرته كبرياؤه بالاجتهاد ، فتصدر صفوف زملائه . وكان الفتى أثيرا عند أقرانه ، لمواهبه وأخلاقه وثرائه ، وكذلك لقلبه الطيب الذى كثيرا ما جلب له المتاعب فى سعيه الى معونة غيره . وكان لورى معرضا لأن يفسده التدليل كما أفسد كثيرين غيره من الشباب الموهوبين

Twitter: @ketab_n

المترفين ، ولكن الأقدار شاءت أن تحصنه ضد عوامل الشر بفضل الرجل الطيب العجوز مستر مارش ، الذى أخذ على عاتقه أن يوفر له أسباب النجاح ، وأيضا بفضل أمومة مسز مارش التى رعته وسهرت عليه كأنه أحد أبنائها ، هذا الى احساسه بأن أربعا من الفتيات البريئات يحببنه ، ويؤمن به فى قرارة قلوبهن •

ولما كان اورى مرحا بطبعه ، فقد حلا له أن يأخذ بأساليب الغزل العبث ، ومال الى التأنق والتظرف ، وأفرط فى طلب المرح والتسلية ، وانقاد الى الاستهانة ، فكان يتكلم باللغة العامية ، ويستعمل فى أحاديثه ألفاظا دارجة ، مما عرضه لعقوبة الفصل أكثر من مرة • وكانت أساليبه فى دفع العقاب ، أن يعترف بخطئه نادما مستغفرا ، أو يتذرع بقوة الاقناع التى وهبه الله منها قسطا وفيرا • وفى الواقع أن لورى كان يفخر بقدرته على التملص من ورطاته الكثيرة ، فيثير اعجاب الفتيات الأربع بقصص انتصاراته على العرفاء الغاضبين ، والأساتذة الموتورين ، والغرماء الناقمين • وكانت الفتيات يعتبرن لورى وأصدقائه أبطالا ، لا تمل الأذن من سماع قصص مغامراتهم ، وكانت بسمات هؤلاء الأصدقاء الأبطال تدفىء صدور البنات ، كلما أتى بهم لورى معه الى البيت فى عطلاته المدرسية •

وكانت آمى أكثر الفتيات نصيبا من هذه البسمات ، وأوفرهن حظا من عناية الفتيان واهتمامهم ، وذلك لتفوقها عليهن فى فهم أسرار الفتنة والجاذبية ، ورعايتها الدائمة لحسنها وأناقتها • وكانت ميج غارقة فى شئون حبها لجون ، فلم تلتفت الى أحد من هؤلاء الفتيان • وكان الخجل المتمكن من بث يبعدها عن الشبان المرحين ، ويجعلها تقنع بالنظر الصامت اليهم ، وكلها عجب من جرأة آمى معهم • أما جو

Twitter: @ketab_n

فكانت بطبعها لا تميل الى التكلف والتزمت ، فراحت بطريقتها المعهودة تسعى الى تقليد عبارات هؤلاء السادة ، وأساليبهم من الحديث • وكان الفتيان جميعا يميلون الى جو • ولكن واحدا منهم لم يقع فى غرامها ، على العكس من آمى ، التى تفتحت قلوبهم جميعا لحبها ، وكثرت تنهداتهم على محراب حسنها • وما دمنا قد خضنا فى حديث العواطف ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن « برج الحمائم » •

و « برج الحمائم » هو الاسم الذى أطلقه لورى على البيت الصغير الداكن ، الذى أعده مستر بروك ، ليكون عش الزوجية الأول • وكان لورى يقول انه خير مكان يضم الحبيبين الكريمين ، ولقد دخلاه متعانقين كزوج من الحمام • وكان البيت صغيرا جدا ، له حديقة خلفية ضيقة : وأمامه قطعة من الأرض فى حجم المنديل ، مكسوة بالنجيل الأخضر • وكانت ميج تود أن تقيم فى تلك الأرض نافورة جميلة ، وتغرس بعض الأشجار وتقيم حوضا من الزهور ، ولكنها اكتفت — اقتصادا للنفقات — بأن تضع فى مكان النافورة أصيصا ضخما ، وفى محل الأشجار بعض العيدان الصغيرة ، وغرست فى حوض الزهور عودا من الغاب يشير الى مكان البذور المزروعة • أما داخل البيت فكان جذابا ، ولو أردنا الدقة فى وصفه نقول : ان البهو كان ضيقا جدا ، ومن حسن حظ ميج أن لم يكن لديها معزف ، والا ما بقى فى البهو موضع لقدم • وكانت غرفة الطعام صغيرة ، لا تتسع لأكثر من ستة أشخاص ، وسلم المطبخ أقرب الى الرمز منه الى الحقيقة ، ولكن ميج ما لبثت أن اعتادت هذه الأوضاع ، مؤمنة بأنه ما من شىء فى هذه الدنيا يبلغ حد الكمال • وكان الأثاث والمفروشات مختارة بذوق سليم ، فبدا البيت جميلا لا عيب فيه ، حقيقة أنه كان يخلو من الموائد المغطاه بالمرمر والمرايا الضخمة ، والستائر الثمينة،

Twitter: @ketab_n

ولكن الأثاث البسيط ، والكتب والصور الجميلة ، كانت تغنى عن كل ذلك • وكان بجوار النافذة حامل للأزهار ، وهدايا الأصدقاء منثورة هنا وهناك ، وكانت كلها رموز مودة واخلاص : فما من صانع مهما بلغت مهارته ، بقادر على أن يطرز الستائر الموسلين ، كما طرزتها يد آمى الفنانة • • • ولا كان فى الامكان تنظيم مخزن الطعام ، كما نظمته جو وأمها ، بتلك الروح الطيبة ، والأمانى الخالصة ، والتمنيات السعيدة ••• ولا كان فى مقدور أحد أن يرتب المطبخ الصغير ، كما رتبته حنة ، التى أعادت تصنيف صحونه وأوانيه عشرات المرات ، لتجعله مريحا للنظر • أما بث فقد أعدت لأختها ذخيرة وفيرة من المفارش والأكياس ، كفتها سنين طويلة ، حتى عيد زواجها الفضى •

ولعل الذين يستأجرون من يطرز لهم مثل هذه المفارش ، لا يحسون بمدى الفارق بين ما تصنعه الأيدى الأجيرة ، وما تصنعه الأيدى الحبيبة ، ففى ذلك العش الصغير وجدت ميج أكثر من دليل على العواطف الجميلة الجياشة ، اذ كان كل ما فيه — من نشابة الفطير فى المطبخ الى آنية الزهور فى البهو — ينطق بالمحبة العائلية ، والوفاء الخالص •

ومرت بالأسرة أوقات سعيدة ، انقضت فى رسم خطط المستقبل ، وزيارة الأسواق لشراء لوازم البيت الجديد • وكم وقعت أخطاء مضحكة ، وكم انطلقت ضحكات عالية ، أثارها لورى بطريقته الفكاهية فى مساومة التجار • • • فبالرغم من أنه شارف على التخرج فى كليته ، فقد ظل مرحا كما كان شأنه فى صباه • ودأب الصديق الوفى على أن يحضر فى زياراته الأسبوعية ، بعض أشياء تفيد ربة البيت ، منها

Twitter: @ketab_n

حقيبة ملأى بمشابك غريبة للغسيل ، ومنها أيضا كسارة للبندق تحطمت عند أول تجربة •• وكان من بين هداياه طلاء للسكاكين أفسد معدنها ، ومكنسة ثبت بالاستعمال أنها تنزع وبر السجاد وتترك الأقذار عليها ، وصابون قصد به مهمة الغسل ، فاذا به يسلخ الأيدى التى تستعمله • وأحضر لها ذات يوم نوعا من الصمغ ، ثم اتضح أنه لا يلصق بشىء الا بأصابع المشترى المخدوع ، وكذلك أحضر لها غلاية للماء يحتمل أن تنفجر فى أية لحظة •

وعبثا حاولت ميج أن تثنيه عن تقديم هذه الهدايا ، ولكنه كان مصرا على اعطاء أصدقائه كل ما هم فى حاجة اليه ، لذلك ظل يفاجئهم كل أسبوع بنزوة جديدة لا تحقق الغرض المقصود منها •

وأخيرا تم اعداد البيت الجديد ، واكتملت لوازمه حتى الصابون ، فقد حرصت آمى أن تضع الصابون الملون فى الغرف ، كل بما يناسبها ، كما قامت بث باعداد مائدة الطعام لأول وجبة يتناولها العروسان فى بيتهما الجديد •

سألت مسز مارش ابنتها ، وهى تتأبط ذراعها ، عند دخولهما مملكة ميج الجديدة :

— أراضية أنت ، وهل تشعرين بالسعادة ، وهل تحسين بأن البيت بيتك ؟

قالت هذا وقد ضمت الفتاة اليها فى حنان بالغ ، فأجابت ميج وهى تنظر الى أمها نظرة غنية بالمعانى :

Twitter: @ketab_n

ــ انى راضية كل الرضا يا أماه ، ولسانى يعجز عن وصف سعادتى وهنائى ، فشكرا لكم جميعا •

قالت آمى : وهى تتجول فى غرفة الاستقبال ، بحثا عن مكان مناسب تضع فيه التمثال البرونزى •

ــ لو كان لديها خادم أو خادمان ، لصار الأمر على ما يرام •

أجابت ميج فى هدوء :

ــ لقد تحدثت وأمى فى هذا الشأن ، وسوف أجرب اقتراحها أولا ، وما دامت « لوتى » قد تعهدت بقضاء حاجاتى الخارجية ، ومساعدتى هنا وهناك ، فان يبقى بعد ذلك سوى أعمال بسيطة ترد عنى الملل والكسل•

قالت آمى :

ــ ان لدى سالى موفات أربعة من الخدم •

فقاطعتها جو ، وكانت تلبس مرولة زرقاء ، وتقوم بتلميع مقابض الأبواب لآخر مرة :

ــ لو كان لميج أربعة خدم ، لضاق بهم البيت ، واضطر السيد والسيدة للمبيت فى خيمة بالحديقة •

قالت مسز مارش :

ــ ان سالى زوجة رجل ثرى ، وبيتها الكبير الأنيق فى حاجة الى خدم كثيرين ، ولكن ميج وجون يبدآن حياة متواضعة ، ويقيننى أنهمـا سيجدان فى عشهما ، سعادة أصحاب القصور • وأعتقد أن الخطأ كل الخطأ فى انشغال الفتيات بالزينة والثرثرة ، عن أداء الأعمال التى تملأ

Twitter: @ketab_n

الفراغ فى بدء حياتهن • حين تزوجت كنت أتمنى أن تبلى ملابسى ، أو تتمزق ، حتى أشعر بلذة العمل فى اصلاحها ، بعد أن أضنانى الملل وضاق صدرى بتافه الأعمال •

قالت ميج :

— ولماذا لم تدخلى المطبخ لتجربى حظك فى الطهى ؟ تقول سالى موفات انها تتسلى أحيانا بصنع بعض الأطعمة ، ولكنها تفسدها ، فيضحك الخدم منها •

قالت الأم :

— وهذا ما فعلته بعد فترة ، فقد دخلت المطبخ لا لألهو ، انما لأتعلم من حنا كيف أصنع الأشياء ، حتى لا يضحك منى الخدم • وكانت تسلية فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث الظروف أن تغيرت ، وجاء اليوم الذى أصبحنا فيه غير قادرين على استئجار الخدم ، وعندئذ حمدت الله على تجارب الماضى التى مكنتنى من أن أخدم بيتى بنفسى ، وأصنع طعاما صحيا لبناتى الصغيرات • أما أنت يا ميج ، فتبدئين من حيث انتهت أمك ، وستفيدك الدروس التى تتلقينها ، عندما يثرى جون ، ويصبح رجلا عظيما • من واجب ربة البيت مهما كان بيتها فخما عظيما ، أن تلم بأسرار العمل فيه ، حتى تؤدى رسالتها باخلاص وأمانة •

استمعت ميج الى نصائح أمها فى احترام بالغ ، شأن السيدات المهتمات بأحاديث البيوت وأدواتها • قالت :

— أجل يا أماه ، ولست أشك فى صواب ما تقولين •

وسارت ميج بجانب أمها ، وصعدت معها السلم الى الدور العلوى ، ثم نظرت الى خزانة البياضات وقالت :

Twitter: @ketab_n

ـ أتعرفين يا أماه أن هذه أحب غرفة الى نفسى فى البيت الصغير كله ؟

وكانت بث تقوم بترتيب المفارش والبياضات فوق الرفوف ، وهى تحس بنشوة من السرور أمام المجموعات المختارة ، فلما سمعت قول ميج ، ضحكت وقد تذكرت قصة لا تخلو من الفكاهة ، وكانت قصة العمة مارش التى تهددت ميج ، عندما صممت على الزواج من بروك ، وصحات بها قائلة : « اذا تزوجت من هذا البروك ، فلن أعطيك قرشا واحدا من مالى • ولكن غضب العجوز لم يلبث أن هدأ بعد وقت ، فندمت على سابق وعيدها ، وتحيرت كيف تتخلص منه ، وهى التى تعودت أن تتمسك دائما بكلمتها • وهداها فكرها الى حل يرضيها ، فكان أن أمرت مسز كارول أم فلورنس ، بشراء كمية كبيرة من المفارش الثمينة ، ثم كلفتها بأن تقدمها هدية الى ميج • ولكن السر لم يخف طويلا ، وعرف أفراد الأسرة أن العمة هى صاحبة الهدية ، وكان من دواعى تفكهم ، تظاهر العجوز بالجهل ، كأن المفارش الثمينة لم تشتر من مالها ، ثم اصرارها على حرمان الفتاة العاصية من ممتلكاتها ، اللهم الا اللآلىء القديمة ، التى سبق أن وعدت بها أول عروس فى العائلة •

قالت العمة مارش ، وهى تقلب المفارش الحريرية وتفحصها بعين الخبرة :

ـ انه ذوق بديع يسرنى أن أراه فى البيت الجديد • لقد كان لى صديقة شابة لا تملك غير ست ملاءات للسرير ، ولكنها كانت تعزى نفسها عن هذا النقص بوفرة ما لديها من طاسات لغسل الأصابع •

Twitter: @ketab_n

قالت ميج فى رضا :

— ليس عندى طاسة واحدة ، ولكن هـذه المجموعة من المفارش تكفينى طول حياتى ، على حـد تعبير حنا •

وصاحت جو من الطابق السفلى ، تعلن قدوم لورى ، فنزل سيدات الأسرة للقائه اذ كانت زيارته الأسبوعية حدثا هاما فى حياتهن الهادئة •

وكان لورى قد أصبح فتى فارع الطول ، عريض المنكبين ، وكان آتيا من الطريق وقد ارتدى معطفا فضفاضا وقبعة واسعة ، ولم ينتظر أن تفتح له البوابة الصغيرة ، بل قفز من فوق السور المنخفض ، وتقدم نحو مسز مارش يصافحها بحرارة ويداه مبسوطتان :

— ها أنا ذا قد جئت يا أماه ، وكل شىء على ما يرام •

وكانت السيدة قد ألقت عليه نظرة فيها تساؤل عامر بالحنان ، فأجابها بما مضى من الكلام مطمئنا ، وعيناه الجميلتان تفيضان بالمرح والسرور •

قال لورى وهو يعطى ميج طردا ملفوفا ، ويشد ضفيرة بث مداعبا ، ويحدق فى مرولة جو الكبيرة ، وينظر الى آمى فى ابتهال ساخر :

— هـذه لمسز بروك ، مع تهنئة الصانع وتحيته ••• تمنياتى لك يابث ••• ما أبهى منظرك يا جو ••• أما أنت يا آمى فجمالك أكثر من أن يتوافر لسيدة واحدة •

ثم جعل يصافحهن واحدة بعد واحدة ، قالت ميج :

— أين جون ؟

Twitter: @ketab_n

قال :

— ذهب يعد الترخيص لحفلة غد •

وسألته جو ، وكانت رغم بلوغها التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال تصر على الاهتمام بأخبار الرجال :

— من غاز فى المباراة الأخيرة يا تيدى ؟

قال :

— فريقنا بالطبع ، ليتك كنت معنا لترى ما حدث •

سألته آمى ، وهى تبتسم ابتسامة ذات مغزى :

— وكيف حال مس راندل الجميلة ؟

فضرب لورى صدره بيده ، وتنهد بحرارة ، وقال :

— أشد قسوة من ذى قبل • ألا ترين ذبول وجهى لجفائها ؟

قالت بث ، وهى تنظر الى اللفافة باهتمام :

— أسمعنا آخر نكتة يا لورى ، وأنت يا ميج افتحى هذه اللفافة لنرى ما فيها •

وفك لورى أربطة اللفافة ، وأخرج منها لعبة على شكل حارس يحمل جرسا • فضج البنات بالضحك • قال الفتى :

— انها شىء مفيد للبيت فى حالة الحريق ، أو عند وجود اللصوص ، فحينما يغيب جون يا ميج ، وتشعرين بالخوف ، ما عليك الا أن تدفعى بهذا الجرس الى النافذة الأمامية ، فيوقظ رنينه الجيران فى لحظة خاطفة • فكرة جميلة ، أليس كذلك ؟

Twitter: @ketab_n

وهز الجرس يجربه ، فانطلق منه رنين عال يكاد يصم السمع ، فأسرعت البنات الى آذانهن يغطينها بأيديهن • قال :

— انه رمز اعتراف بجمائلك الكثيرة يا ميج ، والحديث عن الاعتراف بالجميل يذكرنى بأنك مدينة بالشكر لحنا ، لأنها أنقذت كعكة العرس من الدمار ، فقد رأيتها ، وأغرانى شكلها الجميل بانتزاع قضمة كبيرة منها ، ولكن حنا تصدت لى ، ودافعت عن الكعكة دفاع الأبطال •

فقالت ميج بلهجة الأم العجوز :

— ان تصرفاتك الصبيانيــة تدهشنى يا لورى ، ألا تكبر أبدا ؟ !

أجاب الفتى ، وقد كاد رأسه العالى يمس الثريا المدلاة من السقف :

— انى أبذل جهدى يا سيدى ، ولكنى لا أستطيع أن أنمــو أكبر من هذا ، وأخشى أن الستة الأقدام التى بلغتها طولا ، هى أقصى ما يمكن أن يصل اليه رجل فى هذه الأيام السيئة •

ثم قال معقبا :

— ان تناول الطعام فى هذا العش المزدهر الجميل انتهاك لقداسته ، ولمــا كنت فى منتهى الجوع ، فأنا أقترح تأجيل الجلسة •

قالت ميج ، وهى تسير مبتعدة :

— أنا وأمى سننتظر عودة جــون ، ولا يزال أمامنا بعض الأشياء التى تحتاج الى التنسيق •

وقالت آمى ، وهى تضع قبعة جميلة فوق خصلات شعرها الذهبى :

— أما أنا وبث فسنذهب الى كيتى بروان لنحضر مزيدا من الزهور لحفلة لغد •

Twitter: @ketab_n

فالتفت لورى الى جو وقال :

— تعالى معى يا جو ، ولا تدعينى وحدى ، فأنا غاية فى الانهاك والتعب ، وليس فى مقدورى أن أذهب الى البيت دون مساعدة . لا تخلعى مرولتك غانها غاية فى الأناقة .

ولم تأبه جو لكلامه ، ومدت له ذراعها يتكىء عليها فى سيرة المنهك ، ثم قالت :

— تيدى ، لى معك حديث جدى عن حفلة غـد : أريد أن تسلك سلوكا حسنا ، ولا تقطع الزينات المعلقة ، ولا تفسد شيئا مما أعددناه ، فهل تعدنى بذلك ؟

قال :

— وهلا تريدين أن أفرح أيضا ؟

قالت :

— المجال لا يسمح بالمزاح ، فيجب أن نكون جادين .

قال :

— لا أستطيع أن أكون جادا أبدا : فليس الجد من طبعى بل من طبعك أنت .

قالت :

— ثم أرجوك أن لا تنظر الىّ فى أثناء الحفل وإلا ضحكت .

Twitter: @ketab_n

قال :

— لن ترينى فى أثناء الحفل ، لأنك ستكونين مشغولة بالبكاء ، وسوف تغشى الدموع عينيك فلا تتبينين شيئا مما حولك .

قالت :

— أنا لا أبكى أبدا إلا فى المصائب الكبرى :

قال بابتسامة ذات مغزى :

— كأن يذهب صديقى الى الكلية مثلا ؟ !

قالت :

— لا تكن مغرورا ، فما بكيت لرحيلك إلا تضامنا مع أخواتى .

قال :

— أصبت يا جو ، ولكن خبرنى بالله عليك ، كيف كانت أحوال جدى هذا الأسبوع ؟ أكان طيبا هادئا ؟

قالت فى جدة :

— جدا .. ولكن لم هذا السؤال ؟ هل وقعت فى مأزق وتريد أن تعرف وقع الأمر عليه ؟

وتوقف لورى عن المسير : وقد بدا عليه الألم ، قال :

— أتعتقدين يا جو أننى كنت أجرؤ على النظر الى أمك ، إذا كان فى الأمر شىء ؟

قالت :

— لا .. لا أعتقد ذلك .

Twitter: @ketab_n

وارتاحت نفسه للهجتها الصادقة ، وقال وهو يواصل سيره :

ـ إذا لا تبالغى فى الشك ، فلا أريد من جدى سوى بعض المال •

قالت :

ـ إنك تسرف فى إنفاق المال يا تيدى •

قال :

ـ إنى لا أنفق شيئا ، ولكن النقود تذهب قبل أن أشعر بوجودها •

قالت جو بحرارة :

ـ إنك سخى كريم ، لا ترد عن بابك محتاجا : وليس من طبعك أن ترفض رجاء لأحد • لقد سمعنا بما فعلته لصديقك هانشو ، ولن تجد من يلومك إذا كنت تنفق مالك فى مثل هذه الوجوه الكريمة •

قال :

ـ لقد خلق هانشو من الحبة قبة ، وما كنت ترضين لى أن أترك صديقا يلقى بنفسه الى التهلكة من أجل جنيهات قليلة • إنه فتى نبيل ، يساوى عشرات من أمثالنا نحن الكسالى المترفين ، أفكان يصح أن أتخلى عنه فى محنته ؟

قالت :

ـ كلا بالطبع ، ولكنى لا أرى جدوى فى شرائك سبعة عشر صدارا ، وما لا يحصى من أربطة العنق ، ثم قبعة جديدة فى كل مرة تعود الى البيت • ظننت أنك جاوزت مرحلة المبالغة فى التأنق ، وتخلصت من آثارها الغرور ، ولكن الداء يعاودك أحيانا فى أشكال متجددة ، كأن تصفف شعرك كالعبيد ، أو تلبس سترة ضيقة أو تختار قفازات برتقالية اللون ، أو تسير

Twitter: @ketab_n

بحذاء عجيب الطراز . ولو كانت هذه « المودات » القبيحة رخيصة النفقات ما قلت شيئا ، ولكنها تكلفك مالا كثيرا ، وهو أمر لا يسر .

وانفجر لورى ضاحكا ، ومال رأسه الى الوراء . فسقطت قبعته الواسعة على الأرض ، وداست عليها جو ، وقد انتهز فرصة هذه الإهانة ، فراح يمدح مزايا الملابس الخشنة الجاهزة ، ثم قال وهو يطوى القبعة ويدسها فى جيبه :

— دعى الوعظ والإرشاد ، فقد نلت كفايتى من النصائح هذا الأسبوع وأحب أن أمتع نفسى بالهدوء حين أعود الى البيت . أعدك بإصلاح شأنى ، حتى يرضى عنى الأصدقاء .

فقالت جو فى عنف :

— اترك شعرك ينمو ، أتركك فى سلام . أنا لست أرستقراطية ، ولكنى لا أحب أن يرانى الناس مع رجل يشبه المصارعين .

ولم يكن لورى مغرورا بطبعه ، وإن كان قد ضحى فى سبيل الأناقة بشعره المجعد الجميل ، فقال يقنعها :

— الشعر القصير يناسب الحياة الدراسية ، ولذلك ارتضيته . ثم خفض صوته ، وقال بلهجة الأخ الأكبر :

— على فكرة يا جو ، لقد غرق باركر الصغير حقيقة فى حب آمى ، وأصبح يفرض فيها الشعر ولا يمل من الحديث عنها ، وأحيانا يشرد باله من أجلها بشكل يدعو الى القلق . ألا ترين من الأفضل أن يقضى على عواطفه هذه فى مهدها ؟

Twitter: @ketab_n

وبدا الاستنكار على جو ، كأنما آمى وباركر ليسا فى أوائل الحلقة الثانية من عمرها • قالت :

ــ طبعا ، يجب أن نقضى على هذه العاطفة ، فنحن لا نريد زواجــا جديدا فى الأسرة قبل مضى سنوات • ترى ماذا يظن هؤلاء الأولاد بنا ؟ رحمتك يارب !!

وهز لورى رأسه أسفا على ضيعة الأخلاق فى هذا الزمن ، ثم قال :

ــ إن الوقت يمر سريعا ، ولست أدرى الى أى نهاية نصير • إنــك ما زلت طفلة ، ولكن دورك آت عن قريب ، وسوف نبقى بعدك وحدنا ، ولا رفيق لنا إلا الحزن والنحيب •

قالت :

ــ لا تخف ، فشكلى أبعد ما يمكن عن الجمال ، ولن يرغب أحــد فى الزواج بى ، وهى نعمة من الله ، إذ لابد أن تبقى فى البيت عانس من أفراد الأسرة •

فقال لورى ، وهو يسترق النظر إليها ، وقد صعد الدم الى وجهه الأسمر :

ــ إنك لا تعطين أحدا فرصة التودد إليك ، ولا تهتمين بإظهار النواحى اللطيفة فى شخصيتك ، وإذا لاحظ صديق هذه النواحى من تلقاء نفسه ، وأبدى إعجــابه بك ، تقابلينــه ببرود ، ثم تبعــدينه فى عنف ، كأنك شوكة لا يصح أن ترى أو تمس •

قالت تغير الموضوع وقد بدا التحدى فى وجهها :

ــ دعك من الحديث فى هذا الموضوع ، فأنا لا أميل إليه ، وعندى

Twitter: @ketab_n

من المشاغل ما يقيني التفكير في سخافات العواطف ، وأعتقد أن فصم عرى الأسرى بهذه الطريقة أمـر فظيع ؛ كفانا مـا حدث بزواج ميج ، فقـد أصبحنا ولا حديث لنا إلا عن الحب والمحبين . ليس في نيتي أن أخاصمك اليوم ؛ فخير لنا أن نتكلم في أمر آخر .

ومهما تكن مشاعر لوري في تلك اللحظة ، فقد اختار أن ينفث عما في نفسه بصفير طويل هادئ . وعندما وقف يودع جو عند البوابة قال :

— اذكري كلماتي يا جو ، وتذكري أن دورك يأتي بعد ميج .

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والعشرون

الزفاف الأول

كانت ورود الصيف الزاحفة فوق مدخل البيت ، مزدهرة متفتحة . تستقبل شمس الصباح فى نشوة ، وقد غمرها السرور مثلما غمر الأصدقاء والجيران . والحق أن هذه الورود كانت نعم الجار والصديق ، وقد احمرت خدودها انفعالا ، وهى تتمايل مع النسيم ، وكل منها تهمس فى أذن الأخرى بما رأت . وأطل بعضها من نوافذ غرفة الطعام ، حيث تقام وليمة العرس ، وتسلق بعضها الجدران لينظر من النوافذ العليا الى الشقيقات وهن يساعدن العروس فى ارتداء ملابسها ، أما بعضها الآخر فكان يميل تحية للقادمين والذاهبين فى حديقة البيت ورواقه وبهوه . واشتركت الورود كلها ــ من المتفتحة اليانعة الى البرعم الصغير فى نشر عبيرها العطر ، احتفالا بزواج السيدة النبيلة ، التى طالما أحبتها ورعتها .

وكانت ميج فى هذا اليوم أشبه بوردة من هذه الورود . وجهها يسطع بما فى قلبها من إحساسات حلوة ، وسعادتها تضفى عليها من الرقة والحسن والجاذبية ما يتحدى أروع آيات الجمال . وما كان جمالها فى حاجة الى معونة الحرير أو الدنتلا أو زهور البرتقال ، فكانت تقول : « لا أحب أن أبدو اليوم على غير طبيعتى ، ولا أريد زفافا من الطراز الحديث ، ويكفينى أن يرانى أحبائى وأعزائى ، كما اعتادوا أن يرونى دائما » .

ولقد صنعت ميج ثوب زفافها بنفسها ، وحاكت فيه آمالها الناعمة

Twitter: @ketab_n

وغزلها البرىء ، كما قامت أخواتها بتصفيف شـعرها الجميل ، وقنعت العروس من الزينة بزنبقات بيضاء جاءتها هدية من جون •

ولما أكملت زينتها ، صاحت آمي وهي تتأملها بسرور بالغ :

— إنك تبدين كما كنت دائما ، أختنا الحبيبة ميج ، وقد ازددت جمالا وبهاءً ودلالا ، فدعيني أقبلك ، إذا كان هذا لا يفسد ثوبك •

قالت :

— وهذا يرضيني تمام الرضا ، فعانقتني وقبلتنى واحدة فواحدة ، ولا تأبهن بثوبي ، فبودى لو كثرت التجاعيد فيه بسبب حبكن العظيم •

وفتحت ميج ذراعيها لشقيقاتها ، فلذن بصدرها مشرقات الوجوه ، واستنفد العناق فترة : أحس الفتيات فيها أن حبها لجون لم ينل من حبها لهن ، ولم يضعف قليلا أو كثيرا من إخلاصها لأسرتها •

قالت :

— سأذهب لأساعد جون فى وضع رباط عنقه ، ثم أجلس مع أبى بضع دقائق فى المكتبة •

وأسرعت تؤدى الواجبين ، ثم راحت تتبع أمها حيث تذهب ، مدركة أنه على الرغم من الابتسامة التى تعلو وجهها ، فإن الحزن يعتصر قلبها ، لخروج أول طائر من عشها ، والألم يغشى نفسها لقرب فراق ابنتها •

ولننتهز فرصة انشغال الفتيات بتزيين أنفسهن ، وتنظيم هندامهن ، فنتحدث قليلا عما فعله مرور الأعوام الثلاثة ، من تغـير فى مظهـرهن الخارجي : كان شعر جو قد طالت خصلاته وغزرت واسترسلت ، وأصبحت ملائمة لرأسها الصغير وعودها الفارع ، وكانت مفاصل ساقيها قد قويت ،

Twitter: @ketab_n

فاستطاعت أن تحمل ثقل جسمها فى سهولة ويسر ، ولكن بغير رشاقة . واصطبغ خدها بنضرة الشباب ، ولمع فى عينيهـا بريق هادىء ، ولان لسانها الحاد فى هذا اليوم ، فلم يعد ينطق إلا بالألفاظ الرقيقة .

وكانت بث قد ازدادت ذبولا ونحولا ، وهدأت كثيرا عما كانت عليه من قبل ، واتسعت عيناها الجميلتان الرحيمتان ، وانبعثت منها نظرات ليس فيها أثر للحزن ، وإن كانت تدعو الى الاشفاق . وكانت مستبشرة بتماثلها للشفاء ، لا تشكو ولا تتذمر ، ولكن نظراتها تلك ، كانت مـرآة صادقة لآلام دفينة ، تحاول أن تخفيها عن أهلها .

وكانت آمى زهرة الأسرة اليانعه ، فقد اكتملت أنوثتها ونضجت ، رغم أنها لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها . ولم تكن جميلة فى الواقع ، ولكنها كانت على قسط كبير من الجاذبية والرشاقة ، ينبعث حسنها الحقيقى من حركاتها ، وتكوين يديها ، وانحناءات جسمها ، وتموج ثوبها ، وتهدل شعرها . ولم تكن آمى تدرك مدى جاذبيتها ، التى تفوق الجمال فظلت على عهدها حزينة لأن أنفهـا لم يتحـول الى الشكل الرومانى الـذى تشتهيه . وكذلك لاتساع فمها وبروز ذقنها ، وكانت هذه التقاطيع التى تضيق بها ، هى مبعث سحرها الفياض ، ولكنها لـم تلتفت الى هـذه الحقيقة ، وراحت تعزي نفسها بنعومة بشرتها ، وزرقة عينيها ، وغزارة شعرها الذهبى .

وارتدت الفتيات الثلاث أفضل ثيابهن الصيفية ، وكانت مصنوعة من الحرير الفضى الداكن ، وحلين شعورهن وصدورهن بالورود الحمراء ، فبدَون فى ذلك اليوم الخالد ، جميلات مشرقات بغير تصنيع أو إفراط فى الزينة .

وكانت مراسيم الزفاف بسيطة ، وكل ما فى الحفل طبيعى ، وأحوال

Twitter: @ketab_n

البيت تسير فى طريقها المعتاد ، حتى انزعجت العمة مارش ، حين رأت العروس تهرول الى لقائها مرحبـة ، والعريس يثبت بيديـه إكليلا من الزهور ، ثم شاهدت الأب يصعد السلم وقد تأبط زجاجتين من النبيذ وراعتها هذه التصرفات المستهجنة ، وضايقها أن يخرج أقاربها على المألـوف ، فصاحت بالعروس وأهلها تقول :

— والله إن تصرفاتكم أعجب ما يكون . أما أنت يا فتاة ، فما كان ينبغى أن تظهرى أمام المدعوين إلا فى اللحظة الأخيرة .

فقالت ميج :

— إنى لا أستعرض نفسى يا عمتى ، ولن يأتى من ينتقد ثوبى ، أو يقدر تكاليف عرسى ، وسعادتى أعظم من أن أقيم وزنا لما يقول الناس عنى أو يظنون بى . إنى أحتفل بزواجى على أسلوبى الخاص .

ثم التفتت الى جون ، الذى كان مشغولا بتثبيت إكليل الزهور ، وقالت :

— إليك مطرقتك يا عزيزى جون .

ثم أسرعت اليه تساعده فى عمله الذى ما كان يجب أن يقوم به عريس موقر ، ولم يقل مستر بروك لميج « شكرا » ، ولكنه حين انحنى ليأخذ المطرقة قبل العروس الصغير خلف الباب ، ونظر اليهـا نظـرة مؤثرة ، جعلت العمة مارش تخرج منديلها ، وتمسح به الدمـوع التى غمرت عينيهـا .

وعلا صوت ارتطـام ، صـاح بعـده لورى وضحك ، ثم قال مستنجدا :

Twitter: @ketab_n

— يا للسماء !! لقد قلبت جو الكعكة مرة ثانية •

وساد البيت هرج قصير ، انتهى بوصول وفد من الأقارب والأصحاب •

وعندما ازدحمت الغرفة بالمدعوين ، وعلا رأس لورى فوق رءوس الموجودين ، همست العمة العجوز فى أذن آمى تقول :

— لا تدعى هذا الشيطان الصغير يقترب منى ، فهو يضايقنى أكثر مما يضايقنى البعوض •

أجابت آمى :

— لقد أخذنا عليه وعدا بالهدوء ، وفى مقدوره أن يكون عاقلا ان أراد •

وتسللت الى الفتى تحذره ، ليحتاط لنفسه من غضب التنين العجوز ، ولكن التحذير أغراه بمعاكسة العمة ، فسار خلفها يتودد اليها ، حتى ضاقت به أشد الضيق •

ولم يكن هناك موكب للعرس ، ولكن حين احتل مستر مارش والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود ، والتفت الأم والأخوات حول ميج ، كأنما كرهن أن يتخلين عنها ، ساد صمت عميق ، ثم بدأ الأب يتلو الطقوس ، وكان بالغ التأثر حتى تخاذل صوته مرارا ، مما أكسب الموقف جلالا ووقارا • واضطرب العريس ، وارتجفت يده ، وتمتم باجاباته فلم يسمعه أحد • أما ميج فقد نظرت الى عينى زوجها مباشرة ، وأجابت فى صوت رقيق : « نعم » ، وقد

Twitter: @ketab_n

بدت آية فى الثقة والطهارة ، مما أثلج صـدر أمها ، ومس قلب عمتها العجـوز •

وأحست جو برغبة شديدة فى البكاء ، ولكنها كانت تعلم أن عينى لورى الماكرتين ترقبانها فى خليط من السرور والانفعال : فكبتت دموعها ، وتغلبت على أشجانها ، وبذلك خرجت من الموقف المؤثر منتصرة •

وظلت بث طول الوقت تخفى وجهها وراء كتف أمها ، أما آمى فقد وقفت مثل تمثال رشيق ، وكانت الشمس تلقى عليهـا شعاعا ذهبيـا مس جبينها الناصع ، وأضاء الزهرة التى تحلى شعرها •

وما ان تمت المراسيم حتى صاحت ميج تقول :

— القبلة الأولى لأمى •

ثم انحنت وطبعت على شفتيها قبلة حـارة من أعمـاق قلبهـا • وكانت العروس خـلال الدقائق التى تلت عقـد الزواج ، أشبه بوردة متفتحة الأكمام ، فأحاط بها الحاضرون يغمرونها بالقبل ، ويتقاضـون منها حقوق المحبة كاملة • ولم يتخلف عن واجب التهنئة أحد ، من مستر لورنس العجـوز الى حنا التى أقبلت تعانقهـا ، وهى تجهش بالبـكاء فى صوت مسموع ، وتقول :

— فليباركك الله يا عزيزتى مائة مرة ، ان كعكة الزفاف لم تصـب بسـوء ، وكل شىء على ما يرام •

وعلى أثر ذلك انفض الحفل ، وترددت عبـارات التهنئة على كل لسان ، وانطلقت ضحكات المرح مدوية ، فكانت أصدق صـدى للفرح الذى يملأ القلوب • ولم يشمل الحفل تقـديم الهدايا ، لأن للهـدايا

Twitter: @ketab_n

كانت قد أرسلت قبل ذلك الى البيت الصغير ، ولم يكن هناك أيضا افطار بالمعنى الصحيح ، ولكن كعكة العرس والفاكهة المزينة بالزهور ، كانت تملأ المكان • وقد ابتسم مستر لورنس والعمة مارش ، وهزا كتفيهما ، حين دارت عليهما الكئوس ، فلم يجدا فيها سوى شراب الليمون والقهوة ، ولم يتكلم أحد فى موضوع الشراب ، حتى ظهر لورى أمام العروس ، وبين يديه صينية محملة بالطعام ، وفى وجهه سيماء الحيرة والتساؤل ، وأصر الفتى على خدمة العروس بنفسه ، ثم همس فى أذنها يقول :

— هل هشمت جو زجاجات الشراب كلها ؟ أظن أننى رأيت بعضها هذا الصباح ، أو لعلى أكون قد توهمت ذلك ؟

فقالت ميج :

— لا ••• لست واهما ، فقد تفضل جدك وأهدانا خير نبيذه ، وكذلك فعلت العمة مارش ، ولكن أبى احتفظ بقدر قليل منه لبث ، وأرسل الباقى الى معسكرات الجنود • وأظنك تعرف أن أبى لا يقدر شرب النبيذ الا فى حالات المرض ، وأمى تكره أن تقدم الخمر فى بيتها •

وكانت ميج تتكلم فى جد ، وكانت تتوقع أن ترى لورى يقطب جبينه أو ينفجر ضاحكا من قولها ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، انما نظر اليها برهة ثم قال :

— انى أحترم هذه المبادىء القديمة ، ولقد شاهدت للخمر أضرارا كثيرة ، تجعلنى أتمنى لو كان للنساء كلهن هذا التفكير السليم •

قالت ميج بلهجة يشوبها القلق :

— أرجو ألا تكون قد تعلمت هذه الحكمة عن تجربة شخصية •

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ لا ... أؤكد لك ، ومع ذلك لا تفرطى فى حسن ظنك بى ، فليس زهــدى فى الخمر عن ايمان بل عن مزاج لا يميل اليها . لقد نشــأت فى بيئة ينساب فيها الشراب كما ينساب المــاء بلا أدنى ضرر ، ولكنى لم أتعلق به من تلقاء نفسى : أما اذا قدمتها لى فتاة جميلة فهل ترين أن أردها ؟

قالت :

ــ ان لم تردها من أجل صالحك ، فليس أقل من أن تردها اكراما لنا . تعال الى جانبى يا اورى ، وعــدنى أن تقلع عن الخمر ، أكمــل جميلك ، واجعل من هذا اليوم أسعد أيام حياتى .

وتردد الفتى لهذا الطلب المفاجىء الخطير ، وكانت ميج تعلم أنه يحترم وعوده مهما تكن النتيجــة ، وكانت تشعر بقوتهــا ، وتحب أن تستخدمها لخير صديقها ، فنظرت اليه فى صمت ، وقــد أشرق وجهها سعادة وايمانا . قالت بابتسامة حلوة .

ــ ان اليوم يومى ، فلا يصح أن ترفض لى طلبا .

وام يقو لورى على الرفض ، فأجاب مبتسما وهو يصافحها باخلاص وحرارة :

ــ أعدك يا مسز بروك .

قالت ميج :

ــ أشكرك شكرا كثيرا ، كثيرا جدا .

Twitter: @ketab_n

ورفعت جو يدها بكوب من عصير الليمون ، تحيى لورى بابتسامة الرضا والاستحسان ، وصاحت به تقول :

— فلنشرب نخب عزيمتك القوية طول العمر يا تيدى •

وشربوا نخب العهد الذى قطعه لورى على نفسه ، وحافظ عليه بايمان على الرغم من المغريات الكثيرة • وقد انتهزت الفتيات بحكمتهن الفطرية هذه اللحظة ، فأدين لصديقهن خدمة جليلة ، ظل يشكرهن عليها طول الحياة •

وبعد الغذاء تفرق المدعوون فى جماعات صغيرة ، يسيرون فى البيت والحديقة ، ويمتعون أنفسهم بالشمس المشرقة فى الداخل والخارج • وتصادف أن وقفت جو وميج معا وسط رقعة مغطاة بالحشائش الخضراء ، فطرأت لذهن لورى فكرة لطيفة كانت خير ختام لهذا الحفل البسيط • صاح بالحاضرين قائلا :

فايمسك المتزوجون كل بيد الآخر ، ويدور الزوجان حول العروسين راقصين كما يفعل الألمان ، أما العزاب ، فيرقصون أزواجا خارج الحلقة

ثم أمسك بيد آمى ، وجعل يرقص معها بخفة ورشاقة ومرح ، فحذا الباقون حذوهما دون اعتراض • وبدأت الحلقة بمستر ومسز مارش ، ثم بالعم والعمة كارول ، وانضم الآخرون سريعا ، حتى سالى موفات ، فبعد أن ترددت قليلا ، دفعت نِد الى الحلقة ، واشتركت فى الرقص • وكان ألطف ما فى هذه اللعبة المرحة أن تقدم مستر لورنس من العمة مارش العجوز ، يدعوها الى مراقصته ، فما كان منها الا أن تأبطت عصاها ، وهبت فى نشاط ترقص حول الزوجين • ودار الرقص فى الحلقة ، وانتشر

الشباب فى أرجاء الحديقة ، كأنهم فراشات جميلة تمرح فى ظهيرة يوم من أيام الصيف .

وأخيرا تعب الراقصون ، فركنوا الى الراحة وهم يلتقطون أنفاسهم ، وكان هذا خير ختام للحفلة المفاجئة ، التى جاءت دون سابق اعداد .

قالت العمة مارش لميج ، وهى تهم بالانصراف :

— أرجو لك الخير يا عزيزتى ، أرجو لك الخير من صميم قلبى ، ولكنى أعتقد أنك ستندمين على هذا الزواج .

ثم قالت للعريس ، وهو يقودها الى العربة :

— لقد فزت بكنز ثمين أيها الشاب الصغير ، فبرهن على أنك جدير بـــه .

وقالت سالى موفات لزوجها ، وهما يتجهان لمركبتهما الفاخرة :

— هذا أجمل عرس شهدته منذ عهد طويل يا ند ، ولست أدرى سر جماله ، وقد خلا من كل تنظيم واعداد .

وقال مستر لورنس العجوز ، وهو يتحسس جوانب كرسيه المريح .

— اسمع يا لورى ، يسرنى أن تندمج فى مثل هذا النوع من الحياة ، فاختر لك شريكة من أولئك الفتيات الصغيرات ، وبذلك تسعدنى وترضينى .

فقال اورى ، وهو ينزع الوردة التى وضعتها جو فى عروة سترته ، وقد تمثلت فى لهجته الطاعة على غير العادة :

— سأبذل جهدى فى ارضائك يا سيدى .

ولم يكن عش الزوجية بعيدا ، فسار العروسان عليـــه مشيا على

Twitter: @ketab_n

الأقدام ، وكانت هى رحلة الزواج الوحيدة التى تمتعت بها ميج • وعندما خرجت الفتاة من بيت أبيها ، فى ثوب ملون وقبعة بيضاء ، أحاط بهـا الأهل والأصدقاء ، يودعونها بحرارة ، كأنما هى فى طريقها الى رحلـة طويلة • والتفتت اليهم ميج شاكرة ، ثم تعلقت بأمها وهى تقـول فى صدق واخلاص :

ـ أرجو ألا تشعرى بأنى تركتك يا أماه ، ولا تظنى أن حبى لجون نال من حبى لك •

وانثنت الى أبيها تقول :

ـ سأزوركم كل يوم يا أبى ، وأرجو ألا تضعف مكانتى فى قلوبكم بعد الزواج ، وسنقضى مع بث أوقاتا طويلة جميلة ، وستأتينى الفتيات الأخريات بين آن وآن ، ليضحكن من جهادى فى ادارة شئون البيت ••• شكرا لكم جميعا على ما هيأتم لى من زفاف سعيد ••• ومع السلامة ••• مع السلامة •••

ووقفوا يرقبونها بوجوه ممتلئة بالحب والأمل والفخار ، وتبعتها عيون الوفاء ، وهى تسير مستندة الى ذراع زوجها ، والزهـور ملء يديها ، وشمس الصيف تضىء جبينها المشرق السعيد •

وهكذا بدأت ميج حياتها الزوجية •

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والعشرون

محـــاولات فنيـــة

ليس من السهل على أهل الطموح من الشباب أن يفرقوا بين الموهبة والعبقرية ، فالتفرقة بين هذه وتلك تأتى مع الزمن والتجربة ، وقد حاولت آمى أن تصل الى نتائج مرضية خلال تجاربها الفنية الطويلة ، ولكنها لم تكن تفرق بين الحماســة والوحى الفنى ، فراحت تجرب حظها بجرأة الشباب فى كل درب من دروب الفن • وعندمـــا هبطت حماستها فى فن « الفطائر الصلصالية » ، اتجهت الى الرسم بالقلم والمداد ، فكشفت رسومها عن خبرة واستعداد • ولكن الجهد أرهق عينيها ، فهجرت القلم والمــداد الى محاولة جديدة جريئة ، هى النقش على الخشب بالمكواة الحارقة •

وظلت الأسرة طوال هذه النوبة الفنية الجديدة ، فى رعب دائم من الحريق ، وكانت رائحة الخشب المحروق تفوح فى أرجــاء البيت على الدوام ، والدخان يتصاعد من حجرة السطح بشــكل مزعج • وكانت المكاوى المتوهجة متناثرة هنا وهناك ، ولم تكن حنا تأوى الى فراشها الا وبجانبها دلو من المــاء وناقوس العشاء ، لتستعملهما اذا شبت النار • وأسفر نشاط آمى عن جهود فنية عظيمة : فعلى لوح العجين نقش وجـه روفائيل الرسام الشهير ، وعلى فوهة أحد براميل البيرة أطل باخـوس اله الخمر وعلى آنية السكر ظهرت صورة طفل يغنى ، هذا الى محاولات كثيرة لرسم روميو وجوالييت فى كل من أركان البيت •

وكان طبيعيا أن تنتقل الفنانة الصغيرة الى الرسم بالزيت ، بعد أن أصــابت المكواة أصابعها الجميلة بحروق كثيرة ، فوضعت همها فى فنها

Twitter: @ketab_n

الجديد ، انصرفت اليه بهمة لا تعرف الكلل • وأعطاها صديق فنان بعض الاطباق والفرش والألوان التى استغنى عنها ، فبدأت تخلط الألوان وترسم منها مناظر برية وبحرية لا تشبه شيئا فى البر أو البحر • وكانت تبالغ فى تصوير المواشى ، فترسم الحيوانات ضخمة تستحق أعظم الجوائز فى أى معرض زراعى ، وكانت ترسم السفن فى أوضاع خطيرة ، تبعث دوار البحر فى رءوس أكثر البحارة خبرة بالملاحة ، هذا الى الأخطاء المضحكة ، التى تدل على جهلها التام بأبسط القواعد المعروفة فى بناء السفن •

وكانت صور الفتيان السمر ، والراقصات ذوات العيون السود ، توحى اليك بطريقة موريالو الرسام ، وكانت الظلال الداكنة فى الوجوه بما عليها من خطوط وضعت فى غير موضعها الصحيح ، تذكرك بأسلوب الرسام رامبراندت ، كما باتت جهودها فى محاكاة روبنز بتصويرها نساء سمينات وأطفالا منتفخى الأجسام • وظهرت تجاربها فى الاقتداء بتيرنر فى رسم العواصف العامرة بالرعد الأزرق والصواعق البرتقالية والمطر البنى والسحب القرمزية ، التى وضعت فى وسطها بقعا طماطمية اللون ، قد تدل على الشمس ، أو تدل على قميص بحار ، أو ثوب ملك حسبما يسر الناظر الى الصورة أن يعتقد •

وانتقلت من الرسم بالزيت الى الرسم بالفحم ، فصنعت صورا لجميع أفراد العائلة ، وعلقتها على الحائط فى صف واحد ، ولكن نظرات العيون التى رسمتها كانت زائغة ، وكانت الوجوه مغبرة كأنما خرج أصحابها لتوهم من صندوق الفحم • وحين استبدلت الفحم بالقلم ، تحسنت الصور ، واقترب الشبه من الحقيقة ، فأتقنت التعبير عن شعر بث وأنف جو وفم ميج وعينى لورى • وأعقب الفحم عود الى فن الطين والصلصال ، فملأت آمى أرجاء البيت بتماثيل ممسوخة

Twitter: @ketab_n

لأصدقائها ومعارفها ؛ وكان بعض هذه التماثيل يسقط على رءوس الناس من فوق الرفوف التى ازدحمت بها واتخذت من الأطفال نماذج لتماثيلها ، حتى ضاق الأطفال ذرعا بأفعالها الغريبة ، فأطلقوا عليها اسم « الغولة الصغيرة » • ولما لم تجد نماذج جديدة ، بدأت تصنع تماثيل لقدميها الجميلتين ؛ وكانت هذه خاتمة نشاطها ، اذ حدثت لها حادثة جعلتها تكف عن هذا العمل الفنى : كان ذلك يوم روعت أفراد الأسرة بصراخها الشديد ، وسمعوا استغاثتها آتية من المرسم ؛ فلما أسرعوا اليها يتبينون الخبر ، وجدوا المثالة النشيطة تحاول عبثا أن تخرج قدمها من قصعة الجبس الذى تجمد حولها فى سرعة غير منتظرة • وبصعوبة شديدة أمكن تخليص قدمها بعد أن تعرضت لبعض الخطر ، فقد غاصت مدية جو فى العجينة المتجمدة وجرحت آمى ، وهكذا تركت على القدم الجميلة ندبة تحمل ذكرى دائمة للمحاولة الفنية الفاشلة •

وبعد أن هدأ نشاط آمى بعض الوقت ، عادت فغلبت عليها نوبة جديدة للرسم من الطبيعة ، فلازمت النهر والحقول والغابة ، تنقل عنها مناظرها الخلابة • وكانت تسعى وراء الخرائب فى كل مكان ، فتصورها ارضاء لنزعتها الفنية ، وطالما تعرضت للبرد الشديد وهى جالسة على الحشائش الرطبة تلتقط منظرا من هنا ومنظرا من هناك • وكان يستهويها شكل الصخور المتجمعة ، وبقايا جذوع الاشجار ، ونبات « عش الغراب » ، والسماء الملبدة بالغيوم ، فترسمها على الورق ، غير آبهة لتقلبات الجو ، حتى بلغ تحمسها لفنها ، أن حرقت أشعة الشمس بشرتها ، وهى تذرع النهر فى قاربها ، لدراسة الأضواء والظلال •

Twitter: @ketab_n

واذا كانت العبقرية هى الصبر الخالد ، كما يقول ميكائيل أنجيلو ، فقد كان لآمى من هذه المنحة الآلهية نصيب مذكور ، لأنها صبرت وثابرت ، على الرغم من العوائق والعقبات ، وصورت الفشل والسخرية والاستهانة ، التى صادفتها فى جهادها ، وسارت فى طريقها ، وهى شديدة الايمان بأن سيأتى اليوم ، الذى تنتج فيه شيئا خليقا بخلود الفن الرفيع •

ولم تقصر آمى جهودها على الرسم ، انما تعلمت فى الوقت ذاته ، وتمتعت بأمور كثيرة ، وكانت قد عزمت فيما بينها وبين نفسها على أنها اذا لم توفق فى فنها ، فلا أقل من أن تكون امرأة كاملة جذابة • ونجحت آمى فى هذه الناحية أكثر من نجاحها فى الرسم ، لأنها كانت من أولئك المخلوقات السعيدات ، اللواتى يفضن على ما حولهن بهجة بغير جهد ، فيجتذبن الأصدقاء فى كل مكان ، يملأن الأجواء سرورا ومرحا • كانت واحدة ممن يأخذن الحياة بسهولة يحسدهن عليها من هن أقل حظا ، وينسبن ذلك الى أنهن ولدن تحت نجم طالعه سعيد •

كان كل انسان يحب آمى ، فمن مزاياها أنها كانت تعرف بفطرتها ما يسر غيرها ، وتدرك ما ينبغى أن يقال لهم ، ولذلك كانت تضع كل شىء فى موضعه ، وتخاطب كل شخص بما يرضيه ، وتتصرف بما يناسب الزمان والمكان على أحسن وجه وأتمه • وكانت آمى قادرة على ضبط نفسها ، كما كانت لبقة واسعة الحيلة ، حتى ان أخواتها اعتدن أن يقلن عنها : « ان آمى اذا ذهبت الى قصر ملك ، دون اعداد سابق ، وبغير تدريب على ما ينبغى أن تفعل هناك ، ففى مقدورها أن تحسن التصرف من تلقاء نفسها ، وتسلك المسلك اللائق لمثل هذا الموقف » •

وكانت احدى نواحى ضعفها ، رغبتها فى الظهور ، وحبها للاختلاط

Twitter: @ketab_n

بأرقى المجتمعات ، دون فهم يروق لهـا سوى المـال والجاه والأزياء الحديثة والسلوك الأنيق • وكانت تميل دائمـا الى مصاحبة من تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولكن كثيرا ما كان يختلط عليهـا الأمر ، فتخـدع بالغث عن السمين ، وتعجب بما لا يستحق الاعجاب • ولم تكن تنسى أبدا أنها سيدة عريقة الأصل ؛ لذلك ظلت حريصة على تنمية ذوقهـا ومشاعرها الأرستقراطية ، حتى اذا سنحت لها الفرصة يوما ؛ كانت على أتم استعداد لتأخـذ مكانها الذى سلبها اياه الفقر فى العهود الأخيرة •

وكانت « السيدة » كما كان يدعوها أصدقاؤها ، ترغب صـادقة فى أن تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، وفى الحق أنها كانت فى جوهرها ومعدنها تلك السيدة الأصيلة • ولكن الحكمة كانت تنقصها ، لتـدرك أن المـال يستطيع أن يخلق الأصل العريق ، وأن الألقاب لا تضفى على أصـحابها نبل المحتـد : وأن حسن التربية وطيب العنصر ، ينمان عن نفسـيهما ، ولا يمكن لعوامل الفقر أن تخفيهما •

ودخلت آمى على أمها ذات يوم تقول وعلى وجهها سيماء الاهتمام :

ـ ماما ، أريد أن تسدى إلىّ معروفا •

أجابت الأم ، وكانت لا تزال آمى فى نظرها طفلة ، بالرغم من مظهر العظمة الذى تبدو فيه :

ـ حسنا يا فتاتى الصغيرة ، ماذا تريدين منى ؟

قالت :

ـ ان دروس الرسم تنتهى فى الأسبوع القـادم ، وأود أن أدعو

Twitter: @ketab_n

زميلاتى لقضاء يوم معى : قبل أن تفرقنا عطلة الصيف ، فهن متلهفات على رسـم النهر والقنطرة المحطمة وغـيرها من المناظر التى أعجبتهن فى كراستى • لقد كن كريمات معى فى مواقف كثيرة ، ولم يقمن بينى وبينهن فروقا ، رغم فقرى وثرائهن ، وأشعر أننى مدينة بالشكر لهن •

قالت مسز مارش ، تسأل ابنتها فى كبرياء :

ـ ولماذا يقمن الفروق ؟

قالت آمى :

ـ لأن هناك فروقا يا أماه : وهذه الفروق قائمة فى نظر كل إنسان تقريبا ، فلا تغضبى ، كما تغضب الدجاجة حين ترى فراريجها الصغيرة تنقرها طيور أرقى منها • أنت تعرفين قصة البطة الدميمـة ، التى نمت فصارت بجعة جميلة •

وضحكت آمى بلا مرارة ، لأنها كانت بطبعها ذات هـدوء ومـرح وتفاؤل •

وضحكت مسز مارش ، وقد هدأت كبرياء أمومتها ، ثم قالت :

ـ حسنا يا بجعتى العزيزة ، ماذا تقترحين أن نفعل ؟

قالت :

ـ أحب أن أدعو البنات لتناول الغذاء معى فى الأسبوع القادم ، وأصطحبهن الى الأماكن التى يرغبن فى مشاهدتها ، ونمضى معـا بعض الوقت فى نزهة نهرية ، أريد على العموم أن أقيم لهن وليمة يتجلى فيهـا الفن بأجلى معانيه •

Twitter: @ketab_n

قالت الأم :

— هذا ممكن ، فماذا تريدين فى الغداء ؟ كعك وشطائر وفاكهة وقهوة ؟ هذا يكفى على ما أظن •

قالت الفتاة :

— لا •• يجب أن نقدم لهن لسانا باردا ، ودجاجا مشويا ، وشكولاتة على الطريقة الفرنسية ، ومثلجات لذيذة متنوعة ، فالبنات معتادات تناول هذه الأصناف ، وأود أن يكون الغداء كاملا ممتازا ، بالرغم من أننى أعمل لأعيش •

سألتها أمها :

— وكم عدد البنات ؟

قالت :

— اثنتا عشرة بنتا أو أربعة عشرة على الأكثر ، ولكنهن لن يأتين جميعا •

قالت الأم :

— كان الله فى عنى ، هذا العدد يحتاج الى عربة عامة •

قالت آمى :

— لا تخافى يا أماه ، فلن يحضر أكثر من ست بنات أو ثمان ، وسأستأجر لهن عربة الشاطىء ، وأستعير عربة الرحلات من مستر لورنس •

قالت الأم :

Twitter: @ketab_n

— ولكن هذا يكلفك كثيرا يا آمى •

قالت :

— ليس كثيرا جدا ، فقد حسبت التكاليف ، وسأدفعها كلها من جيبى •

قالت الأم :

— ولكن ، ألا ترين من الأوفق لأولئك الفتيات أن نقدم لهن شيئا غير ما اعتدن عليه ؟ إنهن معتادات تناول الأطعمة الفاخرة كل يوم ، وسيكون أدعى لسرورهن ، أن يأكلن شيئا بسيطا على سبيل التغيير • هذا الحل يرضينا أيضا ، ويكفينا مؤونة الشراء والاستعارة ، وهو مالا نريده ، فليس من المستحب أن نظهر بغير حقيقتنا •

قالت آمى ، وقد بدا عليها الإصرار الذى تريده المعارضة إلا عنادا :

إذا لم أستطع أن أحقق ما أريده ، فلن أقيم الوليمة • أنا متأكدة من قدرتى على القيام بالواجب ، مع بعض المعونة منك ومن أخواتى ، ولست أرى سببا يمنعنى من تحقيق أمنيتى ، مادمت سأدفع التكاليف كلها •

وكانت مسز مارش تؤمن بأن التجربة خير معلم للإنسان ، ولذلك كانت تترك بناتها يتعلمن من الحياة ما يعارضن فى تعلمه منها ، فقالت :

— حسنا يا آمى ، ما دمت قد عقدت النية وتبينت موقفك وحسبت للأمر حسابه ، بحيث لا يكلفك كثيرا من المال ، والوقت والجهد ، فليس عندى ما أقوله بعد ذلك • شاورى أخواتك فى الموضوع ، ولن أتردد فى معونتك على ما تقررين أيا كان •

قالت :

— أنت دائمة رحيمة بى ، فشكرا لك يا أماه •

Twitter: @ketab_n

وخرجت آمى تعرض الأمر على أخواتها ، فوافقت ميج فورا ، ووعدت بالمساعدة ، وعرضت أن تعيرها كل ما فى بيتها من ملاعق الملح • أما جو فقد قطبت جبينها ، ولم توافق على المشروع كله ، ورغضت بادىء الأمر أن تشترك فيه • وكانت آمى قد فاجأتها بالحديث وهى تفكر فى خاتمة مفجعة للقصة التى تكتبها ، فقطعت عليها سلسلة تفكيرها ، وبذلك جعلتها غير مستعدة للحديث فى موضوع الولائم الاجتماعية السخيفة ، قالت :

ـ وما الذى يدعوك الى إنفاق نقودك ، وإرهاق أسرتك ، وقلب البيت رأسا على عقب ، من أجل حفنة من البنات لا يساوين شيئا ؟ ظننت أن فيك من الكبرياء والعقل ما يمنعك من إذلال نفسك لفتيات ميزتهن الوحيدة أنهن ثريات يرتدن الأحذية الفرنسية ، ويركبن العربات المقفولة •

قالت آمى فى غضب ، وكانت على عهدها ، لا تتأخر عن الشجار مع جو ، إذا عرضت لها الفرصة •

ـ أنا لا أذل نفسى لأحد ، وأكره أن تكلمينى بهذه اللهجة ، وليكن فى علمك أن البنات يملن الى صحبتى ، كما أميل الى صحبتهن ، هذا الى أنهن على قدر كبير من العقل والمواهب ، على الرغم من رأيك فيما تسمينه « الموضة السخيفة » • قد لا يهمك أن يحبك الناس ، وقد لا يروقك أن تشتركى فى المجتمعات الراقية ، لتهذبى ذوقك وطباعك ، ولكنى على العكس منك أهتم بكل ذلك ، وأريد أن أستفيد بأكبر قسط ممكن من الفرص التى تسنح لى • سيرى فى العالم إن شئت رافعة الرأس مغرورة ، ثم سمى سلوكك العجيب استقلالا ، أما أنا فليست هذه طريقتى فى الحياة •

Twitter: @ketab_n

وكان فى مقدور آمى ، إذا ما شحذت سنان لسانها ، وأعملت قريحتها ، أن تحسن الكلام ، وقلما كان المنطق السليم يخذلها ، على حين كانت جو تعتز بحريتها ، ولا تهمها التقاليد ، وتبالغ فى ذلك الى حد بعيد ، مما يورثها الهزيمة فى الجدل . وكان تعريف آمى لرأى جو فى الاستقلال ، تعريفا بارعا ، حمل الأختين الأخريين على الضحك ، فـزال التوتر ، واتخذت المناقشة اتجاها مرضيا . وأخيرا قبلت جو ، على غير هواها ، أن تضحى بيوم لأختها المتعاظمة ، وأن تمد يد المساعدة لآمى ، فيما تعتقد أنه عمل فارغ .

وأرسلت الدعوات ، وحدد يـوم الاثنين التالى مـوعدا للحادث العظيم ، وقبلت كلها ، لم تعتذر واحدة من البنات . ولكن الأمور لم تبد مشجعة ، إذ فقدت حنا بشاشتها ، لأن الوليمة ستربك عملها الأسبوعى : وتنبأت بأنه اذا لم يتم الغسل والكى فى موعدهما ، فلا أمـل فى انتظام البيت . وكان شعار آمى ألا شىء يدعو الى اليأس ، ولذلك كانت تنفـذ قراراتها مهما صادفها من عقبات . وكانت أول صدمة أن فشلت حنا فى طهى الدجاج ، فجاء لحما جامدا : وأسرفت فى تتبيل اللسـان ، فكان مذاقه غاية فى الملوحة كما أن الشكولاتة لم تتجمد كمـا يجب ، وزادت تكاليف الكعك والمثلجات كثيرا عما توقعت آمى ، وكذلك جاوزت أجـرة العربة تقديراتها السابقة ، واقتضى الحال مصروفات استثنائية ، بـدت فى أول الأمر تافهة ، ولكنها تضخمت عن الحساب تضخما مزعجا . وأصيبت بث بالبرد فلزمت فراشها ، ووفد على ميج زوار مفاجئون ، فاضطرت الى البقاء معهم فى بيتها ، وكانت جـو شاردة الفكر الى أبعـد حـد ، فزادت أخطاؤها ، وكثر تحطيم الصحون على يديهـا بصـورة خطيرة مزعجة .

Twitter: @ketab_n

ولقد قالت آمي يوما ــ بعد مضى وقت طويل من هذه الوليمــة ، التى أطلق عليها أفراد الأسرة « أحسن نكتة فى الموسم » ــ وكانت ما تزال تذكر دور أمها شاكرة :

ــ لولا والدتى ما استطعت أن أخرج من المحنة بسلام •

وكان الرأى قد اتفق على أن الجو اذا لم يكن حسنا يوم الاثنين ، تؤجل الى اليوم التالى ، وهو ترتيب زاد الأمر تعقيدا فيما يختص بجو وحنا •

وجاء صباح الاثنين بجو قلق لا يستقر على حال ، فكانت السماء تمطر قليلا ثم تسكت ، وتصحو الشمس ثم تختفى ، وتهب الرياح ثم تهدأ ، ولم يلزم الجو حالة واحدة ، ظلت التغيرات تتوالى الى وقت متأخر • وكانت آمى قد استيقظت مع الفجر ، وأخذت توقظ أخواتها من فرشهن ، وتستحثهن على تناول أفطارهن مبكرا ، حتى ينتظم البيت فى الوقت المناسب واستوقفت حجرة الاستقبال نظرها ، إذ بدت قديمة رثة أكثر مما يجب ، فبدلا من أن تكتفى بالحسرة والأسف ، سارعت الى الكراسى ، فوضعتها فوق الأجزاء البالية من البساط ، وأخفت البقع الموجودة على الجدران بصور ذات أطر جميلة ، وملأت الزوايا الفارغة بتماثيل صنعتها فى البيت • وكانت جهودا موفقة ، أضفت على الحجرة رواء فنيًا ازداد رونقا وبهاءً بأصص الزهور التى نثرتها جو هنا وهناك •

وبدا الطعام جذابا ، وتمنت وهى تستعرضه بنظرها أن يكون شهيا ، وتضرعت الى الله من قلبها أن تعود الأوانى الزجاجية والفضية والخزفية ، التى استعارتها لهذه الوليمة ، سليمة الى أصحابها • وصدر الأمر بإرسال العربات ، ووقفت ميج والأم على استعداد لاستقبال المدعوات ، واستطاعت

Twitter: @ketab_n

بث أن تساعد حنا قليلا فى الخفاء ، وحرصت جو أن تبدو لطيفة المعشر ، بقدر ما يسمح به صداعها وشرودها وقلقها . وبينما كانت جـو ترتدى ملابسها فى ملل ، راحت آمى تسلى نفسها ، فتتخيل ما سيحدث فى اللحظة السعيدة . حين ينتهى الغداء بسلام ، فتأخذ صديقاتها فى العربة لقضاء المساء فى نشوة فنية ، وكانت العربة المفتوحة ، والقنطرة المحطمة ، من أهم عناصر النزهة المرجوّة .

ومرت ساعتان فى الانتظار ، كانت فيهما دائبة على التنقل بين غرفة الجلوس والبهو ، وكان الرأى العام العائلى يتغير من لحظة الى لحظة ، فيما يختص بالوليمة . وأمطرت السماء مدرارا فى الساعة الحادية عشرة ، مما أقنع المنتظرات بأن حماسة المدعوات لابد أن تكون قد فترت ، بدليل أن واحدة منهن لم تحضر بعد . ومضى الوقت ولا أثر للمدعوات ، فلما بلغت الساعة الثانية مساءً ، جلست الأم وبناتها فى بقعة مشمسة يأكلن الأصناف السريعة التلف ، حتى لا يضيع شىء من الوليمة هباء .

وفى صباح اليوم التالى ، أيقظت أشعة الشمس آمى من نومها ، فقالت فى نشاط وخفة :

— إن الجو جميل بلا شك ، ولا بد من حضورهن اليـوم . فلنلق نظرة على البيت ، ونستعد لاستقبال المدعوات .

ولكنها كانت تتمنى فى أعماق نفسها ، لو أنها لم تعط ضيفاتها فرصة يوم الثلاثاء أيضا ، بعد أن ضعف اهتمامها بالمأدبة ، وذبلت حماستها كمـا ذبلت كعكتها .

وبعد نصف ساعة ، قدم مستر مارش من الخارج ، وعلى وجهـه مسحة من اليأس الهادىء ، وهمس فى أذن زوجته قائلا :

Twitter: @ketab_n

— لم أجد اليوم سمكا فى السوق ، فلا مفر من الاستغناء عن سلطة المايونيز •

فقالت زوجته :

— يصح أن نستعيض عنه بنسائل من لحم الدجاج ، وإن كانت أخشن من السمك •

فقالت بث لأختها فى أسى :

— لقد تركت حنا الدجاج على مائدة المطبخ ، فالتهمته القطط ، وإنى شديدة الأسف يا آمى •

وكانت بث ما زالت على عهدها مغرمة بالقطط ، وتقتنى عددا مذكورا منها •

فقالت آمى بحزم :

— إذاً لابد من السمك بأى شكل ، فاللسان وحده لا يكفى •

انبرت جو تقول فى نخوة المتشهدات :

— هل أذهب الى المدينة وأشترى سمكة ؟

أجابت آمى ، وقد بدأت تفقد سيطرتها على نفسها :

— ستعودين بها الى البيت : تحملينها تحت إبطك عارية من الورق ، فتثيرين غيظى وحنقى • لا ، سأذهب بنفسى لإحضارها •

وأسدلت نقابا على وجهها ، وحملت فى يدها سلة صغيرة ، وخرجت من البيت وكلها أمل فى أن تهدىء برودة الجو ، فى العربة العامة ، من

Twitter: @ketab_n

روعها : وتعيد إليها نشاطها ، فتحمل متاعب اليوم راضية • واستطاعت أن تحصل على بغيتها بعد عناء غير قليل ، كما ابتاعت زيتا مجهزا للمايونيز حتى توفر الوقت فى البيت بعد هـذا التأخير ، ثم عادت بالعربة العامة مسرورة بما فعلت •

ولما لم يكن بالعربة غير عجوز نائمة فى مقعدها ، فقد رفعت آمى النقاب عن وجهها ، ووضعته فى جيبها ، وراحت تقطع الوقت بمراجعة نقودها ومصروفاتها • وانهمكت فى الأرقام التى ملأت الورقة ، فلم تلحظ وجود قادم جديد ، دخل العربة دون أن تقف لركوبه ، ولم تشعر إلا بصوت يهتف بها قائلا : « صباح الخير يا آنسة مارش » ••• فرفعت رأسها الى محدثها ، وإذا بها وجها لوجه أمام أحد أصدقاء لورى المتأنقين • وردت التحية فى عذوبة ورقة ، وهنأت نفسها على أنها ارتدت ثوب الرحلات الجديد ، وتجاهلت تماما سلة السمك الرابضة عند قدميها ، وراحت تتمنى أن يعجل الفتى بترك العربة قبلها • وظلت آمى تتحدث الى السيد فى لهجة متعالية ، وقد استراح بالها حين علمت منه أنه سيغادر العربة قبلها ، وعلى حين غرة قامت السيدة العجوز تتهيأ للانصراف ، فاصطدمت بالباب ، وقلبت السلة رأسا على عقب ، فظهرت السمكة — يا لهول الفضيحة — أمام عينى السيد الوجيه الذى ينحدر من سلالة آل تيودور !

وصاح الفتى وقد ظن أن السمكة للعجوز :

— يا الهى !! لقد نسيت عشاءها !

ثم أخذ يدفع السمكة بعصاه ، حتى أعادها الى مكانها من السلة ،

Twitter: @ketab_n

وأمسك بالسلة يريد أن يعطيها للسيدة العجــوز ، فصاحت به آمى ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا :

— أرجو ألا تفعل ذلك ••• انها سلتى !

فقال الفتى بلباقة تؤكد أدب أبناء الأسرة العريقة :

— أرجو المعذرة •• انها سمكة جميلة لم يسـبق أن رأيت لهـا مثيــلا •

وتنفست آمى الصعداء ، وتمالكت روعهــا من جــديد ، فوضعت السلة فوق المقعد بشجاعة ، وقالت ضاحكة •

— ألا تحب أن يــكون لك نصيب من المايونيز الذى سأصنعه بهذه السمكة وأن تتمتع بصحبة الفتيات الرشــيقات اللاتى سيأكلنها ؟

وكانت عبارتها هذه غاية فى الكياسة والمهــارة ، فقد أرضت بهــا نزوتين من نزوات الشباب ، إذ أحاطت الســمكة بهــالة من المعــانى السارة ، وأثارت فى ذات الوقت اهتمامه بالفتيات الأنيقات ، فأبعدت ذهنه عن الحادث المضحك •

وعنــدما نزل تيودور من العــربة ، وانحنى يودع آمى ، قالت فى نفسها :

— سوف يروى للورى ما حدث ، وســوف يضحكان ما شاء لهمــا الضحك ، ولكن يعزينى أننى لن أراهما وهما يسخران منى •

وحين عادت آمى الى البيت ، لم تذكر الحادث لأحــد ، وان كانت قد اكتشفت فى ثوبها بقعة من الزيت ، الذى سال من الزجاجة عنــدما

Twitter: @ketab_n

انقلبت السمكة ، ولكنها لم تلبث أن شغلت عن البقع باعداد الطعام والاستعداد للوليمة •

وعند الظهر تماما ، كان كل شىء على ما يرام ، وكانت تشعر طول الوقت أن الجيران يرقبونها ، مما جعلها ترجو من كل قلبها ، أن يمحو الله أثر فشلها فى اليوم السابق ، وأن يعوضها عنه بنجاح عظيم • ولم يطل بها الانتظار ، فقد جاءت العربة المكشوفة ، فركبت فيها بعظمة ، ثم ذهبت تحضر ضيفاتها ، وترحب بهن •

قالت مسز مارش وهى تهرع الى البهو :

ـ هذا صوت العربة ، وأظن أنهن وصلن ، وسأذهب الى الردهة لاستقبالهن كما تقضى الأصول ، فانى أرجو أن تقضى طفلتى العزيزة وقتا طيبا ، بعد ما تحملته من متاعب كثيرة •

ولكن ما ألقت نظرة ، حتى عادت أدراجها ، وعلى وجهها أبلغ آيات الأسف ، فقد كانت العربة فارغة الا من آمى وفتاة واحدة أخرى •

وصاحت جو ، وهى تسرع الى الدور الأسفل ، فى انفعال منعها من الضحك :

ـ أسرعى يا بث وساعدى حنا على رفع نصف الأدوات الموضوعة على المائدة ، فليس من المعقول أن تبقى على حالها لفتاة واحدة •

ودخلت آمى البيت غاية فى الهدوء ، وأقبلت بكل جوارحها على ضيفتها الوحيدة ، التى حافظت على وعدها ، وقام أفراد الأسرة جميعهن بأدوارهن فى دقة وبراعة ، ووجدتهن الآنسة ألبوت غاية فى اللطف

Twitter: @ketab_n

والظرف ، فساد الجو شعور مرح ، وتقاسمن الطعام الذى أعيد اعداده ، بسرور بالغ

وزارت الضيفة الاستوديو والحديقة ، وتناقشت بحماسة فى شئون الفن ، ثم استأجرت آمى عربة صغيرة ، وتركت المكشوفة المطهمة وهى آسفة ، وطافت بصاحبتها فى جميع الأماكن المجاورة ، حتى غربت الشمس ، وعندئذ استأذنت الضيفة فى الانصراف ، وبذلك انتهت المأدبة .

وعادت آمى بعد أن ودعت صاحبتها ، وقد علبها الانهاك والاعياء رغم هدوئها الظاهرى ، فوجدت أن آثار الوليمة التعسة اختفت ، ولم يبق منها الا تقطيبة مريبة على وجه أختها جو .

قالت أمها بحنان وعطف ، كأن ضيفات ابنتها لم يتخلفن عن الحضور :

— أرجو أن تكونى قد استمتعت بجولة مسلية بعد الظهر يا عزيزتى .

قالت بث بحرارة :

— ان مس البوت فتاة لطيفة جدا ، وأظن أنها تمتعت بوقتها ونزهتها .

سألتها ميج فى رزانة :

— أتتنزلين لى عن جزء من الكعكة يا آمى ؟ اننى فى الحقيقة ، محتاجة الى بعض منها ، فعندى ضيوف كثيرون ، وليس باستطاعتى أن اصنع كعكة لذيذة مثلها .

قالت آمى آسفة ، وقد جال بخاطرها ما صارت اليه الأصناف الكثيرة اللذيذة التى صنعتها :

ـ خذيها كلها يا ميج ، فليس فى البيت من يحب الحلوى سواى ، وستفسد الكعكة قبل أن آتى عليها .

وعندما جلس أفراد الأسرة ، لثانى مرة فى خلال يومين ، يأكلون ما تبقى من المايونيز والمثلجات ، قالت جو تفتح الحديث :

ـ من المؤسف أن لا يكون لورى معنا ، ليقاسمنا هذا الطعام اللذيذة .

وحدجتها والدتها بنظرة تحذير ، فكفت عن الاسترسال فى ابداء ملاحظاتها ، ومضى الأكل فى جو من الصمت ، قطعه مستر مارش قائلا :

ـ كانت سلطة المايونيز من الأصناف المحببة عند القدماء ، وكانت ..

وهنا انفجرت البنات ضاحكات ، وقطعن على العالم الوقور حديثه عن تاريخ سلطة المايونيز .

قالت آمى ، وهى تجفف دموعها :

احزمى كل شىء ، وضعيه فى السلة ، وأرسليه الى أسرة هاميل . فالألمان يحبون الأكل ، ولقد مللت منظر أكداس الطعام هذه ، ولست أرى داعيا لأن تصيبوا أنفسكم بالتخمة ، بسبب تصرفاتى الحمقاء .

وتنهدت جو ، ثم قالت ضاحكة :

ـ كدت أموت حزنا حين رأيت العربة فارغة الا منكما ، ثم شاهدت والدتى تدلف الى الباب ، لاستقبال الجموع استقبالا رسميا حافلا .

Twitter: @ketab_n

قالت مسز مارش والأسى يملأ قلبها :

— يؤسفنى أن خيب الفتيات أملك يا عزيزتى ، ولكننا بذلنا جميعا غاية جهدنا ، لنرضيك ، وندخل على قلبك السرور .

أجابت آمى ، وفى صوتها رجفة ظاهرة :

— انى راضية كل الرضا ، وعزائى أننى قمت بواجبى ، ولم تفشل الوليمة لخطأ منى . شكرا لكن جميعا ، على جهودكن ومساعدتكن ، وسأكون أكثر شكرا وتقديرا ، لو أمسكتن عن الحديث فى هذا الموضوع ، لمدة شهر على الأقل .

ولم يشر أحد الى الموضوع شهورا عدة ، وان كانت كلمة « وليمة » تثير الابتسام على الشفاه كلها ، وكانت هدية لورى لآمى فى عيد ميلادها ، تعويذة على شكل سمكة صغيرة حمراء .

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والعشرون

دروس فى الأدب

ابتسم الحظ لجو ، كأنما ألقى السعد فى حجرها تعويذة تأتيها بالمال • حقيقة كان نصيبها من المال قليلا : ولكن هذا القليل حقق لها من السعادة الخالصة ما لا يحققه نصف مليون من الجنيهات •

كانت جو قد اعتادت أن تحتجب فى غرفتها بين آن وآن ، فتغلق دونها الأبواب ، وترتدى ثوب التأليف ، وتغرق الى أذنيها فى نشوة الكتابة على حد تعبيرها •

وكانت ، اذا ما أرادت اتمام قصة ، تستغرق فيها قلبا وعقلا : فلا تعرف للهدوء طعما حتى تنتهى من مهمتها • وكان الثوب الذى ترتديه عند الكتابة يتألف من ميئزر صوفى أسود ، تمسح فيه قلمها عند اللزوم ، ثم قلنسوة من النسيج ذاته ، محلاة بنقوش حمراء زاهية : تحشر فيها خصلات شعرها قبل البدء فى العمل • وكانت هذه القلنسوة دليلا يرشد أفراد الأسرة الى حالة جو المعنوية ، فكانوا من وقت لآخر يلقون عليها نظرة من فتحة الباب ، وقد يسألونها عما اذا كانت شعلة العبقرية تضىء كما يجب ، ولكن حركات القلنسوة كانت تغنى عن هـذا السؤال فى أغلب الأحيان : فاذا كانت مشدودة الى أسفل جبهتها ، فتلك علامة الجـد والانهماك ، واذا كانت على جانب من رأسها بانحراف على الأذن ، فمعناه الانفعال والثورة ، أما اذا استعصى الوحى وتوقفت العبقرية ، خلعت جو القلنسوة وضربت بها الأرض • وفى مثل هذه الحالات ، لا يستطيع أى فضولى أن يتدخل فى الأمر ، انما ينسحب فى هدوء ، تاركا جو لحالتها حتى تعود

Twitter: @ketab_n

القلنسوة الى مكانها الطبيعى ، وتستقر فوق حاجبيها الموهوبين مرة أخرى •

ولم تكن جو تؤمن بأنها عبقرية ، ولكنها كانت تنصرف الى الكتابة حين تصيبها نوبة التأليف ، فتعيش فى عالمها سعيدة قريرة العين ، لا تحس بما حولها ، ولا يعنيها شىء أو يشغلها • وكانت تمضى بها الساعات والأيام وهى لاهية بدنياها العامرة بأصدقاء صنعتهم بقلمها ، وتخيلت أنهم أشخاص واقعيون ينبضون بالحياة •

وكان النوم يهجر عينيها ، ولا تجد للطعام مذاقا فى فمها ، فيظل الأكل موضوعا أمامها دون أن تمسه ، وكان الليل والنهار ، خلال فترة الوحى ، أقصر من أن يتسعا لسعادتها الغامرة ، التى تريد أن تتمتع بها أطول وقت ممكن • وكانت هذه السعادة الغامرة تحبب اليها الحياة ، وتجعل للأيام معانى جميلة ، حتى ولو لم تنتج خلالها شيئا ، وكانت فترة الوحى تدوم أسبوعا أو أسبوعين ، ثم تنقضى ، فتخرج جو من نشوتها جائعة أو نعسانة أو غاضبة أو قانطة ،حسب الظروف •

وذات مرة ، عندما كانت جو خارجة لفورها من احدى هذه النوبات ، اضطرت أن تصحب مس كروكس الى احدى المحاضرات العامة ، فجوزيت على ذلك بأن واتتها فكرة جديدة طيبة • كانت المحاضرة درسا عاما عن « الأهرام » ودهشت جو لاختيار هذا الموضوع دون غيره ، ولكنها لم تلبث أن سلمت بما استهدفه المحاضر من اصلاح العيوب الاجتماعية بعرض تاريخ الفراعنة الأمجاد على المستمعين ••• أولئك المستمعون الذين لم يكن يشغلهم من أمور الدنيا سوى أسعار الفحم والدقيق ، ولا يستنفد تفكيرهم غير مشاكل تافهة ، يجعلون منها ألغازا تفوق لغز أبى الهول !!

Twitter: @ketab_n

وذهبت جو ومس كروكس مبكرتين الى قاعة المحاضرة ، وبينما راحت مس كروكس تصلح كعب جوربها ، عمـدت جـو الى تسلية نفسها بالتطلع فى وجوه الجالسين على جانبيها ... رأت الى يسارها سيدتين وقورتين ، لهما جبهتان عريضتان ، وعلى رأسيهما قبعتان مناسبتان لضخامة جسميهما ، وكانت السيدتان تتناقشان فى حقـوق المرأة . وعلى بعـد منهما جلس حبيبان ملهوفان ، تشابكت أيديهما فى منظر لا يقره الـذوق السـليم ، والى جانبهما كانت امرأة سمراء تتلهى بالتهام أقراص النعناع ، وبعدها سيد عجوز استسلم للنوم مغطيا وجهه بمنديل أصفر اللـون مزركش . أما عن يمينها مباشرة ، فلم يكن هناك سوى فتى انهمك فى قراءة مجلة ، وقد بدت على وجهه سيماء الجـد والاهتمام .

وكانت المجلة قصصية مصورة ، فراحت جو تشغل وقتها بالتفرج على صورها ، فأعجبها تسلسل الحوادث المنتظم ، الذى أبرزته تلك الصـور الطريفة : رأت صورة رجل هندى فى كامل عـدة الحرب ، يكاد يسقط فى هوة سحيقة ، وقد أنشب ذئب أنيابه فى عنقه . والى جانب ذلك وقف رجلان غاضبان ، أقدامهما صغيرة جدا فى غير تناسب ، وعيناهما أوسع مما يجب ، وكان كل منهما يطعن الآخـر بسكين ، وفى أسفل الصـورة ظهرت امرأة مشعثة الشعر ، مفتوحة الفم ، تهرول مبتعدة عنهما .

وبينما الفتى يقلب صفحات المجلة ، لحظ أن جـو تنعم النظر فى الصور ، فقدم لها نصف صفحات المجلة ، وهو يقول فى جرأة :

— أتحبين القراءة ؟ هذه قصة ممتازة .

ولم تكن جو قد تغلبت على حبها للتشبه بالفتيان ، فتقبلت منـه المجلة باسمة ، وما كادت تبدأ القراءة ، حتى وجدت نفسها غارقة فى قصة

Twitter: @ketab_n

تفيض كالمعتاد بالحب والغموض والقتل ... أى من ذلك النوع الأدبى الخفيف ، الذى يلجأ المؤلف فيــه الى كوارث تقضى على نصف أبطال القصة ، وتترك نصفهم الآخر يتمتع مسرورا بمصرعهم •

وحين رأى الفتى أنها انتهت من قراءة القصة ، سألها :

ـ قصة ممتازة ، أليس كذلك ؟

أجابت جو مندهشة لاعجابه بهذا اللون الأدبى التافه :

ـ أظن أننا نستطيع أن نكتب مثلها اذا حاولنا •

فقال الفتى :

ليتنى أستطيع أن أفعل ذلك •

ثم أشار الى اسم مسز نورث برى ، مؤلفة القصة ، وقال :

ـ هذه السيدة تكسب كثيرا من تأليف القصص •

سألته جو باهتمام مفاجىء :

ـ أو تعرفها ؟

قال :

ـ لا ، ولكنى أقرأ لها كل ما تكتب ، وأعرف صديقا يشتغل فى ادارة الجريدة •

فنظرت جو باحترام شديد الى الصور التى تمثل المعارك ، والى علامات الاستفهام الكثيرة المنبثة فى جميع أنحاء الصفحة : قالت :

Twitter: @ketab_n

— أحقا تكسب المؤلفة كثيرا من كتابة مثل هذه القصص ؟

قال :

— أظن ذلك ، فهى تعرف النوع الذى يحبه الجمهـور ، وتتقاضى عليه مبالغ كبيرة •

وعندئذ بدأت المحاضرة ، ولكن جو لم تسمع منها الا قليلا ، اذ كانت طـول الوقت مشغولة بأفكارها عما يرويه المحاضر من تاريخ خـوفو ، والجعارين المقدسة : واللغة الهيروغليفية • ونقلت الفتاة عنوان المجلة ، بعد أن عزمت على دخول المسابقة ، التى تنظمها ادارتها ، لأحسن قصة عاطفية مثيرة ، والتى رصدت لها جائزة قدرها مائة دولار •

وحين أنتهت المحاضرة ، واستيقظ المستمعون ، كانت جو قد جمعت لنفسها فى الخيال ثروة طائلة : ولكنها لم تكن بطبيعة الحال أول مرة تحلم فيها بهذا النوع من الثراء • وكانت أيضا قد فرغت من دراسة فكرة قصتها الجديدة التى ظلت مترددة فى خاتمتها ، لا تعرف اذا كان أفضل أن تأتى المبارزة الحاسمة قبل هروب الحبيبين ، أو بعد قتلهما •

وعكفت على العمل دون أن تذكر كلمة عن مشروعها الجديد ، واختفت فى الغرفة على عهدها فى نوبات التأليف ، وكانت أمها تجزع لهذا الاختفاء ، وتقلق حين تشتعل نيران عبقرية جـو •

لم تكن جو قد جربت هذا الأسلوب من قبل ، اذ انحصرت مجهوداتها السابقة فى كتابة قصص غرامية لمجلة « النسر » ، ولكن تجاربها المسرحية ، وقراءاتها المتنوعة ، ساعدتها كثيرا على مهمتها الجديدة ، وأعطتها أفكارا عن القصص المحزنة ، وعلمتها ، بعض أسرار اللغة والملابس • وكانت

Twitter: @ketab_n

قصتها فى هذه المرة ، حافلة باليأس والقنوط ، رغم تجاربها المحدودة فى هذه العواطف المحزنة ، واختارت مدينة لشبونة مسرحا لحوادثها ، وأنهتها بزلزال مروع ظنت أنه خير خاتمة مفجعة • وأرسلت القصة سرا الى المجلة ، وأرفقتها برسالة تقول فيها بتواضع : « انها لا تجرؤ على التطلع الى الجائزة الأولى ، ولكنها ترحب بأى مبلغ تدفعه المجلة ثمنا لقصتها » •

وكان عليها أن تنتظر ستة أسابيع قبل أن تظهر النتيجة ، وكان وقتا طويلا لمن اختارت مثلها أن تطوى صدرها على سرها ، ولا تبوح به لأحد • ولكنها احتملت الانتظار صابرة ، وعندما بدأت تفقد كل أمل فى رؤية قصتها مرة أخرى ، وصل اليها من المجلة خطاب ، حين فضته ، سقط منه الى حجرها شيك بمائة دولار • ومرت لحظة وهى تحدق النظر فى الشيك ، وهى تلهث خوفا وانفعالا ، كأنه ثعبان مرعب ••• ثم تمالكت روعها ، وقرأت الخطاب ، ولما انتهت منه ، انهمرت الدموع من عينيها ، ولو أدرك السيد الطيب الذى صدر هذا الخطاب اللطيف ، كم ستسعد الفتاة به ، ما توانى عن أن يكرس وقت فراغه — اذ كان لديه فراغ — ليمتع نفسه برؤية المنظر الشائق : فقد اغتبطت جو بما جاء فى الخطاب من عبارات التقدير ، أضعاف ما اغتبطت بالشيك ، ووجدت فيها تشجيعا عظيما ، يعوضها خيرا ، عن جهاد السنوات المتتالية ، ويمنيها بمستقبل باهر •

وكانت جو فى تلك اللحظة ، أسعد خلق الله كلهم ، فلما تمالكت روعها ، دخلت على أهلها تحمل الشيك بيد والخطاب باليد الأخرى ، ثم أعلنت لهم خبر فوزها بالجائزة ، فاحتفلت الأسرة بنجاحها العظيم ، وحين نشرت القصة ، قرأها كل فرد منها ، وقرظها أحسن تقريظ • ولكن أباها ، بعد أن امتدح اللغة ، وأثنى على الرواية وما فيها من مأساة تحرك المشاعر • هز رأسه ، وقال بلهجة المجرب :

Twitter: @ketab_n

— باستطاعتك أن تنتجى خيرا من هذا يا جو • انشدى الكمال قبل المـال •

وقالت آمى ، وهى تتطلع بخشوع الى القصة الساحرة :

— أعتقد أن المـال خير ما فى المسألة كلها •

ثم انثنت على أختها تسألها :

— ماذا ستصنعين بهذه الثروة يا جو ؟

أجابت جو دون تردد :

— سأرسل بها بث ووالدتى ؛ ليقضيا شهرا أو شهرين على شاطىء البحر •

وصاحت بث ، وهى تصفق بيديها النحيلتين ، وتزفر زفيرا عميقا كأنها تتنشق هواء البحر العليل :

— ما أبدع ذلك ! ولكنى لست أنانيـة لأقبل مثل هـذه التضحية يا جو •

وتوقفت عن الكلام فجأة ، وأعادت الشيك الى أختها ، وكانت قد أعطته لها : ولكن جو قالت بحزم :

— لابد من ذهابك ، انه الهدف الذى جاهدت لتحقيقه ، وهـو السر الحقيقى فى نجاحى • فما كنت لأنال توفيقا لو أننى حصرت آمالى فى نفسى • كان يشجعنى كثيرا أن أفكر فيكم وأعمل لكم • ثم ان أمى فى حاجة الى التغيير ، وهى لا تستطيع أن تتركك ، ولذلك يجب أن تذهبى •

Twitter: @ketab_n

الا يسرنى جميعا أن تعـودى الينا من المصيف ممتلئة الجسـم متوردة الخدين ؟ مرحى يا دكتور جـو ، أنت والله طبيبة ماهرة تعرفين كيف تعالجين مرضاك .

وبعد مناقشة طويلة ذهبت الأم مـع ابنتها الى شاطىء البحر ، وعادت بث أحسن حالا ، وأن كان جسمها لم يمتلىء ، وخداها لم يتوردا كما كان مأمولا . واعترفت مسز مارش أنها استعادت شبابها ، ورجعت بسنها عشر سنوات الى الوراء . وسرت جو للنتائج التى وصلت اليها بحسن استخدام المـال الذى كسبته ، وعادت الى العمل بنفس مبتهجة ، وقد صممت على اكتساب كثير من هذه الشيكات السارة ، وفعلا كسبت عددا منها فى هذه السنة ، وبدأت تشعر بأنها أصبحت قوة فى الأسرة ، وأن قلمها نجح فى تحويل التوافه التى تكتبها الى مال يسعد أهلها ، ويوفر لهم أسباب الراحة . وأمكنها أن تسدد حساب الجزار من ثمن قصة « ابنة الدوق » ، واشترت سجادة جديدة بقصة « اليد الخفية » ، كما جاءتها « لعنة كوفنترى » بكساء الأسرة وحساب البدال .

لا شك أن المال جميل مرغوب ، ولكن للحرمان أيضا جوانب مشرقة ، أجملها الشعور بالرضا الصادق بما تنتجه اليد ، أو يجود به الفكر . وفى الواقع أننا مدينون لوحى الحاجة : بنصف ما نتمتع به فى هذا العالم من حكمة أو عبقرية أو جمال . وكانت جو أحد هؤلاء الذين أفاء الله عليهم نعمة الرضا ، ولذلك كفت عن حسـد الفتيات الموسرات . وقنعت من لذائذ الدنيا ، بقدرتها على توفير مطالب حياتها ، واستغنائها بكدها عن سؤال الغير .

ولم تثر قصصها فى الواقع اهتماما خاصا . ولكنها ظلت مع ذلك تجد سوقا رائجة ، مما شجعها على اتخاذ خطوة خطيرة أخرى فى سبيل المجد

Twitter: @ketab_n

والثروة . فذات مرة انتهت من نسخ قصتها للمرة الرابعة : وفرغت من قراءتها لأصدقائها المقربين . ثم بعثت بها خائفة الى ثلاثة من الناشرين فلما جاءها الرد بقبول نشرها على شريطة أن تختصرها الى ثلث ما هى عليه ، وأن تحذف منها جميع الأجزاء التى حازت إعجاب أصـدقائها ، دعت جو مجلس الأسرة وعرضت عليه مشكلتها . قالت :

ـ أنا الآن بين أمر من ثلاثة : أن أحزم أوراقى هذه ، وأودعهـا الصندوق الصفيح حيث يبليها الزمن ... أو أقوم بطبعهـا على نفقتى الخاصة ... أو أقتطع منها ما شاء الناشرون وأحصل على الثمن . إن المجد شىء جميل فى داخل البيت ، ولكن المال أنفع منه : ولقد جمعتكم لأسألكم الرأى فى هذا الموضوع الهام .

قال أبوها ناصحا :

ـ لا تفسدى عملك يا بنيتى ، ففى كتابك قيم أكثر مما تقدرين ، ولقد نجحت فى اختيار الفكرة ، وأحسنت إبرازها ، فاحتفظى بها حتى تنضـج .

وكان الأب مخلصا فى كلامه ، أمينا لآرائه ومعتقداته ، لا يقـول إلا ما يفعل ، ولقد انتظر ثلاثين عاما حتى تنضج رسالته وتأتى بثمراتها المرجوة ، وعندما طابت ثمراتها بعد طول هذا الزمن ، اختار أن يتذرع بالصبر ، فلا يتعجل جنيها .

قالت مسز مارش :

ـ أعتقد أن جو تستفيد من المحاولة أكثر من الانتظار ، فالنقد خير موجه للإنسان ، به تظهر العيوب والميزات ، ونحن فى حيرة شديدة أمام

Twitter: @ketab_n

ما يجب أن ننصحها به • ولكننى أعتقد أنها تستفيد كثيرا مما يأتيها من مديح الغرباء ونصحهم ، بصرف النظر عن ثمن ما تكتبه •

وضمت جو حاجبيها وقالت :

ـ هذا حق • لقد تكلمت طويلا فى هذا الموضـوع ، ولست أدرى فى الواقع ، إن كان الكلام فيه ضارا أو مفيدا ، وأرانى على أى حال ، فى مسيس الحاجة الى رأى محايد فى شأن هذا الكتاب الجديد •

وكانت ميج تعتقد أن هذا الكتاب هـو خير قصـة كتبتها جـو ، فقالت :

ـ لو كنت مكانك ما تخليت عن كلمة واحدة منـه ، وأخشى إن حذفت شيئا ، أن تفسدى الموضوع كله ، فقيمة القصة تتجلى فى عرض أفكار أبطالها ، لا فى تتبع حركاتهم ، وسيختلط الأمر إذا لم تفسرى كل حركة فى كل مرحلة من مراحل القصة •

وقاطعتها جو تقول ، وهى تشير الى مذكرة الناشر :

ـ ولكن مستر ألن يقول « اتركى التفسيرات جانبا ، واختصرى : ثم الزمى حدود القصة ، ودعى الأبطال يتكلمون بأنفسهم •

وقالت آمى ، وقد كانت نظرتها الى الموضوع نظرة عملية •

ـ افعلى ما يشير به عليك • فهو أكثر منك خبرة بالقصص الرائجة ، ونحن مثلك لا نعرف قدر ما يعرف قد ما يعرف ، فخذى بتوجيه ، واجعلى قصتك محبوبة الى القراء ، واحصلى منها على قدر ما تستطيعين من المال • وحين يلمع اسمك فى عالم التأليف شيئا فشيئا ، يصبح فى مقـدورك أن

Twitter: @ketab_n

تخرجي عن هذا النطاق ، فتدخلى فى قصصك من تريدين من أبطال فلسفيين ونظريين •

فقالت جو ضاحكة :

— حسنا ليس خطئى أن يكون أبطالى فلاسفة مفكرين ، فأنا لا أعرف عن هذه الأشياء إلا ما أسمعه من أبى أحيانا ، ومن صالحى أن تختلط آراؤه الحكيمة برواياتى • والآن يا بث ، ما رأيك أنت ؟

قالت بث فى اقتضاب :

— أود أن أرى هذه القصة مطبوعة فى أقرب وقت مستطاع •

ولم تفارق الابتسامة شفتيها وهى تقول ذلك ، ولكنها ضغطت دون أن تشعر على كلمة « فى أقرب وقت » ، ونظرت الى جو نظرة بريئة ملؤها الحب • وأحست جو ببرودة الخوف تسرى الى قلبها من هذه الكلمات المضغوطة ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة يسيرة ، قررت على أثرها أن تقامر بهذه القصة سريعا ، وفى أقرب وقت •

ووضعت المؤلفة الشابة كتابها الأول على المائدة ، وأخذت تقطع أوصاله بعزم ثابت وقساوة بالغة • فلقد استطلعت آراءهم جميعا واحدا بعد واحد ، لتدخل السرور على قلوبهم ، ولكنها خرجت من المعركة كما خرج صاحب الحمار من القصة المعروفة ، دون أن ترضى أحدا •

كان أبوها قد أعجب ببعض النقط الروحانية ، التى تسربت الى القصة عن غير قصد ، فأبقت عليها إكراما له ، واعتقدت أمها أن كثيرا من الوصف تافه لا يستحق الذكر ، فحذفت جميع الأوصاف ، ومعها

Twitter: @ketab_n

بعض الروابط الضرورية للحوادث • وأعجبت ميج بالمآسى ، فاحتفظت جو بدوافع الألم كلها لترضيها ، واعترضت آمى على الجانب الضاحك من القصة ، فقضت جو على المناظر الخفيفة التى كانت تضىء جوانب الموضوع • ثم جاء التدمير النهائى حين اختصرت ثلث الكتاب ، ثم أرسلته الى الناشر ، كعصفور صغير منتوف الريش ، خرج يجرب حظه فى هذا العالم الكبير •

وطبعت القصة ، وتسلمت جو ثلثمائة دولار ثمنا لها • واستقبل النقاد القصة بمزيد من المديح والذم ، وكان النقد أكثر مما توقعت ، فوقعت جو فى حيرة شديدة ، لم تتخلص منها إلا بعد وقت طويل •

صاحت ، وهى تقلب أكداسا من القصاصات ، كانت مطالعتها تملؤها بالزهو والفرح مرة ، والغضب والرعب مرة أخرى •

— لقد قلت يا أماه إن النقد يساعدنى على الكمال ، ولكن كيف يمكننى أن أبلغ الكمال ، وأقوال النقاد ، كما ترين ، متضاربة متنافرة ، حتى لا أكاد أعرف إذا كنت حقا قد كتبت كتابا يبشر بالنجاح ، أم أنى خالفت الوصايا العشر ؟؟ رجل يقول : « إنه كتاب نفيس ملىء بالصدق والجمال والحزم ، كل ما فيه حلو نقى سليم ، والثانى يقول : « نظرية عقيمة ، وتحليلات سقيمة ، وأفكار روحانية رجعية : وأبطال كلهم غير طبيعيين » • ولما كنت لا أعرف لنفسى نظرية معينة ، ولا أؤمن بالروحانيات وأنتقل شخصيات قصصى من الحياة نفسها ، فلست أدرى ، كيف يمكن أن يكون هذا الناقد على حق • ويقول ثالث . « إنها أحسن الروايات الأمريكية التى ظهرت منذ سنين » — وأنا أعرف أن هناك ما هو أحسن منها — ، ويؤكد آخر « أن القصة ، وإن كانت مبتكرة ، ومكتوبة بقوة غامرة وشعور فياض ، إلا أنها قصة خطيرة » ، مع أنى لا أرى فيها

Twitter: @ketab_n

خطورة قليلة أو كثيرة ، وبجانب هذا أمعن بعضهم فى السخرية بها ، وغالى بعضهم الآخر فى مديحها ، وكلهم مجمعون تقريبا ، على أن لى نظرية غاية فى العمق تحتاج الى الشرح ، مع أنى لا أكتب هذه القصص إلا للذة الكتابة ولثمنها • وددت لو أنى طبعت القصة كاملة ، أو أنى لم أطبعها كلية ، فأنا أمقت أن يساء الحكم على بهذه الصورة •

ورغم تشجيع الأسرة والأصدقاء ، مضت بجو فترة عصيبة ، شعرت خلالها بأنها أساءت من حيث أرادت الإحسان • ومع ذلك فقد أفادت من التجربة المرة ، إذ نالت النقد الصحيح ممن تعتد بآرائهم وتقديرهم ، ذلك النقد الذى هو خير معلم للمؤلف الناشىء • وحين مرت فترة المرارة الأولى ، استطاعت أن تضحك من كتابها الصغير البائس ، ولكنها ظلت على إيمانها به ، تشعر بأنها قد صارت أكثر حكمة وأشد قوة ، بعد الحملات التى لاقتها •

قالت فى فخار :

— لن يقتلنى ألا أكون فى عبقرية كيتس العظيم ، ومع ذلك فإن الفكاهة اللاذعة فيما حدث تفيدنى ، فكل ما أخذته من الحياة الواقعية مباشرة ، استنكره النقاد ، وقالوا عنه إنه مستحيل وغير معقول • وكل المناظر التى ابتدعتها من خيالى ، قيل عنها إنها طبيعية وجذابة ورقيقة وصادقة • ولذلك ستهدأ نفسى بهذه النتيجة ، وحين أجد الشوق الى الكتابة ، فسأبدأ العمل من جديد ، وأخرج قصة أخرى •

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن والعشرون

تجارب منزلية

بدأت ميج حياتها الجديدة وفى عزمها أن تكون ربة بيت مثالية ، شأنها شأن معظم الفتيات عندما يقبلن على الحياة الزوجية ، وقالت : إن جون يجب أن يرى وجها باسما دائما ، وأن يأكل كل يوم طعاما لذيذا ، ولا يشعر بنقص فى أزرار ملابسه ، وأن يكون البيت جنته الوارفة • وأحبت ميج مهمتها الجديدة ، وأضفت عليها من روحها نشاطا وبهجة ، فلم يكن هناك بد من نجاحها ، على الرغم من العقبات التى صادفتها • ولكن الجنة لم يسدها الهدوء المنشود : فقد كانت ربة البيت الصغيرة كثيرة المناقشة ، مسرفة فى القلق ، صعبة الإرضاء • وكانت دائمة الحركة تثقل نفسها بالهموم ، حتى يستبد بها الإرهاق والوجوم ، فلا تقوى على الابتسام ، كما أصيب زوجها بعسر الهضم ، لكثرة ما أكل من أطباق شهية ، فراح يطالب بطعام خفيف • أما الأزرار فكانت تضيع لغير ما سبب ، مما جعل ميج تهز رأسها عجبا وأسفا ، وتهدد جون بأنها ستترك له مهمة تثبيتها فى المرات القادمة •

وقد أدرك الزوجان أنهما لا يستطيعان الحياة بالحب وحده ، ولكنهما كانا سعيدين كل السعادة ، لم ينقص جمال ميج فى نظر جون ، على الرغم من انصرافها لأعمال البيت ، لم تشعر ميج أن انشغال زوجها بسؤالها عن نوع اللحم الذى تريده فى العشاء ، خفف من حرارة قبلاته لها • وفى الواقع لم يعد البيت الصغير عش الغرام ، إنما أصبح مسكنا فقط ، وشعر الزوجان الشابان بأن هذا التغيير كان من حسن الى أحسن وكانت إدارة البيت فى بادىء الأمر لعبة يتجاذبانها كأطفال صغار • ولكن جون ما لبث

Twitter: @ketab_n

أن شغل بالعمل ، مقدرا واجباته نحو الأسرة الجديدة ، التى يترأسها ويحمل أعباءها • كما خلعت ميج ملابسها الثمينة ، وارتدت مرولة المطبخ ، وانهمكت فى أداء أعمالها المنزلية بنشاط لم تكن تتوقعه •

وانتابت ميج حمى الطبخ ، فكانت إذا ما أصابتها هذه الحمى ، تجلس الى كتاب « كورنيليوس » تقرأ فيه بأمعان ، كأنما هى أمام مسألة حسابية تحل ألغازها فى صبر وعناء • وكانت اذا نجحت فى عمل صنف من الطعام ، دعت الأسرة الى المساهمة فى تناوله ، وإذا فشلت ترسل بالطعام خفية مع لونى ، الى بيت هامل حيث يختفى نهائيا فى بطون لا تعرف الشبع •

وفى المساء كانت تجلس مع جون لمراجعة حساب النفقات ، فتجد أحيانا أنها أسرفت أكثر مما يجب ، وعندئذ تفتر حماستها للطهر ، وتتلو هذا الفتور مرحلة من التقشف يتعرض فيها جون لأكل البودنج الجاف والقهوة والسمك المحفوظ ، فكانت نفسه تضيق بهذا الطعام ، ولكنه يحتمله بصبر يثير الإعجاب •

وكانت ميج تتمنى أن تملأ خزانة الطعام بما تصنعه من المربيات والجيلى ، فطلبت من جون أن يشترى لها مجموعة من العلب الصغيرة ، وكمية إضافية من السكر ، حتى تستفيد بثمار التوت ، التى نضجت فى حديقتها • ولما كان جون يؤمن بمهارتها إيمانا راسخا ، فقد قرر أن يلبى مطالبها ، ليمكنها من حفظ الفاكهة بخير طريقة تراها • وأمر بأن يرسل الى البيت عدد كبير من العلب ، ونصف جوال من السكر ، كما استأجر صبيا صغيرا ، ليجمع التوت من حديقته • وحين وصلت هذه الأشياء الى البيت ، شمرت ميج عن ساعد الجد ، وغطت شعرها الجميل بقلنسوة ، وارتدت مرولة المطبخ ، ثم بدأت تعمل واثقة بقدرتها على الإتقان ، بعد أن رأت

Twitter: @ketab_n

حنا تصنع جيلى التوت مئات المرات . لقد أدهشها اول الأمر ذلك العدد الكبير من العلب ، ولكنها عادت وتذكرت غرام جـون بالجيلى اللـذيذ ، فاستقر رأيها على أن تصنع منه كمية كبيرة وتخيلت جمال منظر العلب وهى مرصوصة فى مخزن الطعام .

وأمضت يوما كاملا فى فرز التوت وتقليبه ، وبذلت فى ذلك غايـة جهدها ، ورجعت الى موسوعة الطبخ تستوحيها الرأى ، وعصرت ذهنها لتتذكر ما نسيته من أساليب حنا وحيلها ، ثم رجعت الى المزيج تقلبـه وتغليه من جديد ، وأضافت إليه مزيدا من السكر ، ولكن الجيلى رفض أن يتماسك كما يجب .

وودت لو أنها هرعت الى بيت أبيها ، تسأل أمها المساعدة ، ولكنها عدلت عن ذلك . إذ كانت قد اتفقت مع جون على الاحتفاظ بمشاكلهما وتجاربهما ونزاعهما . وقد ضحك كلاهما فى ذلك اليوم عند ذكر النزاع ، كأن احتمال الخلاف مستحيل ، والحق أنهما تمسكا بعهدهما ، وسارا فى طريقهما دون تدخل أو معونة من أحد ، وكان هذا العهد فى الواقع عملا بنصيحة أمها الطيبة .

ووقفت ميج وحدها تعالج التوت طوال اليوم القائظ ، فلما بلغت الساعة الخامسة دون أن يتماسك ، استبد بها اليأس ، فجلست فى المطبخ الهائج المشوش ، تعصر يديها المخضبتين بحمرة التوت ، ثم انفجرت تبكى بصوت عال ، وهى لا تدرى بما يخفيه لها هذا اليوم المشئوم من متاعب أخرى كثيرة .

كانت فى مستهل حياتها الزوجية تقول دائما :

— يجب أن يكون زوجى حرا فى تصرفاته ، يدعـو الى البيت من

Twitter: @ketab_n

يشاء ، فى أى وقت يشاء ، وعلى أن أكون دائما مستعدة ، وأن يكون البيت نظيفا هادئا ، وأن أبدو مبتهجة ، وأن أطهو طعاما جيدا •

وكانت تقول لجـون :

ـ لا تتردد يا عزيزى فى دعوة من تشاء ، ولا تسألنى الاذن ، وثق بأنك ستجد منى كل ترحيب بضيوفك •

وكانت كلمة « ثق » تملأ قلب جون زهوا وفخارا ، حتى ليحمـد الله على ما أنعم به عليه من زوجة طيبة ممتازة • وكانا فى الواقع يستقبلان ضيوفا بين آن وآن ، ولكن لم يحـدث أبدا أن جاءت زيارات الضيوف فجأة وبغير علم سابق ، وبذلك لم تسـنح لميج فرصـة تختبر فيهـا قدرتها على مجابهة المفاجآت •

ولكن الذى لم يحدث سابقا ، كان يجب أن يحـدث فى يوم ما ، وهكذا عاد جون الى البيت ومعه ضيف غير منتظر ، فتعقدت الأمـور فى أسوأ الظروف • ولو لم يكن جون قـد نسى انشغال زوجته بجيلى التوت ، ما فكر فى اصطحاب صديق غريب ، فى ذلك اليـوم المشـئوم • ولكن الأمر غـاب عنه مع الأسف ، لم يعد يذكر الا أنـه اشـترى فى الصباح طعاما شهيا لبيته ، فطاب له أن يدعو صديقا للعشاء ، راجيـا أن تترك الدعوة فى نفســه أعمق الأثر ، حين تهرع زوجتـه لاستقباله مرحبة ، وتقدم له صحون الأكل اللذيذة •

ولكننا نعيش فى عالم ملىء بالمفاجآت ، وليس كل ما يتمنى المـرء يدركه ، وقد تبين جـون هذه الحقيقة حين وصل الى « برج الحمائم » ، وهو الأسم الذى أطلق على بيته الصغير ، فوجـد الباب الخـارجى مغلقا ، وكانت العـادة أن يستقبله مفتوحا على مصراعيه • وياليته كان

Twitter: @ketab_n

مغلقا فحسب ، انما كان موصدا بالقفل ، ووحول أمس ما تزال تلطخ درجات السلم الأمامى • وكانت نوافذ غرفة الاستقبال مسدلة الستائر ، ولا أثر لزوجه الجميلة التى تجلس عادة عند المدخل ترحب بالضيوف فى ابتسامة كلها حياء • ولم يكن فى المكان أثر لانسان ، اللهم الا صبيا صغيرا يغط فى النوم تحت شجيرات التوت •

وذعر جون لهذا السكون والوحشة ، فقال لصديقه :

— أخشى أن يكون مكروه قد حدث ، أدخل الحديقة يا سكوت ، وسأبحث عن مسز بروك •

ودار جون حول البيت فى لهفة : تقوده رائحة قوية لسكر محروق ، وسار الصديق خلفه فى عجب وتساؤل ، وحين دلف جون الى البيت واختفى فيه ، وقف سكوت فى الخارج على بعد يستطيع منه أن يسمع ويرى ، ولما كان أعزب فقد استمتع بما دار بين الزوجين من حديث طريف •

دخل جون المطبخ فوجده فى اضطراب وفوضى ، ورأى عينات الجيلى متناثرة هنا وهناك ، عينه تملأ العلب : وثانية مازالت فى آنية موضوعة على الأرض ، وثالثة تحترق على النار ، وكانت لوتى تجلس فى برودها المعهود ، وهى تغمس قطعة من الخبز فى سائل الجيلى الذى رفض أن يتجمد رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل ذلك • والى جانبها جلست مسز بروك تبكى وتنوح ، فأسرع جون الى زوجته منزعجا : وقد ظن أنها أحرقت يدها بالماء الساخن ، أو أصابها مكروه من نوع ما ، وكان القلق يساوره كلما فكر فى الضيف الذى ينتظره فى الحديقة • صاح بها قائلا :

Twitter: @ketab_n

ــ ماذا حدث يا فتاتى العزيزة ؟

قالت الزوجة المكدورة :

ــ أواه يا جــون ليكاد يقتلنى القلق والغضب ، فقد أمضيت النهار كله فى صنع هذا الجيلى ، حتى غلبنى الانهـاك والتعب • تعالى ساعدنى والا مت كمــدا •

وارتمت ميج على صدر زوجها تستقبله استقبالا حلوا بكل معانى هــذه الكلمة ، اذ كانت المرولة مبللة بشراب التــوت ، وأرض المطبخ ملطخة بالسكر المغلى • سألها الزوج الحائر بعد أن طبع قبلة على جبينها فوق التلنسوة المائلة على جانب من رأسها :

ــ حدثينى بما يضايقك يا عزيزتى ، هل أصـابك مكروه •

قالت ميج وهى تنشج فى يأس :

ــ نعــم !!

قال :

اذكرى ما حدث بسرعة ، وكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتمال هذا المنظر • علىّ بالنبأ المزعج يا حبيبتى •

صاحت تقول :

ــ الجيلى ••• الجيلى لا يريد أن يتجمد ، ولســت أدرى ماذا أفعـل !!

وانفجر جون ضاحكا ، بصــورة لم يجرؤ على اعادتها بعــد ذلك ، وابتسم سكوت الساخر حين سمع ضحكته العالية • قال جون :

Twitter: @ketab_n

— أهذا كل ما فى الأمر ؟ ألقى بالجيلى من النافذة ، ولا تشغلى نفسك بها ، وسأشترى لك منها ما تريدين ••• دعك من القلق الآن ، فقد أحضرت جاك سكوت ، ليتناول معنا العشاء ، و • • •

وقطعت ميج عليه حديثه بأن دفعته بعيدا عنها ، وارتمت على مقعد قريب ، وقد عقدت يديها فى يأس بالغ • صاحت تقول فى نبرات عامرة بالغضب والحزن واللوم :

دعوت ضيفا للعشاء ، والبيت كله فى اضطراب وفوضى ؟ كيف أقدمت على مثل هذا العمل يا جون بروك ؟

قال فى صوت خفيض ، وهو يستعرض ما سيسفر عنه الموقف من احراج :

— هس •• انه فى الحديقة •• لقد نسيت أمر الجيلى اللعين ، ولا سبيل الى خروجنا من المأزق

ولكن ميج قالت ثائرة :

— كان يجب أن تعلننى بقدومه لأستعد ، أو كنت تخبرنى فى الصباح بدعوة صديق ، وكان يجب أن تراعى مشغوليتى الكبيرة •

ولم يكن هذا الغضب بدعة من ميج ، فان اليمام الوديع ، على ما عرف عنه من هدوء وألفة ، ينقر حين يغضب •

قال جون ، وقد غلبه الحزن :

— لم يكن فى نيتى هذا الصباح أن أدعو أحدا ، ولم يتسع الوقت لأعلنك بقدومه ، فقد قابلته فى طريق عودتى ، ولم يطرأ لذهنى

Twitter: @ketab_n

أن أستأذنك بعـد أن طلبت الى مرارا أن أدعـو من أشـاء وقت ما أشاء • هذه أول مرة أفاجئك فيها بضيف ، ولن أفعـل ذلك بعـد الآن •

قالت :

ــ أرجو ذلك ، والآن خذ صديقك واخرج بـه فى الحـال ، فلن أقابله ، وليس عندى أى عشاء لكما •

قال وهو يسرع نحو مخزن الطعام :

ــ حسنا ، ولكن أين اللحم والخضر التى أرسلتها هذا الصباح ، وأين البودنج الذى وعدت بصنعه ؟

قالت ميج ، وقد سبقتها عبراتها :

ــ لم يكن لدى وقت لأطهو شيئا ، وكنت أنوى أن نتعشى مـع أمى • انى آسفة ، ولكنى كنت مشغولة جدا •

وكان جون رجلا عاقلا معتدلا ، ولكنه كان بشرا فى الوقت نفسه ، فان يجىء الى بيته مكدودا جائعا بعد عمل مضن طول اليوم ، وكله أمل فى الراحـة والطعام الشهى ، ثم لا يجـد شيئا الا بيتا مشوش النظام ومائدة خاوية وزوجا غاضبة ، فهذا أمر لا يدعـو الى الهدوء أو راحـة البـال • ولكنه كبح جماح نفسـه ، وكان من الممكن أن ينتهى الموقف بسـوم ، لولا كلمة طائشة بدرت منه عن غير قصد ، اذ قال :

ــ أعترف بأنه موقف حرج ، ولكن فى مقدورنا أن نخرج منه اذا تعاونا • لا تضيعى الوقت فى البكاء يا عزيزتى ، واجهدى نفسك قليلا ،

Twitter: @ketab_n

وحاولى أن تقدمى لنا ما نأكله ، فكلانا يكاد يمـوت جوعا ، وأى شىء يكفينا ، أعدى لنا اللحم البارد والخبز والجبن ، وأعدك ألا نطالب شيئا من جيلى التـوت •

قال كلمته الأخيرة بقصد التفكه والتندر اللطيف ، ولكنها جـاءت قضاء مبرما على آماله كلهـا ، اذ إعتبرتها ميج تشهيرا بالغـا بها ، وتعريضا موجعا بفشلها ، قالت ثائرة :

ــ حاول أن تنقذ نفسك من هذه الورطة ، أما أنا فقد نفد جهدى ، ولن أحرك أصبعا لمعـونة أحد ، وليس فى البيت شىء مما تقترح ، وليس عندى ما أقدمه غير العظـام والخبز الجاف • خـذ صاحبك الى بيت أمى ، وقل له انى مريضة ، أو غـير موجودة فى البيت ، أو انى مت ، أو أى شىء آخـر يحلو لك • فلست أريـد أن أراه • ولكما أن تسخرا من الجيلى • قدر ما تشاءان ، ولكنكما لن تتناولا شيئا فى هذا البيت •

وألقت ميج اليه بهذا التحدى ، ثم رمت مرولتهـا على الأرض ، وسارعت بالانسـحاب من ميـدان المعركة ، لتتعى همومها فى غـرفة نومهـا •

ولم تعرف ميج ما حدث للرجلين فى غيبتها ، ولا ماذا فعلا ، انمـا عرفت أن سكوت لم يذهب الى منزل أمها ، وحين نزلت الى المطبخ بعد انصرافهما معا ، وجدت آثارا مشوشة للطعـام ، مما زادها اشمئزازا واستنكارا وأخبرتها لوتى أنهما أكلا كثيرا ، وضحكا كثيرا ، وأن السـيد بروك أمرها بأن تلقى بجيلى التـوت فى صندوق الفضـلات ، وتخفى جميع العلب عن العيون •

وودت ميج أن تذهب الى أمهـا وتفضى اليها بما حدث ، ولـكن

Twitter: @ketab_n

الوعد الذى قطعته لجون ، وخجلها الشديد من نقض هذا العهد ، أقعداها عن الذهاب . وبعد أن نظفت المطبخ والأوانى ، ارتدت ملابسها فى أناقة ، وجلست تنتظر عودة جون ، لتصفح عنه !

ولكن جون لم يحضر ، إذ كان له رأى آخر فيما حدث ، فقد حمل الأمر محمل الفكاهة مع صديقه سكوت ، والتمس لزوجته المعاذير ما استطاع ، وقام بدور المضيف خير قيام ، مما جعل الضيف يستمتع بالعشاء المفاجىء غاية الاستمتاع ، ويعد بتكرار الزيارة ثانية . وكان جون غاضبا فى قرارة نفسه رغم تظاهره بالمرح ، لأن ميج أوقعته فى مأزق حرج ، ثم تخلت عنه وهو فى أشد الحاجة الى معونتها . وراح يقول لنفسه : « لم يكن من العدل أن تحضنى على اصطحاب من شئت من الضيوف فى أى وقت وتمنينى بالحرية فيما أفعل ، واذا أخذتها عند كلمتها خذلتنى ، وألقت علىّ اللوم ، وتركتنى لسخرية الناس واشفاقهم . هذا لا يصح ، ويجب على ميج أن تعرف ذلك » ، وجعلت الأفكار الغاضبة تتضارب فى رأس جون فى أثناء المأدبة ، ولكن حين انتهى القلق الذى ساوره ، وقفل راجعا الى البيت بعد أن أوصل سكوت وودعه ، كان قد استعاد بعض هدوئه ، فقال يحدث نفسه : « يا الصغيرة المسكينة ، لقد كان الموقف شديدا عليها بعد كل ما بذلت لارضائى ، .. لا شك أنها أخطأت ، ولكنها ما تزال شابة صغيرة ، وجدير بى أن أكون صبورا معها ، أحاول تعليمها » . وتمنى فى قلبه ألاتكون قد ذهبت الى بيت أمها ، إذ كان يكره الثرثرة والتدخل والقيل والقال .

وأقلقته هذه الفكرة ، ولكنه خشى فى الوقت نفسه أن يكون البكاء قد أضر بصحة ميج ، واستحث الخطأ الى البيت ، فسار اليه مسرعا ، وقد رق قلبه ، وصح عزمه على أن يكون معها هادئا عطوفا حازما ،

Twitter: @ketab_n

وأن يرشدها الى مواضـــع النقص فى تصرفاتها ، ويريها كيف قصرت فى أداء واجبهـــا نحو زوجهـــا •

وكانت ميج قد قررت فيما بينها وبين نفسها ذات الأمر ، وانتوت أن تكون هادئة عطـوفة ، ولكن فى حـــزم ، وأن ترشـــده الى واجبـــه نحوها • وحين رأت زوجها مقبلا ، شعرت برغبة شـــديدة فى أن تسرع اليه ، لتطلب الصفح ، فيقبلها ويسترضيها ، ولكنها قاومت هذه الرغبة ، فبعت فى مكانها ، وراحت تترنم بنغم ، وتهـــز كرســـيها وهى تنســـج خيوطها ، ككل سيدة تتمتع بفراغها فى قاعة استقبالها الأنيقة •

وشعر جـــون بشىء من خيبة الأمـــل ، عنـــدما توانت زوجته عن استقباله بالترحيب الذى كان يتوقعه ، وأحس أن كرامته تتطلب منهـــا أن تعتذر له أولا ، ولذلك لم يتقدم بالاعتذار من جانبه ، بـــل دخـــل قاعة الاستقبال مبتسما ، وجلس على الأريكة ، ولم يقـــل شيئا اللهم الا ملاحظة عابرة •

قال :

ـ سنستقبل قمرا جديدا يا عزيزتى •

أجابت ميج فى هدوء :

ـ لا اعتراض لى على ذلك •

وتبادل الاثنان عبارات قليلة ، وكان مستر بروك ، يطرق من وقت لآخر موضوعات ذات أهمية لهما ، ولكن ميج كانت ترد فى غير تحمس ففتر الحديث بينهما • واتجـــه جون الى احدى النوافذ ، وفتح جريدته واختفى وراءها ، وذهبت ميج الى النافذة الأخرى ، وراحت تطـــرز فى

Twitter: @ketab_n

اهتمام مضاعف ، وهكذا خيم الصمت عليهما ، رغم أنهما كانا فى قلق وضيق •

قالت ميج تحدث نفسها :

ــ ان الحياة الزوجية متعبة جدا ، وتحتاج الى صبر لا يفرغ ، شأنها فى ذلك ــ كما تقول أمى ــ شأن الحب سواء بسواء •

وبعثت الفكرة فى رأسها ذكرى النصائح التى وجهتها اليها أمها منذ زمن طويل ، والتى كانت تستمع اليها بغير قبول أو ايمان • كانت أمها تقول : « ان جون رجل طيب ، ولكنه ككل انسان له عيوبه وأخطاؤه ، وعليك أن تدركى هذه الأخطاء ، وسيسهل عليك أن تحتمليها ، اذا تذكرت عيوبك وأخطاءك • انه حازم الرأى ، ولكنه ينقلب عنيدا اذا عارضته وأنت ثائرة : فعليك أن تأخذيه باللين والعطف والحنان • انه متزمت فى الحق ، وهى ، صفة جميلة وان كنت لا ترضين بها ، وسوف يوليك الثقة التى تستحقينها ، اذا لم تخدعيه بالقول أو بالنظر • هذا الى أن طبعه لا يشبه طبعنا ، فنحن نثور فى لحظة ، ونهدأ سريعا ، أما هو فلا يغضب الا نادرا ، وعندئذ يكون من الصعب أن يهدأ • احذرى هذا الغضب ، واجتهدى ألا تثيريه عليك ، فعماد السعادة والوئام ، احترامك له ، واحتفاظك بكرامته ــ كونى رقيبة على نفسك ، واذا أخطأتما فابدئى بالاعتذار ، واحذرى الغمزات الصغيرة ، والكلمات الطائشة ، فانها تفتح الطريق للحزن والأسى •

مرت هذه النصائح بذاكرة ميج وهى تجلس الى النافذة ساعة الغروب وكان ما حدث اليوم ، أول خلاف بينهما : فشعرت وهى تستعيد تفاصيل الخلاف ، أنها أسرفت فى كلماتها الطائشة ، وغضبت فى رعونة

Twitter: @ketab_n

الأطفال ، ولان قلبهـا على جون لمجـرد التفكير فى مقابلتها الجافة له ، عند عودته الى البيت ، فتطلعت اليه والدموع تملأ عينيهـا ، ولكنه كان مستغرقا فى قراءة الجريدة ، فلم يرها • ووضعت ميج ما فى يدها جانبا ، ووقفت تفكر فى البدء بالاعتذار ، وهمست تقول :

ـ سأكون البادئة ••• سامحنى •

وبدا كأنه لم يسمعها ، فتقدمت اليه بخطوات بطيئة ، حتى وقفت بجانبه ، ولكنه لم يتحرك ، ولم يلتفت نحـوها • ومضت دقيقة أحست فيها أنها عاجزة عن تنفيذ عزمها ، ولكن الفكرة تجسمت فى ذهنهـا ، فقالت فى نفسها : « انها البداية ، وعلىّ أن أقوم بواجبى كاملا ، حتى لا أجد ما ألوم عليه نفسى فيما بعد :

ولم تلبث أن انحنت على زوجها ، وطبعت على جبينه قبلة ، وكانت القبلة أبلغ اعتذار ، فأخذها جـون بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه فى حنان ، وقال لها :

ـ لقد أسأت اليك بسخريتى من الجيلى ، فاصفحى عنى يا عزيزتى وأعدك بأن لا أفعل ذلك مرة أخرى •

ولكنه فعل ذلك مرارا ، كما سخرت ميج بنفسها من الجيلى ، وكان كلاهما يقول : « ان تلك الجيلى التى استعصى صنعها ، كانت أجمـل ما فى حياتهما ، فقد أمدتهما بذخيرة لا تفنى من الهناء الزوجى والهدوء العائلى •

وقد وجهت ميج بعد ذلك دعـوة خاصة الى مستر سكوت ، وأعدت له مأدبة فاخرة بهيجة ، وكانت طول الوقت فى منتهى المرح ، واجتهدت

Twitter: @ketab_n

ان تمضى الوليمة على أحسن ما يكون ، مما حمل مستر سكوت على تهنئة جون بحظه السعيد ، وعندما عاد الى بيته ، ظل طول الطريق يهز رأسه ندما على متاعب العزوبة ووحدتها •

وجاء الخريف بتجارب جديدة للزوجين الصغيرين ، فقد جددت سالى موفات عهود صداقتها القديمة ، فكانت تأتى الى البيت الصغير ، تقضى فيه بعض الوقت تثرثر مع ميج ، وكانت أحيانا تدعو عزيزتها ميج لقضاء يوم فى بيتها الكبير • وكانت ميج ترحب بذلك هربا من الوحدة والسأم ، لأن أخواتها كن دائما مشغولات بأعمالهن ، وجون لا يعود قبل المساء ، ولم تكن هناك من تسلية لها ، سوى القراءة أو التطريز أو الحديث ، فسرى عنها اقبال سالى على صداقتها من جديد • وكانت ميج تنظر الى تحف سالى الجميلة وتعجب بها ، وتشتهى أن يكون لها مثلها ، وتندب حظها الذى حرمها من الترف • وكانت سالى ترى ذلك ، فتهديها بعض الأشياء الجميلة ، ولكن ميج كانت ترفض الهدايا ، لعلمها بأن جون لا يرضى عن ذلك ، ولكن طيشها دفعها ذات يوم الى اتيان أسوأ ما يكرهه زوجها •

كانت ميج تحب أن يشعرها زوجها بثقته الكاملة ، لا فى عواطفه فقط ، بل فى شئونه المالية أيضا ، لأن بعض الرجال يقدرون المال أكثر من العاطفة • وكان لها ما أرادت ، فأطلعها جون على دخيلة أمره ، وكاشفها بالمكان الذى يحفظ فيه نقوده ، وترك لها الحرية فى أن تأخذ منها ما تشاء ، ولم يطلب فى مقابل ذلك الا أن تقيد نفقاتها ، وتدفع المطلوبات آخر كل شهر ، وتتذكر دائما أنها زوجة رجل فقير • ومنذ بدأت حياتها الزوجية ، أحسنت ميج التصرف ، كانت تحرص على المال ،

Twitter: @ketab_n

وتدفق فى انفاقه ، وتقيد نفقاتها فى دفتر صغير . وتطلع زوجها عليه دون خوف ... الى أن حل الخريف ، وتسلل ثعبان الاغراء الى حياة ميج وأغراها كما أغرى كثيرات من بنات حواء الصغيات ، ولكنه لم يغرها بالتفاحة المحرمة ، بل أغراها بالثياب .

لم يكن يرضى ميج أن تكون موضع الاشفاق والرثاء لفقرها ، وكانت تخجل من أن تعترف بحقيقة حالها ، وتطلب العزاء عن هذا الحرمان بشراء بعض الأشياء الجميلة بين حين وآخر ، حتى تثبت لسالى أنها غير مضطرة الى الاقتصاد والتقتير على نفسها . وكانت فى كل مرة تشعر بالندم بعد شراء هذه الأشياء ، على الرغم من أنها لم تكن تدفع فيها الا قليلا ، ولكن التوافه بدأت تكثر دون أن تشعر ، ولم تعد ميج فى زيارتها للحوانيت متفرجة فقط ، بل مشترية أيضا .

وتكلف شراء هذه التوافه أكثر مما تتصور ، وحين جلست آخر الشهر تجمع حساباتها ، أفزعها مجموع ما أنفقته فيما لا يجدى ولا يفيد . وكان جن فى ذلك الشهر مشغولا بعمله ، فترك لها مهمة دفع المطلوبات ، وفى الشهر التالى كان متغيبا عن البيت ، أما فى الشهر الثالث فقام بتسوية حسابات الشهور الثلاثة ، وياله من وقت عصيب ، لن تنساه ميج طول العمر ! !

كانت قبل نهاية الشهر بأيام قلائل ، قد أساءت التصرف فى نقود زوجها ، وظل ضميرها يرزح تحت وطأة ما حدث ، وكان ذلك يوم خرجت مع سالى لشراء بعض الأقمشة الحريرية ، وتاقت نفس ميج الى شراء قطعة من الحرير الخفيف ، مما يلبس فى الحفلات ، اذ كان ثوبها الأسود عاديا لا يستوقف النظر . وكانت العمة مارش قد اعتادت فى عيد رأس السنة ، أن تنفح كلا من الأخوات خمسة وعشرين دولارا ،

Twitter: @ketab_n

وكان موعد تلك المنحة يأتى فى الشهر التالى ، وكان ثمن قطعة الحرير الأرجوانية التى أعجبتها خمسين دولارا ، فأغرتها نفسها أن تدفع الثمن كله من نقود زوجها ، على أن ترد اليه النصف ، عندما تعطيها عمتها هدية رأس السنة • وكان جون يؤكد لها دائما أن ماله هو مالها ، فجعلت تسأل نفسها اذا كان من حقها أن تنفق على رفاهيتها خمسة وعشرين دولارا من صميم ميزانية الأسرة • وظل السؤال يحيرها ، ويقف بينها وبين قطعة الحرير ولكن سالى ألحت عليها بأن تشترى ما تتوق اليه ، وعرضت أن تقرضها الثمن ، وراحت تغريها بكل ما تملك من دوافع طيبة ، حتى استسلمت للاغراء • وفى ساعة منحوسة أمسك البائع بقطعة الحرير وقال :

ـ انها فرصة ثمينة ولا شك !

قالت ميج ، وقد انهارت مقاومتها :

ـ سأشتريها •

وقص لها البائع القدر المطلوب ، ودفعت الثمن ، فابتهجت سالى وضحكت ، كأن ما حدث لا يعنى شيئا ، ولكن ميج خرجت من الحانوت ، وفى نفسها شعور بأنها سرقت شيئا ، وأن البوليس فى أعقابها !!

وحين وصلت الى البيت ، حاولت أن تخفف من وطأة ندمها ، فنشرت قطعة الحرير أمامها ، وراحت تمتع النظر بجمالها ، ولكنها بدت أقل جمالا مما كانت عليه فى الحانوت • وانتابها شعور بأن لا حق لها فيها ، وخيل اليها أن ثمنها الفاحش مختوم على خيط من خيوطها ، فطوت قطعة الحرير ، وأزاحتها جانبا ، ولكن ذكراها ظلت تطاردها بالحاح ، مثل روح شريرة لا تعرف كيف تتخلص منها •

وحين عاد جون الى البيت فى تلك الليلة ، وأمسك بالدفتر يراجع

Twitter: @ketab_n

حسابات الشهور الثلاث الماضية ، غاص قلب ميج ، وانتابها الخوف من زوجها لأول مرة . وبدت عيناه العسليتان المطوفتان كأنما غشتهما القسوة ، ومع أنه كان مرحا مبتهجا أكثر من المعتاد ، فقد خيل اليها أنه كشف أمرها ، ولكنه يحاول أن يخفى علمه بخطئها .

ودفع جون المطوبات ، ثم أعاد الدفتر الى موضعه ، وأثنى عليها ، وبدأ يراجع حساب النقود الموجودة بالصندوق ، الذى كانا يسميانه « البنك » ، ولكن ميج كانت تعلم أن البنك خاو على عروشه ، فاستوقفته فى عصبية وقالت :

— انك لم تراجع حتى الآن دفتر مصروفاتى الخاصة .

ولم يكن جون يطلب منها أن يرى هذا الدفتر ، ولكنها كانت تصر دائما على اطلاعه عليه ، وكانت تجد لذة ومتعة فيما يبدو عليه من عجب ودهشة ، حين يقرأ أسماء بعض الأشياء التى تشتريها المرأة . وكانت تبتهج حين تطلب منه أن يحدس معانى بعض الأسماء المدونة فى الدفتر ، فيندهش عندما يعرف أن القلنسوة تتكون من ثلاث وردات وقطعة مخمل وشريطين ، وكلها تتكلف خمسة أو ستة دولارات . أما فى هذه الليلة فقد نظر الى دفترها كأنه يريد أن يسلى نفسه بما فيه من أرقام وأسماء ، وأن يتظاهر كعادته بالارتياع من اسرافها ، ان كان فى الحقيقة معجبا بحرصها . وأخرجت دفترها الصغير فى بطء ملحوظ ، ثم وضعته أمامه ، ووقفت خلف كرسيه تتشاغل بتدليك جبهته المتعبة .

قالت والرعب يتجلى فى نبراتها :

— يخجلنى أن ترى دفترى هذه المرة يا جون ، فقد أسرفت أخيرا الى حد السفه ، وزرت الحوانيت مرارا ، وكان لابد لى أن أشترى بعض

Twitter: @ketab_n

الأشياء التى نصحتنى بها سالى • وقد اشتريتها بالفعل ، وسأسدد جزءا من ثمنها حين تأتينى النقود من عمتى ، ولكنى أعترف بأنى ندمت بعد شرائها ، وخفت أن تتهمنى بسوء التصرف •

وضحك جون وضمها الى صدره ، وهو يقول بمرح :

— لا تحاولى الاختفاء وراء المقعد ، فلن أضربك لأنك اشتريت زوجا من الأحذية ، فأنا معجب بقدميك ، ولا يسوؤنى أن تدفعى ثمانية دولارات أو تسعة ، فى شراء حذاء جديد •

وكان شراء الأحذية نزوة من نزواتها الأخيرة ، وكان ثمن زوج منها أول ما وقعت عليه أنظار جون فى الدفتر • قالت ميج لنفسها وهى ترتعد « ترى ماذا يقول حين يصل الى الدولارات الخمسين الملعونة ؟ انها أسوأ من الحذاء كثيرا ، وقد ضاعت فى شراء ثوب لا احتياج اليه •» واستبد بها اليأس ، وضاق صدرها بالانتظار ، وتمنت أن تنتهى المسألة بأى صورة كانت •

سألها جون بهدوء :

— ما مجموع نفقاتك هذا الشهر ؟

ووقع سؤاله من نفسها موقعا غريبا ، اذ لم يكن من عادته أن يسألها بهذه اللهجة ، ولكنها أدركت أنه يريد منها صراحتها المعهودة • وقلبت ميج الصفحة ، ورأسها يدور ، وأشارت الى الرقم المدون بأسفلها ، وكان مبلغا كبيرا ، غير الخمسين دولارا ، التى زادت الطين بلة • ومرت لحظة صمت رهيب ، ثم تكلم جون ببطء ، فشعرت أنه يبذل جهدا كبيرا فى السيطرة على أعصابه • قال :

Twitter: @ketab_n

— حسنا ، ان خمسين دولارا ليست غاليا لثوب حريرى ، ولكنه سيتكلف نفقات أخرى فى حياكته وتزيينه •

وتنهدت ميج فى تخاذل حين تمثلت التكاليف التى يجب أن تضاف الى الحساب • فقالت :

— ان الثوب لم يصنع بعد •

قال جون بجفاء :

— ان خمسا وعشرين ياردة من الحرير تكفى ثوبا لامرأة صغيرة الجسم ولست أشك فى أن زوجتى ستبدو فيه رائعة الجمال كمسز موفات •

قالت :

— أعرف أنك غاضب على ، ولكننى لم أقصد تبذيرا ، ولم أكن أدرك أن الأشياء الصغيرة تكلف كثيرا • لقد غلبنى الاغراء حين رأيت سالى تشترى ما تريد ، وتظهر شفقتها على لأنى لا أفعل مثلها • لقد حاولت أن أكون قانعة ، وبذلت فى سبيل ذلك جهدا كبيرا ، ولكن الأمر فاض بى ، وضاق صدرى بحياة الفقر •

ونطقت بكلماتها الأخيرة بصوت خفيض جدا ، ظنت معه أن جون لم يسمعها ، ولكنه سمعها ، وتألم لها ، فقد حرم نفسه من ملذات الحياة إكراما لها • وندمت على قولها أشد الندم ، وتمنت لو قطع لسانها قبل أن تنطق بها ، فقد ألقى جون بالدفتر غاضبا ، وهب مذعورا ، وقال فى صوت يرتجف بالانفعال :

هذا ما كنت أخشاه ، وأنا أبذل كل جهدى من أجلك يا ميج •

Twitter: @ketab_n

ولو أنه عنفها ، أو هزها غاضبا ، ما انخلع قلبها ، كما انخلع لوقع كلماته الموجعة الهادئة ، فهرعت نحوه ، وضمته الى صدرها ، وهى تبكى ندما وتقول :

— جون ، عزيزى ، أنت كريم معى دائما ، جاد فى توفير أسباب سعادتى ، فثق أننى لم أقصد ما قلت • لقد أفلتت منى هذه الكلمات القاسية الكاذبة دون وعى ، ولست أدرى كيف طاوعنى لسانى عليها ! آه ، كيف قلتها !!

وسامحها جون العطوف ، بما تعهده فيه من كرم عظيم ، ولم يوجه إليها كلمة لوم أو تعنيف ، ولكنها أدركت أنها ارتكبت خطأ كبيرا ، وقالت شيئا لا يمكن أن ينسى بسهولة •

لقد أقسمت ميج أمام الله أن تحبه على الخير والشر ، وها هى ذى توجعه بفقره ولومه عليه ، بعد أن أنفقت ماله كله بطيش ورعونة • إنها أتت أمرا إدًا ، ولم يكن يؤلمها من ذلك سوى أن جون مضى فى حياته هادئا كأن لم يحدث شىء ، ولكنه أصبح يعكف على البقاء فى المدينة الى ساعة متأخرة من الليل ، فلا يعود إلا وهى تغط فى نومها • ومضى أسبوع وميج فى ألم بالغ ، وتضاعفت أحزانها حين رجع جون عن شراء المعطف الجديد الذى يحتاج اليه ، ولما سألته لماذا يشتريه ، أجاب ببساطة :

— ليس لدى ثمنه يا عزيزتى •

ولم تقل ميج شيئا ، ولكن حين خرج الى البهو بعد دقائق ، وجدها تدفن رأسها فى معطفه القديم ، وهى تبكى وتنشج فى حزن ما بعده حزن •

وتحدثا طويلا فى تلك الليلة ، وتعلمت ميج أن تحب زوجها من أجل

Twitter: @ketab_n

فقره ، لأن الفقر يجعله رجلا ، ويمنحه القوة والشجاعة ، ليشق طريقه فى الحياة . هذا الى ما يتحلى به جون من صبر جميل ، يواجه به أخطاء أحبابه ، ويساعدهم على النهوض من عثراتهم .

وفى اليوم التالى نزلت ميج عن كبريائها ، وذهبت الى سالى تقص عليها ما حدث ، وطلبت اليها أن تليها معروفا بشراء قطعة الحرير . وقبلت مسز موفات الطيبة رجاء ميج ، وكانت من الكياسة بحيث لم تقدمه لها هدية لفورها . وعادت ميج الى البيت ، بعد أن اشترت المعطف الذى كان جون يحتاج إليه ، وحين وصل زوجها الى البيت ، ارتدت معطفه الجديد ، ووقفت تسأله عن رأيه فى ثوبها الحريرى الجديد !

ونترك للخيال أن يرسم صورة ما جرى بينهما من حوادث وأحاديث ، ويصف فيه كيف تقبل جون الهدية ؛ وبماذا جرت الأمور بين الزوجين السعيدين بعد هذا الحادث .

وكف جون عن التأخر فى المدينة ، وصار نعود مبكرا كعادته ، ولم تعد ميج الى جولاتها الأولى فى الأسواق ، وجعل الزوج السعيد يرتدى معطفه الجديد كل صباح ؛ فإذا رجع الى البيت فى المساء ساعدته زوجته الصغيرة على خلعه . وفى منتصف الصيف مرت بميج تجربة جديدة ، أعمق التجارب أثرا فى حياة المرأة .

* * *

دخل لورى الى المطبخ فى « عش الحمائم » ذات يوم ، بوجه عامر بالانفعال ، فاستقبلته حنا بدقات كدقات الصنوج ، إذا كانت تحمل فى إحدى يديها مصفاة ، وفى اليد الأخرى غطاء حلة . همس لورى فى أذنها يسألها :

Twitter: @ketab_n

– كيف حال ماما الصغيرة ؟ أين الباقون ؟ ولماذا لم تخبرونى قبل أن أحضر ؟

قالت حنا :

– إن الأم السعيدة فى أحسن حال ، وجميعهم فى الطابق العلوى يحلون شكرا لله ولا نريد جلبة هنا ، فاذهب الى غرفة الاستقبال ، وسأخبرهم بحضورك .

وما إن انتهت من حديثها ، حتى اختفت فى البيت وهى تزمجر .

وأقبلت جو بعد لحظة ، وهى تحمل فى فخار حزمة من صوف الفانلا ، وكانت تضعها على وسادة كبيرة . وعلى الرغم مما كان يبدو على وجهها من رزانة وهدوء ، فقد كانت عيناها تلمعان سرورا وغبطة . قالت فى صوت ينم عن انفعال مكبوت :

– اغمض عينيك ومد ذراعيك .

ولكن لورى تراجع الى ركن الغرفة ، وأخفى يديه وراء ظهره وقال ضارعا :

– لا ، أشكرك . أفضل الا أحمله : أنا واثق بأنه سيقع منى !

قالت جو ، وهى تدير له ظهرها ، كأنها تهم بالخروج :

– إذا لن ترى ابن أختك !

قال :

– بل أيد أن أراه ، ولكن عليك تقع مسئولية ما يحدث .

وأغمض عينيه فى بطولة ، ومد ذراعيه مستسلما ، وأحس بشىء يدس

Twitter: @ketab_n

فيهما • وضحكت جو ضحكة عالية ، وطلب منه أفراد الأسرة جميعا أن يفتح عينيه بعد لحظة • ولما فتحهما رأى أنه يحمل طفلين صغيرين ، لا طفلا واحدا • ووقف حائرا مبهوتا ، ينقل بصره بين المخلوقين الصغيرين البريئين ، وقد ارتسم على وجهه تعبير مضحك للغاية ، فانفجروا جميعا ضاحكين ، واشتد الضحك بجو حتى لم تعد تقوى على الوقوف ، فجلست على الأرض متقطعة الأنفاس •

صاح لورى فجأة :

— توأمان ! يا إله العرش العظيم !

وسكت لحظة ، ثم ألقى على السيدات نظرة كلها توسل واستعطاف . وقال :

— خذوهما بسرعة ، فلتسرع إحداكن بحملهما ، إن الضحك يخنقنى وأخشى أن يسقطا منى !!

وأسرع جون يأخذ طفليه ، ثم حمل كل واحد على ساعد من ساعديه ، ومضى يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، كأنه يمرن نفسه على رعاية الأطفال • أما لورى فقد استسلم للضحك ، حتى سالت الدموع من عينيه •

قالت جو بعد أن استردت أنفاسها :

— أليست هذه أروع نكتة فى الوسم ؟ لقد حرصت على كتمان الأمر عنك ، لأفاجئك به ، وأمتع النفس بأثر المفاجأة فى وجهك •

وأظن أنى وفقت •

قال وهو يحملق بعينين ملؤهما الدهشة والغبطة والحنان :

Twitter: @ketab_n

— هذه أعظم مفاجأة فى حياتى ، والدهشة تعقد لسانى ، فيالها من فكاهة بديعة ! أهما ولدان ؟ وهل اخترتما اسميهما ؟ دعونى أنظر إليهما مرة أخرى ، ساعدينى يا جو ، فإن الدهشة تربكنى •

قال مستر مارش ، وهو يبتسم فى وجه حفيديه ، ويرنو اليهما بحنان بالغ :

— إنهما ولد وبنت ، أليسا غاية فى الجمال ؟

قال لورى ، وهو ينظر الى الطفلين ويحاول التمييز بينهما :

— لم أر أجمل منهما ، ولكن أيهما البنت وأيهما الولد ؟

قالت جو بخبث :

— لقد ربطت آمى شريطا أزرق للصبى ، وآخر أحمر للبنت كعادة الفرنسيين • هكذا نستطيع أن نميز بينهما دائما ، وفضلا عن ذلك فإن لأحدهما عينين زرقاوين وللآخر عينين عسليتين • هيا قبلهما أيها العم تيدى !

قال لورى بتردد :

— أخشى ألا يرحبا بقبلاتى •

قال جو بلهجة الأمر ، وقد خشيت أن ينيب عنه أحدا فى أداء المهمة الجليلة :

— بل قبلهما الآن ، فهما يحبان القبلات ، قد تعوداها قبل أن تحضر •

Twitter: @ketab_n

وأطاع لورى أمر جو : فزم شفتيه ، وطبع على كل خد قبلة ، بوجه يرتسم عليه الخوف . مما أثار ضحك الحاضرين ، وجعل الطفلين يبكيان .

قال لورى ، وقد فاض قلبه سرورا باللكمة اللطيفة التى أصابت وجهه من يد الصغير :

— ألم أقل لكم أنهما لا يرحبان بالقبلات ؟ انظروا كيف يلكم الصبى بيديه ، ويضرب برجليه .

ثم انثنى الى الطفل وقال يحدثه :

— اسمع يا مستر بروك الصغير ، أرجوك أن تكبر بسرعة ، لتصبح رجلا . وتؤدى واجبك كما ينبغى .

وقالت آمى بلهجة الخالة التى يهمها الأمر :

— سنسمى البنت مارجريت كأمها وجدتها ، وندللها باسم «ديزى» حتى لا تكون هناك ميج أخرى فى الأسرة . وسنسمى الصبى جون لورنس ، وأقترح أن نناديه « جاك » ، ما لم نجد تدليلا أفضل .

قال لروى :

— بل سمّوه « جون » واختصروه الى « ديمى » فقط .

صاحت جو ، وهى تصفق استحسانا :

— ديزى وديمى ! يا لهما من اسمين جميلين ! ألم أقل لكم إن تيدى قدير على اختراع الأسماء ؟

وقد وفق تيدى فى الاختيار هذه المرة ، وعرف الطفلان باسمى ديزى وديمى الى النهاية .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع والعشرون

زيارات

كانت جو بالإضافة الى ميزاتها الكثيرة ، تعتبر مـرجع الأسرة فى شئون التفصيل والحياكة ، إذ كانت تحسن استخدام الإبرة ، كما تحسن استخدام القلم سواء بسواء •

قالت لها آمى ، وهى منهمكة فى تفصـيل بعض الثياب :

ـ هيا بنا يا جو ، فقد حان الوقت :

قالت تسألها :

ـ الى أين ؟

أجابت آمى :

ـ أنسيت أنك وعدتنى اليوم بنصف دستة من الزيارات ، نؤديها معا ؟

قالت جو :

ـ أعترف بأنى أتيت حماقات عدة فى حياتى ، وقلت أشياء كثيرة بلا روية ، ولكن لا أظن أنى وصلت من الجنون الى ذلك الحد الذى يجعلنى أعدك بست زيارات فى يوم واحد ، وأنا التى تحدعنى زيارة واحدة فى الأسبوع •

قالت :

Twitter: @ketab_n

— بل وعدت ، وكان شرطا بيننا أن أنهى لك صورة بث ، مقابل أن تخرجى معى لنرد زيارات جيراننا •

قالت جو :

— بل اشترطت أن يكون الجو صحوا ، وكان اتفاقنا على هذا ، وأنا مستعدة لتنفيذ الاتفاق كاملا ، يا تلميذة شيلوك المرابى ، ولكنى أرى السحب تتجمع فى الشرق ، والجو ليس صحوا ، وعلى ذلك يكون أساس الاتفاق غير قائم •

وغاظ جو أن تأخذها آمى عند كلمتها ، وتتشبث بوعد قطعته على نفسها فى ظروف خاصة ، فتطالبها بمرافقتها فى زيارات رسمية ، فى يوم حار من شهر يولية • إنها تمقت هذا النوع من الزيارات ، ولم يسبق لها أن قامت به ، فلماذا تضطرها آمى الى ذلك الآن ؟

ولكنها لم تجد مفرا من الخضوع والاستسلام ، فألقت بالمقص مكرهة ، وقامت الى المهمة البغيضة ، وهى تنذر بما فى الجو من مطر ورعد وصواعق • ولما لم يجدها التعلل فتيلا ، تركت عملها جانبا ، ثم وضعت قبعتها على رأسها ، وقفازها فى يديها ، وقالت لأختها آمى بلهجة الضحية المستسلمة لمصيرها :

— إنى على استعداد •

صاحت بها آمى فى دهشة :

— أنت مشاكسة يا جو الى حد يستثير الملائكة • أتنوين حقا أن تزورى الناس بهذا المنظر ؟

Twitter: @ketab_n

قالت جو :

— إنى أرتاح الى الملابس الخفيفة ، وأراها تناسب هـذا الجـو الحار •

واذا كان الناس يهتمون بثيابى أكثر من شخصى ، فلا أرانى الله وجوههم • اذا لم يكن حالى يعجبك ، فتأنقى بما يكفينا نحن الاثنتين ، وكونى رشيقة كما تحبين ، أمـا أنا فلا تهمنى المظاهر الفارغة ، التأنق والتزين يخمدان أنفاسى •

تنهدت آمى ، وقالت :

— يا إلهى ! إنها فى إحدى نوبات المشاكسة ، وسـوف أجن قبل أن أقنعها بأن ترتدى الثياب اللائقة ، أؤكد لك يا جـو أنى لا أسر كثيرا بهذه الزيارات . ولكنـه دين علينا للمجتمع ، ولا يمكن لأحـد غيرنا أن يوفيه • سأفعل كل ما تطلبين منى اذا قبلت أن تعنى بملابسك فى هـذه الزيارات ، وليس الأمر عسيرا عليك ، ففى مقدورك عندما تريدين ، أن تتحدثى بلباقة . وتلبسى فى أناقة ، وتحسنى معاملة الناس • انى فخورة بك يا جو ، فخذى بنصيحتى ، وتعـالى معى ، لأنى أخشى الذهـاب وحدى • هيا ساعدينى على ارتداء ثيابى •

قالت جو ، وقد استبدلت مشاكستها بوداعة الحمل :

— أنت ماكرة واسعة الحيـلة ، تمتدحين أختك لتهزميها بهـذه الوسيلة الماهرة ، أنا لا أقر ولا أعقل فكرة الزينة والأناقة ولا أصـدق أنك تخافين الذهاب وحدك ، ولكنى سأرافقك اذا لم يكن لى مفـر من ذلك ، وسأبذل جهدى فى ارضـائك ، فكونى قائدتى فى هذه الرحـلة ، وأعدك بالطاعة العمياء • أيرضيك هذا ؟

Twitter: @ketab_n

قالت آمى :

ـ أنت ملك طاهر ، والآن ارتدى أحسن ملابسك ، وسأعلمك كيف تتصرفين فى كل مكان نذهب اليـه ، حتى تتركى أثرا طيبا فى نفـوس الناس ، فانى أريد أن يعجبوا بك ، ولابد أن يفعلوا ذلك ، اذا حاولت مجاراتى ، وتلطفت معهـم • صففى شعرك بطريقـة جذابة ، وضعى الوردة الحمراء فى قبعتك ، لتضفى رونقـا على ثوبك • البسى قفـازك الفاتح ، وخذى منديلك المطرز ، وسوف نمر بميج ، فأقترض مظلتهـا البيضاء ، وأعطيك مظلتى الملونة •

وراحت آمى تصدر الأوامر ، وهى ترتدى ملابسها ، فتطيعها جو وتعمل بأمرها ، ولكن هذه الطاعة لم تكن تخلو من الامتعاض حينـا ، ومن المعارضة أحيانا • وتنهدت جو يأسا ، وهى تحشر جسمها فى ثوبها الأورجاندى الجديد ، وقطبت جبينهـا غيظـا وهى تربط الأشرطة فى قبعتها ، وشدت بنيقتها بعنف ، كأنما تتشاجر معها • وبدا عليها العبوس وهى تخرج المنديل المطرز ، الذى كان تطريزه يخدش أنفها ، ويزيدها ضيقا بالرحلة التى تقوم بها مكرهة • وبعد أن حشرت يديهـا فى قفازها الضيق ، كانت مهمة التزين والتأنق قد انتهت ، فاتجهـت الى آمى ، وعلى وجهها تعبير من البلاهة ، وقالت فى وداعة وتواضع :

ـ انى أشعر بتعاسة بالغة ، وأخشى أن أموت سعيدة اذا قلت ان منظرى وجيه •

قالت آمى :

ـ ان مظهرك يبعث على الرضـا الكامل ، فدورى أمامى ببطء ، ودعينى ألقى عليك نظرة دقيقة •

Twitter: @ketab_n

ودارت جو ، وراحت آمى تنسق لها هندامها ، بلمسة هنا ولمسة هناك ، ثم تراجعت الى الوراء قليـلا ، ونظرت اليها من بعد ، وقالت برفـق :

— هذا جميل ، ولم تبق إلا زينة الرأس ، فهـذه القبعة غاية فى الفتنة • ارفعى هامتك ، وأبرزى جمال قبعتك ، وحركى يـديك بخفـة ورشاقة ، ولا تبالى بضيق القفاز • والآن اكملى الزينة بوضع الملفحة حول كتفيك ، ولا تتهربى من ذلك ، فانهـا تزيدك جمالا • كانت فكرة طيبة أن أهدتك مارش ملفحة جميلة رغم بساطتها ، فان طياتهـا التى تغطى الكتفين آية من آيات الفن : انظـرى الى وقوامى هل وشـاحى منسجم ؟ وهـل ثوبى مرتب ، وأزراره منسقة ؟ أحـب أن أكشف عن حذائى ، لأن قدمىّ جميلتان ، أما أنفى فقبيح مع الأسف •

قالت جو ، وهى تحدق فيها بعين الناقد الخبير ، وتتأمل باعجاب الريشة الزرقاء التى تزين شعر أختها الذهبى :

— انك آية فنية ، دائما جميلة ودائما بهيجة •

ثم سألتها :

— هل أترك ذيل ثوبى يجـر فى الطـريق ، أم أجمعه فى يـدى يا سيدتى ؟

أجابت آمى :

— أمسكيه بيديك حين تمشين فى الطريق ، وأطلقيه حـين ندخـل البيوت • فالذيل الطويل خير ما يناسب قوامك ، يجب أن تتعلمى كيف تسحبين أطرافه برشاقة • ولقد فاتتك بعض الأزرار ، فزريها الآن ،

Twitter: @ketab_n

وهذا يدل على أنك لم تعنى بهندامك كما يجب ، وإلا ما فاتتك هـذه الأمور الصغيرة ، مع أن الجمـال لا يكتمل إلا بها •

وتنهدت جو فى ضيق ، وشرعت تزرر كمها ، وكادت تقطع أزرار قفازها وهى تفعل ذلك • وأخيرا تم استعداد الأختين ، وكملت أناقتهما وزينتهما ، فخرجتا من البيت مثل « صورتين » ، على حد تعبير حنـا ، للتى كانت تشيعهما مغتبطة من النافذة العليا •

ومرت الفتـاتان بميج ، واستعارتا مظلتها البيضـاء ، وبعد أن داعبتا التوأمين ، خرجتا الى الطريق مرة أخـرى ، لأداء أول زيارة • قالت آمى لأختها حين اقتربتا من بيت الزيارة :

— ليكن فى علمك يا عزيزتى ، أن سيدات أسرة شستر يعتقـدن أنهن آية فى الأناقة : ولذلك أرجـو أن يـكون مسلكك معهن ممتازا : لا تبدى ملاحظات مفاجأة ، ولا تتصرفى تصرفات شاذة ، وكل ما أطلبه منك ، أن تظـلى هادئة رزينة ، فهـذا أسلم طريق ، يتفق مع الأنوثة الحق • فى مقدورك أن تفعلى ذلك دون عنـاء ، فلن نتخى فى بيتهم أكثر من ربع سـاعة •

قالت جو :

— تريدين منى أن أكون هادئة رزينة ؟ أهـذا كل شىء ؟ نعـم ، بوسعى أن أفعل ذلك ، فقد مثلت على المسرح دور السيدة الأنيقـة ، وأستطيع أن أؤدى الدور مـرة ثانية • ان مواهبى التمثيلية عظيمة ، وستـرين من قدرتى عجبـا ، فليهدأ بالك يا صغيرتى • ولا يقلقـك أمرى •

Twitter: @ketab_n

وتنفست آمى الصعداء لهذا الوعـد ، ولكن جو المشاكسة نفذته حرفيـا : ففى الزيارة الأولى جلست وكل عضو فيها ينطق بالرشاقة • كانت هادئة كمياه البحر فى الصيف ، جامدة كالثلج فى الشتاء ، صامتة كأبى الهول • وعبثا حاولت مسز شستر أن تخرجهـا عن صمتها بامتداح قصتها الجديدة ، وعبثا حاول بنات مسز شستر أن يثرن فضولها بالكلام عن الحفلات والرحلات والأوبرات والمودات ، فقد لزمت جو الوقار ، واقتصرت فى ردودها على ابتسامة أو ايمـاءة ، أو كانت تجيب « بلا » أو « بنعم » فى خجل وحياء • وراحت آمى تومىء اليها عسى أن تستجيب لمحاولات مضيفاتها ، وحاولت دون جدوى أن تشركها فى الحـديث ، ولجـأت الى لكزها بقدمها لتحركها ، ولكن جـو ظلت صامتة جامدة ، كأنها لا تعى شيئا مما يدور حولها •

وخرجت الأختان بعد انتهاء الزيارة ، وحين أغلق الباب وراءهما ، قالت احدى السيدات بصوت وصل الى مسامعهما :

— يا لمس مارشى من مخلوقة متكبرة سمجة !

وضحكت جو بصوت خافت وهى تعبر البهو ، ولكن آمى امتعضت لفشل تعليماتها فى توجيه أختها ، فقالت تلومها :

— كيف أسأت فهم قصدى الى هذا الحد ؟ ما أردت منك إلا الوقار والهـدوء ، لا أن تتحولى الى حجر أخرس أصـم • جربى أن تكونى سيدة اجتماعية فى زيارتنا لآل لام ، ثرثرى كما تثرثر الفتيات ، وتحدثى باهتمـام عن الأزياء والمغازلات ، ان آل لام على صلة بأرقى الأوساط ، ومن صالحنا أن ننال عطفهم ، بودى أن تتركى أثرا طيبا فى نفوسـهم بأى ثمن •

Twitter: @ketab_n

قالت جـو :

— سأكون غاية فى اللباقة والانسجام ، فأثرثر وأضحك وأعبث ، وأشترك فى كل صغيرة وكبيرة ، فانى أحب هذا الهذر ، من السـهل أن أتقن دور الفتاة المرحة ، وسأتخذ من ماى شستر مثلا أحتذيه وأتفوق عليه . وسأجعل آل لام يقـولون « يا لجـو مارش من فتـاة كلهـا لطف وحيوية ! »

وأقلق هذا القول آمى ، فهى تعرف جـو حـين تغلبها نزواتها ، فلا تقف فى تصرفاتها عند حد ، وبدا الحزن على وجـه آمى حين شاهدت أختهـا تنساب الى حجرة الاستقبال فى البيت التالى ضاحكة ، وتقبـل على الفتيات جميعهن ، وهى تسرف فى قبـلاتها لهن ، ثـم تنثنى الى الشبان فتبتسم لهم برشاقة ، وتشاركهم فى الحديث فى حيوية مدهشة . وكانت مسز لام تعجب بآمى ، وتؤثرها على أخواتها ، فراحت تختصها بالحديث ، وتقص عليها قصة طويلة ، فى حين وقف ثلاثة من الشـبان يحرمون حول الفتاة ، منتظرين أن تنتهى القصة ، ليتقدموا لانقاذها . وكانت آمى بهذا الوضع ، لا تستطيع مراقبة جو ، التى بدا أن روح الشر قد تملكتها ، فأخـذت تتكلم بسرعة شديدة كمسز لام العجـوز تماما . ولكن الفضول استبد بآمى حـين رأت الرءوس تتجمع حـول أختها ، والعيون تستدير دهشة ، والأيدى تلوح عجبا ، كما أثارت فيها ضحكات الشبان رغبة فى الاستمتاع بنصيبها من المرح ، الذى ينغمسون فيه . وبذلت آمى جهدا لتسمع بعض ما تقوله جو ، ثم فاض بها الألم ، حين وصلت الى أذنيها نتف من حديث أختها ، وسمعتها تقول : « انها تحسن ركوب الخيل بمهارة » ، وسألها أحدهم : « ومن علمهـا ؟ » ، قالت جو : « لا أحد ، كان لديها سرج قديم ، فكانت تمتطيه ، لتتمرن

Twitter: @ketab_n

على أصــول الركوب ، وقواعد امساك الأعنــة ، وهى الآن تركب كل شىء ، لأنها لا تعرف الخوف • وصاحب الحظيرة يسمح لها باستئجار خيوله بأجر زهيد ، لأنهـا تدربها أحسن تدريب • ثم ان لهـا ميـلا للفروسية ، وأنا أقول لها دائما ، صنعة فى اليد أمان من الفقر ، وسيكون فى وسعك أن تكسبى عيشك عن هذا الطريق ، اذا فشـلت فى وجــوه الحياة الأخــرى » •

وكظمت آمى غيظها مما سمعت ، إذ كان الحديث يعطى فكرة سيئة عنها ، يظهرها بمظهر المتبذلة ، وهو أبغض شىء الى نفسها • ولــكن ما حيلتها والعجــوز ما زالت فى منتصف قصتهــا ؟ وقبــل أن تنتهى السيدة من حديثها بوقت طويل ، عادت جو الى الحديث ، مغرقة فى خيالها الماجن ، ترتكب خطأ بعد خطأ • سمعتها آمى تقول للشبان :

— • • فى ذلك اليوم اســتبد اليأس بآمى ، إذ كانت الخيــول الجيدة كلها فى الخارج ، ولم يبق فى الحظيرة الا ثلاثة فى أسوأ حــال : أحدها أعرج ، والثانى أعمى ، والثالث عاجــز لا يستطيع الحــركة إلا اذا حشوت فمه ترابا •

وسألها شاب من الحاضرين ، الذين كانوا مستغرقين فى الضحك

— وأيهما اختارت ؟

قالت جــو :

— لم تختر واحدا منها ، ولكنها سمعت أن هناك حصــانا فتيا فى مزرعة وراء النهر ، ولم تكن سيدة قد ركبته من قبل ، ومع ذلك قررت آمى أن تجربه ، لمــا اشتهر به من جمال وقوة • وكانت جهودها مثيرة

Twitter: @ketab_n

حقا ، إذ لم يكن فى المزرعة من يعد لها السرج ، فحملت سرجا ووضعته فى القارب ، وراحت تضرب صفحة المـاء بمجدافيها حتى وصلت الى الشاطىء ؛ وهناك حملت السرج فوق رأسها ، وسارت به — تلك المخلوقة العزيزة — الى أن وصلت الى الجرن ، فلما رآها صاحبه العجوز ، كاد يغشى عليه لفرط الدهشـة !

وسألها أحدهم :

— وهل استطاعت أن تركب الحصان ؟

قالت :

— نعم ركبته ، وتمتعت بوقت طيب ، وكنت أظن أنها ستعود الى البيت مهشمة الجسد ، ولكنها استطاعت أن تروض الحصان فى مهارة ، وأن تكون محور النشاط فى الجماعة كلها .

قال مستر لام الابن ، وهـو ينظـر الى آمى معجبا بمهـارتها وتفوقهـا :

— انها جسورة بلا شك .

ورأى حمرة الخجل تخضب وجه آمى ، فارتد بصره عنهـا وهو يتسـاءل : ترى ماذا تقول أمه للفتاة ، حتى يحمر وجهها بهذا الشكل ، وتبدو قلقة غير مطمئنة ؟

وازداد احمرار وجه آمى وتضاعف قلقها ، حين تحـول حـديث الجماعة الى الأزياء ، وسمعت احدى الفتيات تسأل جو عن الحانوت الذى اشترت منه قبعتها السمراء الجميلة ، وبدل أن تذكر جـو اسم الحانوت الذى اشترتها منـه منذ عامين ، قالت الغبية بصراحة لا داعى لهـا :

Twitter: @ketab_n

— لقد لونتها آمى بهذا اللون الذى لا يوجد له مثيل فى الحوانيت ، ونحن عادة نلون قبعاتنا بأى لــون نريد ، ومن حسن الحظ أن يــكون للمرء أخت فنانة مثل آمى •

صاحت مس لام ، وقد وجدت فى حديث جو متعة كبيرة :

— يا لها من فكرة مبتكرة !

قالت جو ، بلهجة تنم عن الزهو والاعتداد بمهارة أختها وأعمالها ، وكان زهــوا واعتدادا ضاق لهما صــدر آمى ، حتى تمنت لو كان فى مقدورها أن تقذف جو بحقيبة يدها ، لتنفث عن صدرها الغيظ المكبوت :

— هذا لا يعد شيئا بالمقارنة الى أعمالها الباهرة الأخــرى ، فمــا من شىء يصعب عمله على هذه الصغيرة • لقد احتاجت يوما الى حذاء أزرق ، تلبسه فى حفل سالى ، فدهنت حذاءها الموحــل بلون السماء الصافية ، فبدا كأنه مصنوع من الحرير •

قالت مس لام الكبرى تطرى مواهب جو الأدبية ، وقد اعترفت فى نفسها بأنها لم ترها فى مثل هــذه الشخصية من قبل :

— لقــد قرأنا احــدى قصصك أولى أمس ، وكان سرورنا بهــا عظيمــا •

وكان ذكر مؤلفاتها يترك فى نفسها أثرا سيئا ، فأحيانا تقف متصلبة كأنما أهينت ، وأحيانا أخرى تغير موضوع الحديث بكلمة عابرة : وهذا ما فعلته مع مس لام ، إذ قالت :

— يؤسفنى الا تختارى لقراءتك ما هــو أحسن من قصصى ، فأنا

Twitter: @ketab_n

أكتب هذا الهراء لأنه يلقى رواجا بين الأوساط العادية ، أذاهبة أنت الى نيويورك هذا الشتاء ؟

وكانت مس لام قد أعجبت حقيقة بالقصة ، ولذلك رأت فى اجـابة جـو خشونة وقحة • وأدركت جـو خطأها بعد فوات الأوان ، ولكنها خشيت أن تزيد الموقف سوءا بكلام آخر ، وتذكرت فجأة أن الوقت قد حان للانصراف ، فقاطعت حديث الشبان الثلاثة قائلة :

— آمى ، يجب أن نذهب الآن : وداعـا يا عزيزتى ، أرجـو أن تتفضلى بزيارتنا قريبا ، ويسرنا أن تفعلى ذلك ، أما أنت يا مستر لام فلا أستطيع أن أطالبك بزيارتنا ، ولكنا سنرحب بك اذا جئت •

وكانت تحاول بعباراتها هذه ، أن تقلد دلال ماى شستر ، فجـاء تقليدا مضحكا ، دفـع آمى الى الاسراع بالخـروج من الغرفة ، وقد تملكتها رغبة قوية ، فى أن تضحك وتصرخ فى آن واحـد •

وعندما خرجتا الى الطريق ، سألت جـو أختها بارتياح ملحوظ :

— ألم أحسن التصرف هذه المرة ؟

أجابت آمى باقتضاب :

— لم يكن فى الامكان أسوأ مما كان ، ما الذى حملك على رواية هذه القصص السمجة عن السرج والقبعات والأحذية ؟

قالت :

— ولكنها كانت قصصا مضحكة سر لهـا الحاضرون واغتبطوا ،

Twitter: @ketab_n

انهم يعرفون فقرنا ، فلماذا نتظاهر بأننا نملك حظائر للخيول ، ونشترى ثلاث أو أربع قبعات فى الموسـم ، ونستطيع أن نجاريهم فى شراء الأشياء الجميلة ؟

فقالت آمى يائسة من أصلاح أختها :

— لا أرى داعيا لأن نتحدث عن حياتنا ، ولا أجد لذة فى التشدق بفقرنا . أنت عديمة الكبرياء ، لا تميزين بين ما يقال وما لا يقال .

وخجلت جو ، وراحت تحك طرف أنفها بمنديلها الخشن ، كأنما تكفر بذلك عن سلوكها القبيح ، ثم سألت أختها ، وهما تقتربان من ثالث قصر فى برنامج الزيارات :

— وكيف تحبين أن يكون سلوكى هنا ؟

أجابت آمى فى اقتضاب :

— تصرفى كما تشائين ، فقد نفضت يدى منك ، ويئست من سلوكك .

فقالت جو بخشونة ، وقد ضاق صدرها بفشلها :

— إذا سأمتع نفسى كما أريد ، فالأطفال فى البيت ، وسأقضى معهم وقتا طيبا ، ان الأناقة تضايقنى ، ويعلم الله أنى فى أشد الحاجة الى بعض الترفيه .

ولكن سرعان ما خف شعورها بالضيق والقلق حين لقيها الأطفال الصغار ، والأولاد الثلاثة الكبار ، بمنتهى الخمامة والترحيب ، فانصرفت اليهم كلية ، وتركت لآمى تحية المضيفة ، وكذلك تحية مستر تيودور ،

Twitter: @ketab_n

الذى تصادف وجوده للزيارة فى الوقت نفسه • وانتعشت جو ، وأقبلت على أبناء الأسرة تسمع حكاياتهم باهتمام ، وتداعب كلابهم الصغيرة بهدوء ، وتوافق من كل قلبها على ما يقولون • وحين طلب منها أحدهم أن تذهب معه الى السلحفاة التى يربيها ، تبعته بخفة ، وابتسمت صاحبة البيت حين رأت جو تسوى قبعتها ، التى شوشتها أحضان الأطفال ، من كانت تحبهم باخلاص ، وتعتز صادقة بمحبتهم لها •

انطلقت جو على سجيتها تستمتع بالزيارة كما يروق لها ، وتركت أختها تتصرف حسب الأصول الى توافقها • وكان عم مستر تيودور متزوجا من احدى شريفات الانجليز ، وكانت زوجه هذه الابنة الثالثة للورد معروف ، فحبتها آمى بقسط مضاعف من الاجلال والاحترام ، متأثرة فى ذلك بوجاهة الألقاب ، على الرغم من نشأتها الأمريكية ، وتربيتها الديمقراطية • وكان الولاء القديم للنظام الملكى ، قد خرج بأهل أمريكا منذ سنوات لاستقبال احدى الأميرات الانجليزيات ، وظل هذا الولاء عاملا رئيسيا فى عطف أمريكا الشابة على زميلتها انجلترا العجوز ، وجعلت الأولى تحبها مثلما يحب الابن الأكبر أمه ، التى تأبى لفرط شغفها به أن تتركه حتى يثور عليها • واستغرقت آمى فى لذة الحديث مع هؤلاء النبلاء البريطانيين ، ولكنها لم تنس الوقت المحدد للزيارة ، فلما حانت اللحظة المناسبة ، قامت على كره منها تستأذن فى الانصراف ، وراحت تبحث عن جو — التى تعبت فى اصلاحها — وهى ترجو ألا تكون قد ارتكبت خطأ يسىء الى سمعة آل مارش •

وعثرت على جو تجلس على الحشائش مع الأولاد ، وقد قبع كلب قذر على ذيل ثوبها الأنيق ، وكانت تقص عليهم بعض فكاهات لورى ، وهم يصغون اليها معجبين • وكان أحدهم يداعب السلحفاة بمظلة آمى

Twitter: @ketab_n

الجميلة ، والثانى يأكل فطائر الزنجبيل فوق قبعة جو ، والثالث يلعب الكرة بقفازها الأنيق • وكانوا يستمتعون بوقت جميل فى صحبة جـو ، فلما قامت تجمع متاعها المشتت ، استعدادا للانصراف ، صحبها الأولاد حتى الباب ، راجين أن تعود الى زيارتهم مرة ثانية • وقد اعتبرت آمى أن جـو أساءت التصرف ، وكان من الجائز أن يتطور الموقف الى أسوأ ، ولكن الله سلم •

قالت جو ، وهى تسير مع أختها ، وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، لتخفى المظلة التى لوثتها الأوساخ •

— أليسوا أطفالا مدهشين يا آمى ؟ انى أحس بالشباب والمرح حين أجلس اليهم •

فسألتها آمى ، وهى تتجاهل ما أصاب أناقة جو من عبث الأطفال :

— لماذا تتحاشين مستر تيودور دائما ؟

قالت جـو :

— انى لا أحبه ، لأنه يجلب المتاعب لأبيـه ، ويكثر من تعنيف اخوته ، وهو مغرور لا يتحدث عن والدته بالاحترام الواجب • ولورى يقول انه شاب فاسـد ، ولذلك أكره أن أختلط به ، وأفضـل أن أتركه كمًّا مهملا •

قالت آمى :

— ولكن هذا لا يمنعك من أن تعامليه بكياسة ، فقد رأيتك تومئين اليه بتحيـة باردة ، مع أنك ابتسـمت فى أدب لتومى تشامبرلين ابن البدال : وكانت الحـكمة تقضى بأن تؤثرى تيودور بالتحية اللائقة •

Twitter: @ketab_n

ولم تسكت جو الشاكسة عن هـذه الملاحظة ، بل قالت :

ـ لن يحدث هذا أبدا ، فأنا لا أحب هذا التيودور ، ولا أحترمه ولا أعجب به ، ولا يهمنى اذا كان ينحدر من سبعة لوردات على التوالى ، أما تومى فهو سـيد ممتاز على الرغم من أنه ابن بدال ، وأنا أقـدره لحيائه واجتهاده ، وأحب أن أشعره بتقديرى •

قالت آمى :

ـ ان المجادلة معك مضـيعة للوقت •••

قاطعتها جـو قائلة :

ـ بالعكس يا سيدتى ، ومع ذلك دعينا من هـذا الموضوع ، حتى لا نعكر مزاجنا ، وهيا بنا نترك بطاقة لآل كنج ، اذ يبدوا أنهم ليسوا فى البيت من حسن الحظ •

وتركت الفتاتان بطاقة لآل كنج ، ثم استأنفتا مسيرهما الى باقى الزيارات ، وتنفست جو الصـعداء حين وصلت الى البيت الخامس ، وقيل لهما ان الفتيات مشغولات عن مقابلة الضـيوف • قالت لأختها :

ـ أرى أن نعود الى البيت ، ولا داعى اليوم لزيارة العمة مارش ، فباستطاعتنا أن نفعل ذلك فى وقت آخر • انى أكره أن نواصـل السير بملابسنا الأنيقة ، ونحن متعبتان مجهدتان •

فقالت آمى :

ـ تكلمى عن نفسك من فضـلك ، فان عمتى يسرها أن نزورها فى أبهى حلة وأكمل منظر ، ولا أحب أن أحرمها من هذه المتعة ، ولن تسىء

Twitter: @ketab_n

الزيارات الرسمية البسيطة الى هندامك ، نصف ما أساء الأطفال والكلاب الذين كنت تلاعبينهم • انحنى قليـلا لأنفض عن قبعتك فتـات الخبز والفطائر •

قالت جو نادمة ، وهى تنقل بصرها من ثوبها المشـوش الى ثوب أختهـا النظيف :

— يا لك من فتاة طيبة يا آمى ، وددت لو كان لى بعض قدرتك على خدمة الناس حتى أدخل السرور على قلوبهم • انى أفكر فى هذا ، ولكن التنفيذ يستغرق منى وقتا طويلا ، ولذاك أفضـل الانتظار حتى تحين الفرصة ؛ فأؤدى لهم خدمة كبيرة تعوضهم عن اهمالى فى الخدمات الصغيرة • ولكنى أعترف بأن الخدمات الصـغيرة تترك فى النفس أثرا أكبر فى آخر الأمر •

ولان قلب آمى فى الحال ، ورقت عاطفتها ؛ فابتسـمت ثم قالت بلهجة الأم الحنون :

— من واجب النساء — خصوصا الفقيرات — أن يعودن أنفسهن معاملة الناس باللطف والبشاشة ؛ فانها سبيلهن الوحيد الى رد الجميل • واذا تذكرت نصيحتى هذه وعملت بهـا ، فسيحبك الناس أكثر منى ، لمـا حباك الله به من دواعى المحبة •

قالت جو :

— انى مؤمنة بصـواب ما تقولين ، ولكنى امرأة هوائية المزاج ، كذلك دائما ، وأؤكد لك أنه أسهل على أن أغامر بحياتى من أجل شخص ، من أن الاطفه مكرهة • من سوء الحظ أن تكون للانسان أهواء فى الحب أو البغض ، أليس كذلك ؟

Twitter: @ketab_n

قالت آمى :

ـ وأسوأ منه أن لا يستطيع الانسان اخفاء أهوائه • انا لا أقر سلوك تيودور ، ولست أقل منك انكارا لأفعاله ، ولكن شعورى الشخصى لا يصح أن يدفعنى الى جرح احساسه ، أو الى التقصير فى مجاملته كما فعلت ، فهـذا سلوك سيىء •

قالت جو :

ـ بل يجب أن نظهر نفورنا من سـلوك الفتيـان الطائشـين ، والمجاملات العادية وسيلتنا الى ذلك ، لأن النصيحة والارشاد لا يجديان شيئا • لقد تعلمت ذلك من صداقتى لتيدى ، وتبينت بالتجربة أن بعض التصرفات الصـامتة تؤثر فيه أكثر من الكلام ، وأرى أن نطبق هـذه القاعدة على الآخرين ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا •

قالت آمى بلهجة جادة ، لو سمعها تيدى لأغرق فى الضحك :

ان تيدى فتى ممتاز ، ولا يمكن أن يقارن بالآخرين ، ولو كنا جميلات أو ثريات أو شهيرات ، لجاز لنا أن نفعل ما نريد • أما أن نكون غير ذلك ، ثم ننظر شزرا الى من لا يعجبنا ، ونبتسم لمن يعجبنا ، فسلوك يضر بنا ولا يؤثر فى غيرنا ، ولن يقال عنا الا أننا أهل شذوذ وترمت •

قالت جـو :

ـ وهل نجامل من نكره ، ونجافى من نحب ، لأننا لسنا جميلات أو مليونيرات ؟ هـذا والله ضرب جـديد من الأدب غـاية فى العجب والطرافة !

قالت آمى :

Twitter: @ketab_n

— ليس فى مقدورى أن أقنعك ، ولكنى أعلم أنها تقاليد الحياة فى العالم كله ، ومن يخرج عليها ينال السخرية والاشمئزاز • وأنا شخصيا لا أحب المصلحين ، ولا أريد أن تنصبى نفسك مصلحة للناس •

قالت :

— وأنا أحب المصلحين ، وسأكون واحدة منهم اذا استطعت ، اذ لا تقدم للدنيا بغيرهم ، مهما سخر العالم منهم واشمأز ، نحن نختلف فى هـذه النقطة كل الاختلاف ، أنت تنتمين الى القديم بعتيقه ، وأنا أنتمى الى الحـديث بجديده • وستوصلك طريقتك الى خير ما تتمنين ، أما أنا فسأتمتع ، عن طريق التجديد ، بوقت حافل بالحيوية والنشـاط وسأتلذذ بصيحات السخرية والاستهزاء •

قالت آمى :

— حسنا ••• أمسكى عن هـذا الحديث الآن ، ولا تشغلى عمتك بأفكارك التقدمية •

قالت جـو :

— سأحاول ، ان كانت الرغبة تتملكنى أحيانا فى الانفجار أمامها بحـديث جرىء أو رأى ثائر ، ولكن ما حيلتى ، وهـذا نصـيبى من الحيـاة ؟

وكانت العمتان كارول ومارش تجلسان معـا غارقتين فى حـديث طويل ، فما ان دخلت الفتاتان حتى سكتتا عن الكـلام ، وفى نظراتهما ما يوحى بأن حديثهما كان يتناول بنات أخيهما • وكانت جو قد فقدت مرحها ، وتملكتها روح المشاكسة ، ولكن آمى أدت الواجب على أكمله ،

Twitter: @ketab_n

وأرضت العجوزين بهدوئها وأدبها ، واستمالتهما ببشاشتها وصفاء ذهنها وبراءة قلبها ، فرحبتا أجمل ترحيب بها وأسبغتا عليها تحيات حارة ، حتى قالتا بعد انصراف الأختين : « ان هذه الفتاة تتحسن يوما بعد يوم » •

وجلست آمي الى جانب عمتها كارول ، وفى محياها أبلغ معانى الثقة بالنفس ، وهى التى يقدرها الكبار فى الشباب ويحبونها • سألتها العمة :

— أتشتركين فى السوق الخيرية يا عزيزتى ؟

أجابت :

— نعم يا عمتى •• لقد طلبت منى مسز شستر أن أمدّ لها يد المعونة ، فتطوعت بالبيع عند احدى الموائد ، إذ ليس لدى ما أقدمه إلا وقتى •

وقالت جو فى حزم :

— أما أنا فلن أشترك فى هذه السوق ، وانى أكره أن يمن الناس علىّ ، ويصدروا الى الأوامر ، يظن آل شستر أنهم يسبغون علينا جميلا كبيرا بدعوتنا الى مشاركتهن فى هذه السوق ، ويدهشنى أن توافقى على الذهاب يا آمى ، فهم لا يريدون منك إلا العمل والخدمة •

قالت آمى :

— وانى أرحب بهذا • فليس السوق لآل شستر ، بل للمحرومين والفقراء ، ولا شك أنها مجاملة منهم أن يطلبوا منى نصيبا من العمل ،

Twitter: @ketab_n

لأنال نصيبا من السرور والمتعة . أما الرئاسة فلا تفيدنى ما دام الغرض منها ساميا سليما .

قالت العمة مارش ، وهى تنظر الى جو من فوق نظارتها فى عبوس وتجهم :

— أنت على حق يا آمى ، وأنا أحب روحك الطيبة الراقية ، ومن دواعى السرور أن نساعد من يقدرون جهودنا ، وليس أدعى الى النفور من أن ينكر بعض الناس قيمة هذه الجهود النبيلة .

ولو كانت جو تعلم ما تخفيه المقادير من سعادة لأحداهما ، لتحولت فى طرفة عين الى حمامة وديعة ، ولكن ليس لقلوبنا — لسوء الحظ — نوافذ تطل منها على عقول الآخرين ، فنتعرف ما يدور بخلد الأصدقاء من خير لنا . حقيقة أن الخير عموما لا بمعرفة المستقبل ، ولكن المعرفة أحيانا توفر الوقت الى الهدوء وراحة البال . وكان سوء حظ جو أن أغلت زمام لسانها ، فقالت شيئا حرمها من السرور سنوات عدة ، وعلمها درسا لا ينسى فى وجوب السيطرة على النفس والكلام . إذ قالت لعمتها :

— انى لا أحب أفضال الناس وجمائلهم ، لأنها تخمد أنفاسى ، وتبعث فى نفسى احساسا بالذلة والعبودية ، وأفضل أن أعمل بنفسى لنفسى ، وأتمتع بحريتى كاملة .

وتنحنحت العمة كارول برفق ، وتطلعت الى العمة مارش فى نظرة ذات مغزى : ثم قالت بايماءة حاسمة :

— ألم أقل لك هذا ؟ !

Twitter: @ketab_n

وجلست جو شامخة بأنفها فى الهواء . وعلى وجهها دلائل الثورة والانفعال . وبدت على الرغم من ذلك جذابة لطيفة ، وهى تجهل أثر كلامها فى مستمعاتها .

سألت العمة مارش آمى ، وهى تربت على كتفها :

— أتتكلمين الفرنسية يا عزيزتى ؟

أجابت آمى ، وهى تنظر للعمة مارش نظرة مفعمة بالشكر :

— أتكلمها بطلاقة ، بفضل عمتى مارش ، فقد جعلت أستر تمرننى عليها كلما أردت .

والتفتت العمة كارول الى جو تسألها :

— وأنت ، كيف حال اللغات معك ؟

— أجابت جـو بسرعة :

— لا أعرف كلمة منها ، لأنى محرومة من نعمة الحفظ ، فضـلا عن أنى لا أطيـق الفرنسية ، إنهـا لغـة فى منتهى الذلاقة ونفسى تضيق بهـا .

وتبادلت العمتان النظرات مرة أخرى ، ثم قالت العمة مارش لآمى :

— أعتقد أنك بخير الآن يا عزيزتى ، وصحتك على ما يرام ، فهل ما زلت تشعرين بتعب فى عينيك ؟

أجابت آمى :

— لا ، شكرا لك يا سيدتى ، إنى على خير حال ، وأرجو أن يمكننى

الله من أداء أشياء عظيمة فى الشتاء القادم ، حتى أكون مستعدة للذهاب الى روما حين ما يحل الموعد السعيد .

قالت العمة مارش :

— أيتها الفتاة الطيبة . أنت تستحقين الذهاب الى روما ، وسوف تذهبين فى يوم ما .

وربتت على رأسها ، وهى تنحنى لتلتقط لها بكرة الخيط .

وصاح الببغاء بولى يغنى :

رقعى الثياب   وأقفلى البـــاب
وأوقدى النـــار   وانسجى الخمـــار

وهبط على كرسى العمة . ووقف على ظهره ينظر الى جو . فى تساؤل وتبجح ، طربت له الحاضرات وضحكن ، فقالت العمة العجوز :

— يا لك من طائر دقيق الملاحظة .

وصاح الببغاء يقول ثانية :

— أليس فى نيتك أن نتمشى قليلا يا عزيزتى ؟

وقفز نحو الصيوان ، ونظر إليه بما ينم عن رغبته فى قطعـــة من السكر .

فقالت جو تجيب الببغاء :

— هـذا ما أنتويه بالفعل ، هيا بنا يا آمى .

Twitter: @ketab_n

وأنهت جو الزيارة بهذه الجملة ، وقــد ازداد يقينها بســوء أثر الزيارات فى نفسها ومزاجها • وصافحت عمتيها على طريقة الرجــال ، أمــا آمى فقبلتهما ، وانصرفت الفتاتان تاركتين وراءهما أثرين مختلفين اختلاف الظل والشمس المشرقة •

قالت العمة مارش :

ــ من الخير يا مارى أن تفعلى ما اتفقنا عليه ، سأتكفل بالنفقات •

فأجابت العمة كارول :

ــ سأفعل بالتأكيد ، اذا وافق أبوها •

Twitter: @ketab_n

الفصل الثلاثون

(نتائج)

كانت سوق مسز شستر الخيرية آية فى الأناقة وحسن الذوق ، حتى اعتبر فتيات الجيزة أن دعوتهن الى الاشتراك فيها شرف ما بعده شرف • وقد وجهت الدعوة الى آمى دون أختها جو . فكان خبرا جزيلا ، إذ كانت جو فى هذه الفترة من حياتها ذات كبرياء عظيمة ، واعتزاز شديد بالنفس ، ولذلك تلقت صدمات كثيرة قبل أن تدرك كيف تسير مع الحياة بسهولة ويسر • ولا شك أن الصدمات تركت جو المترفعة المشاكسة فى وحدة قاسية ، بعكس آمى التى كوفئت على كياستها وذوقها خير مكافأة ، فعهد إليها الإشراف على مائدة الفن فى السوق ، والحق أنها أجهدت نفسها فى إعداد هذه المائدة ، حتى تكون قد ساهمت بنصيب موفور ، فى هذا العمل الخيرى الجليل •

وسارت أمور السوق فى سهولة ويسر ، حتى كان اليوم السابق لافتتاحها ، عندما حدثت بعض مناوشات ، لم يكن من حدوثها بد ، فى مكان يجمع نحو خمس وعشرين سيدة يعملن فى صعيد واحد : على الرغم من اختلاف أعمارهن ومشاربهن •

كانت ماى شستر تغار من محبة الناس لآمى ، وازدادت غيرتها وتأجج لهيبها لبعض الحوادث التافهة ، منها أن جمال لوحات آمى ، طغى على الأوانى التى صنعتها ماى وتعبت فى زخرفتها ، ومنها أيضا أن آثر تيودور آمى بأربع رقصات فى الحفل الذى أقيم بعد ذلك ، ولم يرقص مع ماى إلا مرة واحدة • وجاء الحادث الثالث بما حز فى قلب ماى . وأعطاها

Twitter: @ketab_n

العذر لتكشف عن عدائها سافرا ، وكان ذلك عندما همس بعض المتملقين فى أذنها بأن بنات مارش سخرن منها ، فى أثناء زيارتهن لآل لام ، وجعلنها محور تفكههن ولعل جزءا من اللوم فى هذا يقع على عاتق جو ، التى جاء تقليدها الخبيث لماى شستر حيا ناطقا . بحيث لم يخف أمره على أحد كما أن جزءا آخر من اللوم يقع على آل لام الذين تسربت منهم هذه الفكاهة الى مسامع ماى • وعلى أى حال لم يشعر أحد من آل مارش بالحقد الذى يعتلج فى قلب ماى ، ولذلك كان حزن آمى بالغا ، عندما جاءتها مسز شستر — التى ساءتها بطبيعة الحال السخرية بابنتها — فى اليوم السابق للافتتاح ، وقالت لها بلهجة تسيل عذوبة ، وإن كانت نظراتها صلبة جامدة :

— لقد تضايقت فتيات كثيرات لأنى أعطيت هذه المائدة لواحدة من غير بناتى ، باعتبار أنها أبرز الموائد ، وأكثرها جاذبية • ولما كانت بناتى أول من ساهمن فى هذه السوق ، فقد رأين أن نعهد إليهن بالإشراف على المائدة . وإنى آسفة لهذا التعديل يا عزيزتى ، ولكنى واثقة بأنك أكثر إخلاصا للمبدأ من أن تعيرى المسائل الشخصية اهتماما • ستعطين مائدة أخرى إذا شئت •

وكانت مسز شستر تظن أن الأمر سينتهى بانتهاء كلماتها ، لكنها وجدت المهمة عسيرة تحت نظرات آمى المسلطة . فتملكها الاضطراب حتى لم تستطع أن تنطلق على سجيتها •

وأحست آمى بأن وراء هذه المسألة ما وراءها ، وإن لم تستطع التكهن بما هنالك ، وشعرت بجرح كبريائها ، وأرادت أن تشعر محدثتها بهذا الجرح فقالت :

Twitter: @ketab_n

ـ أظنك تفضلين أن لا أشرف على أية مائدة فى السوق ؟

فقالت مسز شستر :

ـ لا .. لا .. يا عزيزتى ، أرجو أن لا تسىء الظن بى . المسألة لا تعدو وضع الأمور فى نصابها ، فمن الطبيعى أن يكون لبناتى مكان الصدارة فى السوق ، وهذه المائدة أليق بهن من غيرها ، وقد رأيت أن أوضح لك الأمر بطريقة لطيفة . تقديرا لجهودك الثمينة ، ومن واجبنا فى مثل هذه الظروف أن نتخلى عن رغباتنا الشخصية فى سبيل الغاية السامية . سأختار لك مكانا حسنا على مائدة أخرى ، ألا تحبين مائدة الزهور ! إن المشرفات عليها صغيرات ، وفى حاجة الى المعونة . ويتبدى أنك ستخلقين منها شيئا جميلا أنيقا ، والزهور كما تعملين جذابة دائما .

وأضافت ماى شستر ، وفى عينيها نظرة ذات مغزى :

ـ جذابة للرجال على الأخص !

وأدركت آمى سببا واحدا من الأسباب التى أفقدتها الحظوة لدى آل شستر ، واحمر وجهها غضبا ، ولكن فيما عدا ذلك ، لم تهتم بسخرية الفتاة ، وأجابت بلطف غير منتظر :

ـ سأذهب حيث تريدين يا مسز شستر ، وسأترك مكانى فورا ، لأعنى بمائدة الزهور كما تحبين .

قالت ماى ، وقد بدأت تحس بتأنيب الضمير :

ـ بوسعك أن تضعى معروضاتك الخاصة على مائدة الزهور إن أردت .

Twitter: @ketab_n

وكانت فى الحقيقة تريد أن تتلطف مع آمى ، ولكن آمى أساءت فهم ذلك ، فقالت بسرعة :

ـ سآخذها بالطبع ، ما دامت تقف فى طريقك .

وأسرعت تجمع أشياءها فى مرولتها ، وسارت بها وقد اختلطت عليها الأمور : وأحست بأن الإهانة لم تقتصر على شخصها ، بل نالت أعمالها الفنية أيضا .

وعندما ابتعدت قالت ماى لأمها ، وهى تنظر فى قلق الى الفراغ الذى خلفه نقل صور آمى من مائدتها :

ـ رباه ! لقد جنت الفتاة ! ليتنى لم أطلب إليك أن تكلميها يا أماه .

فقالت الأم ، وقد أحست بصغر شأنها لاشتراكها فى هذه المشاحنات :

ـ إن مشاحنات البنات سرعان ما تنتهى .

وعندما ذهبت آمى الى مائدة الزهور ، قابلتها الفتيات الصغيرات بسرور عظيم . وبالغن فى الترحيب بها وبكنوزها الفنية ، مما كان له أثر كبير فى تهدئة عواطفها الثائرة . وبدأت تعمل فى الحال . وكلها عزم على أن تبلغ ذروة النجاح بزهورها ، ما دامت لم تستطع ذلك برسومها .

ولكن خيل إليها أن الظروف تتحالف كلها ضدها : فالوقت متأخر ، وهى منهكة القوى متعبة . وكل من بالسوق مشغول عنها بعمله الخاص ، وليس هناك من يعاونها ، حتى الفتيات الصغيرات كن يعطلنها أكثر مما يساعدنها بجلبتهن وثرثرتهن ، ومحاولتهن الفاشلة فى المحافظة على النظام .

Twitter: @ketab_n

وظل قوس النصر — المجدول من الفروع الخضراء والزهراء اليانعة — يتمايل مهددا بالسقوط فوق رأسها ، وهى تملأ السلال المعلقة فيه بالورود . وأصيبت يداها بجروح وكدمات لكثرة ما دقتهما بالطرقة ، وهى تثبت القوس فى مكانها ، كما كان تيار الهواء البارد يلفحها ، فانتابها القلق ، وخافت أن تمرض ، فتتخلف عن الحضور الافتتاح فى اليوم التالى .

ولعل كل قارئة مرت بمثل هذه التجربة . تقدر محنة آمى ، وتدعو لها بالتوفيق فى أداء واجبها .

وحين عادت الى البيت فى المساء ، وروت القصة لأهلها ، ثاروا جميعا ثورة عنيفة ، وقالت والدتها :

— إن آمى أحسنت التحرف ، ولكن سلوك آل تشستر كان فضيحة كبرى .

وأعلنت بث عزمها على مقاطعة السوق ، وأقسمت ألا تذهب إليه بأى حال من الأحوال . وتساءلت جو لماذا لا تجمع آمى لوحاتها الجميلة وتنسحب بها فورا ، وتترك أولئك الدنيئات يمضين بدونها ؟

قالت آمى :

— لا يصح أن أقابل دناءتهن بمثلها ، ولقد كان من حقى أن أثور وأغضب ، ولكنى اخترت أن أكبت شعورى فى صدرى ، وقد يشعرهن مسلكى هذا بالخطأ أكثر من الثورة والغضب . أليس كذلك يا أماه ؟

فقالت الأم بلهجة السيدة الحكيمة المجربة :

— لقد أحسنت صنعا يا عزيزتى ، وليس أقوى من مقابلة

Twitter: @ketab_n

الإساءة بالإحسان ، وإن كان يصعب علينا أحيانا أن نكظم غيظنا : ونغفر الإساءة لخصومنا .

وظلت آمى طوال اليوم التالى متمسكة بقرارها ، بالرغم من توافر العوامل التى تغريها بالاحتجاج والانتقام . وكان غرضها أن تنحنى أمام العاصفة ، لتقهر غريمتها بالحسنى ، وساعدها على تحقيق هذا الغرض حادث صغير ، وقع فى بداية اليوم ، فترك فى نفسها أبعد الأثر : إذ بينما كانت البنات الصغيرات يملأن سلال الزهور فى حجرة جانبية ، وقفت تشغل نفسها بتنظيم مائدتها ، فوقعت عيناها على رسومها الحبيبة ، ورأت بينها كتيبا بغلاف قديم كان أبوها قد عثر عليه بين تحفه وذخائره . وكان الكتيب يحوى نصائح رائعة مختلفة فعكفت عليه تتصفحه ، حتى استوقف نظرها بيت من الشعر جعلها تقف عنده وتفكر . وكان الشعر مخطوطا بين رسوم ونقوش متعددة الألوان ، موشاة بالأزرق والذهبى ، وسط زهور وأشواك ، وكان الشعر يقول : « أحبب لجارك ما تحب لنفسك » .

وراحت آمى تنقل بصرها بين الكتيب ووجه ماى ، فرأت من خلف أوانى الزهور ، أن الفتاة غاضبة ، لأنها لم تستطع ملء الفراغ الذى نشأ عن سحب لوحات غريمتها . فقالت آمى لنفسها : « نعم » كان يجب أن أحب لجارى ما أحب لنفسى ، ولكنى لم أفعل ذلك » .

ووقفت برهة تقلب صفحات الكتاب فى يدها ، فتقرأ فى كل صفحة منها لوما هادئا على جموع النفس وقساوتها . والنصائح الغالية تأتينا كل يوم فى الطريق والمدرسة وفى المكتب وفى البيت ، وحتى أمام الموائد وفى الأسواق الخيرية قد تصل الينا كلمات طيبة ، لا تبلى حكمتها

Twitter: @ketab_n

الأيام • وهذا ما حدث لآمى ؛ فقام ضميرها يعظها بما استوحاه من نصوص الكتيب ، وكان أن فعلت ما لا تفعله عادة ، وهو أنها آمنت بالموعظة من كل قلبها ، وانبرت الى تنفيذها فورا •

وكانت ثلة من البنات يقفن الى جانب مائدة ماى ، وهن يطرين المعروضات الجميلة ، ويتساءلن هامسات عما دعا الى تغيير نظام البائعات على الموائد • وأدركت آمى أنهن يتحدثن عنها ، بعد أن سمعن جانبا واحدا من القصة ، واستخلصن منه نتيجة تظلمها ، فتضايقت لذلك . ولكن روح الخير غلبت عليها ، فلما سمعت ماى تقول فى أسى :

— ان الموقف غاية فى السوء ، والوقت لا يتسع لاعداد أشياء أخرى ، ولا يصح أن نملأ الفراغ بالتوافه ، لقد كانت المائدة كاملة ولكنها فسدت الآن •

قالت احدى الفتيات تقترح حلا :

— أعتقد أنها لن ترفض اعادة الأشياء الى مكانها ، اذا طلبت منها ذلك •

فبدأت ماى تقول :

— وكيف أطلب منها بعد كل ما حدث بيننا ؟

ووجدت آمى الفرصة لتظهر روحها الطيبة . فصاحت بغريمتها تقول لها من أقصى البهو باسمه :

— لست فى حاجة لأن تسأليني اذا كنت تريدينها ، خذيها بكل سرور . لقد كنت أنوى اعادتها من تلقاء نفسى . لأنها أليق بمائدتك من

Twitter: @ketab_n

مائدتى • اليك الأشياء فخذيها من فضلك ، وسامحينى ان كنت قد تسرعت بسحبها ليلة أمس •

وما انتهت من اعادة الصور الى مكانها • حتى سارعت بالعودة ، وهى تشعر أن أسداء الجميل أسهل من طلب الشكر •

قالت احدى البنات :

ـ أليس جميلا منها أن تفعل ذلك ؟

ووافقتها ماى بصوت خفيض ، ولكن فتاة لاذعة اللسان قالت وهى تضحك بخبث :

ـ تصرف جميل جدا ، ولكنها لم تلجأ اليه الا حين أدركت ألا أمل لها فى بيع الصور على مائدتها •

وكان تعليقا ظالما ، فنحن حين نقدم تضحياتنا الصغيرة ، لا ننشد غير التقدير ، لذلك أحست آمى ، بأسف بالغ على ما أسدت من جميل قوبل بالنكران • ولكنها لم تكن تعرف أن المستقبل القريب يدخر لها خير الجزاء : فقد وقع حادث صغير ، رفع روحها المعنوية ، وجعل مائدتها تتألق وتزدهر بفضل حذقها ومهارتها ، وكذلك بدد التوتر وأعاد الأمور الى مجاريها •

مضى اليوم بآمى طويلا شاقا ، بعد أن هجرتها الصغيرات اللواتى كن يساعدنها ، ولم يقبل على زيارة مائدتها الا رواد قليلون ، فجلست بجوار زهورها وحيدة حزينة ، تتحسر على الباقات التى ذبلت ، قبل أن يأتى المساء بوقت طويل •

Twitter: @ketab_n

وكان الازدحام حول مائدة الفن عظيما طيلة اليوم ، لأنها كانت أكثر الموائد جاذبية وجمالا ، وأقبل الوجهاء على شراء معروضاتها ، فامتلأت صناديقها بالمال • وظلت آمى تتطلع الى تلك المائدة ، وفى نفسها حسرة على حرمانها من مكانها الطبيعى فيها . وشعرت أنها فقدت كثيرا من سعادتها بانزوائها فى ذلك الركن دون عمل مفيد • وقد يستهين بعضنا بهذا الوضع ، ويعتبرونه أتفه من أن يستحق الاهتمام ، ولكن آمى كانت شابة جميلة مرحة ، ووضع كهذا لا يدعوها الى السأم والملل فحسب . بل يحنق أنفاسها أيضا ، ويملأ صدرها بالضيق والشجن • وبلغ بها الحزن أقصاه حين تخيلت أهلها عندما يجتمعون بلورى وأصدقائه فى المساء ، ويعلمون بما جرى لها ، فيرون فيها أصدق صورة للشهيدة التى ذهبت فداء المبدأ •

ولم تعد آمى الى البيت الا وقد أرخى الليل سدوله ، ورغم أنها لم تشك لأهلها . ولم تقص عليهم شيئا مما جرى ، فقد أدركوا من سكونها وشحوبها كيف كان يومها شاقا متعبا • وأعطتها أمها فنجانا اضفيا من الشاى ، وساعدتها بث على تنسيق ثوبها ، وزينت لها شعرها بتاج من الزهور ، أما جو فقد أدهشت أهلها باشارات غامضة الى ما ينتظر من انقلاب فى شأن الموائد •

وخرجت آمى فى الصباح التالى مبكرة ، عسى أن تجد مزيدا من الزهور اليانعة تعزز بها مائدتها وتنعشها ، قالت تحدث جو وهى بسبيلها الى الانصراف :

— أرجو ألا تقومى بأى عمل عنيف يا جو ، إذ لا أريد أن أحدث جلبة • اسلكى مسلكا حسنا ، ودعى الأمور تسير فى مجاريها •

Twitter: @ketab_n

قالت جو ، وهى تطل من فوق البوابة فى انتظار قدوم لورى :

ـ ليس فى نيتى الا أن أكون لطيفـــة هادئة ، وسأقف مع أصحابى على مائدتك أطول وقت ممكن ، وسوف يســاعدنى تيدى وأصدقاؤه فى ذلك . وأملى أن نقضى وقتا طيبا •

وتعالى وقع أقدام لورى ، وهو آت فى ضوء الصـباح الباهت . فأسرعت اليه جو تستقبله وتقول :

ـ أهذا أنت يا صديقى ؟

قال ، وهو يتأبط ذراعها منشرحا ، كأنما تحققت أمانيه كلهـا :

ـ نعم يا صديقتى ، أنا هو •

قالت جو :

ـ آه يا لورى ، لو علمت بما حدث •

وراحت تقص عليه متاعب آمى بحرارة الأخوة واخلاصا ، فقال وقد سرت فيه الحماسة لقصتها :

ـ سيذهب أصدقائى الى السوق زرافات زرافات :ولن أكون لورى اذا لم أجعلهم يشترون كل وردة على مائدة آمى ، ويعسكرون أمامهـا طول الوقت •

قالت جو بلهجة يشوبها الاشمئزاز :

ـ تقول آمى أن الزهـور على مائدتها ذبلت ، والجـديد منهـا لا يصـل الا فى وقت متأخـر ، أنا لا أحب أن أتجنى على النـاس

Twitter: @ketab_n

أو أظلمهم ، ولكنى أشك أن أحدهم يؤخر وصولها عمـدا • ان من يرتكب الكبائر مرة ، لا يكثر عليه أن يرتكبها مرارا •

فسألها لورى :

ـ ألم يعطكم البستانى أجمل زهور حديقتنا ؟ لقـد طلبت اليـه أن يقدم لكم ما تريدون •

أجابت جو :

ـ لا علم لى بذلك ، ولعله نسى ، فلا داعى لازعاجه بالطلب مـرة أخـرى ، وان كنت حقا فى حاجة الى بعض الزهـور النضرة •

فقال لورى بلهجته الودية المؤثرة :

ـ الزهور كلها ملكك ، كما هى ملكى ، ألسنا نتقاسـم كل شىء دائما ، كيف تظنين أنك فى حاجة الى السؤال ؟

قالت :

ـ رحمة يا الهى ! أنى لا أحب أن أشاركك على كل ما تفعـل ، ولكن لا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشة هذه المسألة ، على أن أسـاعد آمى ، وعليك أن تستعد ، ولن أنسى لك هذا الجميل ما حييت •

فقال لورى :

ـ ولم لا تردين الجميل الآن ؟

وكان فى لهجته ايحاء ماكر ، حمل جو على أن تغلق الباب فى وجهه ، لتسرع بحـده عنها ، ثم صاحت تقول له من وراء القضبان :

Twitter: @ketab_n

ـ اذهب يا تيدى ، فأنا الآن مشغولة .

ومضى اليوم على ما يرام . وبفضـل المتآمرين من أجـل سعادة آمى ، حدث الانقلاب المنتظر فى شأن موائد السوق . فقـد حمل هينز البستانى الى الفتاة مجموعة من الزهور النادرة ، مع سلة جميلة نسقها بطريقته الخاصة ، التى اعتـاد أن ينسق بها السلال للاوساط الممتازة . فكانت تحفة فى جمالها . وجاءت أسرة مارش الى السوق بكامل هيئتها . وراحت جو تبذل منتهى براعتها فى تحقيق غرضها ، فكان نجاحها رائعا ، إذ كان رواد السوق يقفون معها ليستمتعوا بعبثهـا اللطيف ، ويعجبوا بذوق آمى الرفيع فى التنسيق . وأقبل لـورى وأصدقاؤه على المائـدة يشترون باقات الزهـور . ويدفعون فيها أثمانا سخية . حتى أتوا عليها ، ولم يبقوا على شىء منها ، ثم عسكروا أمام الفتـاة وحـولوا ركنهـا الهادىء الى جنة تفيض بالمرح وتنبض بالحياة . وهدأت نفس آمى ، وعاودها اشراقها ونشاطها ، وبدت على وجهها أمارات التأثر بما فعـل هؤلاء الفتيان الطيبون ، وراحت تفكر فيمـا كانت تغـرى به نفسها فى الصباح ، من أن أجـر الخير لا يضيع ، فتحمد الله أنها جوزيت أحسن جزاء على عملها الطيب .

وسلكت جو طول اليوم مسلكا مثاليا ، وحين طوقت حاشية الشرف آمى السعيدة ، قامت هى بجـولة فى السوق ، تتلمس أخبار ما يـدور هنا وهناك ، فعلمت من شتات الأحاديث . أثر تغيير أحـوال الموائـد فى نفوس الحاضرات . كمـا اكتشفت أيضـا ما صنعته آمى من اعادة رسومها الى مائدة الفن ، فاعتبرت صنيع أختها مثلا أعلى فى الشهامة وكرم الأخلاق . وعندما مرت بمائدة الفن . ألقت عليهـا نظرة ، لتتبين ما صارت اليه رسوم أختها . فلما لم تجـد لها أثرا ، دار بخلدها أن

Twitter: @ketab_n

الرسوم قد أخفيت عمدا عن الأنظـار • وكانت جو تتسامح مع بعض من يخطئون فى حقها ، ولكنها تثور اذا أهين فرد من أسرتها ، لـذلك تملكها الغضب ، ولم تستطع أن تسيطر عليه الا بصعوبة شديدة • وكانت ماى تقف عند المائدة ، فلما رأت جو ، أبت الا أن تكون كريمـة متسامحة مثل آمى ، فقالت بلهجة تنم عن رغبة فى الاسترضاء :

— مساء الخير يا جو ، كيف تسير آمى فى عملها ؟

ولم تستطع جو أن تقاوم نفسها ، فقالت :

— لقد باعت كل ما يستحق البيع ، هى الآن تستمتع بوقتها ، فمائدة الأزهار كما تعلمين ، جذابة دائما « خصوصا للرجال » •

وتلقت ماى هذه الصفعة الصغيرة بهدوء ، مما جعـل جو تشـعر بالندم بعد لحظة قصيرة ، فراحت تصلح خطأها بامتداح الأوانى الجميلة الكبيرة التى لم تجد الى الآن شـاريا ، وأرادت أن تطمئن على مصير رسوم أختها ، فقالت تسأل ماى :

— أين رسوم آمى ، انى أريد أن أشترى بعضها لأبى •

فقالت ماى :

لقد بيعت كلها منذ وقت طويل ، فقـد حرصت على تقديمها لمـن يقدرون الفن حق قدره ، فاشتروها بمال كثير •

وفرحت جو جدا بهذا النبأ ، وعـادت الى آمى تبلغها الأخبـار الطيبة ، فاغتبطت الفتاة بدورها ، وقالت لأصدقاء تيدى :

Twitter: @ketab_n

— والآن أيها السـادة ، أرجوكم أن تذهبـوا الى زيارة الموائـد الأخرى ، وتؤدوا نحوها واجبكم كمـا فعلتم معى ، وأوصيكم بمائدة الفن على الأخص .

وعندما بدأ الفتيان يتحركون فى ميدان السوق ، قالت جو :

— عليكم بمائدة تستر ، واشتروا منها كل شيء ، وستأخذون فى مقابل نقودكم فنا رفيعـا بمعنى الكلمة . هيـا الى الواجب كرجـال كـرماء .

وقال باركـر الصغير متظرفا :

— سمعا وطاعة ، ولكنى أفضل مارس على مايو .

وكان يشير بذلك الى مارش (اسم شهر مارس بالانجليزية) اجمل من ماى (اسم شهر مايو) ، ولكن لورى أسكته فى الحال قائلا :

— حسنا يا بنى انه أجمـل فى عيون الصغار !

وجذبه من يده ، وهو يربت على رأسه فى حنـان الأب . وأرادت آمى أن تجرد غريمتها من آخر سـلاح فى يدها ، فقالت تهمس فى أذن لـورى :

— اشتر أوانى الزهور .

ولم يكتف لورى بشراء الأوانى ، بل سار فى البهـو يتأبط آنيـة تحت كل ذراع من ذراعيه ، واشترك السـادة الآخـرون فى مزايدات حاميـة ، لشراء بقية المعروضات ، فابتاعوا كثيرا من الأشياء التافهة ،

Twitter: @ketab_n

ثم طافوا بأرجاء البهو محملين بالزهـور الصناعية والمراوح الملـونة ، والمحافظ المزركشة ، مما زاد فى سرور ماى شستر وابتهاجها •

وكانت العمة كارول هناك ، فلما سمعت بما حدث لآمى ، انتحت جانبا بمسز مارش وأسرت اليها بكلمات جعلتها تبتسم راضية ، وترقب ابنتها بوجـه اختلط فيه السرور بالقلق ، ولكنها احتفظت لنفسها بمـا سمعته ، ولم تفصح عن أسباب سرورها الا بعد أيام عدة •

وعندما انتهت السوق ، وأعلن خبر نجاحهـا العظيم ، قالت ماى لآمى تودعها :

ـ ليلة سعيدة •

ولم تتبسط فى حديثها كالمعتاد ، ولكنها قبلتها قبلة حارة ، ونظرت اليها بندم وأسف على ما بدر منهـا ، فارتاح قلب آمى لذلك ، واعتبرتها ترضية كافية • وحـين عـادت الى البيت ، وجـدت أوانى الزهـور مصفوفة على المدفأة ، وجعل اورى يقدم اليها كل آنية بحركة تمثيلية ، ويقول انها جزاء الفضـل لمس مارش ذات الكرم والشهامة •

وفى ساعة متأخـرة من الليل ، جلست آمى وجو تمشطان شعرهما استعدادا للنوم ، وقالت جو بحرارة :

ـ ما كنت أعتقد يا آمى أنك على هـذا الخـلق والمبادىء ، وأنى أحترمك من كل قلبى لتلك العايا ، وتصرفاتك المهذبة •

وأضافت بث ، وهى تضع رأسها على وسادتها :

ـ نعم ، أنت بسماحتك موضع حبنـا واحترامنا ، وكان موقفـك

Twitter: @ketab_n

طوال الوقت شاقا عسيرا ، ولكنك بذلت جهدك فى العمل ، وكرست قلبك للمبدأ ، وعاهدت النفس مخلصة على أداء الواجب . لا أظن أننى كنت أستطيع فى مثل هذا الموقف ، أن أتصرف مثلك بالرفق واللين .

وقالت آمى :

— ما هـذا المديح يا بنــات ؟ لســت أرى داعيـا له ، فما فعلت الا ما أحب أن يفعله الآخرون معى ، كنتن تضحكن منى عنـدما أقول : « انى أريد أن أكون سيدة نبيلة » ولكنى كنت أعنى ذلك ، وأتوق بالفعل الى أن أكـون سـيدة نبيلة . فى تفكيرى وتصرفاتى ، فأعلـو بنفسى عن صغائر النزوات والترهات التى تفسد سـيدات كثيرات ، وأعترف بأننى مازلت بعيدة عن بلوغ غايتى الكاملة .

وكانت تتكلم بحزم ، فقالت لها جو وهى تحتضنها بعطف :

— لقد أدركت الآن ما تعنين : ولن أضحك منك بعد اليوم . انـك تتقدمين الى هدفك بأسرع مما تظنين ، وسآخذ عنــك دروسا فى الأدب الصحيح ، لأنك عرفت سر الحياة على ما أعتقد . استمرى فى محاولتك يا عزيزتى ، وستنالين جزاءك يوما ما ؛ وعندئذ لن تجـدى أسعد منى بتوفيقك .

ولم يمض أسبوع واحد على هـذا الحـديث ، حتى نالت آمى جزاءها : ولكن جو المسكينة لم تستطع أن تفرح كما وعـدت ، لأنهـا كانت فى عراك مع نفسها ؛ فقد جاء خطـاب من العمة كارول ، فلمـا قرأته مسز مارش ، أشرق وجههـا بالسرور الى درجـة حملت جـو وبث — وقد كانتا تجلسان الى جوارها — على أن تسألاها عما جـاء فى الخطاب من أنباء سارة ، فقالت الأم :

Twitter: @ketab_n

— ان العمة كارول مسـافرة الى أوروبا فى الشهر القـادم ، وتريد •••

وصاحت جو تقاطعها : وهى تهب واقفة ، وقد غاض بهـا السرور فلم تستطع ضبط مشاعرها ، وقالت :

— وتريد أن أذهب معها !

اجابت الأم :

— لا يا عزيزتى ، انهـا لا تريدك أنت ، بل تريد آمى •

قالت جو :

— آه ، انها لا تزال صغيرة جـدا يا أماه ، والدور دورى أولا ، وقد كنت أحلم بهذه الفرصة منذ زمن طويل ، والسفر كما تعلمين يفيدنى ، ويمنحنى أحسن الفرص ••• يجب أن أسافر •

قالت الأم :

— أخشى أن يكون هذا مستحيلا يا جو ، فالعمة حاسمة فى طلب آمى ، وليس لنا أن نملى ارادتنا ، حين تعرض علينـا جميـلا كهذا •

وانحدرت الدموع من عينى جو ، وهى تقول :

— هكذا الحـال دائمـا ، المسرات من نصيب آمى ، والأعمـال والمتاعب من نصيبى أنا ، ليس هذا من العدل فى شىء •• لا ، ليس هذا من العدل فى شىء •

قالت الأم :

Twitter: @ketab_n

ـ أخشى أن تكونى الملومة يا عزيزتى ، فقد تحدثت الى عمتك فى الأسبوع الماضى ، وأبدت أسفها لمسلكك الجاف ونزعتك الاستقلالية ، واليك بعض مقتطفات مما تقول فى خطابها : « لقد فكرت بادىء الأمر فى اصطحاب جو ، ولكنها تكره الفرنسية ، ولا تحتمل أفضال الناس وجمائلهم ، فلم اجد ما يدعونى الى المغامرة باصطحابها ، أما آمى فأكثر منها ألفة ، وستكون رفيقة طيبة « لفلو » ، وستتقبل بالشكر والامتنان كل فائدة تنالها من هذه الرحلة •

قالت جو ، وهى ترفر زفرة حارة ، وقد تذكرت تفاصيل الحديث الذى قضى على آمالها :

ـ آه من لسانى ! •• لسانى اللاذع ! لماذا أعجز عن السيطرة عليه ؟

وراحت تقص على أمها حديثها مع عمتها ، فقالت الأم بحزن :

ـ ليتك تستطيعين الذهاب ، ولكن لا أمل الآن ، فتحملى الأمر بشجاعة ، ولا تفسدى على آمى فرحتها ، بالتفجع والتحسر على ما فات •

وكانت جو قد أسقطت سلة الورود حين قفزت فرحة فى بداية الموقف ، فقالت وهى تعيدها الى مكانها :

ـ سأحاول : وسأكون على مثالها ، وأرجو أن لا يظهر السرور على وجهى فحسب بل أكون مسرورة فعلا ، انها مهمة شاقة ، وخيبة الأمل عميقة الأثر فى النفس ، ولكن واجبى أن لا أفسد سعادة أختى بمشاعرى الخاصة •

Twitter: @ketab_n

وانحنت على الوسادة تعضها غيظا ، وتبللها بدموع الحزن والألم • وهمست بث فى أذنها ، وهى تضمها الى صدرها فى عطف وحب :

— عزيزتى جو ، انى سعيدة ببقائك معى ، وأنانيتى تجعلنى أتمسك بصحبتك •

وكان الأسى يحز فى نفس جو ، ويغريها بأن تذهب الى العمة كارول ، وتتوسل اليها وتضرع ، لتثبت لها كيف يكون العرفان بالجميل ، ولكن كلمات بث نزلت عليها بردا وسلاما ، وأعادت اليها هدوءها وراحتها •

وحين عادت آمى الى البيت ، كانت جو قد استعادت حالتها الطبيعية ، وأمكنها أن تشارك الأسرة فى احتفالها ، لا من كل قلبها كما اعتادت دائما ، ولكن دون حقد أو حسد • واستقبلت آمى النبأ فى حبور ، وأخذت تدور فى أنحاء البيت نشوانة مسرورة ، وبدأت فى المساء تجمع أقلامها وألوانها التى ستأخذها معها ، وتركت المسائل التافهة الأخرى — كالملابس والنقود وجواز السفر — لمن هم دونها انهماكا فى دنيا الفن •

قالت آمى لأخواتها بانفعال ، وهى تزيل بعض الألوان الجافة عن لوحة الألوان :

— لن أطلب مجرد المتعة من هذه الرحلة • فانى أرجو أن يتقرر فيها مصيرى الفنى ، وسأعرف فى روما اذا كنت من أصحاب الموهبة ، وسأحاول أن أثبت وجود هذه الموهبة بأعمال قيمة •

وقالت جو ، وهى تخيط البنيقات الجديدة التى ستأخذها آمى ، وقد احمرت عيناها :

Twitter: @ketab_n

— واذا لم تكونى من أصحاب المواهب ؟

وتقلصت عضلات وجه آمى الطموح ، لمجرد التفكير فى هذا الاحتمال ، ولكنها قالت بهدوء الفلاسفة :

— حينئذ أعود الى الوطن ، وأكسب عيشى من تدريس الرسم .

فقالت جو :

— لا .. لن تفعلى هذا ، فأنت تكرهين الأعمال الشاقة ، وأعتقد أنك ستتزوجين رجلا غنيا ، وتعودين الى الوطن لتعيشى فى أحضان النعمة والترف طول حياتك .

وابتسمت آمى : كأنما شاقها أن تلعب دور احدى النبيلات ، وبدا لها هذا الدور أوفق كثيرا من إعطاء دروس فى مدرسة الرسم الفقيرة ، وقالت :

— ان نبوءاتك تتحقق أحيانا ، ولكنى أشك فى صدق هذه النبوءة ، وان كنت أتمنى أن تصح ، وعلى كل حال ، اذا لم أستطع أن أصبح فنانة ، فليس أحب الى من أن أساعد غيرى على اظهار مواهبهم .

وسعلت جو ، وتنهدت قائلة :

— ستتحقق اذا أردت ، فأنت تبلغين آمالك دائما ، أما أنا فلا .

وسألتها آمى ، وهى تلعب بالسكين فى تفكير وشرود :

— أتحبين أن تسافرى ؟

اجابت جو :

Twitter: @ketab_n

— دون شك ..

قالت :

— حسنا .. سأطلب اليك أن تحضرى فى بحر عام أو عامين ، وسنذهب معا الى مواطن الآثار فى روما ، لنبحث عن بعض الآثار الثمينة المدفونة ، وننفذ برنامجنا الذى سبق أن وضعناه مرّات كثيرة .

وأجابت جو ، وهى تقبل العرض الغامض العظيم : وهى شاكرة على قدر ما تستطيع :

أشكرك .. وسأذكرك بوعدك هذا حين يأتى اليوم السعيد : اذا قدر له أن يأتى أبدا .

ولم تكن هناك فسحة من الوقت للاستعداد ، فظل البيت كله فى اضطراب وفوضى حتى سافرت آمى . واحتملت جو الموقف بصبر وجلد ، ولكن حين اختفت الباخرة عن أنظارها ، وعادت الى بيتها ، انزوت فى مخبئها ، وأطلقت العنان لدموعها حتى أرهقها البكاء . أما آمى فقد احتملت بدورها موقف الوداع بشجاعة ، ولكن عندما بدأ البحارة فى رفع سلم الباخرة ، وفكرت فى أن المحيط الواسع سرعان ما سيفصل بينها وبين أسرتها ، تعلقت بلورى : الذى كان آخر من بقى على ظهر السفينة ، وقالت له وهى تنتحب :

— أشملهن جميعا برعايتك اكراما لى ، واذا حدث شىء ...

وهمس فى أذنها ، وهو يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق وعده :

— سأفعل يا عزيزتى .. سأفعل واذا حدث شىء فسآتى اليك لأطمئنك .

Twitter: @ketab_n

وأبحرت آمى من العالم الجديد الى العالم القديم ، الذى سيظل دائما جديدا جميلا فى أعين الشباب ، ووقف والدها على الشاطىء يرقبها ، ضارعا الى الله أن لا يصيب فتاته الطيبة سوى النجاح والتوفيق . وظلت الفتاة تلوح بيدها ، حتى اختفت الباخرة تماما ولم يعد يرى سوى قرص الشمس ، وهو يعكس أضواءه الباهرة على مياه البحر .

Twitter: @ketab_n

الفصل الواحد والثلاثون

مراسلنا فى الخارج

« لنــدن »

أهلى الأعزاء

انى أجلس الآن أمام النافذة الأمامية بفندق باث فى بيكاديللى ، وهو ليس من الفنادق الراقية ، ولكن زوج عمتى لا يرضى عنه بديلا ، لأنه سبق أن أقام به مرة منذ سنوات طويلة • لا أهمية لذلك على كل حال ، فلسنا ننوى الاقامة طويلا بهذا المكان : آه ! •• لا أدرى كيف أبدأ بوصف ما تمتعت به من مسرات ، ولا أظن أننى قادرة على وصفها اذا حاولت ، ولذا يكفى أن أقــدم لكم مقتطفات من مذكراتى ، اذ لم أفعل شيئا منذ سافرت إلا الكتابة والرسم •

أرسلت لكم كلمة قصيرة من هاليفاكس ، وكنت يومها غاية فى الشقاء لفراقكم ، ولكن سرعان ما تغلبت على أحزانى ، وقضــيت بقية الرحــلة على ما يرام • لم يصبنى دوار البحر إلا لماما ، وكنت أقضى اليوم كله على ظهر السفينة مع أصــحاب فى منتهى الظرف والبشاشــة ، وكانوا يحسنون معاملتى خصوصا ضباط الباخرة • لا تضحكى يا جو ، فوجود الرجــال ضرورى على ظهور الســفن ، ومهمتهم أن يعنوا بالمســافرين ويؤنسوهم ، وفى هذا العمل أيضا رحمة بهم ، ونفع لهم ، ولولاه ما وجدوا سبيلا الى قتل فراغهم ، سوى التدخين المضر بصحتهم •

كان لدوار البحر أثر سيىء فى عمتى وابنتها فلو ، ولذلك عزمتا عن الاشتراك معى فى مباهج الرحلة ، وامتنعتا عن الصعود الى ظهر السفينة ،

فكنت أقدم لهما كل معونة ممكنة ، ثم أطلب التسلية لنفسى وحيدة • ان السير على ظهر السفينة متعة ، ومشاهدة غروب الشمس لذة ، وليس أجمل من استنشاق هواء البحر العليل ، وليس أدعى الى التسلية من مراقبة الأمواج وهى تتدافع بقوة •

وددت لو كان باستطاعة بث أن تأتى معى ، لتستفيد بهواء البحر العليل ، أما جو فما كانت تتردد عن تسلق الصوارى ، لتجلس فى أعلى مكان منها ، أو تصادق المهندسين ، أو تنفخ فى البوق الذى يصدر عنه الربّان أوامره ، أو غير ذلك من المتع التى تبعث فى نفسها نشوة كبرى •

كان كل شيء فى الرحلة جميلا ، وفاض بى السرور ، عندما لاح الشاطيء الايرلندى ، فوجدته غاية فى الجمال : أرض خضراء مشمسة ، تنتشر فى جنباتها أكواخ داكنة ، وتقوم على بعض تلالها آثار وأطلال • استيقظت مبكرة لأشاهد السفينة تدخل الميناء ، وكان الجو باردا فى الصباح ، والخليج ممتلئا بالقوارب ، والشاطيء بهيج الألوان ، والسماء وردية من فوقنا ، كان منظرا لا ينسى •

وفى كوينز تاون تركنا مستر لينوكس ، وهو أحد معارفى الجدد ، وبينما كنت أتحدث معه ذات يوم ، جاء ذكر بحيرات كيليرنى ، فتنهد من أعماق قلبه ، وراح ينشد الأبيات الآتية ، وهو ينظر الىّ :

هل سمعت عن كيت كيرنى ؟
إنها تعيش على شواطيء كيليرنى ،
ومن لمح عينيها يشع سحر فتان ،
فانج بنفسك من الهلاك ،
بعيدا عن سحر كيت كيرنى •

Twitter: @ketab_n

أليس هـذا كلاما فارغا ؟ !

رست السفينة بضع ساعات فقط فى ليفربول ، وهى مدينة صاخبة قذرة ، فسررت عندما غادرناها . وفى أثناء رسو السفينة نزل زوج عمتى الى الشاطىء ، واشترى مظلة وقفازا جلديا وبعض الأحذية السميكة ذات الشكل القبيح ، وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قص شعره على الطريقة الانجليزية ، واطمأن الى أنه قـد أصبح بريطانيا أصيلا . ثم جلس الى صبى من ماسحى الأحذية ، لينظف له حذاءه من الوحل ويلمعه ، فلما انتهى الصـبى من عمله ، نظر الى زوج عمتى وقال : « لقـد نظفتها يا سيدى على آخر طراز أمريكى » . وقد دهش زوج عمتى لذلك دهشة بالغة ... نسيت أن أقول لكم أن مستر لينوكس عندما ترك السفينة ، كلف صـديقه وورد — الذى أكمل رحلته معنا الى هنا — بأن يشترى لى باقة من الزهور الجميلة ، ووضع عليها بطاقة كتب فيها « مع تحيات روبرت اينوكس » . وكانت الزهور أول ما وقع عليه نظرى فى الغرفة ، أفلا ترين يا بنات كم كان الوقت مسليا ؟ صـدقننى أن السـفر متعة عظيمـة .

لن أطيل عليكن الحديث ، وإلا ما وصلت الى أخبار مدينة لندن : كانت الرحلة بالقطار أشبه بزيارة متحف فنى عامر باللوحات الطبيعية الجميلة ، وقد أعجبت كثيرا بمنظر الأكواخ الريفية ، والبيوت القروية ، ووجدتها مسقوفة بالقش ، تغطيها أشجار اللبلاب المتسلقة . أما نوافذها فتشبه « المشربيات » ، وعلى أبوابها تقف سيدات بدينات حولهن أطفال أصحاء . ورأيت المواشى تقف فى حقول المراعى ، وقد أخفت الحشائش أقدامها الى الركب ، والعجيب أنها تبدو أكثر هدوءا من مواشينا ، وحتى الدجاج كانت أصواته تدخل على الرضا والشبع ، بعكس دجاجنا الأمريكى

Twitter: @ketab_n

الثائر الغاضب ، ولم تقع عينى من قبل على مثل هذه الألوان المتناسقة ، فالحشائش نضرة الخضرة ، والسماء صافية الزرقة ، والقمح ذهبى الصفرة ، وجذوع الأشجار حالكة السواد • وكنت أنا وفلو فى نشوة طول الطريق ، نقفز من جانب العربة الى جانبها الآخر ، حتى لا يفوتنا منظر ونحن نسير بسرعة ستين ميلا فى الساعة • واستسلمت عمتى للنوم لشدة تعبها ، وعكف زوج عمتى على الدليل يقرؤه غير مهتم بما يرى حولنا • وهكذا مضى بنا السفر حتى رأيت أبنية وسط أشجار عالية ، فصحت أقول : « هذه مدينة كينلويرث » فأسرعت فلو تنظر من نافذتى وتقول : « يا له من مكان جميل ، لا بد أن نزوره يوما يا أبى » • فأجاب زوج عمتى ، وهو يتأمل حذاءه الجديد باعجاب شديد : « لن نزوره يا عزيزتى ، إلا اذا كنت تريدين أن تشربى شيئا من الجعة ، فهذا مصنع للجعة » !!

وسكتنا قليلا ، ولكن سرعان ما صاحت فلو تقول : « رحمتك يا إلهى ! أرى مشانق منصوبة ، ورجلا يصعد اليها » ، وصرخت أسألها : « أين •• أين » ؟ ••• وحدقت النظر فى عمودين طويلين ، تصل بينهما عارضة خشبية ، تتدلى منها السلاسل ، فقال زوج عمتى ، وقد لمعت عيناه ، « إنها رافعة منجم الفحم » • ومرة قلت لفلو : « هذا قطيع من الأغنام ترقد على الأرض » ، وأضافت وهى تقول : « الا ما أجملها ، انظر يا أبى ! » وأجاب أبوها يقول فى استنكار : « هذا أوز يا بنات » • وعندئذ سئمت فلو النظر ، وانصرفت الى كتابها تقرأ فيه ، ورحت أنا أستمتع وحدى بالمناظر كلها فى صمت •

وحين وصلنا الى لندن ، وجدنا السماء تمطر كعادتها ، ولم يكن فى امكاننا أن نرى شيئا لكثافة الضباب : وقضينا بعض الوقت نحل حقائبنا ،

Twitter: @ketab_n

ثم نزلنا الى السوق تحت أمطـار متقطعة لنشترى بعض الأشـياء • ولاحظت عمتى أنى لم أستكمل ملابسى نظرا لسفرى المفاجىء ، فاشتريت قبعة بيضاء ، وريشة زرقاء ، وثوبا من الموسلين ، ووشـاحا غـاية فى الجمال : بل هو أجمل ما رأيت •

وزيارة المتاجر فى ريجنت ستريت متعة ما بعدها متعة ، والسـلع زهيدة الأثمان ، فمثلا ياردة من الأشرطة الجميلة تساوى ستة بنسات فقط ، ولذلك اشتريت منها مجموعة كبـيرة ، أما القفازات فأفضـل أن أشتريها من باريز : حـال وصـولنا اليها ، أليس هـذا دليل الأناقة والثراء ؟ !

وانتهزنا فرصـة خروج عمتى وزوجهـا لشراء بعض لوازمهما ، فاستأجرت أنا وفلو عربة جميلة ، خرجنا فيها للرياضة والتسليـة ، ثم عرفنا فيما بعد أنه لا يليق بالفتيات الفاضلات أن يركبن العربات إلا مع الكبار • ولكنها كانت رحلة طريفة . فما أن أقفل السائق علينا باب العربة ، حتى اندفع يجرى بنا فى سرعة كبيرة ، ذعرت لها فلو ، وطلبت منى أن أوقفه ، ولكنه كان يجلس على مقعدة العالى وراء حاجز يفصله عنا ، ولم أجـد سبيلا اليه وهو فى خارج العربة ونحن بداخلها • وصحت أناديه تارة وتارة أخرى أطرق بمظلتى على باب العربة ، فذهبت جهودى هباء ، ولم يسمع ندائى ولا ضرباتى ، وهكذا بطلت حيلنا ، والعربة تمرق بنا كالسهم ، وتدور فى المنحنيات دورانا مخيفا • وأخيرا شاهدت كوة فى السقف ، دفعتها بطرف المظلة فانفتحت ، فأطل علينا السـائق بعينيه الحمراوين ، وسمعنا صوته المخمور يقول : « ماذا تريدين يا سيدتى ؟ »، فأمليت عليه تعليماتى فى تؤدة وثبات على قـدر الامكان ، فأقفل الكوة وهو يقول : « سمعا وطاعة يا سيدتى » • وراح يسوق الحصان ببطء

Twitter: @ketab_n

شديد ، كأننا نسير فى جنازة •• فدفعت الكوة مرة أخرى ، وطلبت منه أن يسرع قليلا ، ولكن الرجل اندفع ثانية يعدو بسرعة جنونية ، وأمام ذلك لم نجـد بدًا من أن نخضع لقدرنا ، ونستسلم لحظنا •

الجو جميل اليوم ، وقد ذهبنا الى حديقة هايدبارك متنزه الطبقة الراقية • ان الدوق ديفونشاير يسكن قريبا منا ، وكثيرا ما أرى خدمه الخصوصيين يجلسون عند البوابة الخلفية ، وبيت دوق ولنجتون ليس بعيدا عنا أيضا ، والحقيقة أننا أكثر ارستقراطية مما نبدو • ورأيت فى هايدبارك أبدع المناظر وأجملها ، فهى خليط من الألوان والأشكال يُسلى أكثر من « القراقوز » : سيدات بدينات يذرعن الطريق فى عربات مطهمة لونها أحمر وأصفر ، ويقف خلفها حراس فى ملابس حريرية زاهيـة اللون ، ويقودها سائقون فى أحسن زينة ••• ومربيات رشيقات يرعين أطفالا لم أر لهم مثيلا فى الصحة والقوة ••• وفتيات جميلات يسرن فى تيه ودلال •• وفتيان متأنقون على رءوسهم قبعات انجليزية غريبـة الشـكل •• وأطفال كالزهور •• وجنود عمالقة يلبسون معاطف حمراء قصيرة ، وقبعات مستديرة تميل على جانب من رءوسهم بشكل مضحك ، بودى لو استطعت أن أرسم صورا تذكرنى بهم •

ذهبنا الى مكان يدعى « روتن رو » — ومعناها طريق الملك — وهو بمثابة مدرسة للفروسـية ، فيه خيول مطهمـة ، ومدربون فى منتهى الرشـاقة ، أما السيدات فيجلسن على ظهور الخيل متصلبات ، يهتززن بما لا يتفق وأصول الركوب عندنا • وكم بودى لو أمكنى أن أريهن كيف تكون الفروسية ، حتى لا يركبن خببا فى تعاظم وكبرياء ، وهن يلبسن الملابس القصيرة والقبعات العالية ، كأنهن التماثيل المزوقة • والركوب هنا رياضـة يمارسها الناس جميعا ، الرجال والنساء ، الكبار والصغار ،

Twitter: @ketab_n

السمان والنحاف • ويتبدل الشبان والشبات الغزل فى حلبة الركوب ، والعادة أن يضع كل فرد وردة فى سترة الركوب ، وقد رأيت حبيبين يتبادلان الورود دليل الوفاء ، فأعجبتنى الفكرة كثيرا •

وذهبنا فى المساء الى كنيسة « وستمنسر » ، ومن المستحيل على أن أصفها لكم ، ولذلك أكتفى بأن أقول إنها فخمة • وسأذهب الليلة لمشاهدة « غلنتشر » ، وبذلك ينتهى أسعد يوم فى حياتى •

منتصف الليل :

رغم أن الوقت متأخر جدا ، فأنى لم أشأ أن أرسل خطابى فى الصباح دون ذكر ما حدث ليلة أمس •• ترى هل فى امكانكن أن تحزرن من جاء لزيارتنا ونحن نتناول الشاى ؟ •• لقد جاء فريد وفرانك فوهن أصدقاء لورى البريطانيان ، ولو لم أقرأ بطاقتهما ما عرفتهما ، فقد كبرا ، وأصبحا ممشوقى القامة • وكان فريد أنيقا فى زيه الانجليزى ، وفرانك لا يستعمل عكازا : ولكنه يعرج قليلا •• وعرفت أن لورى أنبأهما بزيارتنا ، فجاءا يدعواننا الى زيارتهما فى البيت • واعتذر زوج عمتى عن قبول الدعوة ، ولكنه سمح لنا برد الزيارة •

وذهبنا معهما الى المسرح ، وسعدنا بوقتنا الى أبعد حد ، وبينما كان فرانك يبذل اهتمامه وعنايته بفلو : رحت أنا وفريد نتحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل ، كأننا أصدقاء العمر كله • أخبرى بث أن فرانك سأل عنها ، وأبدى أسفه الشديد لمرضها ، وحين تكلمنا عن جو ، ضحك فريد وطلب منى أن أبعث بتحياته واحتراماته الى قبعتها الكبيرة ، ولم ينس أحدهما « معسكر لورنس » ، وما زالا يذكران تفاصيل النزهة الطيبة ، رغم مضى السنين •

Twitter: @ketab_n

إن عمتى تدق للمرة الثالثة على الجدار الذى يفصل حجرتنا ، لتنبهنى الى وجوب النوم ، فيجب أن أتوقف الآن عن الكتابة . يخيل الىّ ، وأنا أجلس فى هذه الساعة المتأخرة ، أننى واحدة من سيدات لندن الجميلات الثريات : فقد امتلأت غرفتى بأجمل الهدايا ، وليس برأسى سوى أخبار المسارح والمتنزهات والملابس الجديدة ، والشبان الكرماء ، الذين يتأوهون من فرط الشوق ، ويعبثون بشواربهم الصفراء فى عظمة اللوردات الحقيقيين .

إنى مشوقة لرؤيتكم جميعا ، سأظل الأخت الوفية المحبة الى الأبد ، رغم الهراء الذى امتلأت به هذه الصفحات .

باريس .

عزيزاتى

حدثتكن فى خطابى السابق عن أخبار لندن ، وكيف أكرم آل فوهن وفادتنا ، وأقاموا المآدب الشائقة لنا . وقد استمرت زياراتى لمعالم لندن ، فشاهدت لوحات روفائيل فى هامبتون كورت ، وتمتعت برؤية صور تيرنر ولورانس ورينولدز وهرجاردت وغيرها من بدائع الرسامين فى متحف كنزنجتون . وقضينا يوما من أمتع الأيام فى ريتشموند بارك ، حيث شاهدت الغزلان فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها جميعا بقلمى ، كما أشجانى تغريد البلابل وزقزقة العصافير وهى تطير زرافات ووحدانا . والحق أننا رأينا فى لندن كل ما تشتهيه قلوبنا والفضل فى ذلك لفريد وفرانك ، فالانجليز رغم بطئهم فى رفع الكلفة مع الناس ، قوم لا يسبقهم أحد فى الكرم وحسن الضيافة حين يأتلفون . وقد ذكر آل فوهن أنهم يأملون فى زيارة روما فى الشتاء القادم ، ورجائى أن تسعدنى الظروف بلقائهم هناك ،

Twitter: @ketab_n

فقد ربطتنى بجريس أختهم صداقة متينة كما كان الفتيان — خصوصا فريد — غاية فى اللطف والأدب •

وما كدنا نصل الى باريس ، حتى لحق بنا فريد قائلا إنه جاء لقضاء عطلته ، وأنه فى طريقه الى سويسرا • واستقبلته عمتى بشىء من الفتور أول الأمر ، ولكنه لم يأبه لذلك ، مما أسكت العمة فلم تقل شيئا ، ثم سادت روح المودة بعد قليل ، واغتبطنا جميعا بحضوره ، فهو يتقن الفرنسية ويتكلمها كأبنائها • ولست أدرى ماذا كنا نفعل بدونه ، فزوج عمتى لا يعرف من الفرنسية أكثر من عشر كلمات ، ويصر دائما على الحديث بالإنجليزية فى صوت عال لعلهم يفهمون ما يقول ••• وعمتى تتكلم الفرنسية بلهجة عتيقة لا يستعملها الناس فى الوقت الحاضر ، أما فلو وأنا ، فرغم ما كنا نظنه فى أنفسنا من معرفة وبراعة ، فقد اكتشفنا عند وصولنا باريس ، أن ذخيرتنا من الفرنسية لا تجدى فتيلا ، ولذلك حمدنا الظروف التى جمعتنا بفريد ، ليقوم عنا بمهمة الحديث والتفاهم •

وعلى أى حال ، نحن نقضى وقتا بهيجا ممتعا ، ونشاهد طول اليوم أجمل المناظر وأهم المعالم ، ونتناول غذاءنا فى المقاهى المبهجة السارة ، حيث نلتقى بأقوام مختلفى المشارب ، ونصادف مغامرات غاية فى الغرابة • وفى الأيام الممطرة أقضى معظم وقتى فى متحف اللوفر ، أتأمل اللوحات الجميلة ، وروائع الفن الخالد ، وأقف أمام كل صور من هذه الروائع أمتع قلبى وعينى بما يهذب ذوقى وفنى • أما فلو فلا تهتم بالفنون ، وتفضل عليها آثار العظماء ، وقد رأينا بالمتحف قبعة نابليون وصداره ، ومهد طفله ، وفرشاة أسنانه ، كما رأينا حذاء مارى انطوانيت ، وخاتم سان دينى وسيف شرلمان ، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة الهامة ، التى

Twitter: @ketab_n

لا يسمح الوقت بوصفها الآن ، ولكنى سأحدثكن عنها ساعات حين أعود إليكن .

أما « البالية رويال » فقطعة من الجنة ، ففيه أفخر الجواهر وأندر التحف ، وكاد يحيينى الجنون لعجزى عن شراء شىء منها ، وقد أراد فريد أن يشترى لى هدية . ولكنى رفضت بالطبع . وغابة بولونيا والشانزليزيه آيتان فى العظمة وكان من حسن حظى أن شاهدت الأسرة المالكة عدة مرات : والإمبراطور قبيح الشكل قاسى المظهر ، والامبراطورة شاحبة اللون جميلة ، ولكن ذوقها ردىء فى اختيار ملابسها ، إذ كانت ترتدى ثوبا أحمر قانيا ، وقبعة خضراء ، وقفازا أصفر . أما الامبراطور الصغير ففتى جميل لطيف ، يتحدث دائما مع رائدة ، الذى يرافقه فى عربة مطهمة يجرها جياد أربعة ، وبين آن وآخر يرسل القبلات بيده الى الشعب الواقف على جانبى الطريق . وكان السائق يرتدى ثيابا مزركشة ، وفرسان الحرس يسيرون أمام العربة وخلفها .

إننا نتنزه عادة فى حدائق التوليرى ، ولكنى شخصيا أفضل حدائق لوكسمبورج . والمدافن هنا غريبة جدا ، والمقابر أشبه بالغرف الصغيرة ، فى كل منها مائدة عليها صورة الميت ، وحول المائدة مقاعد يجلس عليها المحزونون حين يأتون للذكرى والعزاء ، ألا تتمشى هذه العادة مع الموضات الفرنسية ؟؟

إننا حجراتنا تطل على الشارع ريفولى ، ويمكننا من الشرفة أن نرى الشارع كله ممتدا أمامنا . ومن التسليات الحقة ، أن نقضى أمسياتنا فى الشرفة المطلة على الشارع ، نتناول الحديث الهادىء بعد متاعب اليوم وتنقلاته . إن فريد فتى مسل للغاية ، وهو — باستثناء لورى — أكثر الشبان الذين عرفتهم لطفا ومجاملة . إنه وديع الخلق لطيف المعشر ، وكنت

Twitter: @ketab_n

أفضل أن يكون أسمر البشرة ، لأنى لا أحب الرجال البيض ، ولكن آل فوهن على كل حال قوم أثرياء ، وينحدرون من أصول عريقة فى المجد ، وشعرهم الأصفر لا يعيبهم ، لأن شعرى أنا شخصيا أشد صفرة من شعرهم •

سنسافر فى الأسبوع القادم الى ألمانيا وسويسرا ، وستكون تنقلاتنا سريعة ، وقد لا أستطيع أن أكتب لكم إلا خطابات قصيرة عاجلة • إنى أكتب يومياتى وأحاول أن أضمنها كل ما يقع ، وأصف فيها ما رأيته وأعجبت به فى وضوح عملا بنصيحة أبى •• إن السفر تجربة طيبة ، وستكون رسومى أوضح من كتاباتى فى التعبير عن إحساساتى ومشاهداتى •

والى أن ألقاكم ثانية أضمكم جميعا الى صدرى فى حنان

صديقتكم

آمى

هيدلبرج :

أمى العزيزة

أنتهز هذه الساعة الهادئة ، التى أتيحت لى قبل السفر الى برن ، لأكتب إليك أخبارى ، وبعضها مهم كما سترين •

كانت رحلتنا فى نهر الراين غاية فى الكمال والجمال ، حتى لتعجز أبلغ العبارات عن وصفها ، فعودى الى ما لدينا من كتب السياحة واقرئى عنها • لقد قضينا وقتا ساحرا فى كوبنتز ، وأسمعنا بعض أصدقاء فريد من طلبة مدينة بون ، عزفا بديعا للسرينادا الجميلة • وكانت الليلة مقمرة ، وقد مضت على منتصف الليل الساعة ، حين استيقظت أنا وفلو على نغمات هذه الموسيقى ، وإذا بنا نرى فريد وأصدقاءه يعزفون ويغنون ، وبنا لها

Twitter: @ketab_n

من لحظة شاعرية بديعة ، لم يسبق لى أن حظيت بمثلها : الليل الساجى ، والنهر المنساب ، والقنطرة القديمة ، والمراكب السارية ، والحصن القديم يربض أمامنا على الشاطىء ، وضوء القمر يفيض على الكون جمالا ، وموسيقى ساحرة تلين أقسى القلوب وأشدها تحجرا !!

ولما انتهوا من غنائهم رميناهم ببعض الزهور ، فهرعوا يلتقطونها ، وأرسلوا بأيديهم قبلات فى الهواء ، الى أولئك السيدات المختفيات وراء الستر ، ثم انصرفوا ضاحكين ، وأعتقد أنهم ذهبوا يكملون سهرتهم فى مشروب البيرة القريب • وفى صباح اليوم التالى أرانى فريد زهرة احتفظ بها فى جيبه ، وكانت لهجة حديثه مفعمة بالعاطفة ، فضحكت منه وادعيت أن فلو هى التى ألقتها عليه ، عندئذ استاء وألقى الزهرة من النافذة ، ثم عاد الى سابق عقله ورزانته • وكل ما أخشاه ، أن يجلب هذا الفتى المتاعب ، فالبوادر كلها تدل على ذلك • •

وكانت بادن بادن وحمامات ناسو غاية فى المرح ، ولكن فريد خسر فيها بعض نقوده ، ولذلك عنفته وراجعته ، لأنه بحاجة الى من يرعاه فى غياب أخيه فرانك • وأذكر بهذه المناسبة أن كيت أفصحت لى ذات مرة عن أملها أن يتزوج فريد سريعا ، وقد وافقتها على رأيها ، لأن الخير كل الخير فى زواجه •

وكانت فرانكفورت غاية فى الإمتاع ، وشاهدت فيها بيت « جوته »، وتمثال « شيللر » ، وأريادن المشهورة « لدانيكار » • وأعتقد أنه لولا جهلى بقصة أريادن ، كنت استمتعت أكثر ، ولكنى كرهت أن أسأل واحدا عنها ، إذ كانوا جميعا يعرفونها ، أو يتظاهرون بمعرفتها على الأقل • ليت جو حدثتنى عنها ، أو ليتنى توسعت فى القراءة لأزيد معلوماتى ، فقد كاد يقتلنى الشعور بالجهل •

Twitter: @ketab_n

وننتقل الآن الى الأخبار الهامة التى وقعت حـوادثها قبل رحيل فريد • كان فريد عطوفا علينا ، مسليا مرحا ، بحيث أحببناه جميعـا • والواقع أننى لم أكن أرى فيه سوى الصديق المخلص والرفيق الطيب ، حتى كانت ليلة السريـنادا • ومنذ تلك الليلة شعرت أن السير فى ضوء القمر والأحاديث الطويلة فى الشرفة ، والنزهات اليومية ، لا تنطوى على مجرد التسلية • وصدقينى يا أماه ، أنى لم أغازله ، لأنى مازلت أذكر نصائحك وأعمل بها ، وقد بذلت كل جهدى فى البعد عن المتاعب ، ولكن ما ذنبى إذا كان الناس يتعلقون بى ويحبوننى ؟ إنى لا أفعل شيئا من ناحيتى ، ولكنى لا أستطيع أن أخرج عن أصول الذوق ، والأدب ، فأهمل الناس • • • أعلم أن جو ستتهمنى بقسوة القلب ، وستهز والدتى رأسها أسفا ، وتقول أخواتى : « تبا لهذه الفاجرة التعسة ! » ، ومع ذلك قررت أن أوافق على الزواج منه إذا طلب يدى ••• لست مجنونة بحبه ، ولكننا على وفاق تام ، وهو شاب مجتهد وسيم ، يفوق آل لورنس ثراء ً ، ولن يعترض أهلة على زواجه منى ، لأنهم مثل أعلى فى الرفق والثقافة والأدب والعطف ، وكلهم يحبوننى وسوف تكون المزرعة من نصيب فريد باعتباره أكبـر التوأمين ، وهى مزرعة عظيمة ضخمة • وللعائلة بيت كبير فى المدينـة ، قد يكون خاليا من مظاهر الفخامة والعظمة ، ولكنه كامل فى أسباب الراحة والاستعداد ، وأنا أحب هذا الضرب من الترف الإنجليزى الحقيقى • وقد شاهدت أطقم الموائد الفاخرة التى يملكونها ، ومجوهرات الأسرة ، والخدم القدامى الذين تربوا فى الأسرة ، وصور المناظر الريفية ، كما رأيت الحدائق الكبيرة ، والملاعب الجميلة والمنازل الفخمة ، والخيـول المطهمة • وهذا أقصى ما أتمناه ، ورأيى أنه خير من الألقاب الخالية من الثراء ، وقد تكون نظرتى الى الحياة مادية تجارية ، ولكنى أكره الفقر ، وليس فى نيتى أن أحتمله طويلا •

Twitter: @ketab_n

يجب أن تتزوج إحدانا رجلا موسرا ، ولما كانت ميج لم تحقق هذا ، وجو لا تريده ، وبث لا تستطيع الزواج الآن ، فعلى أنا أن أحقق الترف ، وأجعل الحياة من حولى جميلة مبهجة ، كونى على ثقة بأن المال لن يغرينى بالزواج ممن أكره أو أحتقر ، وقد لا يكون فريد بطل أحلامى ، إلا أنه رجل لا بأس به ، وسوف أروض نفسى على حبه ، ما دام مولعا بى كريما فى معاملتى • هذا ما كنت أفكر فيه طوال الأسبـوع الماضى ، ولم يكن فى مقدورى أن أرى فريد يتعذب فى حبى ••• حقيقـة أنـه لم يصرح بعواطفه ، ولكن الشواهد كلها كانت تدل على ذلك ، فهو لم يخرج مرة واحدة مع فلو ، وكان يجلس فى العربة أو على المائـدة بجانبى ، يسير بجوارى أينما ذهبت ، وتغلبه العاطفة حين ينفرد بى ، كما كان يتملكه حين يرى أحـدا يتحـدث الىّ • وبالأمس فقط كنا نجلس الى مائدة الطعـام ، وكان بالمطعم ضـابط نمسـاوى ، ظل يحـدق فى وجهى ثم قال لصديقه بالألمانية : « يا لها من فتاة شقراء جميلة ! » وما أن سمع فريد هذه العبارة ، حتى زمجر كالأسد ، وراح يقطع اللحم بوحشيـة أطارته من صحنه • وهو ليس باردا كبقية الإنجليز ، وفى طبعه حـدة شديدة ، ترجع الى الدم الأسكتلندى الذى يجرى فى عروقه •

وصعدنا الى القلعة القديمة عند غروب الشمس : ولم يكن فريد معنا ، ولكنه وعد باللحاق بنا بعد أن يذهب الى مكتب البريد ليسأل عن رسائله • وأمضينا وقتا طيبا ونحن نطوف بالخرائب وأقبية الخمـور المعتقة ، وقد أعجبت بالشرفة الفخمة ومناظرها الساحرة ، ولذلك آثرت أن أجلس فيها حتى يعود الآخرون من زياراتهم الداخلية • ورحت أقطع الوقت بالرسم ، وحاولت أن أنقل صورة رأس تمثال الأسد البارز على الحائط ، ومن حوله الأغصان الحمراء المتدلية • وأحسست وأنا أجلس

Twitter: @ketab_n

أمام الوادى البعيد ، وأستمع الى أنغام الموسيقى ، التى تعزفها الفرقة النمساوية أسفل الشرفة ، أننى بطلة قصة غرامية ، وأنى أتطلع الى الأفق فى انتظار مقدم الحبيب • وكان قلبى يحدثنى بقرب حدوث شىء فى تلك اللحظة وأننى على استعداد له ، ولم أشعر بالخجل أو الاضطراب ، بل كنت على العكس غاية فى الهدوء والثبات ، اللهم إلا قليلاً من الانفعال •

وبعد قليل سمعت صوت فريد من بعيد ، ولم يلبث أن دخل مسرعا يبحث عنى بلهفة ، وكان الاضطراب باديا عليه الى درجة نسيت معها نفسى فسألته : « ماذا حدث ؟ » ، فقال إنه تلقى خطابا من أهله يستدعونه فيه الى لندن على عجل ، لأن فرنك مريض جدا ، وقال أيضا أنه ينوى العودة فى قطار الليل ، وليس عنده من الوقت إلا بقدر ما يودعنا •

وشعرت بالأسف لأجله ، وأحسست بخيبة الأمل ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة قصيرة ، إذ قال لى وهو يشد على يدى بطريقة لا يمكن أن أخطىء معناها :

— سأعود سريعا ، وأرجو ألا تنسينى يا آمى !

ولم أعده بشىء ، واكتفيت بالنظر إليه ، ولكنه بدا راضيا بذلك ، وفى الواقع لم يكن لديه متسع لأكثر من تحية الوداع ، لأنه كان مسافرا بعد ساعة • وفى الحقيقة إننا جميعا افتقدناه بعد سفره •

لا شك أنه كان يريد أن يفاتحنى فى الزواج ••• ولكنه ارتأى أن يؤجل ذلك لسبب لا أعرفه ، وقد يكون راغبا فى استشارة أبيه ، فقد حدثنى ذات مرة أن أباه يخاف عليه من الزواج بأجنبية ، ولذلك أخذ منه وعدا بأن لا يفعل شيئا دون تفكير وروية •• ربما يكون هذا ، أو أمر آخر •• على كل حال سوف نتقابل فى روما بعد وقت قصير ، فأوافق على الزواج منه إذا طلب ذلك ، هذا طبعا إذا لم أكن قد غيرت فكرى •

Twitter: @ketab_n

وعلى كل حال إن المسألة كلها سر الى الآن ، ولكنى أردت أن أحيطك علما بكل ما يدور هنا • أرجو أن لا تقلقى من ناحيتى ، واذكرى دائمـا أننى ابنتك آمى العاقلة الحكيمة ، وثقى بأننى لن أقدم على عمل طائش ، وابعثى إلىّ ما تريدين من النصائح ، وأعدك بأن أعمل بها ما استطعت • وددت لو استطعت أن أتحدث إليك طويلا يا أماه •

لك محبتى وثقتى •

ابنتك دائما

آمى

Twitter: @ketab_n

الفصل الثانى والثلاثون

متاعب رقيقـــة

قالت مسز مارش :

ـ جو ، إن حالة بث تقلقنى •

قالت جو :

ـ ولماذا يا أماه ؟ إنها تبدو بخير على غير عادتها •

قالت :

ـ ليست صحتها التى تقلقنى بل نفسيتها • أنا على يقين أن أمراً ما يشغل عقلها ، وأريدك أن تكشفى عما يدور بخلدها •

قالت جو :

ـ وماذا يدعوك الى هذا الاعتقاد يا أماه ؟

أجابت :

ـ انها تجلس وحيدة وقتا طويلا ، ولا تتحدث الى أبيها كالمعتاد ، وقد وجدتها تبكى أول أمس ، وأسمعها تترنم دائما بالأغانى الحزينة ، وأحيانا أرى فى عينيها نظرات عميقة لا أفهمها • هذه ليست بث التى نعرفها ، وحالتها تقلقنى وتزعجنى •

قالت جو :

ـ وهل سألتها عن ذلك ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ـ حاولت ذلك مرة أو مرتين ، ولكنها كانت تتحاشى الاجـابة ، أو تنظر الى بحزن يجعلنى أكف عن الحـديث • وأنت تعلمـين أننى لا أضطر أولادى الى الثقة بى ، ورغم ذلك سرعان ما أنالها •

وكانت مسز مارش وهى تتكلم ، تحقق النظر فى وجه جو ، كأنهـا تبحث فيه عن الخبر اليقين ، وكان من الواضح أيضا أن ابنتها لا تعرف السر فى متاعب أختها بث • وبعد تأمل قليل قالت جو :

أعتقد أن بث تنمو وتكبر ، وفى هذه الفترة من عمرها تكثر الأحلام والآمال ، وتتوالى المخـاوف والاضطرابات التى لا تعرف لهـا سببا ولا تجد تفسيرا • لست أرى سببا يدعوك الى القلق يا أماه ، فأختى بث فى الثامنة عشرة من عمرها ، ولكننا لا نعتقد ذلك ، وما زلنا نعاملها كطفلة ، ناسين أنها أصبحت امرأة •

وتنهدت أمها مبتسمة ، وقالت :

ـ صدقت يا عزيزتى ، انها بلغت الثامنة عشرة حقـا • ما أسرع ما يمضى الزمن ؟ !

قالت جو :

ـ لا حيلة لنا فى ذلك ، وعليك أن تقبلى مختلف أحكام الحياة ، وتتركى طيورك تطير وتخـرج من عشها واحـدة بعد الأخـرى ••• وأعدك ألا أطير بعيدا ، اذا كنت ترتاحين الى قربى • . .

قالت :

Twitter: @ketab_n

— بل أرتاح كل الراحة . فانى أشعر بالقوة وأنت بجانبى ، ولا أجد لى معينا غيرك ؛ فميج قد ذهبت ، وبث غاية فى الضعف ، وآمى لا تزال صغيرة لا يمكن الاعتماد عليها ؛ وأنت وحدك التى تصمدين للشدائد .

قالت جو :

— خلى عنك يا أماه ؛ فالأعمال الشاقة لا تقهرنى ، وأنا لا أشعر بوطأة العبء حين تحتاج سجاجيد البيت الى التنظيف ؛ أو حين يمرض نصف أفراد الأسرة فجأة . ولا بد للأسرة من فرد يتحمل المسئوليات الصغيرة ؛ وبما أن آمى — على العكس — موهوبة فى الفنون ؛ وهى تدرس الآن فى الخارج ، فثقى بأننى سأكون دائما طوع أمرك فيما تريدين .

قالت الأم :

— اذا سأترك لك رعاية بث . فما من مخلوق غير جو يستطيع أن يطرق أبواب قلبها ، ويكشف عن متاعبها ؛ لأنها تحبك وتثق بك ، فكونى بها رفيقة ، ولا تدعيها تحس بأننا نراقبها ، أو نتحدث عنها ، أملى الوحيد أن تستعيد قوتها وبشاشتها ؛ ولن يبقى لى شىء أطلبه فى الحياة اذا تحقق ذلك .

قالت جو :

اذا كان هذا كل ما تتمنين ؛ فأنت امرأة سعيدة ، أما أنا فآمالى لا تقف عند حد .

سألتها :

Twitter: @ketab_n

— وما هى آمالك يا عزيزتى ؟

قالت :

— سأبدأ بتسوية متاعب بث ، ثم أحـدثك عن نفسى .... ان متاعبى لا تثقل كاهلى ، ولن يضيرنى أن أنتظر عليها .

وانطلقت جو مسرعة ، وفى عينيها نظرة تفيض بالحكمة ، فارتاح قلب أمها من ناحيتها ، فى الوقت الحاضر على الأقل .

راحت جو ترقب بث عن كثب ، وهى تتظاهر بأنها مشغولة بشئونها الخاصة . واستطاعت بعد كثير من التقديرات والاستنتاجات والفروض المتضاربة ، أن تستقر على رأى واحـد فيما يحزن أختهـا . وكان مفتاح السر حـادثة صـغيرة ، شاهدتها جـو ... وساعدها خيالهـا الخصيب ، وقلبها الفياض بالمحبة ، على الوصول الى النتيجة ، كان ذلك فى يوم من أيام السـبت ، وكانت تتظاهر بالانهماك فى الكتابة ، وترقب أختها بعينيها خفيـة ، وكانت بث هادئة على غـير العادة ، تجلس الى النافذة ، لتمتع النظر بجمال الخريف فى الوادى ، وكاد التطريز يسقط من يدها بين وقت وآخر الى حجرها ، فتسند رأسها الى يدها ، وتتوه فى بيداء الحزن الصامت . وفجأة مر شخص تحت النافذة ، وهو يصفر نغمة موسيقية من أنغام الأوبرا ، وعلا صوت يقول : « كل شىء هادىء ا وسآتى الليـلة » ، وانفضت بث ، ومالت الى الأمام تومىء برأسـها باسمة . وظلت ترقب عابر السبيل حتى اختفى وقع أقدامه السريعة ، ثم قالت فى حنان : كأنها تناجى نفسها : « ما أقوى هذا الفتى العزيز ، وما أسعده ! » .

وتنفست جو الصعداء ، ومضت فى مراقبة أختها ، فرأت أن التورد

Twitter: @ketab_n

الذى طغى على وجهها فجأة ، لم يلبث أن انحسر عن امتقاع شـديد ، كما اختفت البسمة من شفتيها : وتدحرجت على زجاج النافذة دمعـة من عينيها • سارعت بث الى الدمعة تمسحها بكفها ، وهى تنظر بقلق الى جو ، ولكن الفتاة الحكيمة تظاهرت بالكتابة ، وبدت كأنهـا غارقة الى أذنيهـا فى قصتها الجديدة « عهد أوليمبيا » • وما أن استدارت بث ، حتى عادت جـو الى مراقبتها ، فرأتهـا تمسح دموعها بكفيهـا أكثر من مـرة ، وقرأت فى صفحة وجههـا ألما مضنيا تطوى عليـه جوانحها • وأغرورقت عينا جو شفقة على أختها ، وخافت أن تنساب الدموع على خديها فتفضـح سرها ، لذلك سارعت بالخروج من الغرفة وهى تتمتم بما ينم عن حاجتها الى مزيد من ورق الكتابة •

وجلست جو فى غرفتها تقول : « رحمتك يا الهى ! أن بث تحـب لورى ! » ، وصمتت شاردة الذهن ، وقد امتقع وجهها لوقع الاكتشاف الذى ظنت أنها وصلت اليه • قالت تحدث نفسها : « ما دار بخـلدى شيء من هذا ••• ترى ماذا تقول آمى ؟ انى لأتساءل اذاً ••• » ، وتوقفت هنيهة ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، حين لاحت لخيالها فكرة مفاجئة : « واذا لم يكن لورى يبادلها هذا الحب ! ؟ •• وكـم يكون الموقف قاسيا عندئذ •• ولكن لا •• لابد أن يحبهـا ، وسأحمله على ذلك ! » • وهزت رأسها مهددة نحـو صـورة لورى المعلقة على الحائط •• قالت لنفسها : « آه من هذا •• اننا نكبر ، وكلما اكتمـل نمونا ، توفرت عوامل فراقنا •• فميج قد تزوجت وصارت أما ••• وآمى رحلت الى باريس وهى غارقة فى نشوتها هنـاك •• ، وها هى ذى بث تقع فى شراك الحب . ولم يبق الا أنا وأحمد الله أنى استطعت التخلص من هذه الحبائل المؤذية •

Twitter: @ketab_n

ومضت جو فى تفكيرها ، ونظراتها مسمرة على صورة لورى ، ثم لم تلبث أن مسحت جبينها بيدها ، كأنها تريح الهموم عن رأسها ، ثم قالت وهى تومىء لوجه لورى بعزم : « لا يا سيدى : شكرا لك ! لست أنكر أن شخصيتك جذابة ، ولكنك كدوارة الرياح لا تستقر على حال ، ولا هم لك الا كتابة الرسائل الغرامية ، والابتسام بهذه الطريقة الايحائية ، ولكنى أؤكد لك أن هذا لا يرضينى : ولن أتقبله بأى حال من الأحوال » • وندت عن قلبها آهة عميقة ، وسرح فكرها فى تأملات لم تصح منها الا بعد أن نشر الغسق أجنحته على الكون ، فنزلت من حجرتها تراقب بث من جديد ، وتجمع الملاحظات التى تؤكد شكوكها واستنتاجاتها • على أن لورى ، وان كان يغازل آمى ، ويضحك مع جو ، فان سلوكه مع بث كان دائما غاية فى الرقة والحنان ، شأنه فى ذلك شأن أهلها وأصدقائها ومعارفها : ولذلك لم يفكر أحد فى احتمال اهتمامه بها أكثر من الأخريات • بل ان أفراد الأسرة كانوا يشعرون أنه يزداد كل يوم غراما بجو ، ولكن الفتاة لم تكن ترضى بمثل هذا الحديث ، وتشتد فى تعنيف من يوحى اليها بهذه الفكرة • ولو أنهم علموا بالرسائل الرقيقة ، التى بعث بها اليها فى العام الماضى ، والمحاولات اللطيفة التى كان يبذلها للتعبير عن عواطفه ، تلك المحاولات التى قضت عليها جو فى مهدها ، لأحسوا بالرضا البالغ ، وقالوا : « ألم نقل ذلك ونتنبأ به ؟ ولكن جو كانت تكره الغزل ولا تسمح به ، وحين ترى الأمور تتطور الى العاطفيات ، تنهى الموقف بنكتة بارعة أو بسمة لطيفة •

وكان لورى قد بدأ تجاربه فى الحب والغزل عند أول ذهابه الى الكلية ، فكان يقع فى الغرام مرة فى الشهر على الأقل ، وكان متقلبا

Twitter: @ketab_n

لا يحير طويلا على حب واحـد . لذلك مضت تجاربه فى سـلام ، ولم تنتج عنها أضرار . وكانت أنباء هذه الغراميات تسلى جـو ، وكانت تقلباته بين اليأس والسرور والاستسلام ، تثير اهتمامها ، وكان الفتى يسر اليها فى اجتماعهما الأسبوعى ، بكل ما يصادفه فى حياته من حوادث ومغامرات . ومرت على لورى فترة من الزمن كف فيهـا عن التعبد فى أكثر من محراب ، وأشار فى خفاء الى حب يملأ عليه حواسـه ، وكانت تنتابه فى بعض الأحيان أزمات نفسـية ، تسيطر فيهـا عليـه الكآبة والوجوم . ومرت فترة أخرى تحاشى فيها لورى الاشارة الى هـذا الموضـوع . وبدأ يكتب الى جو رسائل فلسفية ، وعكف على العمـل مجدا ، وأعلن عن عزمه على الفوز بمرتبة الشرف فى امتحان التخرج . وصـادف هذا السلوك هوى فى نفس الفتـاة ، التى كانت تفضـل الاتجاهات الجدية : على الجلسات العاطفية ، واللمسـات الرقيقـة ، ونظرات الجوى والهيام . وكان السر فى ذلك أن عقل جو سبق قلبهـا فى النمو ، فكانت تفضـل أبطال الخيال على أبطال الحقيقة ، لأنها حين تسـأم أبطالها الخياليين . تودعهم خزانتها ، وتغلق دونهم الأقفـال ، أما الأبطـال الحقيقيون ، فلم يكن من سـبيل الى تكييفهم حسـب ارادتها .

كانت الأمور تجرى على هذا النسق ، حتى وصلت جو الى اكتشافها العظيم ، فراحت تراقب لورى فى تلك الليلة كما لم تراقبه من قبـل . ولو كانت خالية الذهن ، ما رأت شذوذا فى صمت بث وهدوئها ، ولا فى ترفق لورى وحنانه عليهـا ، ولكنها كانت قد أطلقت لخيالها العنـان ، وسارت وراءه شوطا بعيدا ، فهربت حكمتها أمام شطحات الخيـال ، الذى أرهفته فيها كثرة تأليف القصص . وكانت بث ترقـد كعادتها على

الأريكة ، ولورى بجانبها يسليها ويجاذبها أطراف الحديث ، ويقص عليها آخبار مغامراته الأسبوعية . التى تعود أن يتحفها بها كلما آتى لزيارتها . ولكن خيل لجو فى تلك الليلة أن عينى بث مستقرتان على وجه لورى فى سرور بالغ ، وأنها تستمع فى شغف زائد الى أخبار مباراة الكريكيت الأخيرة ، وتصورت أيضا — بعد أن تجسم الوهم حتى صار كأنه حقيقة — أن لورى اذداد رقة فى سلوكه مع بث ، وأنه يخفض من صوته الى حد الهمس أحيانا ، كما لم يعد يستمرىء الضحك والهذر ، وبدا شارد الذهن مشتت الفكر ، وحين وضع الغطاء على قدمى بث ، فعل ذلك باهتمام ينم عن حنان شديد .

وعندما آوت الى غرفتها . راحت تذرع الغرفة جيئه وذهابا ، وهى تقول لنفسها : « من يدرى ؟ ربما حدث ما نتمناه ، وفى مقدور بث اذا تحابا أن تجعل منه ملكا طاهرا ، وفى مقدوره أيضا أن يجعل حياة هذه الصغيرة العزيزة هنيئة سارة . ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ .. سيحبها اذا خلا البيت منا ، ولم يبق فى طريقه الاها » .

وكان الطريق قد خلا من الأخريات ، ولم يبق فيه سواها ، ولذلك بدأت جو تشعر بضرورة انسحابها من الميدان سريعا ، ولكن الى أين تذهب ؟ وجلست تفكر فى سبيل الى الخلاص ، وكلها رغبة فى التضحية على مذبح الاخلاص الأخوى .

جلست جو على الأريكة الكبيرة تبحث عن حل لمشكلاتها ، وكانت هذه الأريكة عتيقة طويلة عريضة ، محشوة منخفضة ، ولونها لتقادم العهد باهت جدًا ، ولا غرابة فقد كانت ملجأ الأطفال ، ومنام البنات ، وكن يلعبن عليها فى أيام الصغر ، فيمتطين مسنديها ويختبئن وراءها ،

Twitter: @ketab_n

ويزحفن كالقطط من تحتها الى فوقها . ثم كبرن فكن يستلقين عليهـا طلبا للراحة . ويستمتعن فوقها بأحلام اليقظة ، ويصغين الى عبارات الغزل . وكانت جو تؤثر جانبـا من الأريكة ، فتتخذ منه ملاذا تركن اليه طلبا للراحة والهدوء ، وكان لها بين الوسائد الكبيرة وسادة خشنة مستديرة محشوة بشعر الخيل ، وأطرافها مزينة بأزرار مدببة . وكانت هـذه الوسادة ملكا خاصـا لجو ، تستخدمها سلاحا للدفاع ، وحصنا من الهجوم ووقاية من الاستغراق فى النوم .

وكان لورى يعرف هذه الوسادة حق المعرفة ، ويمقتها أشد المقت ، لكثرة ما نال من أذاها فى الأيام الخوالى ، ولأنها الآن تحول بينه وبين الجلوس مع جو فى ركن الأريكة . وكان لـ « قطعة السجق » — كما اختاروا أن يسموا الوسادة — لغة معروفة : فاذا وضعتها جو قائمة على طرفها . فهو اذن بالجلوس معها ، أما اذا سطحتها على الأريكة ، فالويل لمن يقترب منها رجلا كان أو امرأة أو طفلا . وفى تلك الليلة نسيت جو أن تحصن ركنها بالوسادة ، ولذلك لم تمض خمس دقائق ، حتى أحست بجسم ضخم يجلس بجانبها ، وقد بسط ذراعيه على ظهر الأريكة ، ومد ساقيه أمامها ، وصاح لورى يقول فى نشوة الرضـا :

— هذه جلسة مريحة لها قيمتها .

وامتعضت جـو ، وقالت :

— دعك من هذه العبارات .

ثم بدأت تجر وسادتها الخشنة المعهودة ، وتدسها بينها وبينه ، ولكن هذه المحاولة جاءت بعـد فوات الأوان ، إذ سقطت الوسادة على الأرض ، واختفت بطريقة غريبة .

Twitter: @ketab_n

قال لورى :

- دعك من هذه الخشونة يا جو ، فقد حطمنى الاجهاد والاستذكار ومن حقى أن أنال بعض التدليل ، ولا بد أن أناله .

قالت :

- انى مشغولة ، وهناك بث فاذهب اليها تدللك .

قال :

- لا ، يجب ألا نشغل بث بهذه الأمور : خصوصا أنك تحبين هذا النوع من التدليل ، إلا اذا كنت فقدت الرغبة فيه ، فهل هذا صحيح ؟ وهل أصبحت تكرهين صديقك ، وتتمنين ضربه بالوسائد ؟

وكان استعطافا مؤثرا ، لم تسمع جو مثله من قبل ، ولكنها اختارت أن تصد فتاها بسؤال محرج ، فقالت :

- كم أرسلت من باقات الزهور الى مس راندل هذا الأسبوع ؟

قال :

- ولا واحدة ، أقسم لك أنها مخطوبة الآن .

قالت :

- يسرنى أن أسمع ذلك ، فالورد مضيعة للمال ، وأنت ترسل الأزهار والهدايا الى البنات اعتباطا ، حتى اللاتى لا يهمك أمرهن مثقال ذرة .

قال :

- إن البنات العاقلات اللاتى يهمنى أمرهن كثيرا ، لا يسمحن لى بارسال الزهور والهدايا ، فماذا أفعل وعواطفى لا تجد منفذا ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ــ إن والدتى لا تقر الغزل ولو على سبيل التسلية ، وأنت تغازل بغير حساب ياتيدى •

قــال :

ــ انى مستعد للتضحية بكل شىء اذا أجبتنى بالمثل ، ولكن ما دمت عاجزا عن اقناعك بذلك ، فيكفى أن أقول اننى لا أجــد ضررا فى هــذا المزاح البرىء المسلى ، وكلهم يدرك أنه تمثيل •

قالت :

ــ يبدو أن الغزل حقيقة مسلٍ ، ولكنى لم أنجح فى ترويض نفسى على استساغته ، ولقد حاولت كثيرا ، لأن انطوائى يخرجنى عن المألوف ، وليس أبعث على الحرج والضيق من عجزنا عن مجاراة غيرنا • يبدو أننى لن أتقــدم فى هــذا المضمار كثيرا •

قــال :

ــ خذى درسا من آمى . فهى قديرة فى هــذه المسائل ، ولهــا خبرة واسعة بها •

قالت :

ــ نعم ، وهى تصرف الأمور ببراعة ، ولكنها تذهب فيها الى حد الاسراف ، وبعض الناس قادرون بطبعهم على استيعاب المرح والسرور دون جهد ومشقة ، وغيرهم يسيئون التصرف ، فيخطئون فى تقدير الوقت المناسب والمكان الملائم •

Twitter: @ketab_n

قــال :

— يسرنى جهلك بالغزل يا جــو ، فليس أدعى الى الاعجاب من فتاة رزينة تعرف كيف تمرح وتضحك ، دون أن تعرض نفسها للسخرية • أصارحك القول يا جو بأنى أعرف فتيات يسرفن فى الغــزل الى حــد مخجل ، والحقيقة أنهن لا يبغين شرا من وراء ذلك ، ولكننا نسخر بهن بعــد انصرافهن ، ولو عرفن ما يقوله الشــباب عنهن ، ما اخترن إلا مسلكا آخر •

قالت :

— وهن أيضا يسخرن بكم خلف ظهوركم ، مثلما تفعلون تماما ، ولما كانت ألسنة النســاء أقسى من ألسنتكم ، فأنتم الخاسرون ، لأنكم تتصرفون بنفس الغباء الذى يتصرفن به . فتنالون أكثر مما ينلن • لو أنكم أحسنتم سلوككم ، لاقتدينا بكم . ولكنكم تميلون الى هــذا العبث وتطلبونه . فاذا أرضينكم به ، تعودون عليهن باللائمة •

قال لورى مترفعا :

— أنت لا تعرفين كثيرا فى هــذا الموضوع يا ســيدتى ، ونحن لا نحب الغزل والمجون ، وان تظاهرنا بذلك أحيانا • والفتيات الجميلات المتواضعات لا يذكرن فى أوساط الرجال إلا بمنتهى التجلة والاحترام ، فليحفظ الله عليك براءتك • وددت لو أخذت مكانى شهرا ، لترى ما يدهشك ، وأقسم لك أننى كلما رأيت واحدة من أولئك الطائشات ، شعرت برغبة فى أن أقول لهــا ما يقولها صــديقنا « كوك روبين » : سحقا لك أيتها الحقيقة المتبرجة » •

وضحكت جو من الصراع الذى يدور فى نفس لورى ، بين عزوفه

عن ذكر النساء بسوء بدافع من رجولته وشهامته ، وبين نفوره الشديد من مظاهر العبث التى اتسمت بها الطبقات الراقية • وكانت تعرف أن لورى محط أنظار الأمهات ، وكل منهن تتطلع اليه زوجا لابنتها ، ولذلك كان يلقى العطف من النساء أينما حل أو ذهب : فالكبيرات يتقربن اليه ويمتدحنه ، والصغيرات يبتسمن اليه ويغازلنه ، فيزدنه غرورا على غرور • وكانت جو ترقبه فى غيرة خشية أن يفسده التدليل . وقد سرها غاية السرور ، أن تجده لا يزال مؤمنا فى قرارة نفسه بالفتيات المهذبات المتواضعات •

وفجأة عادت الى لهجتها الجافة ، وقالت له بصوت خفيض :

ــ إذا كنت حقًا لا تجد متنفسا لعواطفك يا تيدى ، فاذهب الى واحدة من أولئك الجميلات المتواضعات ،وكرس قلبك لها ، ولا تضيع وقتك عبثا فى الحماقات •

قال وهو ينعم النظر فى وجهها . وفى نفسه مزيج من الغبطة والقلق :

ــ أتنصحين بذلك حقًا ؟ قالت :

ــ نعم ، ومن الخير أن تتأنى حتى تنتهى من دراستك الجامعية ، وتتفرغ لإعداد نفسك لهذه المهمة ، فلست الآن أهلا لتلك الفتاة المتواضعة أيًا كانت •

قال يصدق على كلامها ، وفى وجهه أيات الخضوع والاستسلام ، التى لم تعهدها فيه من قبل :

ــ نعم •• لست أهلا لها بعد •

ثم خفض بصره الى الأرض ، وشرد ذهنه فى عالم من التفكير ، ودون أن يشعر أمسك بزر مرولة جو ، وراح يلفه على أصبعه :

Twitter: @ketab_n

قالت جو تحدث نفسها : « رحمتك يا إلهى هذا لا يجدى ! » : ثم قالت بصوت مرتفع :

ــ قم وأسمعنى أغنية ، فإنى متعطشة الى الموسيقى ، وعزفك محبب الىّ •

قال :

ــ أفضل أن أبقى فى مكانى •• مع الشكر •قالت :

ــ حسنا : ولكن المكان لا يتسـع لنا ، ولن نستطيع البقاء هنـا طويلا •

قم واعمل عملا نافعا ما دام جسمك أضخم من أن يصلح للزينة ، وأنا أعرف كم تكره أن تربط نفسك بأذيال مرولة امرأة !

قال وهو يشد على خيوط المرولة بجرأة :

ــ هـذا يتوقف على من تكون صاحبة المرولة ؟

أجابت وهى تسحب الوسادة :

ــ قلت لك اذهب •••

وعندما رآها لورى تشهر عليه وسادتها ، فر من أمامها بسرعة ، فظلت ممسكة بسلاحها ، حتى اختفى الفتى عن ناظريها •

شعرت جو بالأرق فى هذه الليلة . وسهرت طويلا ، وحين كاد النوم يغلبها ، سمعت آهة مكبوتة تنطلق من سرير بث ، فأسرعت الى فراش أختها تسألها فى قلق :

ــ ماذا بك يا حبيبتى ؟

Twitter: @ketab_n

قالت بث وهى تنشج :

ــ ظننتك نائمة يا جو . سألتها :

ــ أهو الألم القديم يعاودك يا بث ؟

قالت وهى تغالب عبراتها :

ــ لا ، بل ألم جديد لا أستطيع احتماله . قالت جو :

ــ حدثينى به . ودعينى أعالجه لك ، كما كنت أعالج ألمك القديم

وغالبت بث بكاءها ، واحتبس صوتها وهى تقول :

ــ لن تستطيعى علاجه . إذ لا علاج له !

وأمسكت بأختها ، وهى تبكى فى يأس مرير ، ارتعبت له جـو ، وامتلأ قلبها على أختها . سألتها جو :

ــ وأين هـذا الألم يا بث ؟ أأنادى أمى لترى ما بك ؟

ولم تجب بث ، ولكنها وضعت يدها على قلبها بحركة لا إرادية ، كأنما تشير الى أن الألم موطنه القلب ، وشدت بيدها الأخرى على أختها تضمها الى صدرها ، وهى تهمس فى أذنها قائلة :

ــ لا .. لا . لا تنادى أمى . سأتحسن حالا ، ارقدى بجانبى ، وسوف أهدأ بعد قليل ، وأستسلم للنوم ... سأنام حتما ...

وأطاعت جو ، ولكنها ظلت طول الوقت تتحسس رأس أختها المحمومة ، وعينيها المبللتين بالدموع ، وكان قلبها مفعما بالعطف والأسى ، ورغبتها شديدة فى معرفة ما بها ، ولكنها كانت تدرك على حداثة سنها ،

Twitter: @ketab_n

أن القلوب كالزهر لا تفتح بالقوة ، بل يجب أن تترك ، حتى تتفتح من تلقاء نفسها ، وكانت تظن أنها تعرف السر ، ومع ذلك لم تشر إليه ، ولم تنطق إلا بكلمات قليلة تفيض عذوبة وحنانا • وقالت :

ـ أهناك ما يحزنك يا عزيزتى ؟

أجابت بث بعد سكوت طويل :

ـ نعم يا جو •

قالت :

ـ ألا تقولين شيئا فتخففى عن نفسك ؟

أجابت :

ـ لا • • ليس الآن ، فلم يحن الوقت بعد • قالت جو :

ـ اذا لن أسألك ، ولكن تذكرى يا بث أنه يسرنا دائما ، أنا ووالدتى ، أن نسمع شكواك ، ونساعدك اذا استطعنا الى ذلك سبيلا •

قالت :

أعرف ذلك ، وسأحدثك بكل شيء . ولكن ليس الآن •

قالت :

ـ وهل تشعرين بتحسن الآن ؟ قالت :

ـ أشعر أنى أحسن حالا ، فأنت تهدئين النفس يا جو : وتخففين كل ألم •

قالت جو :

ـ نامى يا عزيزتى ، وسأبقى بجانبك •

Twitter: @ketab_n

واحتضنت جو أختها ، وتلاصق خداهما ، ونامتا نوما عميقا طول الليل . وفى الصباح استعادت بث هدوءها الطبيعى ، شأنها فى ذلك شأن البنات فى فجر شبابهن ، لا تدوم معهن أوجاع الرأس والقلب الا هنيهة ، كما أن كلمة حلوة تأتى بالمعجزات فى علاجهن ، فتذهب عنهن الألم بأسرع مما ينتظر ، وتسرى عن نفوسهن .

وفكرت جو فى الموقف ، وقلبته على مختلف وجوهه ، ثم اعتزمت امرا ، أسرت به الى أمها .

قالت لأمها وهما تجلسان على انفراد :

— سألتنى ذات يوم عن رغباتى ، غاليك الآن واحدة منها يا أماه . انى فى حاجة الى التغيير . وأريد أن أذهب الى مكان ما . أريد أن أبتعد عن البيت هذا الشتاء .

ونظرت اليها أمها نظرة سريعة ، كأنما تحس فى كلماتها تورية ، ثم قالت :

— ولماذا يا جو ؟

أجابت بهدوء ، وهى تنعم النظر فى قطعة النسيج التى تطرزها :

— أريد أن أشعر بشىء جديد فى حياتى . فأنا قلقة ، والأيام تمضى بى رتيبة مملة . ويقينى أن السفر يتيح لى فرص العمل والتعلم ، انى أشغل فكرى بشئونى الصغيرة الخاصة ، وحاجتى شديدة الى ما يشحذ مشاعرى ويجدد تجاربى . وسيكون مقدورى اذا انطلقت من البيت هذا الشتاء — أن أطير بعيدا ، وأجرب أجنحتى فى أجواء جديدة .

Twitter: @ketab_n

سألتها أمها :

— والى أين تطيرين ؟

أجابت :

— الى نيويورك •• لقد طرأت لى أمس فكرة جميلة ، ولعلك تذكرين أن مسز كيرك كتبت اليك عن حاجتها الى فتاة محترمة ، تقوم على تربية طفليها وتحوك ثيابها • انه مطلب عسير الحقيق ، ولكنى أشعر بصلاحيتى لهذه الوظيفة •

ودهشت مسز مارش للفكرة ، ولكنها لم تتضايق ، وانما اكتفت بسؤال جو قائلة :

— أتذهبين للخدمة فى مثل هذا البيت الكبير ، الذى يضم نزلاء كثيرين ؟

أجابت جو :

— انها ليست خدمة بالضبط ، فمسز كيرك صديقة لك ، وهى من أطيب السيدات قلبا ، وستسهل الأمور . ولن يعرفنى أحد هناك ، لأن أسرتها تعيش بمعزل عن النزلاء •• ولنفرض أنهم عرفونى ، فما أهمية ذلك ؟ ألست أقوم بعمل شريف لا عار فيه ؟

قالت أمها :

— انى مثلك تماما ، لا يهمنى ما يقوله الناس ، ولكن ما مصير كتاباتك ؟

قالت :

— سيحفزنى التغيير على مزيد من التأليف والكتابة ، فسأرى

Twitter: @ketab_n

وجوها جديدة ، وأسمع أمورا طريفة ، مما يجدد أفكارى ويزيد فى تجاربى . وحتى اذا لم يتسع الوقت هناك للكتابة ، فسأعود الى البيت ، وفى جعبتى ذخيرة من المواد المفيدة للكتابة .

قالت الأم :

ــ لست أشك فى ذلك ، ولكن ، أهذا هو السبب الوحيد لرغبتك المفاجئة فى السفر ؟

أجابت جو :

ــ لا يا أماه .

ــ وهل أستطيع أن أعرف الأسباب الأخرى ؟

وتحيرت جو وأخذت تنقل بصرها بين الأرض والسماء : ثم قالت ، وقد احمرت وجنتاها فجأة :

ــ قد يكون غرورا منى . ولكن لابد من أن أصارحك بما فى نفسى ... أخشى أن لورى قد زاد غراما بى فى الأيام الأخيرة .

فقالت مسز مارش ، وقد بدا عليها القلق :

ــ وهل معنى هذا أنك لا تهتمين به قدر اهتمامه بك ؟

قالت جو :

ــ رفقا بى يا أماه ، انى أحب لورى الآن ، كما كنت أحبه من قبل ، وما زلت فخورة به . ولكن لا أريد أن تزيد الأمور عن هذا القديم :

Twitter: @ketab_n

قالت الأم :

— انى سعيدة بما تقولين يا جـو •

فسألتها :

— ولماذا ؟

قالت :

— لأنى أعتقد أنكما تختلفان جوهريا بعضكما عن بعض ، والأمور تسـير بكمـا على ما يرام مادمتما صـديقين ، وخلافاتكما لا تلبث أن تذروها الرياح ، ولكن رباط الزواج لا يناسبكما . فكلا كمـا نزاع الى الحرية ، حاد المزاج ، شديد العناد ، مما لا يبشر بالسعادة فى حيـاة تحتاج الى الصبر البالغ والاحتمال الشديد والحب القوى •

قالت جو :

— وهذا ما أشعر به تماما . وان لم أستطع التعبير عنـه • ومن حسن الحظ أنه لم يتماد بل بدأ فقط يهتم بى ، فليس أبغض على نفسى من أن أكون سببا فى شقائه ، وقد اضطر بدافع الوفاء وحـده الى حب هذا الفتى العزيز •

سألتها أمها :

— أأنت متأكدة من أنه يحبك ؟

واشتدت حمرة الخجل فى وجنتى جو ، وبدا على وجهها ما يعتمل فى نفسها من معان اختلط فيها السرور والفخـار والألم ، شأنها فى ذلك شأن الفتيات الصغيرات • حين يتحدثن عن حبهن الأول • قالت :

— أخشى ذلك يا أماه • حقيقة أنه لم يقل شيئا ، ولكنه ينظر الى

Twitter: @ketab_n

نظرات طويلة ، لا تخفى معانيها ، ومن الخير أن أذهب قبل أن تتطور الأمور وتتعقد •

قالت أمها :

— صدقت يا جو ، وستسافرين اذا أمكن تدبير الأمور •

وتنفست جو الصعداء ، وقالت باسمة بعد سكوت قصير :

— لابد أن يثير تدبيرك عجب مسز موفات : وسيزداد سرورها لرحيلى ، لأنها ما تزال تأمل فى لورى !

قالت مسز مارش :

— لا يا جو ، قد تختلف الأمهات فى مسائل زواج بناتهن . ولكنهن يتفقن جميعا على التمسك بأهداب الأمل ، وليس بينهن الا من تنشد لبناتها أقصى السعادة • لقد تزوجت ميج بطريقتها الخاصة ونجحت فى زواجها . وانى سعيدة لنجاحها . أما أنت فتمتعى بحريتك كما تشائين ، حتى تملى الحرية من تلقاء نفسك . وعندئذ ستدركين أن هناك ما هو أحلى من الحرية • لا يشغلنى الآن سوى آمر آمى ، وان كنت على ثقة بذوقها وحكمتها . أما بث فكل أملى أن أراها سليمة معافاة • وعلى فكرة ، لاحظت فى اليومين الماضيين أنها أكثر اشراقا ونضرة ، فهل تحدثت اليها ؟

قالت :

— نعم ، تحدثت اليها . فاعترفت بوجود بعض المتاعب ، ولكنها لم تشأ أن تفصح عنها ، ووعدت بأن تخبرنى بها فيما بعد • ولم يزد حديثنا عن ذلك . ولكنى أعرف سبب متاعبها •

وروت جو لأمها قصتها الصغيرة •

Twitter: @ketab_n

وهزت مسز مارش رأسها ، ولم تتأثر بالناحية الخيالية من القصة ، ولكنها بدت شديدة الاهتمام بما سمعته ، وعادت تؤيد رأيها الأول ، من أن ابتعاد جو بعض الوقت . يفيد لورى •• قالت جو :

— سنكتم الأمر عنه حتى تنتهى المسألة . وسأفر من الميدان قبل أن يجمع شتات أفكاره ويحزن لفراقى • وأحب أن تعتقد بث أنى سافرت طلبا للسرور والمتعة ، اذ لا أستطيع أن أحدثها بشىء عن لورى •• انترك لها أمر تدليله وتهدئته بعد سفرى • ولعلها تستطيع أن تشفيه من بوادر الغرام • ولن يصعب عليها ذلك . فقد مر بمثل هذه التجارب من قبل •

وكانت جو تتكلم وكلها أمل فى النتائج الطيبة ، ولكنها ظلت فى قرارة نفسها خائفة من وقع الصدمة على لورى ، وكانت تخشى ألا تستطيع التغلب بسهولة على حبه لها •

وعرض مشروع جو على بساط فى مجلس العائلة ، ووفق عليه بالإجماع ، بعد أن اغتبطت مسز كيرك بالفكرة ، وأبدت منتهى ترحيبها بجو . كما وعدت بأن تهيىء لها مقاما سعيدا فى الأسرة • وكان الأمل عظيما فى أن توفر لها مهنة التدريس ، الاستقلال الذى تنشده ، وتمنحها فراغا من الوقت تقضيه فى الكتابة ، هذا الى ما تستفيده من الحياة الاجتماعية الجديدة التى تنتظرها • وقد تطلعت جو الى عملها الجديد مغتبطة ، كما حرصت جد الحرص على السفر ، بعد أن أصبح عش الأسرة يضيق بطبيعتها القلب التواقة الى المغامرة •

وعندما تم الاستعداد وانتهى ، أفضت الى لورى بالقصة وهى خائفة مرتعدة ، ولدهشتها تقبل الأمر بمنتهى الهدوء • وقبيل سفرها بأيام بدت

Twitter: @ketab_n

عليه الرزانة واضحة ، وازدادت بشاشته عن ذى قبل ، وحين اتهم على سبيل الفكاهة ، بأنه قلب صفحة جديدة فى حياته ، أجاب فى وقار :

ـ نعم ، لقد قلبت صفحة جديدة ، وإنى مصمم على أن تظل هذه الصفحة مقلوبة •

وشعرت جو بالارتياح لمسلكه ، وعكفت على حاجاتها تعدها بهدوء وتفاؤل ، وزادها اطمئنانا أن رأت أختها بث منشرحة الصدر مسرورة • كانت الأمور تسير على ما يرام ، وكانت جو ترجو أن يعود سفرها بالخير على أهلها وأحبابها •

وفى الليلة السابقة لرحيلها ، قالت تحدث أختها بث :

ـ أوصيك بأن تعنى بشىء واحد •

فسألتها بث :

ـ أتعنين أوراقك ؟

أجابت جو :

ـ لا ، بل فتاى لورى : كونى رفيقة به . وأسبغى عليه حنانك •

قالت :

ـ طبعا ، ولكنى لا أستطيع أن أملأ مكانك ، وسيشعر بالأسى حين تذهبين •

قالت جو :

ـ لن يحزن لفراقى ، وتذكرى دائما أنى أتركه لعنايتك : فدلليه وسليه وراعى شئونه •

Twitter: @ketab_n

فوعدتها بث خيرا ، وهى تعجب من نظرات جو الحائرة • قالت :

— سأبذل جهدى ، ولن أهمل فى تحقيق وصيتك •

وحين ودع لورى جو ، همس فى أذنها بكلمات ذات مغزى ، قال :

— لن يغير سفرك من الأمر شيئا ، فقد وقع اختيارى عليك واستقر ، فتدبرى فيما أنت فاعلة ، وإلا جئت إليك وأعدتك الى البيت قسرا •

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث والثلاثون

اخبار جو

نيويورك ٠ نوفمبر

أمى العزيزة وأختى بث

سأكتب إليكما بانتظام فإن لدى أخبارا كثيرة ، رغم بساطة رحلتى ، وأقول بصراحة إنه حين غاب عنى وجه أبى الحبيب ، شعرت بضيق شديد ، وغمرنى احساس بالجزع ، كدت أستسلم معه للبكاء ، اولا ان سيدة أيرلندية أولادها الأربعة الصغار ، صرفوا عنى هذا الشعور بصياحهم الدائم وبكائهم المستمر ، فأخذت أسلى نفسى باعطاء هؤلاء الصغار قطعا من فطائر البندق ، فكانوا يكفون عن البكاء حتى يلتهموها ثم يعاودون الكرة ، فأعود الى اعطائهم قطعة أخرى وهكذا •

ولم تلبث الشمس أن برزت من خدرها ، فتفاءلت بذلك وارتحت ، وأقبلت على رحلتى راضية النفس مطمئنة •

ورحبت بى مسز كيرك ، واستقبلتنى بحنان بالغ ، أحسست معه كأننى فى بيتى ، رغم اتساع المكان وكثرة الغرباء فيه • وخصصت لى حجرة صغيرة فى الدور الأعلى — هى كل ما لديها — والحجرة مزودة بموقد ، ومائدة جميلة الى جانب نافذة مشمسة ، وفى استطاعتى أن أجلس الى هذه المائدة وأكتب كلما أردت ذلك • والمناظر من حولى جميلة ، وأمامى الكنيسة ببرجها الشاهق ، وفى هذا أجمل التعويض عن السلم الطويل الذى أرتقيه مرات فى اليوم • وقد أعجبت بحجرتى لأول وهلة • ودار الحضانة التى أدرس فيها وأحوك الملابس ، واسعة بهيجة تقع بجانب غرفة الاستقبال الخاصة بمسز كيرك • والبنتان الصغيرتان جميلتان ،

Twitter: @ketab_n

ولكنهما فيما يبدو مدللتان . وقد ركنتا الى الالتصاق بى بعد أن رويت لهما قصة « الخنازير السبعة » ، وأعتقد أنى سأكون مربية مثالية • وقد أعطيت الحرية فى تناول طعامى مع الأطفال ، إذا لم أشأ أن أجلس الى المائدة الكبيرة ، وهذا ما فعلته الى الآن ؛ لأنى — وإن كنتم لا تصدقون — خجولة •

قالت لى مسز كيرك فى عطف أموى : « اعتبرى نفسك فى بيتك يا عزيزتى . فأنا مشغولة طول اليوم بشئون هذه الأسرة الكبيرة ، وسينزاح الهم عن كاهلى حين أجد الأولاد معك فى أمان ••• غرف البيت كلها مفتوحة لك ، فادخليها متى تشائين . وسأبذل جهدى فى توفير أسباب الراحة لك ، واذا أردت صحبة وألفة ، ففى البيت أناس غاية فى البشاشة والمودة ••• وأمسياتك دائما خالية من العمل . وعلى أية حال ارجعى الىّ دائما فيما تريدين ، وكونى سعيدة ما استطعت الى ذلك سبيلا ••• وهذا ناقوس الشاى يدق . فينبغى أن أسرع بتغيير ملابسى » • قالت هذا ثم انصرفت مسرعة ، وتركتنى أنظم شئونى فى عشى الجديد •

وبينما أنا أنزل الدرج بعد ذلك بقليل ، وقعت عيناى على منظر لطيف — والسلم طويل جدا فى هذا البيت المرتفع — ، أن حين وصلت الى الدور الثالث ، وقفت قليلا ، وانتحيت جانبا ، لأمكن الخادم الصغيرة من الصعود ، وفى تلك اللحظة رأيت سيدا محترما يصعد الدرج ، فلما اقترب من الخادم ، حمل عنها دلو الفحم الثقيل الذى كانت تنوء به ، وواصل الصعود به ، حتى وضعه بجوار الباب ثم انصرف وهو يقول بلكنة أجنبية عامرة بالعطف والحنان : « هذا أفضل ، فالكاهل الصغير لا يستطيع أن يحتمل العبء الثقيل » •

أليس هذا عملا كريما يستحق التقدير ؟ أنا أحب هذا الخلق ،

Twitter: @ketab_n

وأوافق أبى على أن التصرفات الصغيرة تكشف دائما عن شخصية الإنسان • وحين ذكرت الحادثة لمسز كيرك فى المساء . ضحكت وقالت : لا بد أنه الأستاذ باير ، فهو يفعل ذلك دائما : وأخبرتنى أنه ألمانى عظيم الثقافة ، كبير القلب ، ولكنه أفقر من فأر الكنيسة ، ولذلك يقوم بالتدريس لبعض التلاميذ . ليسد حاجته وحاجة ابنى أخته اليتيمين ، اللذين تركتهما أمهما فى رعايته بعد أن تزوجت من أمريكى • وهذه القصة ليست عاطفية : ولكنها استرعت اهتمامى . وسرنى ما علمته من أن مسز كيرك ، وضعت تحت تصرف الأستاذ ، غرفة استقبالها الخاصة . ليستقبل فيها تلاميذه • ويفصل غرفة الاستقبال عن غرفة الحضانة باب زجاجى ، وفى نيتى أن أختلس النظر منه . وبعدئذ أصف لكما شكل هذا السيد ••• إنه فى الأربعين من عمره . فلا تخافى يا أماه !

وبعد أن تناولت الشاى ، ولاعبت الأطفال قبل نومهم ، انصرفت الى سلة الحياكة ، وقضيت مساء هادئا فى عملى الجديد • سأكتب يومياتى بانتظام ، ثم أرسلها اليكم كل أسبوع ، فمساء الخير ، والى اللقاء غدا •

« مساء الثلاثاء :

قضيت هذا الصباح وقتا نشيطا فى غرفة الحضانة ، فقد كانت البنتان غاية فى « الشقاوة » ، حتى خيل الىّ أن أمسك بهما وأهزهما بعنف ، لأردهما عن مشاكستهما . ولكن روحا طيبة أوحت الىّ أن أحول نشاطهما الى الرياضة ، وبالفعل جعلتهما تقومان بتمرينات بدنية ، وأمرتهما بالاستمرار فيها ، حتى أنهكهما التعب ، فجلستا ترتاحان فى هدوء • وبعد الغداء اصطحبتهما الخادم الصغيرة الى رياضة خارج البيت ،

Twitter: @ketab_n

وعندئذ انصرفت الى شغل الابرة بنفس راضـية • وبينما كنت أمتدح الظروف السعيدة التى هيأت فرصة اتقان صنع العرى الجميلة ، انفتح باب غرفة الاستقبال المجاورة ، ودخلها أحدهم ، وهو يترنم بلحن ألمانى ، وغلبنى الاغراء ، ودفعنى الى ما لا يصح أن أفعل ، فقمت الى البـاب الفاصل بيننا ، ورفعت جانبا من الستار الذى يحجب زجاجه ، واسترقت من خلفه النظر ، فإذا بى أرى الأسـتاذ باير فى الحجرة • وأنعمت فيـه النظر ، وهو مشغول بترتيب كتبه ، فوجدته ألمانيا أصيلا جسمه ممتلىء ، وشعره بنى مشعث ، ولحيته كثة ، وأنفه جميل ، وعيناه وديعتان ، وعلى كل حال ليس فيه من مظاهر الوسامة . إلا أسنانه البيضاء اللامعة • ولكنه أعجبنى بالرغم من ذلك ، لأن شكله يوحى بالطيبة والتواضع ، ووقاره ينم عن أصل عريق ، لم تستطع أن تخفيه ملابسه العتيقة وحذاؤه المرتوق •

وأول ما دخل الحجرة ، اتجه الى النافذة ، ليحول أبصال الزهـور نحو أشعة الشمس ، ثم ربت على ظهر القطة التى تلقته بترحيب الصديق القديم ، وعندئذ انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضا ، وحين دق الباب ، قال بصـوت عال ملؤه الحيوية والنشاط : « موجود ، تفضل » •

وكنت على وشك أن أكف عن المراقبة ، حين وقعت عيناى على طفلة صغيرة نحيلة ، تحمل كتابا كبيرا ، فدفعنى الفضول الى البقاء لملاحظة ما يدور • ورأيت الصغيرة تغلق كتابها ، وتضعه على المائدة ، ثم تجرى نحو الأستاذ وتقول :

— أريد أن أرى عزيزى باير •

وفتح لها الأستاذ ذراعيه ، وانحنى عليها يقبلها ، ثم قال :

— هاك باير . فتعالى وعانقيه يا تينـا •

Twitter: @ketab_n

وألصقت تينا شفتيها الصغيرتين بوجهه ، وطبعت عليه قبلة وقالت بالانجليزية الركيكة :

— والآن يجب أن أذاكر دروسى .

فوضعها الأستاذ فوق المائدة ، وفتح القاموس الكبير الذى جاءت به معها ، وأعطاها ورقة وقلما . فأخذت تكتب مستعينة بصفحات القاموس من وقت لآخر ، وكانت تحرك أصبعها على طول الصفحة ، كأنما تبحث عن كلمة . وكانت تقوم بهذا العمل فى جد ورزانة . لم أستطع معهما أن أكتم الضحك ، حتى كاد أمرى يفتضح . وكان باير طوال الوقت يربت بيده على شعرها الجميل فى حنان الأبوة ، مما يجعلنى أعتقد أنها ابنته ، وان كان مظهرها وملامحها تنم على أنها فرنسية لا ألمانية .

ودق الباب مرة ثانية ، ودخلت فتاتان فى ريعان الشباب ، فتركت المراقبة من وراء الباب ، وعدت الى عملى ، ولم أغادر مكانى ، رغم الضجيج الذى كان يأتينى من الغرفة المجاورة . وظلت احدى الفتاتين تتصنع الضحك طول الوقت . وتقول فى دلال : « حسنا يا أستاذ » وأخذت الأخرى تنطق الألمانية بلهجة قبيحة ، جعلته يعترض عليها فى غير هدوء أو ثبات .

وكان من الواضح أن الفتاتان ترهقان أعصابه . حتى كاد يفقد صبره ، وقد سمعته يقول لهما مرة : « لا ، ليس هكذا ... ما هكذا تنطق الكلمات ... أنتما لا تعملان بملاحظاتى » .

ومرة أخرى سمعت دقة عنيفة . كأنما ألقى الكتاب على المائدة ،

Twitter: @ketab_n

ثم قال فى صيحة يائسة : « لم تحسنا اليوم شيئا ، وقد ذهب الدرس هبــاء » •

وأخذتنى الشفقة بالرجل المســكين ، وعند ما انصرفت الفتاتان ، عدت الى الباب الزجاجى ألقى نظرة من ورائه ، لأطمئن على أنه اجتاز المحنة بسلام ••• فوجدته مستلقيا على كرسيه ، وعليه مظاهر الارهاق والإنهاك ، وظل فى مكانه مغمض العينين . حتى دقت الساعة الثانية ، وعندئذ هب من كرسيه واقفا ، ودس كتبه فى جيبه ، كأنما يستعد لدرس آخر ، ثم حمل بين ذراعيه تينا الصغيرة . التى راحت فى ســبات عميق فوق الأريكة ، وخرج بها يمشى هادئا ، خشية أن يوقظها • يخيل الىّ أنه يقاسى كثيرا من أجل هــذه الفتاة •

رجتنى مسز كيرك أن أتناول وجبة الساعة الخامســة على المائدة الرئيسية مع أهل البيت ، ولما كنت أشعر اليوم بحنين شديد الى بيتنا ، رأيت أن أجيب رجاءها ، لأروح عن نفسى ، وأستطلع أحــوال أولئك الذين يسكنون معى تحت سقف واحــد ولا أعرفهم • وأخــذت أهبتى لأبدو فى مظهر لائق . ورافقت مسز كيرك ، وفى نيتى أن أتسلل الى قاعة الطعام خلفها ، ولكنها كانت أقصر منى قامة ، فذهبت محاولاتى للاختفاء أدراج الرياح • وقدمت لى مسز كيرك مقعدا بجانبها ، فجلست عليه ، وعند ما هدأت نفسى . جمعت أطراف شجاعتى . وبدأت أجول ببصرى فيمن حولى • وكانت المائدة الطويلة ممتلئة عن آخرها ، وكان كل فرد مشغولاً بطعامه . خصوصا الرجال الذين بدوا وكأنهم مع الطعام على موعــد : فقــد ازدردوا أكلهم بسرعة . وحالما انتهى الطعــام ، انسلوا خارجين • وكان يجلس الى المائدة شبان مشغولون بأنفسهم كالعادة ، وأزواج يتبادلون الحديث فى جــد وانهماك ، وسيدات يرعين أطفالهن ،

Twitter: @ketab_n

ورجال يتناقشون فى السياسة . ولا أظن أننى سأعنى بأمر أحد من هؤلاء كلهم . ما عدا سيدة جميلة فى مقتبل الحياة . أعتقد أنها تستحق المعرفة .

وكان الأستاذ يجلس فى طرف المائدة الآخر ، وهو يجيب عن أسئلة عجوز أصم الى يمينه . ويتناقش فى الفلسفة مع فرنسى على يساره ، ولكن أحاديثه مع الرجلين لم تشغله عن أداء واجبه نحو الطعام . فأقبل عليه باجتهاد شديد . ولو كانت آمى معنا ، لقاطعته الى الأبد ، إذ كان مع الأسف يأكل بنهم مخجل لا تقره أختنا صاحبة الفخامة ، ولم أستاء لنهمه أو أتضايق ، لأنى أحب أن أرى الناس يأكلون طعامهم « بشهية ولذة » على حد تعبير حنا ، ولا شك أن الأستاذ المسكين فى حاجة دائمة الى تغذية مضاعفة . تعوض عليه الجهود الشاقة التى يبذلها فى التدريس .

التقيت وأنا أصعد الدرج بعد العشاء بشابين ، وقفا أمام مرآة الردهة ينسقان قبعتيهما . وسمعت أحدهما يقول للآخر بصوت خفيض :

ـ من هذه الزميلة الجديدة ؟

قال الآخر :

ـ مربية أو ما يشبه ذلك .

سأل الأول :

ـ وما الذى جاء بها الى مائدتنا ؟

أجاب الثانى :

ـ يقولون إنها صديقة للسيدة العجوز .

Twitter: @ketab_n

قال الأول :

— أن شكلها لطيف ، ولكنها عديمة الطراز •

قال الثانى :

— ليس لها طراز على الاطلاق ، اشعل لى سيجارتى وهيا بنا •

وتملكنى الغضب فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن استعدت هدوئى . ولم أبال بما سمعت ، فالمربية لا تقل شأنا عن الكاتب أو السكرتير ، وقد أكون محرومة من الطراز ، ولكنى راضية بذكائى الذى لا يستمتع به كثيرون • واذا كان لى أن أحكم على هذين الشابين المتأنقين ، اللذين انصرفا وهما ينفثان الدخان ، كأنهما مدخنتان ، فليس لدى ما أقول سوى أنى أكره التافهين !

« الخميس :

كان أمس يوما هادئا صرفته فى التدريس والحياكة والكتابة داخل حجرتى الصغيرة المزودة بوسائل الانارة والتدفئة ، وقد جمعت أطرافا من الأخبار . وتعرفت بالأستاذ ، وعرفت أن تينا هى ابنة السيدة الفرنسية التى تقوم بأعمال الكى فى المنزل • والطفلة الصغيرة تحب مستر باير من كل قلبها . وتتبعه فى البيت أينما ذهب ، وهو فخور بحبها ، لأنه بطبعه شغوف بالأطفال • ويحب الأستاذ أيضا الطفلتين الصغيرتين كيتى ومينى كيرك ، وهما ترويان لى أخباره كلها ، وتتحدثان عن التمثيليات التى يؤلفها • والهدايا التى يحضرها ، والقصص البارعة التى يحكيها • والشبان يتخذون منه مادة لدعاباتهم ، ويطلقون عليه أسماء مضحكة ، منها « فرنز العجوز » و « البيرة الخفيفة » و « الدب الأكبر » • ولكن مسز كيرك تقول : « إنه يتقبل مجونهم راضيا ، ويتحمل فكاهاتهم

Twitter: @ketab_n

بســماحة • ولذلك جميع من فى البيت يحبونه ، على الرغم من عاداته الأجنبية •

أما السيدة الأنيقة الجميلة ، فهى الآنسة نورثون ، وهى ثرية مثقفة طيبة القلب مهذبة ، وقد تحدثت الىّ ونحن نجلس الى مائدة العشاء الليلة — إذ تناولت عشــائى على المائدة مرة أخرى ، فليس أدعى الى التســلية من مراقبة الناس وهم يأكلون — ودعتنى الآنســـة نورثون لزيارتها فى غرفتها الخاصـــة ، وأرتنى مجموعة كبيرة من الكتب المفيدة والصور الجميلة ، وهى تعرف أناســا لهم مكانتهم وتقديرهم ، وأبرز ما فى هــذه السيدة ، روحها الودود ، لذلك سأتلطف معهــا ، لأنى فى حاجة الى معرفة المجتمعات الطيبة ، ولكنها ليست على أية حال من الطراز الذى تحبه أختنا آمى •

وكنا نجلس ليلة أمس فى غرفة الاستقبال ، فدخل علينا مستر باير ، ومعه جرائد جاء بها لمسز كيرك • ولم تكن السيدة موجودة ، ولكن مينى الصغيرة — التى تتقن قواعد اللياقة رغم حداثة ســنها — قدمتنى اليه بكل رشاقة وقالت : « هذه الآنسة مارش ، صديقة والدتى » •

وأضافت كيتى وهى طفلة رائعة :

— نعم ، وهى سيدة خفيفة الروح حــلوة الحديث ، ونحن نحبها حبًا جمًـا •

قال وهو يقطب جبينه بشكل سرت له الفتاتان :

— انى أسمعهما يضايقانك أحيانا يا آنســة مارش ، فنادنى اذا فعلتا ذلك مرة أخرى ، وسأعطيهما ما تستحقان !

Twitter: @ketab_n

ووعدته بذلك ثم انصرف . ولكن يبدو أننى سأراه كثيرا ، فقد حدث اليوم وانا أمر بغرفته . أن اصطدمت مظلتى ببابه دون قصد . فاذا بالباب يفتح على مصراعيه ، واذا بالأستاذ يقف أمامى وفى يساره جورب أزرق كبير ، وفى يمينه إبرة للرف ، ولم يبد عليه أى أثر للخجل من وضعه هذا ، وحين فسرت له ما حدث ، وأسرعت بالمسير . اوح لى بالجورب ، وقال فى سرور بالغ :

— إنه يوم جميل للمشى ، فرحلة طيبة يا آنسة .

وكان الموقف مضحكا ، ولكنى رأيت له وجها آخر أفعم قلبى بالإشفاق على هذا الرجل ، الذى لا تضطره الظروف الى إصلاح ملابسه فحسب ، بل الى رتق جواربه أيضا ، وهى مهمة شاقة بغيضة .

« يوم السبت :

لم يحدث اليوم جديد يستحق الكتابة غير زيارتى للآنسة نورثون . فى غرفتها العامرة بأجمل التحف وأندرها ... ان هذه السيدة رشيقة جذابة ، وقد أرتنى مقتنياتها الثمينة ، ودعتنى الى مصاحبتها عند ذهابها الى المحاضرات والحفلات الموسيقية ، وأظنها أرادت أن تجاملنى بهذه الدعوة ، ويقينى أن مسز كيرك حدثتها بأحوالنا ، فأخذتها الشفقة بى ، وأنا وان كنت أشد كبرياء من إبليس ، غير أن مكرمات الطيبين لا تسيئنى ، ولذلك تقبلت الدعوة شاكرة .

وحين عدت الى غرفة الحضانة ، سمعت ضجة كبيرة تنبعث من حجرة الاستقبال المجاورة ، فأسرعت اليها أتبين الخبر ، واذا بى أرى مستر باير يركع على يديه وركبتيه . وتينا تجلس فوق ظهره ، وكيتى

Twitter: @ketab_n

تجره بحبل طويل •• أما مينى فكانت تطعم ولدين صغيرين يصرخان داخل قفص صنعته لهما من المقاعد • وقالت كيتى تشرح الموقف :

— نحن نلعب النارجيرى •

وأضافت تينا وهى تشد شعر الأستاذ :

— وهذا حصانى •

وقالت مينى :

— ماما تسمح لنا بأن نفعل ما نريد فى مساء السبت من كل أسبوع حين يحضر فرانز وأميل لزيارتنا ، أليس كذلك يا مستر باير ؟

وجلس الحصان ، ونظر الىّ بحماسة تفوق حماسة الأطفال ، وقال بتؤدة :

— إنها الحقيقة يا آنسة ، واذا تضايقت من ضجيجنا ، فما عليك إلا أن تقولى « صه » ، فنركن الى الهدوء •

وكانوا فى مرح لم أر له مثيلا : فعدت الى غرفتى ، ولكنى تركت الباب مفتوحا ، لامتع النفس بلعبهم • ولعبوا لعبة « العسكر واللصوص » ، ثم رقصوا وغنوا ، وحين حل الظلام ، اجتمعوا حول الأستاذ على الأريكة ، يستمعون الى قصصه الخرافية الممتعة ، وحكاياته الشائقة ، وكم أسفت أن الأمريكيين ليسوا مثل الألمان فى بساطتهم وتمشيهم مع الطبيعة •

انى مولعة بالكتابة ، وسأظل الى الأبد أسطر ما يجول بخاطرى الورق ، إلا إن منعتنى عوامل اقتصادية ، فعلى الرغم من أنى أكتب

Twitter: @ketab_n

على ورق رفيع ، بخط دقيق ، فانى أرتعد كلما تذكرت عدد الطوابع ، التى يتكلفها مثل هذا الخطاب الطويل . وأرجو أن تبعثوا الى بخطابات آمى حالما تنتهون منها ، ولا شك أن أخبارى ستبدو تافهة بالمقارنة الى أخبارها المجيدة ، ولكنى أعرف أنكم ترحبون بكل ما أكتب . هل تيدى مشغول بالمذاكرة الى حد يمنعه من الكتابة لأصدقائه ؟ أعنى به من أجلى يا بث وابعثى إلىّ بأخبار طفلى ميج ، وبلغى الجميع حبى الشديد ؛

من المخلصة

جو

ملاحظة : عندما أعدت قراءة الخطاب ، استوقفتنى كثرة كلامى عن باير ؛ ولكن الشخصيات الغريبة تجتذبنى دائما ، ولم يكن لدى أخبار أخرى أرويها لكم ... تحياتى إليكم .

« ديسمبر :

عزيزتى

لما كان خطابى هذا أشتاتا من هنا وهناك ، لذلك وجهته إليك ، عسى أن يدخل على قلبك السرور ، ويعطيك فكرة عن مجرى حياتى فى هذا المكان ، فهى وإن تكن حياة هادئة ، إلا أنها لا تخلو من التسلية . وقد استطعت بعد « الجهود الجبارة » — على حد تعبير آمى — التى بذلتها فى تنمير الغرس العقلى والأدبى ، أن أمكن لأفكارى من الازدهار ، وأجعلى طفلتىّ الصغيرتين طوع أمرى ، وأوجههما كيفما أشاء . وفى الحق أنهما لم تبلغا بعد ما بلغته تينا والولدان الصغيران ، ولكنى أؤدى واجبى نحوهما ، وهما مغرمتان بى ... وفرانز وأميل ولدان لطيفان ، وأنا أحبهما من كل قلبى ، لأنهما خليط من الأمريكية والألمانية ، وهذا الخليط يجعلهما فى فوران دائم ... وأمسيات السبت دائما صاخبة ، سواء أقضاها الأطفال

فى البيت أم فى خارجه ، وهم يخرجون معى أنا والأستاذ • حين يكون الجو صالحا للمشى ، ومهمتى أن أرقب النظام وأحافظ عليه ، وهو عمل غاية فى التسلية •

صرت أنا والأستاذ صديقين حميمين ، وبدأت أتلقى عليه بعض الدروس ، ولم يكن مناص من ذلك ، بعد أن تطورت الأمور بيننا بطريقة غريبة • وبدأت القصة يوم نادتنى مسز كيرك ، وأنا أجتاز باب غرفة الأستاذ . وكانت فى ذلك الوقت تفتشها ، وتبعثر الأشياء هنا وهناك • قالت حين دخلت :

ـ هل رأيت عرينا بهذه الفوضى ؟ تعالى يا عزيزتى وساعدينى فى إعادة هذه الكتب الى مواضعها ، فقد قلبت الأشياء بحثا عن المناديل الستة ، التى أعطيته إياها منذ وقت قريب ، ولكنى لم أعثر لها على أثر •

وكانت حجرة الأستاذ حقيقة تشبه عرين الوحش فى فوضاها ، فالكتب والأوراق مبعثرة فى كل مكان . وعلى رف المدفأة غليون محطم وزمارة مكسورة ، وبجانب النافذة طائر بلا ذيل ، وفى الجانب الآخر صندوق للفيران الأليفة • وبين كتبه وكراساته مراكب من الورق لم يتم صنعها بعد ، وأمام المدفأة صف من الأحذية القديمة الصغيرة جففتها سخونة النيران ، وفى كل مكان من الحجرة آثار الأطفال الصغار الذين يشقى من أجلهم • وبعد طول بحث وتنقيب عثرنا على ثلاثة من المناديل المفقودة . كان أحدها فوق قفص الطائر ، والثانى ملطخا بالحبر ، والثالث محترقا بجوار الموقد ، مما يدل على أنه كان يستعمله فى تنحية الأوانى الساخنة عن النار • وضحكت مسز كيرك الوديعة من أمر الرجل ما شاء لها الضحك ، ثم وضعت مخلفات المناديل فى سلة المهملات وهى تقول :

Twitter: @ketab_n

— أظن أنه مزق بقية المناديل ليصنع منها قلوعا لمراكب الأطفال ، أو ضمادات لأصابعهم المجروحة ، أو ذيولا للطائرات ... إنها تصرفات فظيعة ، لا أستطيع أن ألومه عليها ، لأنه شارد الذهن ، ولكنه أبدا طيب القلب يلاعب الأطفال ، ويسمح لهم بامتطاء ظهره كأنه حصان أصيل .. إنه رجل وديع ، وقد تعهدت عن طيب خاطر بغسل ملابسه وإصلاحها ، ولكنه ينسى دائما أن يعطيها لى ، وأنسى أنا أن أطلبها منه ، وتكون النتيجة أن يقع فى مآزق تأتيه بالمتاعب .

قلت لها :

— دعينى أصلحها له بنفسى فأنا لا أضيق بهذا العمل ، ولا تخبريه بذلك ، حتى لا يشعر بحرج ... من واجبى أن أود جمائله ، فهو رفيق بى ، يعيرني كتبه ، ويتعب نفسه فى إحضار خطاباتى .

وهكـذا استطعت أن أرتب له أشياءه : وأن أرفو له جوربين من جواربه ، وأن أعيدهما الى وضعهما الطبيعي بعد أن أفسدهما بمحاولة إصلاحهما بنفسه . وبقى الأمر سرا ، وكان أملى ألا يعرف الأسـتاذ بصنيعى ، ولكن حدث فى الأسبوع الماضى أن كنت أتسـلى باسـتماع الدروس التى يلقيها على تلاميذه ، وكانت تينا دائبة الخروج والدخول ، تترك الباب مفتوحا وراءها : بحيث تيسر لى متابعة ما يقول . وبينما كنت أجلس بجوار الباب أرفو جورب الأستاذ ، وأفكر فيما يقوله لتلميذة جديدة يبدو عليها الغباء مثلى ، فى تلك اللحظة خرجت الفتاة من الغرفة ، وخيل إلىّ أنه خرج خلفها ، إذ ساد الصمت ولم أعد أسـمع شـيئا . وجعلت أسلىّ نفسى بتصريف أحد الأفعال التى سمعتها ، وأنا أهتز فى مقعدى بطريقة رتيبة : وفجأة تنبهت على صوت ينبعث من أمامى ، وحين رفعت رأسى وجدتنى وجها لوجه مع الأستاذ باير . وكان ينظـر إلىّ

Twitter: @ketab_n

ضـاحكا ، ويشير الى تينا أن تلزم الصـمت حتى لا أكتشف أمرهما ، فرحت أحملق فى وجهه كالأوزة المذعورة ، فقال لى :

— إنك تختلسين النظر إلىّ • كما أختلس النظر إليك ، ولا غضاضة فى ذلك ، ولكن أرجو ألا تعتبرينى مجاملا أو متطفلاً اذا سألتك : هـل تحبين أن تدرسى الألمانية ؟

قلت وقد استبد بى الخجل والحرج :

— نعم : ولكنك مشغول جدا ، وأنا غبية جدا فى الحفظ •

وضحك الأستاذ ثم قال بهدوء :

— سنرتب الوقت يا فتاتى • ولن تعيينا الحيل فى تنشيط فكرك ، ويسرنى أن أدرس لك فى المساء لأوفيك جميلك يا مس مارش •

وأشار بيده الى الجورب الذى أمسك به ، ومضى يقول :

— نعم ، إن أولئك السيدات الطيبات يعتقدن أنى رجل ساذج ، لا أشعر بما يحـدث حولى ، ولا أنتبه الى خدماتهن الجليلة ، ولا أرى ما يطرأ على جواربى من اصـلاحات : وأظن أن أزرار سترتى تنبت من تلقاء نفسها • أواه يا فتاتى ، إن لى عينا ترى ، أذنا تسمع ، وقلبا يفيض بالشكر لما تسدين من جميل • ما علينا ، تعالى يا فتاتى من وقت لآخـر لألقنك دروسا فى اللغـة الألمانية •

ولم أرفض بطبيعة الأمر هذه الفرصه الرائعة ، واتفقت معه على أربعة دروس فى الأسبوع ، ولم ألبث أن وقعت فى شراك قواعد اللغة ، واختلط علىّ أمرها إختلاطا شديد ، ولكن الأستاذ كان مثاليا فى صبره ،

Twitter: @ketab_n

وكان ينظر إلىّ فى بعض الأحيان يائسا : فأتحير : أأضحك من موقفى ، أم أبكى لخيبتى ؟ ولقد جربت الأمرين فى الواقع ، فلم تتحسن الأحوال ، وعندما بلغ غبائى أقصاه ، عيل صبر المسكين ، فألقى بالكتاب على الأرض ، وانصرف من الغرفة مسرعا . وشعرت بمنتهى الوحدة والمهانة ، ولكنى لم أغضب منه ، فقد كان الخطأ خطأى : ولم يكن للأستاذ يد فى غبائى . وعكفت على أوراقى أجمعها . وفى نيتى أن أهرب الى غرفتى ، لأهز فيها رأسى هزًا عنيفا ، حتى تتفتح أبوابه المغلقة ، فيفهم الدروس . وما كدت أهم بالخروج ، حتى رأيت الأستاذ يعود الى الغرفة ضاحكا راضيا ، كأننى قمت بعمل مجيد ، وقال :

— سنلجأ الى طريقة أخرى ، فهيا بنا نقرأ بعض القصص المسلية ، ودعينا من البحث فى هذا الكتاب الجاف القابع فى زاوية الغرفة ، فإنه يأتينا بالمتاعب .

وكان الأستاذ يتكلم برفق وبشاشة ، ثم فتح كتاب القصص ، وطلب إلىّ أن أقرأ فيه ، ولكنى كنت غاية فى الخجل ، فجعلت أقرأ وأنا مطأطئة الرأس ، مما سره كثيرا ، وزاده غبطة وإنشراحا ، ولم ألبث أن اندمجت فى الكتاب ، فنسيت خجلى ، وأقبلت على القراءة بعزم واهتمام ، وبذلت جهدى لأنطق بالكلمات الطويلة فى سرعة وجرأة ، وحين أنهيت قراءة الصفحة الأولى ، وتوقفت لحظة أستعيد فيها أنفاسى ، صفق الأستاذ بيديه إعجابا ، وقال بعطف :

— هذا حسن جدًا ، إننا نتقدم طيبا ، والآن حل دورى فى القراءة . فأصغى إلىّ :

وبدأ يقرأ بصوت قوى رخيم ، يشوّق الأسماع ويجتذبها .

Twitter: @ketab_n

وكانت القصة لحسن الحظ مضحكة ، ولذلك كان فى استطاعتى أن أضحك ، وقد ضحكت فعلا بالرغم من أننى لم أفهم نصف الكلام ، إذ كان يقرأ بسرعة وحماسة ، وكنت فى غاية الاستثارة ، وكان الموقف غاية فى الفكاهة •

وأعجبتنى هذه الطريقة ، فتقدمت تقدما طيبا ، وأصبحت أقرأ دروسى جيدا ، وأخذت أتعلم قواعد اللغة من خلال القصص والقصائد ، شأنى فى ذلك شأن مريض يعطونه الدواء ممتزجا بالحلوى •• هذه الطريقة تلائمنى ، والأستاذ — كما أرى — لم يملها بعد ، وهو كريم من جانبه • وفى عزمى أن أعطيه هدية بمناسبة عيد الميلاد ، فلست أجرؤ على نقده أجراً لدروسى ، فاقترحى علىّ شيئا جميلا يا أماه •

سرّنى ما علمته من مرح تيدى ونشاطه واجتهاده ، واغتبطت كثيرا لانقطاعه عن التدخين ، ولأنه ترك شعره ينمو ••• ألا ترين معى أن بث أقدر منى على قيادته ؟ لست أغار من ذلك ، فابذلى جهدك معه يا عزيزتى ، ولكن إياك أن تجعلى منه قديسا ، فإنى أفضله عفريتا كما عهدناه ، اقرئى له أطرافا من خطابى ، فليس لدى متسع من الوقت لأكتب له ، وفى هذا القدر ما يكفيكم جميعا ، والحمد لله على تقدم صحة بث وراحة بالها •

« يناير :

أرجو لكم جميعا ، يا أفراد أسرتى المحبوبة ، عاما سعيدا ، وأبعث بأطيب التمنيات الى مستر لورنس والفتى المسمى تيدى • أرانى عاجزة عن وصف سعادتى بهدية العيد ، التى أرسلتموها إلىّ فوصلتنى فى الليل ، بعد أن قطعت كل أمل فيها • كان خطابكم قد جاءنى فى الصباح وليس فيه اشارة اليها ، لأنكم أردتم أن تفاجئونى بالهدية ، والحقيقة أن الحيلة

Twitter: @ketab_n

انطلت علىّ ؛ وظننت أنكم نسيتمونى فى هذا اليوم السعيد ، فاستبدّ بى الحزن ، وجلست بعد تناول الشاى فى غرفتى واجمة •

وحين دق الباب ، ورأيت الحزمة الكبيرة ، استخفنى الطرب ، فقمت إليها أحتضنها وأقبلها • وكان فيها عبير البيت المنعش ، فجلست على الأرض أفك رباطها ، وأنظر فيها وآكل منها وأضحك وأبكى فى وقت واحد ، على طريقتى الهوجاء المعهودة • وكانت الأشياء التى بعثتم بها غاية ما أتمناه ، وزادنى تقديرا لها أنها صنعت بأيديكم ، ولم تشتر من السوق • وراقتنى المحبرة الجميلة التى أرسلتها بث ، وسررت بفطائر حنا كل السرور ، وسأرتدى الأقمصة الصوفية الجميلة التى بعثت بها يا أماه ، وسأقرأ بإمعان الكتب الطريفة التى أرسلها أبى ••• أشكركم ألف شكر على هذه الهدايا الرائعة •

والحديث عن الكتب يذكرنى بأننى أزداد فى هذا الباب ثراءً يوما بعد يوم ، إذ أهدانى الأستاذ باير فى رأس السنة مجموعة جميلة من مؤلفات شكسبير ، وهى مجموعة كان يعتز بها ويقدرها وكنت أعجب بها كلما رأيتها فى غرفته تشغل مكان الصدارة من كتبه الثمينة الأخرى ، كالإنجيل بالألمانية ، ومؤلفات أفلاطون وهوميروس وميلتون ، لذلك يمكنكم أن تتصوروا مبلغ سعادتى حين جاءنى بالمجموعة ، وأرانى اسمى عليها ، ومعه كلمة إهداء « من صديقك ، فريدريك باير » ، وقال لى :

ــ كنت تتمنين دائما أن تكون لك مكتبة ، وها أنا ذا أعطيك واحدة ، فبين دفتى هذا الغطاء ــ وهو يعنى الغلاف ــ عدة كتب فى كتاب واحد • اقرئيها جيدا تفيدك وتعينك ، فإن دراسة الشخصيات فى هذه المجموعة ، تسهل عليك دراسة الناس فى الحياة : وتمكنك من رسمهم بقلمك •

Twitter: @ketab_n

وشكرته قدر ما أستطيع ، وأصبح فى استطاعتى الآن أن أتكلم عن مكتبتى ، كأنما عندى مئات الكتب • لم أكن أعرف من قبل كم عدد مؤلفات شكسبير ، ولكنى لم أكن أعرف عندئذ أستاذا كباير ، يفسر لى ما أجهل ، لا تضحكوا من طريقتى فى كتابة اسم « باير » فهكذا ينطقه الألمان !

يسرنى أنكم تستمون بما أرويه لكم من أخبار هذا الأستاذ ، وأملى أن تقابلوه فى يوم من الأيام ، وستعجب والدتى بقلبه الكبير ، وسيعجب أبى برجاحة عقله ، أما أنا فأعجب بقلبه وعقله ، وأشعر بأنى صرت غنية بمعرفة صديقى الجديد فريدريك باير •

لما كنت لا أملك مالا كثيرا ، ولا أعرف على وجه التأكيد الهدية التى يقدرها ، لذلك اشتريت له عدة أشياء بسيطة ، كلها جميلة ونافعة ومسلية ، ثم وضعتها له فى حجرته حيث وجدها على غير انتظار : أهديته تمثالا صغيرا للمائدة ، وآنية جميلة للزهور — فهو يحتفظ دائما بالأزهار فى حجرته ويقول إنها تنعشه — ، وكذلك أهديته مقبضا يتناول به الأوانى الساخنة ، حتى لا يضطر الى استعمال مناديله فيحرقها • وسر الأستاذ كثيرا بهذا المقبض ، ووضعه فوق رف المدفأة كحلية ثمينة ، وأبى أن يستعمله فيما اشتريت له ، وهكذا فشلت جهودى فى محاولة إنقاذ مناديله ، وعلى الرغم من فقر الأستاذ ، فإنه لم ينس أحدا من أهل البيت وأطفاله ، لا ، ولم ينسه أحد ، من الغسالة الفرنسية الى مس نورثون ، وقد سرنى إجماعهم على تقديره •

وأقاموا فى ليلة رأس السنة حفلا تنكريا ابتهاجا بالعام الجديد ، ولم يكن لدى ثوب لائق ، فقررت ألا أشترك فى الحفل ، ولكن مسز كيرك تذكرت فى آخر لحظة أن لديها ثوبا من الحرير القصب ، فأعطتنى إياه ، وأعارتنى مس نورثون بعض الريش والدنتلا ، فتنكرت فى شخصية

غانية تاريخية ، ووضعت قناعا على وجهى ، وغيرت صوتى • ولم يعرفنى أحد من الحاضرين ، ولم يطرأ لذهن من أذهانهم أن مس مارش الصامتة المترفعة — فهم يظنون أنى خشنة جافة باردة ، أو هكذا أبدو فى نظر السخفاء — يمكنها أن ترقص وتغنى وتمرح مثلما فعلت • وكانت حقا ليلة ممتعة ، وحين خلعنا الأقنعة عن وجوهنا آخر الليل ، سرنى أن رأيت الحاضرين يحملقون فى بدهشة ، وكأنهم لا يصدقون عيونهم • وسمعت شابا يقول عنى الآخر : إننى كنت أحترف التمثيل فيما مضى ، وأنه رآنى ذات مرة أمثل على أحد المسارح الصغيرة ، أخبروا ميج بذلك ، وستضحك كثيرا لهذا الادعاء •

وكان مستر باير مستخفياً فى لباس شخصية قصصية ، وكانت تينا فى لباس حورية من الجنة ، وكان منظرهما وهما يرقصان معا ، آية من آيات الجمال الطبيعى — على حد تعبير تيدى — وعلى العموم قضينا ليلة عيد سعيدة ، وحين عدت الى غرفتى ، وأمعنت التفكير فى الأمر شعرت أننى بدأت أتقدم ، على الرغم من فشلى فيما مضى ، والدليل على ذلك أننى الآن مبتهجة على الدوام ، وأشتغل بعزيمة قوية ، وأهتم بمن حولى أكثر من ذى قبل ، وكلها مظاهر مطمئنة •

تحياتى ودعواتى لكم جميعا •

المحبة دائما

جو

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع والثلاثون

صـديق

اندمجت جو سعيدة فى الحياة الاجتماعية التى تحيط بها ، وأخلصت لعملها الذى تكسب منه لقمة العيش ، فأقبلت عليه بمنتهى جهدها وعزيمتها ، ولكنهـا اسـتطاعت على الرغم من كل هـذا ، أن تجـد فسحـة من الوقت لأعمالها الأدبية • وكان الهدف الذى تسعى إليـه طبيعيًا لفتاة مثلها فقيرة طامحة ، ولكنها لم تحسن اختيار الوسيلة لبلوغه : فقد كانت ترى المال يسبغ على الناس قوة ونفوذا ، ولذلك استقر رأيها على طلب المال بقوته ونفوذه ، لا لتنفقه فى أغراضها الخاصة ، بل لتحقق السعادة لمن تحبهم أكثر من نفسها •

وكانت جو تتمنى دائما ، أن تملأ البيت بوسائل الترف والراحة ، وتعطى بث كل ما تصبو اليه نفسـها من فراولة فى الشـتاء ، الى أرغن موسيقى تشبع بها هوايتها ، أما لنفسها فلم تكن تطلب إلا السـفر الى الخارج مع زيادة فى الدخل تمكنها من الاشتراك فى الأعمال الخيرية • وقد ظلت هذه أمانيها على مر السنين ، وكانت تبنى عليها قصورا شامخة فى الهواء •

وكانت المغامرة التى أتتها بجائزة القصة ، قد فتحت لها طريقـا يقودها بالجد والاجتهاد الى قصر أحلامها المنشود ، ولكن فاجعة القصة الطويلة التى منيت بها ، أضعفت على شجاعتها بعض الوقت ؛ ودفعتها الى الانكماش أمام الرأى العام ، ذلك العملاق الجبار الذى ترتعد له فرائص الرجال • وآثرت جو أن تهدأ قليلاً ، بعد التجربة الأولى ، التى انجلت

Twitter: @ketab_n

عن فشل وخسارة ، ولكن طموحها الشديد لم يلبث أن تيقظ فى نفسها ، فقامت تعالج عثراتها ، وتستأنف المسير فى طريق آخر ظليل ، منحها القوة ، ولكنها أوشكت أن تخلف وراءها ما هو أثمن وأعظم من حقائب المال

عاودت جو كتابة القصص ، ولكنها جنحت الى النوع المثير ، تمشيا مع مزاج القراء الأمريكيين الذين كانوا يفضلوا هذا اللون التافه ، ولم تخبر جو أحدا بعزمها ، بل عكفت على الكتابة فى صمت ، وأخرجت قصة مثيرة ، حملتها بنفسها الى مستر داشوود • رئيس تحرير مجلة « البركان الأسبوعى » • ولم تكن جو ذات خبرة بأخلاق الناس ، ولكنها أدركت بغريزتها النسوية أن الملابس الأنيقة أشد تأثيرا فى النفوس من الشخصية وأدب المعاملة • ولذلك تجملت فى ملبسها ، وارتدت أحسن ثيابها ، وحاولت أن تقنع نفسها ، وهى تصعد الدرج القذر المؤدى الى مكتب المجلة ، بأنها ليست منفعلة ولا عصبية ولا خائفة • وواصلت الصعود بشجاعة ، حتى وصلت الى غرفة مشوشة النظام ، مغبرة الجو بدخان السجائر ، وكان يجلس فيها ثلاثة رجال ، مدوا أرجلهم على الموائد بحيث أصبحت كعوب أحذيتهم أعلى من رءوسهم • ولم يحرك أحدهم ساكنا حين ظهرت جو ، فاستبد بها القلق ، وترددت قليلاً عند عتبة الباب ثم قالت فى ارتباك ظاهر : « عفوا أيها السادة ، إنى أبحث عن مكتب مجلة البركان الأسبوعى ، وأريد مقابلة مستر داشوود » •

وعندئذ فقط هبطت أعلى الأقدام عن المائدة ، ونهض أكثر الجالسين تدخينا ، وبعد أن وضع سيجارة بين أصابعه بعناية ، تقدم نحوها يحييها بوجه جامد لا ينم إلا عن رغبة شديدة فى النوم • وأحست جو بضرورة الدخول فى الموضوع بسرعة ، فقدمت له مخطوطات القصة ، وراحت

Twitter: @ketab_n

تكلم بخجل شديد ، فتتعثر العبارات على شفتيها • قالت وقد نسيت معظم الخطبة التى كانت قد أعدتها لهذا الموقف :

— كلفتنى صديقة لى بأن أقدم لكم هذه القصة ، على سبيل التجربة فقط ، ويسرها أن تعرف رأيكم فيها ، ويسعدها أن تكتب لكم غيرها ، إذا أعجبتكم •

وفيما هى غارقة فى خجلها وتلعثمها ، أمسك داشوود بالمخطوط فى يده ، وأخذ يقلب صفحاته بأصابعه القذرة ، ويلقى على صفحاته الناصعة ويتأمل ما كتب فيها ، بنظرات فاحصة ، وكانت الأوراق منمرة ومكتوبة على وجه واحد بطريقة صحفية منظمة وليست مربوطة بشريط كما يفعل المستحدثون دائما ، قال :

— ليست هذه أول تجربة على ما أعتقد !

قالت :

— لا يا سيدى ليست هذه أولى تجاربها ، فقد كتبت أكثر من مرة ، ونالت إحدى قصصها الجائزة الأولى فى مجلة « العلم » •

قال داشوود . وهو يتأمل جو من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

— أنالت الجائزة حقا ؟ ، حسنا ، اتركى لنا القصة إن شئت ، ولدينا فى الواقع كثير من هذا النوع ، بل أكثر مما نحتاج اليه ، ولكنى سألقي نظرة على قصتك ، وأبلغك رأيى فى الأسبوع القادم •

ولم تجد جو فى شخصية مستر داشوود ما يشجعها على أن تترك القصة له ، ولكن الموقف اضطرها الى ذلك ، فحيته وانحرفت ، وقد ارتفع رأسها كما اعتاد أن يرتفع عندما تتضايق أو تغضب وكانت تحس

Twitter: @ketab_n

فى تلك اللحظة بالشعورين معا ، وذلك لأن نظرات الرجال وابتساماتهم ، جعلتها تعتقد أنهم يستهينون بقصتها ، ويعتبرونها فكاهة تافهة ، وزاد من حرجها أن ودعها رئيس التحرير بضحكة ساخرة تلتها همهمة خافتة • وعادت الى البيت ، وهى نصف معتزمة ألا تعود الى هذه المجلة مرة أخرى • وأخذت تسرى عن نفسها بأشغال الإبرة ، وجعلت تشتغل بسرعة وقوة ، فلما انقضت ساعتان ، كانت قد استعادت هدوءها وأخذت تضحك مما حدث ، وتتطلع فى مرح الى موعد الأسبوع القادم •

وحين ذهبت الى المجلة فى المرة الثانية كان داشوود وحده ، وكان أكثر يقظة من المرة الماضية ، ولم يكن مشغولا بتدخين سيجارة ، بل كان أكثر انتباها وملاحظة لدواعى الأدب • فابتهجت جو بذلك ، ووجدت فى حديثه الثانى ترضية عن لقائه الأول • قال داشوود فى لهجة رجال الأعمال — ورجال الأعمال قلما يتحدثون بلفظة أنا أبدا •

— سنأخذ هذه القصة إذا لم تعارضى فى بعض تغييرات قليلة • إنها طويلة جدا ، • وستحسن بعد أن تحذفى منها الفقرات التى علمت عليها •

ولم تعرف جو مخطوطها إلا بصعوبة كبيرة ، فقد كانت أوراقه مطبقة مشوهة ، وصفحاته مملوءة بالإشارات والعلامات • فانتابها ما ينتاب الأم حين يطلب إليها أن تقطع أطراف وليدها ، ليتفق طوله مع طول المهد الجديد ، وألقت نظرة على الفقرات المطلوب حذفها ، فأدهشها أن تجدها الفقرات التى ضمنتها تأملاتها وأفكارها : والتى صاغتها بعناية ، لتحفظ بها توازن القصة • قالت :

Twitter: @ketab_n

ولكن ينبغى أن تكون للقصة مغزى يا سيدى ، وقد حرصت على أن أجعل المذنبين يندمون ويتوبون .

ونسيت جو أمر صديقتها التى كلفتها بتقديم القصة نيابة عنها ، وراحت تتكلم بلهجة المؤلفة المحنكة ، فانفرجت سمات الوقار الذى يلازم رؤساء التحرير عن مستر داشوود وقال لها باسماً :

— إن الناس يقرأون القصة طلبا للتسلية ، لا الموعظة ، والعظات الأخلاقية لا تجد لها سوقا فى هذه الأيام .

ولم يكن قوله صحيحا تماما . فسألته :

— وهل تظن أن التغييرات المقترحة تحسنها ؟

قال داشوود فى رقة وتلطف :

— نعم ، لأن الفكرة جديدة ، والصياغة جيدة ، واللغة حسنة ، وأشياء أخرى .

قالت جو ، وهى لا تكاد تعرف كيف تعبر عن نفسها :

— وما الذى ؟ .. وما هى المكافأة .. ؟

قال داشوود بلهجة من يتدارك أمرا تافها نسيه ، ورؤساء التحرير ينسون التوافه دائما :

— أوه نعم ، نحن ندفع ما بين خمسة وعشرين دولارا وثلاثين للقصص التى من هذا النوع ، والدفع بعد النشر عادة .

وكانت جو فيما مضى ، تتقاضى دولارا عن العمود الواحد ، فسرها أن يرتفع ثمن القصة الى خمسة وعشرين دولارا ، فقالت راضية :

— حسنا ، تستطيع أن تأخذها .

Twitter: @ketab_n

ثم عادت تسأله ، وقد شجعها نجاحها :

— وهل أخبر صديقتى أنك على استعداد لشراء قصة أخرى ، إذا كان لديها واحدة أحسن من هذه ؟

قال :

— لن نعد بشىء ، ولكننا سننظر فى أمر ما تقدمه لنا •• واطلبى إليها أن تختصر فى قصصها ، وتكثر من المسليات ، وتتجنب المواعظ •

وسكت برهة ثم أضاف بغير مبالاة :

— وبأى اسم تحب صديقتك أن تنشر قصتها ؟

واحمر وجه جو رغما عنها ، وقالت :

— بدون اسم إذا سمحت ، فهى لا تحب أن ينشر اسمها ، وليس لها اسم مستعار •

قال مستر داشوود ، وفى نفسه شوق الى معرفة الكاتبة الجديدة ، التى تؤلف القصص :

— ليكن ما تريد ، وسننشر القصة فى الأسبوع القادم ، فهل تأتين لتسلم النقود : أو نرسلها إليك ؟

وحسمت جو الأمر قائلة :

— بل سأمر عليك •• أسعدت صباحا •

وما كادت تنصرف حتى قال مستر داشوود ، وهو يضع رجليه فوق المكتب : « فقيرة ومتكبرة كالمعتاد ، ولكنها كاتبة لا بأس بها » •

وألقت جو بنفسها فى لجة الأدب المثير طبقا لتليمات مستر داشوود ،

Twitter: @ketab_n

واتخذت من مسز نورثبيرى مثلا تحتذيه ، ولكنها استطاعت أن تصل شاطىء الأمان ثانية بفضل المساعدة القيمة التى قدمها إليها صديق •

كانت جو — ككل الكتاب الشبان — تختار شخصيات قصصها ومكانها من خارج البلاد ، فكان قطاع الطرق واللوردات والغجر والراهبات والدوقات الذين يظهرون على مسرح مؤلفاتها ، من الأجانب دائما ، ولكنهم كانوا يلعبون أدوارهم بدقة على قدر الامكان • ولم يكن قراؤها يهتمون بالتوافه الأخرى كقواعد اللغة والوقفات والاحتمالات ، وكان داشوود يرحب بكتاباتها ، ويسمح لها بأن تملأ أعمدة مجلته بأقل ثمن ممكن ، ولكنه حرص على اخفاء السر الحقيقى فى ترحيبه هذا ، فلم يذكر لها أن أحد كتابه البارزين تركه سعيا وراء أجر أعلى عرضته عليه مجلة أخرى •

وسرعان ما اندمجت جو فى عملها الجديد ، وأقبلت عليه باهتمام شديد ، فامتلأ كيسها بالنقود ، وازداد الرصيد الذى تجمعه من أجل رحلة تسافر فيها أختها بث الى الجبال فى الصيف القادم • • وكانت جو راضية بحالها كل الرضا ، لا يعكر عليها سوى أنها لم تخبر أهلها بمشروعاتها ، وكانت تشعر أن والدتها لن توافق على هذا العمل ، لذلك آثرت أن تمضى فيه أولا ، ثم تسألها المغفرة بعد ذلك • وكان من السهل عليها أن تحتفظ بسرها ، لأن قصصها كانت تنشر بلا اسم ، ورغم أن مستر داشوود علم بحقيقة هذا الاسم ، لكنه وعدها بالصمت ، ولدهشتها حافظ الرجل على وعده •

وظنت جو أن هذا العمل لا ينطوى على أضرار ، فهى تكتب باخلاص ، وما فكرت قط أن تخط حرفا يشعرها بالخزى والخجل ،

Twitter: @ketab_n

وكانت تسكن وخـزات الضمير بتمثل اللحظـة السعيدة ، التى تكشف فيها للأسرة عن مكاسبها ، وتزيح الستار عن سرها المكتوم ضاحكة •

وقد رفض مستر داشوود أى نوع من القصص ، اللهم إلا المثيرة لعواطف الناس ، وأصر على أن تكون المناظر محـزنة مفجعة ، وهـو ما لا يتأتى بغير التنقيب فى مصائب الحياة وحوادثها فى البر والبحر ، والعلوم والفنون ، وسجلات البوليس ومستشفيات الأمراض العقلية • وسرعان ما تبينت جو أن تجاربها البريئة لم تمكنها إلا من نظرات قليلة خاطفة الى النواحى المفجعة فى الحياة ، فعكفت على سد هذا النقص بهمة فائقـة • وفى غمـرة حماستها لايجـاد مادة قصصية طريفـة ، لتبرزها فى صورة مبتكرة — ان لم تكن بالغة الاتقـان — ، راحـت تنقب فى جميع الصحف عن الحوادث والجرائم والوقائع ، وأثارت حول نفسها الشبهات فى المكتبات وهى تسأل عن مؤلفات فى السموم ، ثـم عكفت على الوجوه التى تصادفها فى الطريق ، والشخصيات التى تمر بها ، تدرسها بدقة واهتمام • • ولم تقف عند هذا الحد ، بل ذهبت الى أبعد منه ، فانغمست فى أتربة لتاريخ بحثا عن قصص قديمة تقدمها الى قرائها ، وأقحمت نفسها فى دراسـة كل ضروب الهوس والخطيئة والتعاسة ، بقدر ما سمحت لها ظروفها ، وكل غرضها من ذلك ، أن تعثر على حقائق وعبر تعينها على بلوغ مأربهـا فى كتابة القصص المثيرة • وخيل اليها أنها قد نجحت فيما تريد ، ولكنها كانت تخشى فى أعمـاق نفسها ، من أنها أقدمت على استباحة حمى المقومات الأساسية لشخصية المرأة ، • إذ كانت تعيش فى عالم منحط • ورغم أنه كان عالما خياليا ، إلا أنهـا تأثرت به ، وتركته يستولى بحقـائقة الخطـيرة على عقلهـا ومشاعرها ، ويمسح بمعانيه الخشنة براءتها الجميلة ، ويكشف لها قبل

الأوان عن مساوىء البشرية ، وهى الجانب الأسود من الحياة ، الذى سرعان ما يتكشف لنا جميعا •

وبدأت جو تحس بهذا الجانب الأسود دون أن تراه ، فان انصرافها الى وصف عواطف الآخرين ، والتعمق فى سبر أغوار مشاعرهم ، كان يحملها على التأمل والتعمق فى دراسة نفسها ، ويدفعها الى تحليل عواطفها واحساساتها ، وتلك تسلية سقيمة لا تلجأ اليها العقول الفتية السليمة إلا مكرهة • والخطايا تجلب وراءها دائما العقاب الرادع ، وقد نالت جو نصيبها من العقاب عندما آن الأوان •

ولست أدرى ما اذا كانت دراستها لشكسبير هى التى عاونتها على قراءة الشخصية ، أم تكون قد اندفعت الى ذلك بوحى الغريزة النسوية الذواقة لكل ما فى الحياة من معانى الأمانة والشجاعة والقوة • ومهما يكن من شىء فقد استطاعت جو — وهى تخلع على أبطالها الخياليين كل كمال تحت الشمس — ، أن تكتشف بطلا حيا أثار اهتمامها على الرغم من نقائصه الانسانية • وكان الأستاذ باير قد نصحها فى معرض الحديث بأن تدرس الشخصيات البسيطة الصادقة المحبوبة ، أينما وجدتها ، وقال لها ان هذه الدراسة أفضل مران للكاتب • وأخذته جو عند كلمته ، والتفتت اليه فى هدوء ، وبدأت تدرس شخصيته ، ولو علم الأستاذ بما أقدمت عليه ، لأخذه العجب كل مأخذ ، فقد كان الرجل متواضعا جدا حتى فى غروره •

وكان السر فى محبة الناس له أول ما يحير جو فى أمره ، إذ لم يكن الرجل غنيا أو عظيما ، أو صغيرا أو وسيما ، حتى تجتمع القلوب حوله ، ولكنه كان جذابا يقبل الناس على معرفته ، ويطمئنون الى صحبته ، وكان فقيرا ، ولكنه كان يبدو دائما سخيا ••• وكان أجنبيا ،

Twitter: @ketab_n

ولكنه كان صديقا للناس كلهم ... وكان كهلا ، ولكنه كان يفوق الشباب مرحا وفتوة . ولم يكن وسيما ، ولكن عيون الأصدقاء تراه دائما جميلا جذابا .

وكانت جو تراقبه عسى أن تكتشف السر فى محبة الناس له ، وأخيرا قررت أن روح الخير فى نفسه ، هى التى صنعت المعجزة : فقد كان يطوى صدره على آلامه ، ولا يلقى العالم إلا بوجه باش مستبشر ، وكان جبينه العريض عامرا بالغضون والتجاعيد ، ولكن يبدو أن الزمن ترفق به ، لعطفه وحنانه على الآخرين . وعلى العموم كان أقرب الى القديس منه إلى الانسان العادى ، فالغضون المنتشرة حول فمه ، تبدو كأنها ذكريات حلوة لحسن صنائعه وجمائله ، ونظراته خالية من القسوة والمرارة ، وقبضة يده القوية أبلغ من العطف والكلام . وحتى ملابسه بدت كأنها تساهم فى ابراز شخصيته السمحة ، فصداره الفضفاض يوحى بقلبه الكبير ، وسترته العتيقة تنم عن روح اجتماعية ، وجيوبه الكبيرة المتهدلة تدل بوضوح على أن الأيدى الصغيرة تدخل فيها خاوية وتخرج منها عامرة . وأحذيته هى الأخرى كانت رفيقة سخية ، وبنيقته لم تكن أبدا منشاة ولا جافة شأن بقية الناس . قالت جو لنفسها : « هذا هو السر ! » .

وهكذا اكتشفت أن طيبة القلب وصفاء الروح ونقاوة الشخصية ، تجمل صاحبها ، وتضفى عليه حسنا واحتراما ووقارا ، حتى اذا كان صاحبها هذا هو الأستاذ الألمانى الذى يلتهم طعامه بشراهة ، ويرتق جواربه بنفسه ، ويحمل اسم باير !

وكانت جو تقدر طيبة النفس حق قدرها ، ولكنها كانت تحترم

Twitter: @ketab_n

الثقافة أيضا ، ولذلك تضاعف تقديرها له ، عندما اكتشفت مبلغ تضلعه فى العلوم والمعارف ، وخبرت بنفسها كنوزه الذهنية الوفيرة • ولم يكن من طبع الأستاذ أن يتحدث عن نفسه ، ولذلك لم يكن أحد يعرف بمكانته الرفيعة بين قومه ، ولا بتقديرهم العظيم لعلمه ونزاهته واستقامته ، وظلت هذه الحقائق مجهولة لأهل البيت ، حتى جاء أحد مواطنيه لزيارته ، وذكرها فى معرض الحديث مع مس نورتون • ومن مس نورتون عرفت جو هذه الحقائق التى لم يشأ مستر باير أن يذكرها مرة واحدة ، فازداد تقدير الفتاة له وتضاعف اعجابها بـه ، وأحست بالفخار لأن صديقها كان أستاذا نابغا فى برلين قبل أن يصير مدرسا فقيرا فى أمريكا •

وأتاحت الظروف لجو أن تعرف فى صديقها موهبة أخرى أحسن من الثقافة ، وجاء ذلك بطريق المصادفة ، فقد كانت مس نورتون على صلة وثيقة بالأوساط الأدبية الكبيرة ، وكانت تعطف على جو الطموح وصديقها الأستاذ باير ، وتضفى عليهما مكرمات كثيرة ، ومن ذلك أن صحبتهما ذات ليلة الى احدى الندوات الأدبية المختارة ، التى عقدت تكريما لبعض المشاهير من الأدباء •

وذهبت جو وفى عزمها أن تنحنى احتراما لهؤلاء العظماء ، الذين قدستهم بكل ما فى نفسها من حماسة الشباب وفورته ، ولكنها اكتشفت أنهم كغيرهم من عامة الناس ، فأصيب تقديسها لعبقرياتهم بصدمة عنيفة لم تشف منها إلا بعد وقت طويل • وتصوروا مبلغ استيائها واستنكارها حين تطلعت باعجاب وخجل الى شاعر عظيم ، طالما خلبت أبياته الرائعة لبها ، وجعلتها تظن أنه مخلوق أثيرى يقتات — على حد

Twitter: @ketab_n

قوله فى أشعاره — « بالروح والنار والندى » ... فاذا بها تراه يلتهم طعامه فى نهم مخجل أزال عن وجهه معانى الشعر والخيال . وحين تحولت عن هذا المعبود ، الذى سقط من عليائه محطما ، روعتها اكتشافات أخرى بددت أوهامها وخيالاتها ، وقضت على احترامها للآلهة المزعومة : إذ رأت كاتبا قصصيا شهيرا يتردد بانتظام بين قنينتين من الشراب ، كأنه « بندول » الساعة . وكان القصصى الشهير يغازل علنا كاتبة معروفة ، وتلك تنظر شزرا الى أخرى أخذت تنتقدها وتسخر منها ، بعد أن قهرت جهودها فى الاستيلاء على قلب الفيلسوف العظيم الذى جلس يحتسى الشاى متناوما . وكان بين الحاضرين مشاهير العلماء ، ولكنهم نسوا حيواناتهم اللافقرية ، وأهملوا العصور الحجرية والجليدية ، وأخذوا يتحدثون عن الفنون ، وهم فى شغل شاغل بالتهام المحار والمثلجات . أما الموسيقار الشاب الذى كان يطرب المدينة بأنغامه السحرية ، فقد انصرف الى الحديث عن الخيول ، وكان أقرب الحاضرين شبها بالمخلوقات البشرية العادية نبيل انجليزى جاء الندوة ليشترك فيها .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل ، أحست جو بالانهيار ، فجلست فى ركن من القاعة تجمع شتات نفسها ، وسرعان ما انضم اليها مستر باير ، وقد بدا قلقا على غير عادته . ولم يلبث عدد من الفلاسفة أن جلسوا الى ندوة أدبية ، وجعلوا يتناقشون فى أمور لم تفهمها جو ، ولكنها حرصت على الاصغاء اليها ، فأصابتها أحاديثهم عن الموضوعية والشخصية بصداع شديد فى رأسها ، خيل اليها معه أن العالم تمزق اربا اربا ، ثم أعيد تكوينه على أسس جديدة أفضل ، كما يدعى المتحدثون . وكان النقاش يدور حول وجوب سيطرة العقل دون الدين ، ولم تكن جو تعرف شيئا عن الفلسفة أو الروحانيات ، أو غيرها من

Twitter: @ketab_n

الجوانب الشائكة ، فأحست وهى تستمع اليهم بانفعال غريب بعضه مبهم وبعضه مؤلم ، وبدت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، تضطرب بين الزمان والمكان كريشة فى مهب الريح • واستفاقت لنفسها ، ونظرت الى الأستاذ تتبين وقع هذه الأحاديث عليه ، فوجدته يحملق فى وجهها فى تجهم شديد ، وهز رأسه وأشار اليها أن تنصرف ، ولكنها كانت حينئذ مبتهجة بحرية الفكر التى تنتهكها الفلسفة النظرية • وكانت المقدمات لافتة للنظر ، فتشبثت بمقعدها ، لتتابع حديث المتحدث الفيلسوف ، وترى على ما سيعتمد بعد أن هز المبادىء ، وقضى على جميع المعتقدات القديمة •

وبدا الشك واضحا فى وجه الأستاذ باير ، ولكنه تباطأ فى عرض آرائه وأفكاره ، لا لأنها لم تكن منسقة ولا منسجمة ، بل لأنها كانت مخلصة صادقة ، وليس من اليسير أن يدلى بها على مسمع من الشبان المأخوذين بأساليب الفلاسفة البراقة • وقطب جبينه فى صمت ، لأنه كان يخشى أن يتأثر بعض الشبان المتحمسين بهذه الصواريخ المحرقة ، فيخرجوا من أحاديث الفلاسفة بنفوس خاوية وقلوب فارغة •

واحتمل الأستاذ الموقف قدر ما يستطيع ، ولكن حين دعى لإبداء رأيه ، انفجر فى حماسة وأمانة ، يدافع عن الدين بكل ما أوتى من فصاحة الحق ، فأضفى الايمان على لغته الانجليزية الركيكة نغما موسيقيا ، وأفاض على وجهه العادى جمالا • واحتدم النقاش بينه وبين الفلاسفة، واشتدت مهارتهم فى محاورته ومداورته ، ولكنه لم يكن يرضى بالهزيمة مختارا ، فصمد للدفاع عن آرائه بعظمة وجلال • وأحست جو ، وهو يتحدث ، أن ميزان الأمور عاد الى سيرته الطبيعية الأولى ، وأن المعتقدات القديمة استعادت مكانتها الخالدة فوق أطلال الجديد ، وأن

Twitter: @ketab_n

الله ليس قوة غاشمة ، والخلود حقيقة لا خرافة • وشعرت جو أن الأرض تثبت تحت قدميها ، وأنها استعادت توازنها ، ولم تعد مثل ريشة فى مهب الرياح ، وحين توقف عن الكلام مغلوبا على أمره دون اقتناع ، لم تصفق له جو ولم تشكره ، ولكن موقفه العظيم زاد احترامها له •

كانت تعرف كم كلفه هذا الموقف من جهد لا يرغب فيه ، فلولا ضيقه بما سمع ، ما وقف وما تكلم • وبدأت جو تدرك أن كمال الشخصية أثمن من الثراء والجمال والجاه ، وأنه اذا كانت العظمة — كما عرفها أحد الحكماء — هى الصدق والاخلاص والاحترام ، فصديقها فريدريك باير ليس طيبا فحسب ، ولكنه عظيم أيضا •

ونما ايمانها بعظمته يوما بعد يوم ، فكانت تقدر ميزاته حق التقدير ، وتعتز باحترامه لها ، وتود أن تكون خليقة بصداقته • وحين بلغت هذه الرغبة بنفسها غاياتها ، أوشكت أن تفقد كل شىء فى لحظة خاطفة : فقد حدث ذات مساء أن جاءها الأستاذ ، يعطيها درسا فى الألمانية ، فدخل الحجرة وعلى رأسه قبعة من الورق ألبستها له تينا ، ونسى أن يخلعها •

ونظرت اليه جو ، وقالت فى نفسها : « من الواضح أنه لا ينظر فى مرآته قبل أن يغادر غرفته » • وابتسمت وهو يقول لها :

— أسعدت مساء يا آنسة •

ثم جلست فى تؤدة واتزان ، غير آبهة بالمفارقة المضحكة بين موضوع الدرس وبين لباس الرأس ، إذ كان معتزما أن يقرأ لها قصيدة الشاعر شيللر عن « موت ولنشتاين » •

ولم تقل شيئا أول الأمر ، وقررت أن تتركه حتى يكتشف القبعة

Twitter: @ketab_n

بنفسه ، فيضحك عاليا كما اعتاد فى مثل هـذه المواقف • ولم تلبث قصيدة شيللر أن شغلتها عن القبعة ، فاندمجت فيها بروحها وفكرها ، ثم انتهى الشعر ، وبدأ الدرس ، وكانت جـو مرحة فى تلك الليلة ، وزادتها قبعته مرحا على مرح ، فراحت تنظر اليه بعينين عامرتين بالبهجة والسرور وتوقف الأستاذ عن الدرس ، وقال لها بدهشة :

— مس مارش ، أى شىء يضحكك فى وجه أستاذك ؟ ألا تحترمينى حتى تسلكى معى هـذا المسلك ؟

قالت جـو :

— وكيف أحترمك يا سيدى ، وقد نسيت أن تخلع قبعتك ! ؟

ورفع الأستاذ يده الى رأسه ، وتحسس القبعة فى وقار ، فلما أدرك ما حـدث ، خلع القبعة ، وأمسكها بيده لحظة ، ثم قهقه ضاحكا وقـال :

— لقد وضعتها العفريتة تينا على رأسى ، فجعلتنى أضحوكة لك • إنه أمر بسيط على كل حال ، ولكن اعلمى أنك ستلبسينها اذا لم تحسنى درسـك اليوم •

ولكن الدرس لم يستأنف مرة ثانية ، إذ التقى نظر مستر باير بصورة مطبوعة على ورق القبعة ، فقال باستياء واضـح :

— وددت لو لم تأت هذه المجلات الى البيت ، فهى ضارة بالأطفال ، ولا يصح أن يقرأها الشباب • إنها مجلات تافهة لا خير فيها ، ونفسى تضيق بمن يحدثون هذه الاساءات والأضرار •

Twitter: @ketab_n

وتطلعت جـو الى الصحيفة التى صنعت منها القبعة ، فرأت فيها صـورة سخيفة ، تتألف من خيول وحشـية ورجل شرير وأفعى ... فقلبت الصفحة ، ولكنها لم تفعل ذلك نقمة على الصورة ، بل خيفة أن تكون الورقة من مجلة « البركان الأسبوعى » التى تكتب فيها قصصها . وزالت مخاوفها عند ما تبين لها أن الورقة ليست من المجلة المذكورة ، وعاودها اطمئنانها الكامل حين تذكرت أنها لا تضع اسمها على قصصها ، ومن ثم فلا يحتمل أن ينكشف أمرها . ولكنها فى الواقع نمت عن سرها بنظرة من القلق التى ارتسمت فى عينيها ، وبالحمرة التى كست خديها ، وكان الأستاذ — على ما يظهر به من شرود الذهن — يدرك من الأمور أكثر مما يظن الناس ، ويعرف بأن جو تكتب للصحف ، وطالما قابلها فى دور المجلات ولما لم تحدثه عن الموضـوع من تلقاء نفسها ، اختار أن يسكت ، على الرغم مما يشتعل بين جوانحه من رغبة فى الاطلاع على ما تكتب . وخاف فى تلك اللحظة أن تكون الفتاة قـد تورطت فى كتابات تخجل من الإفصاح عنها ، فأقلقه هـذا الخاطر ، ولكنه لم يقل لنفسه كما يقول معظم الناس : « هذا شأنها الخاص ، وليس لى دخل فيه » .. بل تذكر شيئا واحـدا فى هـذا المقام ، هو أنها شابة فقيرة تعيش بعيدا عن رعاية أهلها وإرشادهم ، وأحس بدافع يدفعه الى مساعدتها ، وكان دافعا طبيعيا سريعا كالذى يجعلك تمـد يدك لإنقاذ طفل على وشـك السقوط فى الماء . وجالت كل هـذه الأفكار بذهنه فى لحظة واحدة ، ولم يظهر لهـا أى أثر على وجهه ، ولكن فى الوقت الذى قلبت جـو فيه الصحيفة ، وعادت الى إبرتها تطرز من جديد ، قال لها بجد وهدوء :

— نعم ، أنت محقة فى إبعاد هـذه الأوراق عنك ، فما يصح أن تقرأها شابة فاضـلة ، ان موضوعاتها تكتب لتسـلية نوع خاص من

Twitter: @ketab_n

الناس ، ولو كان الأمر بيدى ، لفضلت أن أعطى أولادى بارودا يتلهون به ، فضرره أقل من هذا اللغو الشرير •

قالت جو ، وهي تطرز فى سرعة مضاعفة :

— إنه لغو فارغ فحسب ، ولكن ليس كل ما يكتب شرا كما تعتقد ، وما دام الجمهور يطلب هـذا اللون ، فلا ضرر من كتابته • انى أعرف أناسا محترمين يكسبون عيشا شريفا من كتابة ما يسمى بالقصص المثيرة •

قال :

— ان الويسكى مطلوب أيضا ، ولكن مثلك ومثلى لا يرضى ببيعه ، ولو عرف الناس المحترمون كم يضرون غيرهم بما يكتبون ، ما اعتبروا كسب عيشهم شريفا ، فليس من حقهم أن يضعوا السم فى الحلوى ، ثم يطعموا به أولادا صغارا : وأفضل لهؤلاء أن يشتغلوا بكنس الشوارع ، من أن يعيشوا فى رخاء عن هـذا الطريق القذر الوضيع •

وكان مستر باير يتكلم بحرارة وايمان ، وبعد أن كور الورقة فى يده ، ألقى بها فى نار المدفأة ، فجلست جو صامتة ، وقد أحست بأن اللهيب انتقل الى خديها ، وظل وجهها متوهجا بنيران الخجل ، حتى بعد أن تحولت القبعة الى دخان تسرب من المدخنة بسلام •

قال الأستاذ ، وهو يعود الى مقعده مرتاح النفس :

— بودى لو أستطيع أن ألقى كل المجلات الضارة فى النار ، لتلقى مصير هـذه الورقة •

Twitter: @ketab_n

وطافت برأس جو صورة النيران وهى تتغذى بقصصها الكثيرة ، وثقلت على ضميرها فى تلك اللحظة ، وطأة المال الذى كسبته بكدها واجتهادها ، ولكنها قالت وهى تعزى نفسها : « ليست قصصى من الطراز الذى يعنيه ، فهى حقيقة تافهة ، ولكنها لا تضر » • وتناولت كتابها ، وقالت للأستاذ بوجه ينم عن رغبة فى الدرس :

ـ ألا نستأنف القراءة يا سيدى ، أننى على استعداد ، وسأكون عند حسن ظنك كمالا ونظاما •

قال الأستاذ :

ـ أرجو ذلك •

ولم يزد حرفا واحدا ، ولكنها استشعرت من الكلمتين معانى كثيرة ، وخيل اليها أنها ترى « البركان الأسبوعى » مطبوعة على جبينه العريض المعطوف بأحرف بارزة •

وما كادت جو تعود الى حجرتها ، حتى أخرجت أوراقها ، وأعادت كل قصة من قصصها بمنتهى العناية والدقة • ولما كان مستر باير ضعيف النظر ، فقد كان يستعمل فى بعض الأحيان نظاراته ، وقد جربت جو هذه النظارات مرة ، وابتسمت حين رأت كيف تكبر الحروف الدقيقة ، ويبدو أنها استعانت فى مراجعة قصصها هذه الليلة بنظارات الأستاذ العقلية والخلقية ، فتجسمت لها أضرار هذه القصص التعسة بشكل يملأ النفس زراية واستنكارا • قالت لنفسها : « إنها لغو وعبث ، ولكنها ستحير أسوأ اذا مضيت فى هذا الطريق ، فكل قصة أكثر استثارة من سابقتها ، والأخيرة أفظعها كلها • لقد طلبت المال على غير هدى ، فآذيت نفسى وجلبت الأذى للآخرين ، ولست أشك فى ذلك ،

Twitter: @ketab_n

فأنا لا أستطيع أن أقرأها دون أن يتملكنى خجل رهيب مما حوت • ترى ماذا أفعل لو رأى أهلى هذه القصص : أو وقعت فى يد مستر باير ؟

ودار رأس جو لمجرد التفكير فى هذا ، فقامت الى أوراقها تحملها ، ثم أسلمتها كلها طعمة للنيران ، وكانت غذاءً دسما ارتفعت له ألسنة اللهيب حتى بلغت المدخنة • قالت تحدث نفسها وهى ترى النيران تلتهم قصصها الواحدة بعد الأخرى : « نعم ، هذا خير مكان لمثل هذا اللغو المثير ، وخير لى أن أحرق البيت من أساسه : من أن أترك الناس ينسفون أنفسهم بهذا البارود الذى أقدمه لهم » •

وجلست جو على الأرض فى هدوء واتزان بعد أن ذهب إنتاجها الفكرى ، ولم يبق من مجهود ثلاثة أشهر إلا رماد تذروه الرياح ، وحفنة من المال جاءتها عن طريق تأليف سخيف • وأخذت جو تفكر فيما هى فاعلة بكسبها الحلال ، قالت لنفسها : « لم أحدث ضررا كثيرا بعد ، ومن حقى أن أحتفظ بهذا المال ، لأستعين به على الزمن » •

ثم قالت بعد تأمل وتفكير طويل : « وددت لو لم يكن لى هذا الضمير المزعج ، فإنه يغرينى بالخير ، ويؤنبنى على الشر ، وبذلك يعوقنى عن نجاح • آه لو لم يكن والداى متشددين فى مراعاة المقاييس الخلقية ! »

ولكن جو لم تسترسل مع هذه التأملات طويلا ، وحمدت الله على وجود أبيها وأمها ، وأشفقت من كل قلبها ، على من ليس لهم رعاة يرشدونهم ويوقظون الوازع الطيب فى نفوسهم ، ويحسنون تنشئتهم على مبادىء كريمة قد تبدو فى سن الصغر قيودا وأغلالا ، ولكنها تتحول فى مرحلة النضج الى أقوى أساس فى بناء الشخصية الكاملة •

Twitter: @ketab_n

وكفت جو عن كتابة القصص المثيرة ، بعد أن أقنعت نفسها بأن الأجر الذى تتقاضاه عليها لا يساوى الجهد الذى تبذله فيها ، وانتقلت من النقيض الى النقيض ، شأن مثيلاتها من الفتيات الطيبات ، فعكفت على دراسة مؤلفات الكاتبات العظيمات ، ثم أنتجت قصة كان أولى بها أن تسميها رسالة أو موعظة ، لما حوته من تبشير بالفضائل الخلقية • وكانت جو منذ البداية تشك فى إمكان نجاحها ، بعد أن عجز خيالها الخصيب عن تلبية مطالب أسلوبها الجديد ، وعندما انتهت من كتابة القصة ، طافت بها عدة أسواق ، ولكنها لم تجد من يشتريها ، مما أقنعها بصدق ما قاله مستر داشوود من أن المواعظ الخلقية لا تجد من الناس رواجا وإقبالا •

وأعملت جو قلمها فى كتابة قصص للأطفال ، وكان من السهل أن تبيعها لو لم تستول عليها النزعة التجارية ، تطلب الكسب من ورائها • وكان الرجل الوحيد الذى قبل أن يعطيها ما تراه مناسبا ، سيدا متزمتا ظن أنه بعث لتبشير العالم بمذهبه الخاص • ومع صدق رغبة جو فى الكتابة للأطفال ، لم تقبل ما اقترحه عليها من أن تلقى بالأبطال الصغار العاصين الى الدببة تنهش لحومهم ، أو الى الثيران الهائجة تصرعهم ، لا لذنب إلا أنهم تخلفوا عن المدرسة يوما فى الأسبوع • لا ، لم يرض لها ضميرها بهذا ، وكذلك لم يرض لها منطقها بأن تكافىء الطيبين بعلم الدنيا كلها ، فتؤثرهم فى حياتهم بالفطائر اللذيذة ، وفى موتهم بجنات النعيم ومن ثم لم تثمر تجربتها الجديدة ، ولم تأت نتيجة ما ، فوضعت جو قلمها جانبا ، وأغلقت محبرتها ، وقالت بخضوع واستسلام : « إننى أعرف شيئا ، ويجب أن أنتظر حتى أعرف ، وإذا لم يكن فى استطاعتى أن أنتج خيرا من هذا ، فأكرم لى أن أكنس الطرقات ، فأقل ما يقال فى ذلك العمل أنه مهنة شريفة » •

Twitter: @ketab_n

وأثبت قرارها هذا أنها استفادت كثيرا من كبوتها الثانية •

وبينما كانت تطوى صدرها على هذه الثورات الداخليـة ، ظلت حياتها الخارجية كثيرة المشاغل خالية من الأحداث كالمعتـاد • وكانت تنتابها الكآبة أحيانا ، فلا يشعر بها إلا الأستاذ باير ، الذى كان يرقبها خفية ، ليرى أثر توجيهه فيها ، ومبلغ استفادتها به • وصمدت جو لهذا الامتحان العصيب ، فاطمأن الأستاذ واغتبط ، وبالرغم من أنها لم تشر الى الموضوع بكلمة واحدة ، فقد عرف بثاقب فكره أنها كفت عن الكتابة ، وكانت الشواهد على ذلك أن أصابعها خلت من بقع الحبر ، وأنها أصبحت تقضى أمسياتها كلها فى بهو البيت ، وأنه لم يعد يقابلها فى دور الصحف • كما أنها عكفت على الدراسة بصبر وجلد ، وشعر بأنها مشغولة الذهن بأشياء مفيدة وإن لم تكن سارة •

وحرص الأستاذ على مساعدتها ما استطاع ، وأصبح صديقا مخلصا لها ، وقد سعدت جو بهذا كل السعادة • فقد هيأت لها صحبته دراسات جديدة مفيدة الى جانب اللغة الألمانية • وهكذا ألقت القلم جانبا ، وعزفت من الكتابة ، وبذلك وضعت أساسا قويا لقصة حياتها الخاصة •

ومضى الشتاء الطويل بهيجا ، ولم تفارق جو مسز كيرك إلا فى شهر يونية ، وعندما آن أوان رحيلها ، أسف نزلاء البيت جميعهم على فراقها ، واستبد الجزع بالأطفال ، ولم تنجح الحيل فى تلهيتهم • أما الأستاذ ، فقد انتصب شعره فوق رأسه ، إذ كان من عادته أن يجذبه العنف عندما ينتابه القلق •

وحين أبلغته جو نبأ رحيلها ، حزن كثيرا ، وقال فى أسى ظاهر :

— ستعودين الى بيتك ؟ ما أجمل أن يكون للانسان بيت يعود إليه •

Twitter: @ketab_n

وكان فى عزمها أن ترحل فى الصباح مبكرة ، لذلك ودعت أصدقاءها فى الليلة السابقة ، وحين جاء دوره قالت له فى حرارة :

ــ عدنى بأن تأتى لزيارتنا ، إذا حدث وسافرت يوما الى ناحيتنا ، ولن أغفر لك إذا نسيت ، فإنى أود أن يتعرف أهلى الى صديقى •

قال وفى عينيه شوق وتلهف :

ــ أحقا ما تقولين ؟ وهل آتى لزيارتكم ؟

قالت ولم تنتبه الى نظرته :

ــ نعم ، تعالى فى الشهر القادم ، فحينئذ يكون لورى قد تخرج فى الكلية ، فنستمتع بوقتنا معا •

سألها بلهجة متغيرة :

ــ أهذا صديقك الحميم الذى تتحدثين عنه فى بعض الأحيان ؟

قالت :

ــ نعم إنه صديقى تيدى ، وأنا فخورة بصداقته ، وأود أن أعرفك به •

ورفعت جو رأسها ، ولم يكن يدور بخلدها إلا السرور الذى خاجلها لفكرة لقاء صديقها القديم ، ولكن شيئا غريبا فى وجه مستر باير وفى نظراته ، أعاد الى ذاكرتها أن لورى قد يكون أكثر من صديق حميم • ولما كانت حريصة على إخفاء الأمر ، فقد جهدت فى ستر ما يدور بخلدها ، ولكن حمرة الخجل تسربت الى جبينها على الرغم منها ، وكلما حاولت

Twitter: @ketab_n

مقاومتها ، ازداد وجهها احمرارا ، ولولا أن تينا كانت تجلس على ركبتيها ، ما انتهى الموقف بسلام .

ولحسن الحظ تحركت تينا لعناقها ، فأتاحت لها لحظة تخفى فيها وجهها المتقد ، راجية ألا يكون الأستاذ قد لاحظ انفعالها . ولكن رجاءها لم يتحقق ، فقد رأى الأستاذ خجلها ، لذلك استعاد هدوءه ، وقال فى جد ووقار :

— أخشى ألا أجد الوقت لزيارتكم ، ولكنى أرجو لصديقك كل نجاح وسعادة ، وليباركِكم الله جميعا .

ثم شد على يدها بحرارة ، وحمل تينا على كتفه وانصرف .

وما أن استغرق الأطفال فى النوم ، حتى جلس الرجل طويلا الى جانب نيران المدفأة ، وقد بدت فى عينيه مظاهر الإرهاق والسأم ، وأفعم قلبه بمشاعر الحنين الى الوطن ، وطاف به خيال جو ، وهى تجلس أمامه فى خجل والطفلة على حجرها ، فأسند رأسه الى يده ، كأنما ناءت به الأشجان . وظل على هذه الحال برهة ، قام بعدها يذرع الحجرة ذهابا وإيابا ، كمن يبحث عن شىء فقده . قال لنفسه : « إنها ليست لى ، وليس من حقى أن أتعلق الآن بالأمل » ، وأردف ذلك بزفرة انخلع لها قلبه ، كأنما كان يعنف بها نفسه على صبوة لم يستطع كبتها . ودلف الى الصغيرتين النائمتين فقبلهما ، وأمسك بغليونه الذى قلما كان يستعمله ، وجلس يدخن فى صمت ، وهو يقلب فى كتاب أفلاطون .

لقد تصرف كأحسن ما ينبغى ، وعالج الموقف برجولة ، ولكن ما أظن أنه وجد فى الطفلين السعيدين أو فى غليونه أو حتى فى أفلاطون المقدس ، عزاءً يعوضه عما تاقت إليه نفسه من الزوجة والولد والبيت .

Twitter: @ketab_n

وفى الصباح الباكر كان فى المحطة يودع جو ، وبذلك جعلها تبـدأ رحلتها المنفردة بذكريات سعيدة عن الوجه المألوف ، الذى ابتسم لهـا مودعا ، وبباقة زهور البنفسج أهداها إياها ، فكانت خير أنيس بوحشتها ، وأفضل من هذا كله أنه أتاح لها فرصة التفكير السليم فى ضوء إرشـاده وتعاليمـه .

قالت لنفسها :

ـ حسنا ، قد ذهب الشتاء ، ولم أكتب شيئا أو أكسب مالا ، ولكنى اكتسبت صديقا خليقا بأن أحتفظ به ، وسأحاول أن أحتفظ به ، وأحرص عليه مدى الحياة .

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والثلاثون

آلام قلب

لأمر ما عكف لورى على دروسه يستذكرها فى ذلك العام . ومهما تكن الأسباب التى جعلته يحرص على السبق ، فقد استطاع بفضل هذا الحرص أن يتخرج فى الكلية ، ويحصل فى امتحانه على مرتبة الشرف ؛ كما ألقى خطاب التخرج باللغة اللاتينية فى فصاحة ديموستينيس ورشاقة فيلبس . وشهد حفل التخرج جده ومستر ومسز مارش ، وجون وميج وجو وبث ، وكان جده شديد الفخر به كما ابتهج جميعهم بما حقق من نجاح وكانت فرحتهم به صادرة عن شعور عميق صادق ، قد لا يقدره الأولاد فى حينه حق التقدير ، ولكنهم لا يلقون مثله بعد ذلك فى حياتهم مهما بلغت انتصاراتهم ، فليس هناك أعظم ولا أصدق من التقدير الذى نناله لنجاحنا فى الصغر .

وعندما انتهى الحفل خرج لورى يودع الأخوات ويرافقهن حتى العربة ، قال :

— سأبقى الليلة هنا لأحضر وليمة العشاء ، وغداً أعود الى البيت مبكرا ، فأجدكن فى انتظارى كالمعتاد ، أليس كذلك يا بنات ؟

ورغم أنه اختار أن يتوجه بالحديث الى الأخوات جميعهن ، إلا أنه كان يعنى جو وحدها ، فهى التى ظلت محافظة على عهدها القديم ، ولم تجسر يوما على رفض طلب لفتاها الفائز العظيم ، فأجابت بحرارة تقول :

Twitter: @ketab_n

— سأكون بانتظارك يا تيدى ، سواء أمطرت السماء أم أشرقت الشمس ، وسأسير أمامك أعزف على القيثارة أنشودة النصر التى تقول :

« ها هو ذا البطل قد عاد .. مرحبا بالظافر العظيم » .

وشكرها لورى بنظرة ارتاعت لها ، فقد خيل إليها أنه موشك على الإفضاء إليها بأمر تخشاه ، فقالت تحدث نفسها : « يا إلهى ! إنه سيتكلم ، فكيف أتصرف يا ترى اذا ما فعل ؟ ! » .

ولكن تأملات المساء لم تلبث أن بددت بعض مخاوفها ، ثم جاءتها أعمال الصباح التالى بمزيد من الطمأنينة ، فقالت تحدث نفسها مرة أخرى : « يجب ألا يأخذنى الغرور فأظن أنه سيفاتحنى فى أمر الزواج ، بعد ما أظهرت له ما ينم عن نفورى من ذلك » .

وخرجت للقائه فى الموعد المحدد : وهى ترجو ألا يقدم على مفاتحتها فى شىء ، حتى لا تضطر الى الرفض فتجرح شعوره المرهف . وتوقفت فى طريقها ببيت ميج ، وغرضها أن تقضى بعض الوقت فى مداعبة الصغيرين ديزى وديميجون ، فتروح بذلك عن نفسها ، وتقوى عزيمتها على مجابهة الخطر الذى تتوقعه عندما يأتى لورى وينفرد بها ، ولكن ما إن رأته قادما من بعيد بقامته الفارعة وخطواته المسرعة : حتى تملكتها رغبة قوية فى أن تولى الأدبار عائدة الى البيت .

وصاح بها لورى ، حين أصبح على مسمع منها قائلا :

— أين القيثارة يا جو ؟

واستردت جو هدوءها ، وقد رأت أن هذه التحية لا يمكن أن تنم عن الغرام ، فقالت :

Twitter: @ketab_n

— نسيتها !

وكان من عادة جو أن تتأبط ذراعه فى مثل هذه المناسبات ، ولكنها لم تفعل ذلك الآن • ولم يحتج لورى ولم يلح عليها ، فرأت فى تحفظه بادرة سيئة • وراح لورى يتحدث إليها فى مسائل كثيرة متباينة ، وكان يتكلم بسرعة غير معتادة ، وعندما عرجـا من الطريق الرئيسى الى الممـر الضيق المؤدى الى البيت ، تمهل فى مشيته ، ثم تلعثم فى حديثه وخانته فصاحته ، فراح يتوقف بين الفينة والفينة ، توقفا ينم عن قلقه وعصبيته • ونهضت جو الى إنقاذ الموقف تخلصا من هذا الصمت الذى تكرر وقوعه ، فقالت تصل ما انقطع من الحديث :

— من حقك الآن أن تتمتع بعطلة طويلة طيبة •

قال :

— وهذا ما أنوى أن أفعله •

وكان فى لهجته عزم وتصميم جعلاها ترفع رأسها بسرعة لتنظر فى وجهه ، فإذا بعينيها تلتقيان بعينيه ، وكانت فيهما نظرة أدركت منها أن اللحظة التى تخشاها قد حانت ، فمدت يدها نحوه مذعورة ، وقالت فى توسل ورجاء :

— لا •• لا يا تيدى • لا تتكلم •• أرجوك !

قال بمزيد من الانفعال وقد تخضب وجهه حياء :

— لا فائدة من التهرب ، فيجب أن أتكلم ، وعليك أن تسمعى • لم يعد بدٌّ من أن نعبّر عما بنفوسـنا ، وكلما أسرعنا بالتصريح كان ذلك خيرا لنـا •

Twitter: @ketab_n

وغلبت جو على أمرها ، فقالت فى حلم وصبر :

ــ قل ما تشاء ، فكلى آذان صاغية •

وكان الهوى قد ملك لب لورى الفتى الحازم ، وكان قد جمع أمره على أن يصارحها بحبه ولو استشهد فى سبيل ذلك ، فانطلق يفضى لها بما فى قلبه ، وبالرغم من الجهود التى بذلها فى الاحتفاظ بثباته ورباطة جأشه ، كان صوته يخونه من وقت لآخر • قال :

ــ لقد أحببتك يا جو منذ عرفتك ، ولا حيلة لى فى ذلك ، فقد كنت طيبة معى رغيمة بى • وكم حاولت فيمـا مضى أن أكشف لك عن قلبى ، فكنت فى كل مرة تتحايلين على إسكاتى ، أما الآن فلا بد أن أسـمعك نجواى وأبثك هواى ، ولا بد أيضا أن أسمع إجابتك : وأعرف صـدى حبى فى نفسك ، فقد فرغ صبرى وفاضت أشجانى •

قالت جو ، وقد بدت فرصة الخلاص من الموقف أعسر مما كانت تتوقع :

ــ ظننت أنك تعرف رأيى فى ذلك ، وكنت أرجو أن توفر مشـقة مثل هذا الموقف •

قال يدافع عن نفسه :

ــ وأنىّ لى أن أعرف رأيك ؟ ان الفتيات لغز محيّر : يقلن « لا » وهن يعنين « نعم » ، ويخرجن الرجال عن صوابهم لمجرد الاسـتمتاع بمثل هذا الموقف ••

قالت :

ــ ولكنى ما قصدت شيئا غير ما أقول : وما رغبت يوما أن تقع فى

Twitter: @ketab_n

حبى الى هذا الحد ، ولقد حاولت من قبل أن أشفيك من هذا الحب إن أمكن ، فرحلت عنك وغبت غيبة طويلة •

قال :

— هذا ما أدركته فى حينه ، ولم يدهشنى تصرفك ، ولكن البعد الذى أردت به شفائى زادنى حبا على حب ، وحفزنى الى مضاعفة جهودى لأرضيك : لقد هجرت لعبة البليارد ، وأقلعت عن كل ما تكرهين ، وانتظرت صابرا أن تمنحينى قلبك ، ولو أنى لست جديرا بك •

وغلبته عاطفته فاختنقت الكلمات فى حلقه وتوقفت • وراح يتنحنح بشدة ليعيد الى صوته صفاءه العادى ، فقالت جو :

— أنت أعظم منى ، وأكثر مما أستحق ، وانى لشاكرة لك ، فخورة بك ، معتزة بشخصك ، ولكنى لا أستطيع أن أمنحك الحب الذى تريده : ولست أرى سببا لذلك ، وكم حاولت أن أغير قلبى فأخفقت ، ولن يرضيك أن أكذبك القول فأدعى شعورا لا أحس به •

فحملق لورى فى وجهها وأمسك بيديها ، وشخص اليها وفى عينيه نظرة لم تستطع جو أن تنساها قبل مضى وقت طويل : ثم قال :

— أحقا ؟ ! أصدقا ما أسمعه يا جو ؟ !

أجابت :

— نعم ، كل الحق ومنتهى الصدق يا عزيزى •

وكانا قد بلغا فى سيرهما الحوش القريب من البيت • فما كادت جو تنتهى من كلماتها هذه ، حتى ترك الفتى يديها تفلت من بين يديه ،

Twitter: @ketab_n

واستدار كمن يهم بالرحيل ، ولكنه لأول مرة فى حياته : أحس أن سور الحديقة عقبة لا يستطيع اجتيازها ، فمال نحو أحد الأعمدة واستند برأسه عليه ، ووقف هكذا صامتا واجما • وجزعت جو لألمه البالغ ، وأخذت تربت على كتفه مهدئة ، وقد تذكرت كيف كان هو يهدىء روعها فيما مضى •

وصاحت فى لهجة من غلبها الألم وتأنيب الضمير :

— انى آسفة يا تيدى ••• آسفة كل الأسف ••• حياتى فداؤك ان كان فيها خير لك • ليتك لا تأخذ الأمور بمثل هذه الحدة •••• ما حيلتى فى كل هذا ، وأنت تعلم أن الحب يأتى طواعية لا قسرا ؟ الحب لا يكون حبا الا اذا نبع من أعماق القلوب •

فصاح لورى من جانب العمود يقول بصوت مبحوح :

— قد يأتى الحب اذا حملت نفسك عليه •

أجابت جو فى حزم :

— لا أظن أن هذا الضرب من الحب أصيل ، ولست على استعداد لتجربته •

ولزم الاثنان الصمت ، وران عليهما سكوت شامل لم يلبث أن قطعه تغريد عصفور فوق الشجرة القريبة من النهر ، وتلاه صوت الريح وهى تجر ذيولها فوق الحشائش الطويلة ، وعندئذ قالت جو فى رزانة وهى تجلس على عارضة خشبية :

— اسمع يا لورى • أريد أن أحدثك بأمر •

Twitter: @ketab_n

وانتفض كمن أصابته رصاصة ، ورفع رأسه يصيح بها وفى صوته عنف :

ــ لا تحدثينى به يا جو ، فلن أحتمله •

قالت وهى تعجب من العنف الذى اعتراه فجأة :

ــ وبماذا تظن أننى سأحدثك ؟

قال :

ــ بأنك تحبين ذلك العجوز !

قالت تسأله ، وقد ظنته يعنى مستر لورنس العجوز :

ــ أى عجوز ؟

قال :

ــ ذلك الأستاذ المجنون الذى كنت تكثرين الكتابة عنه ! اذا قلت انك تحبينه ، فثقى أن اليأس سيدفعنى الى عمل خطير !

وكان فى لهجته ما يوحى بأنه جاد فيما يقول ، والتمعت عيناه وتشنجت قبضتاه : بشكل يدعو الى القلق ، ولكن الخبر كان مفاجأة كادت معها جو تطلق ضحكة عالية ، غير أنها أمسكت عن ذلك وقالت بحرارة ، وقد سرى الانفعال اليها بدورها :

ــ بالله لا تمعن فى تهديدك يا تيدى ، فهو ليس عجوزا ولا شريرا ، انه رجل طيب عطوف ، وأنا أعتبره أحسن أصدقائى بعدك ،

Twitter: @ketab_n

وسأغضب اذا مضيت فى اهانة أستاذى ، فخل عنك ، واطمئن الى أننى لا أنوى أن أحبه ، أو أحب أى انسان آخر •

قال :

— ولكنك ستحبينه مع الزمن ، ولست أدرى ماذا يحدث لى عندئذ ؟

قالت :

— سوف تحب فتاة أخرى بدورك ، تنسيك متاعبك وأشجانك ، شأنك فى ذلك شأن كل فتى عاقل •

قال وهو يضرب الأرض بقدمه تأكيدا لكلماته المفعمة بالحب والعاطفة :

— لن أحب غيرك ، ولن أنساك يا جو •• أبدا •• أبدا •

فتنهدت جو وقالت تحدث نفسها ، وقد أدركت أن معالجة العواطف الثائرة أصعب بكثير مما كانت تتخيل : « ترى كيف أتصرف معه ! ؟ » ثم استطردت تقول له مهدئة :

— انك لم تستمع لما كنت أريد أن أقول لك ، فاجلس وأصغ الىّ ! انى أريد أن أحسن التصرف لأسعدك •

وبعث قولها بارقة أمل فى قلب لورى ، فألقى بنفسه على الحشائش تحت قدميها ، وأسند رأسه الى العارضة الخشبية التى تجلس عليها ، ثم رفع اليها نظرة كلها أمل واستعطاف ، وأشاعت حال الفتى القلق فى نفس جو ، إذ كيف يمكنها أن تقسو على فتاها ، وهو يرنو اليها هكذا بنظرات والهة تنبعث من عينين مازالت تنديهما دموع المرارة لقسوتها عليه ؟

Twitter: @ketab_n

ومدت يدها وأدارت رأسه بعيدا عنها ، وراحت تربت على شعره المتموج الذى أرسله طويلا من أجلها • قالت :

انى أتفق مع أمى أننا لا يصلح أحدنا للآخر ، فكلانا سريع الغضب مما يقضى على سعادتنا ، إذا •••

وتوقفت جو قليلا قبل أن تقول الكلمة التى تختم حديثها ، ولكن لورى أكمل فى صوت خشن :

ـ تزوجنا ! •• لا •• لن تتعس حياتنا اذا بادلتنى الحب ، أنا طوع أمرك وفى مقدورك أن تصوغينى كما تشائين ، وسوف تصنعين منى قديسا اذا أردت •

قالت :

ـ لا ، لا أستطيع • لقد جربت وفشلت ، ولا أحب أن أخاطر بسعادتنا فى تجربة جديدة أخرى • اننا لا نتفق على أمر من الأمور ، ولن تتغير حالنا هذه فى يوم من الأيام ، ولذا يحسن بنا أن نحتفظ بصداقتنا ما حيينا ، ولا نفسدها بعمل ينطوى على التسرع والرعونة •

فقال لورى فى عناد :

ـ على العكس ، سوف نسعد معا لو أتيحت الفرصة •

فقالت جو فى ضراعة ، وهى تبذل آخر سهم فى جعبتها :

ـ كن عاقلا منطقيا ، وخذ الأمور بحكمة وروية •

قال :

ـ لا •• لا أريد عقلا ولا منطقا ولا حكمة ، فلن تعود على منها

Twitter: @ketab_n

فائدة ، بل على العكس انها تزيدك صلابة وقسوة . انى أعجب من أمرك أليس لك قلب يحس ؟

قالت :

— وددت لو لم يكن لى قلب يحس !!

وكان فى صوتها رجفة تفاؤل بها لورى ، فاستدار اليها . وقد جمع كل ما يملك من قوة الاقناع ، وقال برنة الاغراء التى لم تعهدها جو من قبل :

— لا تخيبى رجاءنا يا عزيزتى ! فكلهم ينتظر هذا النبأ ، لقد عقد جدى آماله عليه ، ولا شك أن قومك يرحبون به ، وأنا لا أستطيع الحياة بدونك . قولى نعم ودعينا نسعد فى حياتنا .... هيا قولى نعم .

ولم تدرك جو ، الا بعد مضى شهور عدة ، كيف توافرت لها القوة على التمسك بقرارها فى عزم واصرار ، كانت تعلم أنها لا تحب فتاها ولا تستطيع أن تروض نفسها على حبه ، وربما يكون فى اعلان هذا الرأى قسوة عليه ، ولكنها كانت ترى أن لا مفر من اعلانه ، حتى لا تزيد عذابه بالمماطلة والتسويف .

قالت فى هدوء ولطف :

— صدقنى يا لورى اننى لا أستطيع أن أقول لك « نعم » عن ايمان وصدق ، وستشكرنى يوما على موقفى هذا .

وقفز لورى واقفا فوق الحشائش ، وقد تملكه غضب شديد ، لمجرد تصوره أن يحدث هذا . قال :

Twitter: @ketab_n

— لن أفعل هذا الى أن أموت •

فقالت فى اصرار :

— بل سيأتى اليوم الذى تشكرنى فيه على هذا القــرار ، والزمن كفيل بعــلاج آلامك ، ولــن يمضى وقت طويل حتى تجــد فتاة جميلة مهذبة تقع فى غرامك وتصبح أبدع ســيدة لبيتك الجميل • أما أنا فلا أصلح لك اطلاقا لأنى غريبة الأطوار ساذجة خرقاء ، وستخجل منى ومن تصرفاتى ، وسوف نتشاجر من أجل ذلك ومن أجل ما هــو أقل منــه ، وحتى الآن ، هانحن أولاء نتشاجر كما ترى • اننا نختلف فى كل ناحية : فأنا مثلا لا أطيق المجتمعات الأنيقة وأنت تحبها ، وأنت تكره الكتابة وأنا لا أستطيع الحياة بدونها • سنكون فى منتهى التعاسة • سنكون فى منتهى التعاسة اذا تم لك ما أردت ، وستندم على ما فعلنا يوم تصبح الحياة بيننا لا تطاق •

وضاق صدر لورى بهذه التنبؤات المفزعة ، فقال :

— أما زالت لديك أقوال أخرى ؟؟

قالت :

— لا •• ليس لدى إلا ما أعتقده من أننى لن أتزوج فى يوم من الأيام ، فأنا سعيدة بحالى ، أستمتع بحريتى التى أحبهــا الى حــد لا أتصور معه فكرة التخلى عنها من أجل أى مخلوق آدمى أيا كان •

وقطع لورى حديثها قائلا :

— وأنا أعتقد غير ذلك ، فرغم كل ما تقولين ، سيأتى اليوم الذى تحبين فيه شخصا ما ، وتتدلهين فى هواه ، فتعيشين وتموتين من أجله •

Twitter: @ketab_n

انها طريقتك فى الحياة ، ولابد أن يحـدث ما أتوقعه ، وسأقف اذ ذاك جانبا ، أرقب أحوالك ، وأرى بعينى مصيرك الأخير •

وفى حركة يائسة ألقى العاشق الصغير قبعته على الأرض ، بشكل يثير الضحك ، ولكن جو لم تضحك احتراما لحزنه العميق •

صاحت تقول ، وقد نفد صبرها مع تيدى المسكين :

— نعم سأعيش وأموت من أجل من يستطيع أن يحملنى على حبه رغم أنفى ، فعليك أن تبذل جهدك لتكون هـذا الرجل ، أما أنا فقـد حاولت كثيرا وفشلت ••• أنت لا تريد أن تحكم عقلك ، ومن الأنانيـة أن تمعن فى مضايقتى واغاظتى وتلح فى مطالبتى بما ليس فى مقدورى أن أمنحك اياه •• ثق أنك أحب الأصدقاء كلهم الى ، وستبقى لى دائما أعز النـاس ولكنى لن أتزوجك أبـدا ، وكلما أسرعت فى ادراك هـذه الحقيقة ، كان ذلك خيرا لنا وأبقى •

وجاءت كلماتها نارا على بارود ، فقد نظر اليها لورى برهـة فى حيرة أربكت عليه أمره ، ثم استدار عنها منصرفا وهو يقـول فى لهجة اليأس المرير :

— ستندمين يوما على موقفك هذا ، يا جو !

فصاحت وقد هالها انقلاب سحنته :

— أواه ! الى أين تذهب ؟

فقال :

— الى الشيطان !

Twitter: @ketab_n

وتوقف قلب جو عن النبض لحظة ، وهى تراه يندفع متجهـا الى شاطىء النهر ، ولكن الفتى لم يكن يفكر فى الانتحـار كما تصـورت ، اذ أن الانتجار يحتـاج الى دوافع فيهـا من التعاسـة أو التهـور أو الخطيئة أضعاف ما يشعر بـه ، كمـا أنه ليس من ذلك الطـراز الضعيف الذى يقر بالهزيمة عنـد أول صـدمة يلقاها أو فشل يمنى به ولكن غريزته الثائرة قادته الى قاربه ، فقفز فيه كما هو بمعطفة وقبعته ، يجذف بكل قوته ، حتى أسرع به القارب كما لم يسرع به فى أى سـباق له من قبل وأرخت جو يديها وقد تنفست الصعداء ، وراحت ترقب فتاها المسكين وهو يغرق فى مياه النهر أحزانا ناء بحملها قلبه الكبير ، وقالت لنفسها : « هذه الرياضـة علاج له ، وسيعود بعدها الى البيت هادىء المزاج آسفا علي ما جرى ، ولا أستبعد أن تمضى أيام قبل أن يرينى وجهه مرة أخرى » .

وتسالت الى البيت فى بطء ، وهى تحس كأنها قتلت مخلوقا بريئا ، ودفنته تحت أوراق الأشجار المتساقطة . قالت تحدث نفسها : « الأفضل أن أبادر الى مستر لورنس وأحدثه بما جرى ، حتى يكون عطوفا على فتاى المسكين . ألا ليته وقع فى غـرام بث ، ولكن ... ربما أحبهـا مع الزمن ... لقد تكشّف لى الآن كم أخطأت الظن فى أمرها . يا إلهى !! كيف تتمنى الفتيات أن يكون لهن محبون ، فاذا وجدنهم رفضن حبهم ؟! يا له من أمر رهيب ! » .

كانت تعلم أنها الوحيدة التى تستطيع أن تحدث مستر لورنس بما جرى ، ولذلك ذهبت اليه مباشرة وسردت له تفاصـيل القصة المؤلمـة بجرأة وشجاعة ، ثم انصرفت كئيبة وقد ركبها الهم لإقدامها على رفض لورى دون رحمة أو شفقة .

Twitter: @ketab_n

وجاءت قصتها مخيبة لآمال السيد العجوز ، كان من العسير عليه أن يدرك كيف تستطيع فتاة أن تتحاشى الوقوع فى حب لورى ، ولكنه لم يوجه اليها كلمة لوم أو عتاب ، ولم يقل سوى أنه يتمنى لو غيرت رأيها يوما ما ... كان يعرف أكثر من جو نفسها أن الحب لا يفرض على القلوب فرضا ، ولكنه قلق لثورة الفتى عند وداعها ، فراح يهز رأسه آسفا ، وقد اعتزم أن يباعد بينه وبين هذا الطريق المحفوف بالخطر .

وعندما عاد لورى الى البيت ، كان التعب قد أنهكه ، ولكنه كان مسيطرا على مشاعره ، فقابله جده بهدوء ، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث . وبقى على هذه الحال ساعة أو ساعتين . ولكن عندما ضمتهما تلك الجلسة التى اعتادا أن يتمتعا بها فى ساعات الغسق ، راح الجد يحاول أن يتلمس الوسيلة الى فتح الموضوع مغدقا المديح على الفتى ، شاكرا له ما بذل من جهد طوال العام الدراسى المنصرم ، وكان عزيزا على الفتى المجهد الذى تحطمت آماله ، أن يستمع الى هذا الإطراء فى صبر وأناة ، وفاض به اليأس حين تصور أن الجهد الذى بذله فى الجامعة ضاع هباء . فقام الى المعزف يتلهى عن آلامه بالتوقيع عليه ، وتسللت الأنغام الشجية من النافذة المفتوحة الى مسامع جو ، التى كانت تتمشى فى الحديقة مع أختها بث ، فأدركت أن فتاها يعزف اليوم « السوناتا الحزينة » بعاطفة جياشة ومهارة لم تعهدها فى عزفه من قبل .

واستمع الجد العجوز لأنغام حفيده معجبا ، ثم قال فى حيرة من لا يعرف كيف يعبر عما بقلبه من عطف وإشفاق :

— هذا عزف بديع ، ولكنه لحن حزين يستدر الدمع ، دعك منه وأسمعنى آخر بهيجا .

Twitter: @ketab_n

وبدأ الفتى لحنا جديدا ، ومضت الدقائق وهو يعزف بحيوية دافقة • وكان من الجائز أن يمضى فى العزف الى النهاية ، لولا أن تعالى صوت مسز مارش ، أثناء سكتة قصيرة خلال اللحن ، وهى تقول :

— جو ، عزيزتى •• تعالى الى فانى فى حاجة اليك •

وكانت هذه الجملة الصغيرة هى لسان حال الفتى ، وإن تغير المقصود منها • فما إن سمعها ، حتى ارتبكت أنامله على المعزف ، ثم توقف وقد تاه فى شرود •

وتمتم السيد العجوز يقول لنفسه : « إنى لا أطيق صبرا على هذه الحال ! » • ونهض واقفا وتحسس طريقه فى عتمة الغسق الى المعزف ، ووضع يديه الحانيتين على كتفى لورى العريضتين ، وقال فى لهجة تسيل رقة وعذوبة :

— إنى أعرف يا ولدى •• إنى أعرف •

وسكت لورى برهة ، ثم قال فى حدة :

— ومن أخبرك ؟

أجاب الجد :

— جو نفسها •

وأزاح الفتى يدى جده فى ضيق ، فقد أبت عليه رجولته أن يكون محل رثاء رجل آخر ، حتى ولو كان ذلك الرجل جده العطوف • قال :

— إذاً فهذه هى النهاية •

Twitter: @ketab_n

فقال مستر لورنس فى رقة غير معتادة منه :

— لا •• لم ينته الأمر بعد ، فما زال عندى ما أطلبه منـك وبه تكون الخاتمة ، لا أظنك ترحب الآن بالبقاء فى هـذا البيت ؟

أجاب لورى فى تحـد :

— لن تهزمنى فتاة أبداً ، ولن تستطيع جـو أن تمنعنى من أن أراها ، وسأبقى هنا ما شئت أنظر اليها كما يحلو لى ••

قال جـده :

— لا •• لن يكون هذا ، اذا كنت عند ظنى بك سيدا مهذبا • لقد خابت آمالى أنا أيضا ، ولكن للفتاة عذرها ، ومن الظلم أن تطالبها بما لا طاقة لهـا به ، وإزاء ذلك لم يبق أمامك سـوى أن ترحل لفترة من الزمن • فالى أين تريد أن تذهب ؟

ونهض الفتى واقفا ، وهو يضحك باستهتار تأذى له جده ، وقال :

— الى أى مكان ، فلست أبالى بما يصيبنى بعد ما حـدث •

قال الجـد :

— بالله عليك لا تفقد صوابك ، واحتمل مصـابك كالرجال • رأيى أن تنسى ما حدث وتسافر الى الخارج كما كنت تعتزم •

قال الفتى :

— لا أقـدر •

Twitter: @ketab_n

قال الجـد :

ـ لقد كنت تتحرق شوقا الى السفر ، وعدتك بذلك إن نجحت فى دراستك •

أجـاب :

ـ كنت بالفعل متحمسا للسفر ، ولكنى لم أكن أعتزم السفر وحدى •

وراح لورى يذرع الغرفة ذهابا وجيئة فى سرعة ، وقد بدت فى عينيه نظرة لم يلحظها جده من حسن الحظ • قال العجوز :

ـ وأنا لا أريد أن تسافر وحدك ، فهنالك من هو على استعداد للسفر معك ، بل ويسره أن يصطحبك الى أى مكان فى العالم تريد أن تذهب اليه •

وتوقف الفتى يصغى ، وقال متسائلا :

ـ ومن هو يا سيدى ؟

أجاب الجـد :

ـ أنا !

وفى سرعة أقبل الفتى على جده ، ومد يده وقال فى صوت أجش :

ـ تبًا لى من فظ أنانى ، ولكنك تعلم يا جـدى •••

فقال الجـد :

ـ بل أعلم ، وليهبنى الله العون ، فقد مررت بهذه التجربة حين

Twitter: @ketab_n

كنت صغيرا ، وتكررت مرة ثانيــة مع أبيك .. والآن .. اجلس هادئا يا ولدى العزيز ، واستمع لخطتى ، فقد أعددت لها كل العدة ، وبامكاننا أن نشرع فى تنفيذها فورا .

وكان أثناء حديثه ، يمسك بالفتى ، كأنما يخشى أن يفلت منــه كما فعــل أبوه من قبــل .

وجلس لورى ، وقال فى نبرات خالية من الشوق والاهتمام :

ـ حسنا يا سيدى .. ما هى خطتك ؟

قال الجـد :

ـ لى أعمال فى لندن تحتاج الى من يشرف عليها ، وقد فكرت أن أوكل اليك هذه المهمة ، ولكنى أستطيع أداءها بنفسى على أحسن وجه ، خصوصا أن الأعمال هنا تســير على ما يرام بفضــل ادارة بروك . إن شركائى يتعهدون كل شىء تقريبا ، وأنا فى انتظار الساعة التى تستطيع أن تحل فيها محلى ، فأتقاعد وأرتاح .

قال لورى وقد أفعمت نفسه بالشكر لجده على هذه التضــحية :

ـ ولكنك تكره السفر يا سيدى ، ولا يرضينى أن تتجشم فى سنك المتقدمة كل هــذا العناء من أجلى .

وكان فى الواقع يفضــل أن يسافر وحده ، اذا لم يكن من السفر بــد .

وعرف الجد ما يجول بخاطر حفيده ، ولكنه خشى عليه أن يسافر

Twitter: @ketab_n

وحده وهو فى قلقه النفسى الحاضر ، فقال وهو يكبت أسفه على وسائل الراحة التى سيفقدها بالسفر :

— فليباركك الله على شعورك الطيب يا بنى ، ولكنى لم أبلغ أرذل العمر بعد ، وما زالت فى عظامى العتيقة قدرة على تحمل السفر ، خصوصا فى هذه الأيام التى سهلت فيها وسائل الانتقال ، وأصبح الرحيل من مكان الى مكان مثل الجلوس فى مقعد مريح .

وتململ لورى فى مقعده ، كأنه لا يشعر بالراحة فيه ، أو كأنما الخطة لا توافقه ، فقال الجد فى سرعة :

— سأكون بالسفر أسعد حالا ، ولا تخش أن أثقل عليك أو أقيد حريتك . سأتركك تفعل ما تشاء ، بينما أتسلى أنا كما يحلو لى ، فإن لى أصدقاء فى لندن وفى باريس أود أن أزورهم ، ويمكنك أن تذهب أنت الى ايطاليا أو سويسرا أو ألمانيا ، حيث تنعم بما يهفو اليه قلبك من الموسيقى والمتاحف والفن والمناظر والمخاطرات .

وكان لورى يصغى الى جده محطم القلب زاهدا ، كأنه يرى العالم على سعته برية ضيقة قفراء ، ولكن ما إن استوعب ما قاله العجوز من كلمات صيغت بمهارة مغرية ، حتى قفز القلب المحطم بين ضلوعه ، وتبدت فى وسط البرية القفراء واحة خضراء يانعة ، فندت عنه تنهدة ، وقال فى صوت خلا من الحماسة :

— أمرك يا سيدى ، ولا يهمنى أين أذهب أو ماذا أفعل .

فقال الجد :

— ولكنه يهمنى أنا يا بنى ، فاذكر هذه الحقيقة دائما . سأعطيك

Twitter: @ketab_n

مطلق الحرية ، وأنا على ثقــة بأنك لن تسىء استغلالها ، أو تستعمل فيما يتنافى مع الشرف والأمانة • فهل تعدنى بذلك يا لورى ؟

أجـاب :

ـ أعدك بما تشــاء يا سيدى •

وقال السيد العجوز فى نفسه : « حسنا ! إنك تجيبنى الآن جزافا ، ولكن سيأتى الوقت الذى يصونك فيه هــذا الوعد من الشرور اذا لم أكن مخطئا فى تقديرى » •

وكان مستر لورنس رجل حزم وعزم ، يعرف كيف يطرق الحــديد وهو ساخن ، ولذلك أعد الخطة ونفذها قبل أن يفيق الفتى من ثورته فينقض الاتفاق • وتحامل لورى على نفســه طوال فترة الاســتعداد للسفر ، منفذا وعوده شأن الرجل المهذب • حقيقة أنه كان ساهما سريع الغضب ، عازفا عن الطعام مهملا فى ملبسه : مقبلا على البيانو يعزف عليه فى ثورة متحاشيا لقاء جو ما أمكن ، ولكنه كان يتعزى بالنظر اليها من النافذة ، ويتأملها وقد شاع فى عينيه حزن مقيم ظــل يلاحق الفتاة فى يقظتها ونومها ، ، ويبعث فى نفسها شعورا بأنها ارتكبت فى حقه جرما لا يغتفر •

وكان لورى على خلاف غيره من المعذبين ، لا يذكر حبه الضائــع بكلمة ، ولا يسمح لأحد حتى مسز مارش ، بأن تعزيه أو تخفف عنه ، وكان سلوكه هذا راحة شديدة لأصدقائه ، وعلى ذلك فقد مضت الأسابيع السابقة للسفر مفعمة بالقلق والتوتر • وكانوا جميعا يقولون : إن الفتى العزيز البائس ، يسافر لينسى همومه ، ولن يلبث أن يعود وقد استرد

Twitter: @ketab_n

سعادته ومرحه ٠ وكان لورى يصغى لهذيانهم باسما ، ويأبى أن يعلق على أقوالهم ، فى تعالى من يدرك أن إخلاصه لحبه أبدى لا يتغير ٠

وعندما حانت ساعة الرحيل ، افتعل لورى المرح والبهجة ليخفى عواطفه التى أبت إلا أن تظهر للعيان ، ولم تخدع بشاشته المصطنعة أحـداً ممن حوله ، ولكنهم تظاهروا بتصديقها إرضاء له ٠ وسارت لحظة الوداع على ما يرام ، الى أن قبلته مسز مارش ، وهمست فى أذنه بكلمات فيها حنان الأم وعطفها ، وعندئذ انهار ثباته فجأة ، فراح يحتضن كل فرد منهم ويقبله فى عجلة ، حتى الطاهية حنة ، ثم هبط السلم مسرعا ، كأنما يفر من خطر يهدد حياته ٠ وتبعته جو بعد لحظة ، ووقفت على أولى درجات السلم : لتلوح له بيدها إذا ما التفت لينظر إليها آخر مرة ٠ ولقد التفت بالفعل ، فلما رآها ، عاد إليها وأحاطها بذراعيه ، ثم قال ضارعا ، وعيناه تنطقان بالاستعطاف المؤثر :

ـ جو ٠٠ ألا تعدلين عن قرارك ؟

قلت :

ـ بودى لو استطعت يا عزيزى تيدى ٠

وعندئذ كف عن الحديث ٠ فمضت لحظة سكوت اعتدل بعدها لورى فى وقفته ، وقال :

ـ حسنا ٠٠ لا بأس ٠

ثم سار مبتعدا : دون أن يزيد على ذلك كلمة ٠

ولكن جو لم تر الأمر حسنا أولا بأس به ٠ فعندما صارحها بحبه فى المرة الأولى ، وقد أسند رأسه الى ذراعها ، شعرت أن رفضتها له كان طعنة نجلاء فى صدر أحب الناس إليها ، وحين غادرها الآن دون أن يلقى عليها نظرة ثانية ، أدركت أن « الصبى لورى » سافر الى غير رجعة ٠

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والثلاثون

سر بث

عندما عادت جو الى بيتها فى ذلك الربيع ، روّعها تغير حال بث ، وأحزنها ما رأت من تبدل شديد فى وجه أختها . وقد أدهشها أن أحدا من أفراد العائلة لم يكتب إليها فى ذلك : كأنهم لا يشعرون بما أصاب بث ، أو لعل التغير جاء تدريجا فلم يجزع له أحد ممن يعيشون معها ، ولكن غيبة جو أبرزت لعينيها النحول الواضح ، فرأت أن وجه أختها ليس باهتا فحسب ، بل أشد نحولا مما كان عليه فى الخريف الماضى ، وكأنما شفت نفسها الفانية وتسامت روحها فوق جسدها النحيل ، فاكتنفها بهاء روحانى جميل يذيب القلوب أسفا وحسرة . ورأت جو هذا النور يضىء وجه أختها وأحست به ، ولكنها لم تشأ أن تصارح أحدا بذلك . ثم مضت الأيام ، ففقد تأثرها الأول قوته ، وبدت لها بث سعيدة معافية . واندمجت جو فى مشاغلها الكثيرة وهمومها المتعددة ، فنسيت مخاوفها وارتاحت نفسها ، ولكن عندما رحل لورى ، واستقر السلام فى البيت ثانية ، عاودها قلقها على بث شديدا ملحفا .

كانت جو قد اعترفت لبث بخطئها حين ظنت أن لورى يحبها ، فلم تبخل الصغيرة عليها بالصفح والمغفرة ، وعندئذ عرضت عليها بعض المال الذى ادخرته ، لتذهب به فى رحلة الى الجبال ، ولكن بث أبت شاكرة أن تبتعد عن البيت هذه المسافة الطويلة . ورأت جو أن رحلة الى شاطىء البحر قد تكون أكثر ملاءمة لحال أختها ، ولما كانت مسز مارش لا تستطيع أن تبتعد عن حفيديها أو تتركهما ، فقد رافقت هى بنفسها بث ، وذهبت

Twitter: @ketab_n

الاثنتان الى بقعة هادئة من الشاطىء ، لعل نسيم البحر العليل يعيد الى الوجه الذابل نضرته .

وعلى الرغم من أنه كان مصيفا بسيطا متواضعا ، فقد آثرت الفتاتان الابتعاد عن رواده المرحين ؛ لأن حياء بث كان يبعدها عن المجتمعات ، ويزهدها فى الاستمتاع بها . وكرست جو نفسها لخدمة أختها والعناية بها ، وانقطعت الفتاتان عن العالم الذى يدور حولهما ، ولم تلتفتا الى اهتمام الناس بأمرهما ، فى حين كان القوم يرقبونهما بحنان ، ويعطفون على الفتاة القوية وهى تلازم أختها المريضة ، لا تبتعد عنها لحظة أو تفارقها ، كأنما تشعر بالغريزة أن الفراق الأبدى بات قريبا .

وكان هذا شعورها فى الواقع منذ بداية الأمر ، ولكنها لم تفصح عنه ، فليس أقسى علينا من الصراحة مع أحبابنا فى مثل هذه الأمور . ولقد أحست جو كأن حجابا أسدل بين قلبها وقلب بث ، فلما مدت يدها ترفعه ، منعتها قدسية الصمت الذى شملها ، فقنعت بالسكوت ، وتركت لبث مهمة بدء الحديث . وعجبت فى نفسها كيف لم تر الأسرة ما رأته هى وكيف غاب عن أهلها ما أصاب أختها ، ثم لم تلبث أن حمدت الظروف التى أشفقت عليهم فجعلتهم لا يدركون . وكانت قد آثرت خلال الأسابيع الماضية الهادئة ألا تبوح لأهلها بما رأت من حال بث ، موقنة بأنهم سوف يدركون ما أدركت عندما تعود إليهم الفتاة من المصيف ، دون أن يبدو عليها بادرة من التحسن المنشود . ولكم سألت جو نفسها إذا كانت بث تدرك شيئا من الحقيقة المرة ، وكان بودها أن تكشف عن الأفكار التى تدور بذهنها . وهى ترقد طول اليوم على رمال الشاطىء الدافئة ، ورأسها مسند الى حجر جو ، والنسيم العليل يداعب وجهها ، والبحر يهمس بموسيقاه تحت قدميها .

وأخيرا تكلمت بث ...

ففى يوم من الأيام كانت ترقد ساكنة ، وقد وضعت كتابها جانبا ، وراحت جو تحملق فى وجهها بعينين فاحصتين ، عسى أن تلمح بارقة من الأمل تشيع فى الوجه الضامر الباهت ، ولكن بصرها ارتد حسيرا أمام جسد أختها الذى ازداد نحولا ، ويديها اللتين وهنتا عن الإمساك بما جمعته لها من الأصداف الوردية . وتملك جو قلق مرير ، لم تشعر بمثله من قبل ، وأحست كأن بث تنساب من بين يديها ، فلم تشعر إلا وهى تقبض بشدة على كنزها العزيز الغالى ، وقد تاه منها البصر فغابت المرئيات عن عينيها . وحين استردت جأشها واستعادت زمام نفسها ، رأت بث تنظر إليها فى رقة بالغة ، لم تكن فى حاجة معها الى أن تقول :

— عزيزتى جو ، يسعدنى أنك تعرفين ما أنا فيه ، ولقد حاولت أصارحك بأمرى فلم أستطع .

ولم تجب جو إلا بأن أسندت خدها الى خد أختها ، وقد انحبس الدمع فى عينيها ، شأنها حينما تغلبها العواطف الجياشة . وكانت لحظة قاسية انهارت فيها شجاعة جو ، فراحت بث تطوقها بذراعها وتسرى عنها وتهدئها بكلمات تسيل عذوبة ورقة . قالت :

— لقد عرفت مرضى منذ وقت طويل يا عزيزتى ، ولم يعد يصعب علىّ أن أفكر فيه أو أحتمله . لقد روضت نفسى على قبوله ، فهدأت متاعبى وتبددت آلامى ، ويحسن بك أن تنظرى الى الموضوع من هذه الزاوية ، وتأكدى أننى الآن أحسن حالا ، فلا تستسلمى للحزن من أجلى .

قالت جو تسألها :

Twitter: @ketab_n

— أكان هذا سر حـزنك فى الخريف يا بث أكنت تشعرين بالمرض فى ذلك الوقت وتكتمين أمره عنا طوال هذه المدة ؟

وكانت نهبا للحزن على أختها ، مرتاحة الى أن لورى لم يكن له شأن فى همومها وأحزانها •

قالت بث : •

— نعم ، ولقد قطعت الأمل عندئذ ، ولكنى لم أشـأ أن أستسلم لليأس ، فرحت أحاول اقناع نفسى بخطىء ، ولذلك لم أخبر أحدا • ولكنى كنت أضعف حين أرى ما يتمتع به الأصحاء من حولى ، ويستبد بى الشقاء كلما سمعتكم تتحدثون عما تعدونه للمستقبل من مشروعات يعز على ألا أشاركم فيها •

فقالت جو :

— أواه يا بث ! أتخفين سرك عنى طول هذه المـدة ؟ كيف طاوعك قلبك على كتمانه عنى ؟ ولم لم تخبرينى لأعينك وأخفف عليك بدل أن تحملى العبء وحـدك ؟

وتهدج صوت جو وهى تعتب على أختها برفق ، وتصدع قلبهـا لجهاد بث وحيدة ، حين أدركت قرب حرمانهـا من الحب والحيـاة • لا شك أنها قاست طويلا ، وصـارعت كثيرا ، حتى أمكنها أن تسـتسلم لمصيرها المحتوم ، وتتحمل نصيبها راضية منشرحة •

قالت بث :

— قد أكـون مخطئة فى صمتى ، ولـكن عـذرى أنى استهدفت

Twitter: @ketab_n

الصواب وسعيت اليه • لم أكن واثقة مما بى : ولم يرشدنى أحد الى علتى ، فبقيت أتعلق بالأمل • وقد حسبتها أنانية منى أن أزعجكم بمرضى عندما كانت والدتى مشغولة بميج ، وآمى غائبة عنا ، وأنت سعيدة مع لورى ، أو هذا على الأقل ما خيل الى حينئذ •

فصحت جو ، وقد أسعدها أن تجد الفرصة سانحة لتقول الحقيقة :

— أما أنا ، فقد ظننت أنك تحبينه يا بث : ولذلك تركت البيت وسافرت ، لأنى لم أستطع أن أبادله عاطفته •

وأخذت الدهشة بث لهذه الفكرة ، فابتسمت جو رغم حزنها ، وقالت بحنان :

— اذن لم تكونى مغرمة به يا عزيزتى ، لقد خشيت أن يكون قلبك الصغير مدلها بحبه طول هذا الوقت •

فقالت بث فى براءة الأطفال :

— ولماذا أحبه يا جو ؟ وكيف أجرؤ على ذلك وهو غارق فى غرامك ؟ اننى أعزه من كل قلبى لعطفه علىّ وكرمه معى ، ولكنى أعتبره مجرد أخ : وليته يصبح أخا فى يوم من الأيام •

فقالت جو بحزم :

— لن يكون ذلك عن طريقى ، ان آمى ما زالت أمامه ، تناسبه وتصلح له ، أما أنا فلا طاقة لى بهذه الأمور ، ولا يعنينى ما يجرى لغيرى • انى مشغولة بأمرك يا بث ، وكل همى أن تستردى صحتك ، ولابد أن تتحسنى •

Twitter: @ketab_n

— وهذا ما أتمناه وأبذل الجهد فى سبيل تحقيقه ، ولكنى أفقد كل يوم قليلا من عافيتى ، فيزداد يقينى أن لا أمل فى الشفاء • انه كالجزر يا جو : ينحسر بطيئا ولا يقف أبدا •

فقالت جو :

— بل يجب أن يوقف ، انك مازلت فى التاسعة عشرة ، أى فى نضرة الشباب . ويجب ألا ينحسر جزرك سريعا • ان أدعك تذهبين ، سأعمل وأصلى وأجاهد ضد هذا المرض ، وأبقى عليك رغم كل شىء • ام تفلت الفرصة بعد ، ولابد أن أجد السبيل الى انقاذك ، سيشملك الله برحمته الواسعة ، ولن يقسو علىّ فيأخذك منى •

وانخرطت فى البكاء ، بعد أن صاحت بهذا الحديث فى عناد ، اذ لم تكن نفسها قد استكانت بعد كما استكانت واستسلمت روح بث التقية •

ومن شأن المؤمنين ألا يتحدثوا عن ايمانهم ، لأن تقواهم تظهر فى أفعالهم أكثر من أقوالهم ، وهذا الايمان بالله يكون عادة أقوى أثرا من العظات البليغة والنصائح الغالية ، ولذلك ام تحاول بث أن تلوم جو على حزنها أو تنصحها أن تتذرع بايمانها ، ولكن حبها لأختها ازداد أمام ما أبدته نحوها من شعور رقيق وعاطفة جياشة ، وتعلقت بهذا الحب الدنيوى تعلقا شديدا أضفى على قلبها آيات من السلام والهدوء ، ولا غرابة فالمحبة الخالصة أقصر طريق الى الله • ولم تستطع بث أن تفسر كنه الايمان الذى غمر نفسها فوهبها الصبر والشجاعة ، وهوّن عليها أن تترك الحياة ، وتنتظر الموت راضية • كانت كالطفل الوديع لا تسأل ولا تناقش ، انما تترك كل شىء لله والطبيعة ، وهما أبونا وأمنا ، واثقة أنهما وحدهما القدران على ارشادنا فى هذه الدنيا الى سواء السبيل وبث القوة فى قلوبنا وأرواحنا • وكنها لم تستطع

Twitter: @ketab_n

فى ذات الوقت أن تقول : « انها سعيدة بالفراق الأبدى » ، اذ كانت الحياة عزيزة عليها ، وليس من اليسير أن تتركها راضية مغتبطة ، فجعلت تقول باكية : « إنى أجاهد لأحمل نفسى على الرضا بنصيبى » . ثم لاذت بصدر أختها ، ليطويهما الحزن أمام شبح الفراق الأليم ، وقد تبدى سافرا لأول مرة .

وبعد قليل استردت بث هدوءها وقالت :

— هل تصارحينهم بالحقيقة عندما نعود الى البيت ؟

وتنهدت جو وقالت :

— لا داعى لذلك ، فلن يطول الزمن حتى يدركوها بأنفسهم .

فقد كان من الواضح أن صحة بث تتدهور سريعا من يوم الى يوم .

فقالت بث :

— بل يجب أن تخبريهم ، فالحب يعمى أصحابه عن رؤية الكوارث وهى قادمة ، وقد لا يدركون شيئا لفرط حبهم لى ، انى أكره أن أخفى عنهم سرا ، ومن دواعى الرحمة بهم أن نهيىء أذهانهم للامر . ان لميج أطفالها وزوجها يسرون عنها ، أما أبى وأمى فليس لهما الا أنت يا جو ، فعدينى أن تقفى الى جانبهما ، وتخففى عليهما وقع الخبر .

فقالت جو ، وهى تفتعل الانشراح :

— سأفعل ذلك ان استطعت يا بث ، ولكنى لم أفقد الأمل بعد ،

Twitter: @ketab_n

وما زلت أعتقد أنك تتساقين مع أوهام المرض ، ولذا لن أدعك تسترسلين فيها •

ورقدت بث ، وأسندت رأسها الى حجر جو ، ولبثت برهة صامتة ، وقد تاهت فى بيداء الفكر ، ثم قالت فى هدوئها المعتاد :

ـ لست أعرف كيف أعبر عما بنفسى يا جو ، وفى الواقع ، أنا لا أستطيع الكلام بصراحة الا معك ، ولك وحدك أبوح بمكنون سرى • انى أحس احساسا غامضا بأن أجلى لن يطول • انى أختلف عنكن جميعا فى كل شىء : ما رسمت قط خطة لمستقبلى ، ولا فكرت فى شبابى كما تفعلن ، وما دار بخادى يوما أن أتزوج كما دار بخلدكن ، لا ، ولا توقعت أن أكون شيئا فى الحياة سوى بث الصغيرة الغبية ، التى لا هم لها إلا أن تهرول فى أرجاء البيت بلا فائدة ولا هدف ولا أمل • ما أردت يوما أن أخرج من البيت أو أتركه أو أتغيب عنكن ، وأؤكد لك يا جو ، أننى لست خائفة من مصيرى ، ولكننى واثقة بأنى سأستوحش اليكن وأحن الى البيت ، حتى ولو كانت الجنة مثواى •

ولم تقو جو على الكلام ، وساد السكون لحظات طويلة ، إلا من حفيف الرياح وهمسات الأمواج على الشاطىء ، ومر بجوارهما نورس أبيض الجناح ، التمع ضوء الشمس على صدره الفضى ، فراحت بث ترقبه بعيون حزينة حتى اختفى وراء الأفق • وأقبل عصفور رمادى يقفز على الرمال ، وهو يتلفت حوله جذلا ، كأنما يمتع قلبه بجمال الشمس والبحر • واقترب العصفور من بث ونظر اليها مطمئنا ، ثم قفز الى صخرة دافئة وراح يسوى ريش جناحيه البليلين • وابتسمت بث ، وأحست براحة نفسية ، فقد بدا لها أن هذا المخلوق الصغير يفتح قلبه

Twitter: @ketab_n

لهـا ، ويهبها صداقته المتواضعة ، ويذكرها بأنه مازالت أمامهـا مباهج تتمتع بها فى هذه الدنيا . قالت :

— ياله من طير عزيز ! انظرى كم هو أليف يا جو ؟ انى أفضـل العصافير على النورس ، فالنورس ذو جمال وحشى ، أما هذا العصفور فيبدو سعيدا وديعا مطمئنا ، وكنت فى الصيف الماضى أطلق على هـذا النوع من الطيـور اسم « عصافيرى » . وكانت أمى تقول بأن هـذه العصافير تذكرها بى ، فهى دائما تعمل على شاطىء الأمان راضية : أما أنت يا جو فأشبه بذلك النورس القوى الوحشى ، الذى يغرم بالرياح والعواصف ، ويسعده أن يوغل بعيدا فوق أمواج البحر الثائرة ، ولعل ميج تشبه الحمامة الوادعة ، وآمى كالكروان كثيرا ما تذكره فى خطاباتها . انها تحـاول مثله أن تطير عاليا : حتى تصل الى السحاب ، ثم تهبط الى عشها الأمين سالمة . يا للعزيزة الصغيرة ، ويا لطموحها العظيم ؟ ولكنها تطوى بين ضلوعها قلبا كبيرا رقيقا ، ولن تستطيع الآمـال ، مهما حلقت بها ، أن تنسيها بيتها القديم . ألا ليتنى أراها ثانية ! ولكنهـا تبدو لى بعيدة فى آخر الدنيا !

ورأت جو أن تغير مجرى الحديث ، حتى لا ترهـق نفس أختهـا المعذبة ، فقالت :

— ستعود فى الربيع ، وعندئذ ترينها وتتمتعين بقربها . ستكونين أحسن صحة إذ ذاك فأنا مصممة على معونتك ، وسأبذل كل جهد لأساعدك على الشفاء وأعيد الى خديك توردهما .

فقالت بث وكأنمـا تفكر بصوت عـال :

— لا تعللى نفسك بالأمل يا جو ، فلن يجـدى الأمـل شيئا على

Twitter: @ketab_n

ما اعتقد ، وواجبنا ألا نحزن ، حتى نستمتع بصحبة بعضنا بعضا ، ونحن فى انتظار النهاية • وسوف تمر بنا أوقات سعيدة ، لأنى لا أقاسى الآن ألما على الاطلاق ، وأعتقد أنه بمعونتك سينحسر الجزر فى سهولة ويسر •

ومالت جو على الوجه الهادىء الوديع ، وطبعت عليه قبلة صامتة ، وهبت فيها جسمها وروحها لعزيزتها بث •

وتحقق قول جو حين عادت الفتاتان الى البيت ، فما ان شاهد الوالدان ابنتهما حتى أدركا أن مخاوفهما ، التى كانا يضرعان الى الله أن يبددها ، قد تحققت •

ودخلت بث بعد رحلتها القصيرة الى المصيف مكدودة متعبة ، ولم تلبث أن آوت الى غراشها بعد أن أبدت سعادتها بالعودة الى البيت •

وصحبتها جو الى غرفتها ، ولكن عندما نزلت الى البهو ثانية ، أدركت لفورها أن الحقيقة قد تبلجت لوالديها ، مما وفر عليها مشقة التصريح ، فقد وقف أبوها مسندا رأسه الى رف المدفأة ، ومدت اليها أمها ذراعها كأنها تطلب العون منها ، فتقدمت جو اليها تواسيها دون أن تقول كلمة واحدة •

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والثلاثون

افكار جـديدة

ما ان تحل الساعة الثالثة مساء ، حتى يهرع أهل الطبقة الراقية فى مدينة نيس الى « متنزه الانجليز » ، لأنه مكان جميل جذاب ، فى جانب منه الأزهار والنخيل والشجيرات المستوردة من المناطق الحـارة ، وفى الجانب الآخر يهدر البحر بأمواجه المتلاحقة ، ومن الجهة الثالثة يمـر شـارع فخـم تصطف على جانبيه الفنادق الكبيرة والبيوت الأنيقة ، أما الجهة الرابعة فتمتد فيها بساتين الفاكهة حتى تصـل الى التـلال القريبة • وفى الأيام الصحوة المشمسة ، يصبح هـذا المكان كالكرنفال : نرى فيه أبناء دول مختلفة ، وتسمع لغات عدة ، وتشهد ملابس متباينة : تجد الانجليز المتغطرسين ، والفرنسيين المرحين ، والألمان الجادين ، ثم الإسـبانيين بوسامتهم ، والروس بضخامتهم ، واليهـود بمكرهـم ، والأمريكيين بلطفهم وتسامحهم •

ترى هؤلاء كلهم راكبين عرباتهم المطهمة ، أو متسكعين على أقدامهم فى أرجاء المكان ، أو جالسـين فى جانب من المكان يثرثرون ، ويروون أخبار النـاس ، وينتقدون البارزين من زوار المدينة الجـدد ، مثل ريستورى أو ديكنز ، أو فيكتور عمانويل أو ملكة جزر ساندوتش • والعـربات فى متنزه الانجليز تختلف اختلاف الناس ، ومنها ما تجتذب الاهتمام العام ، كتلك العربات الصغيرة الشبيهة بالسلات ، التى تسوقها سيدات أنيقات ، وتجرها أمهـار قوية نشـيطة . وقـد قبع الخـدم فى أعلى مقـاعدها الخلفية •

Twitter: @ketab_n

وفى يوم عيد الميلاد ، كان يسير فى ذلك المتنزه الأنيق ، فتى فارع الطول ، يتحرك بخطوات وئيدة وقد شبك يديه وراء ظهره ، وبدا عليه شرود الذهن • وكان الفتى متناقضا فى شكله ، فملامحه تشبه الايطاليين ولكنه يرتدى الملابس الانجليزية ، ويمشى بالطريقة الأمريكية ، وقد اجتذب هذا التناقض اهتمام السيدات ، فتبعنه بنظرات الرضا والارتياح • أما الرجال المتأنقون الذين يرتدون السترات المخملية السوداء ، والقفازات الصفراء وأربطة العنق الحمراء ، ويحلون صدورهم بزهور البرتقال فكانوا يتأملونه شزرا ، ثم يهزون أكتافهم حاسدين •

وكان المتنزه زاخرا بالوجوه الجميلة التى تنتزع الاعجاب ، ولكن الفتى لم يكن يعبأ بها ، إلا من لفتة هنا أو هناك يلقيها على فتاة شقراء أو سيدة ترتدى ثوبا أزرق • ووصل الفتى فى سيره الى نهاية الطريق ، ثم وقف لحظة عند تقاطعه مترددا • كان حائرا فيما يفعله : أيذهب الى الحديقة العامة ليستمع الى عزف الفرقة الموسيقية ؟ أم يتجه الى شاطىء البحر فى طريق قلعة « هل » ؟

وبينما هو فى تفكيره ، سمع وقع حوافر مهر يسير خببا نحوه ، فلما رفع رأسه ينظر ناحيته ، رأى عربة صغيرة تقبل صوبه مسرعة ، وليس فيها سوى سيدة تجلس بمفردها • وكانت الراكبة فتاة شقراء ترتدى ثوبا أزرق ، حدق الفتى فيها لحظة ، ثم أضاء وجهه بشرا ، ولوح بقبعته لها كالأولاد وهو يهرع الى لقائها •

وألقت آمى بالأعنة جانبا ، وأمسكت باليدين الممدودتين ، وصاحت

— أهذا أنت حقا يا لورى ؟ ظننتك لن تأتى أبدا !

ومرت بالصديقين فى تلك اللحظة سيدة فرنسية تسير مع ابنتها ، فلما رأت حرارة ذلك اللقاء ، أسرعت تبتعد عن المنظر اغماضا خشية

Twitter: @ketab_n

تتأثر ابنتها بمثل هذا السلوك الجرىء الذى يأتيه هؤلاء الانجليز المعاتية •

وأجاب الفتى قائلا :

ــ لقد تأخرت فى طريقى الى هنا ، ولكنى وعدت أن أقضى معك عطلة عيد الميلاد ، وهأنذا بين يديك •

سألته :

ــ كيف حال جدك ؟ ومتى حضرت ؟ وأين تقيم ؟

قال يرد على أسئلتها بالترتيب :

ــ فى صحة جيدة ، وجئت ليلة أمس ، وأقيم فى شوفين • ولقد مررت بفندقكم فوجدتكم جميعا فى الخارج •

ــ عندى أخبار كثيرة ، ولست أدرى من أين أبدأ • تعال اركب معى حتى نتحدث على راحتنا • كنت أتنزه وحدى لأن فلو ترتاح استعدادا لسهرة الليلة •

قال :

ــ وما برنامجكم الليلة ؟ مرقص ؟

أجابت :

ــ يقيم الفندق حفلة عيد الميلاد اكراما للنزلاء الأمريكيين الكثيرين ، وستأتى معنا طبعا ، فعمتى يسرها أن تراك •

فشبك الفتى ذراعيه على صدره واستند الى المقعد قائلا :

Twitter: @ketab_n

— أشكرك .. والآن ، الى أين نذهب ؟

وسرت آمى لقوله ، إذ كانت تحب أن تقود العربة بنفسها : وكان يملأ صدرها غبطة أن ترفع مظلتها وتمسك الأعنة الزرقاء التى تمتد فوق ظهور الأمهار البيض ، وتفرقع السوط بيدها . قالت :

— هلم الى البنك أولا نسأل عن بريد لى ، وبعـد ذلك نذهب الى قلعة « هِل » فالمنظر هنـاك يأخـذ بالألبـاب ، وأنا أحب أن أطعـم الطواويس بيدى . أزرت القلعة من قبل ؟

قال :

— زرتها كثيرا فيما مضى ، ولكن لا مانع مطلقا من أن ألقى عليهـا نظرة أخرى .

قالت :

— والآن قص علىّ أخبارك كلها ، فآخر معلوماتى عنك ما كتبه لى جدك ؛ من أنه ينتظر عودتك من برلين .

قال :

— نعم ، لقد قضيت شهرا فى برلين ، ثم التقيت بجدى فى باريس ، حيث أقام طول الشتاء . ان له أصدقاء هناك ، وقد وجـد فى قربهـم منه تسلية كافية ، أما أنا فقد كنت أسافر وأعود اليه ، وكانت الأمـور تسير معنا على ما يرام .

فقالت آمى ، وقد استشعرت غموضا فى سلوك لورى :

— هذه خطة اجتماعية موفقة .

Twitter: @ketab_n

قال :

— ولِمَ لا ؟ ان جدى يكره السـفر ، وأنا لا أطيق الاستقرار فى مكان واحد ، ولذلك يفعل كل منا ما يروقه ، حتى لا يتكبد أحدنا مشقة من أجل الآخـر • انـه يصاحبنى معظم الوقت ، ويلتذ بسماع أخبار سفرى ، أما أنا فيسرنى دائما أن أجـد من يرحب بى عند عودتى من رحلاتى •

ونظر الفتي الى الشارع الذى يقودهم الى ميدان نابليون ، بمدينة نيس القديمة ، وقال مشمئزا :

— ياله من زقاق قذر ! ما رأيك ؟

قالت :

— ان للقذارة سحرها ، ولذا لا يضايقنى أن أمر بها ، ثم ان من بين هذه المنعطفات الضيقة يمكنـك أن ترى النهر والتـلال ، وهو منظـر غاية فى المتعة • علينا أن ننتظر هنـا حتى يمر هذا الموكب الى كنيسـة القديس جون •

وراح لورى ينظر شـاردا الى الموكب الدينى وفيـه القسـاوسة بملابسهم الفضفاضة ، والراهبـات المحجبات بالأبيض الشـفاف يحملن الشموع الموقـدة ومن حولهن صبيان صغار بملابس زرقـاء ، يرتلون الأدعية وهم فى طريقهم الى الكنيسـة • وراحت آمى تتأمل لورى فى قلق وخوف ، إذ وجدت أن الفتى المرح الصبوح الذى تركته فى بلدتها ، قد أصبح الآن رجلا حزينا واجما • حقيقة أنه ازداد وسـامة وأناقة عن ذى قبـل ، ولكنه بدا بعد أن مضت فرحـة لقائه بهـا ، متعبا مرهقا •

Twitter: @ketab_n

لم يكن مريضا ولم يكن تعسا ، ولكن كان أكثر وقارا ، كمن تقدم به العمر زمنا أطول بكثير من العام الذى مضى منذ رأته لآخر مرة • ولم تفهم آمى سر تغيره ، ولم تجرؤ على سؤاله ، انما هزت رأسها فى حيرة ، ثم عادت الى قيادة الخيل بعد أن مر الموكب من تحت أقواس قنطرة باجليونى ، واختفى داخل الكنيسة • قالت بالفرنسية التى ازدادت ذخيرتها منها كما لا نوعا :

— فيم تفكر ؟

قال فى انحناءة ، وقد وضع يده على قلبه ، ونظر اليها معجبا :

أفكر فى أن المدموازيل قد استفادت كثيرا من اقامتها فى فرنسا والنتيجة غاية فى الابداع • •

وتخضب وجه آمى بحمرة الخجل ، ولكنها لأمر ما لم تطرب لمديحه اللبق ، بقدر ما كانت تطرب فيما مضى لكلمات اعجابه الخشنة ، كان فى تلك الأيام يربت على رأسها ، ويدور حولها فى الحفلات ويقول بابتسامة مخلصة : « شكلك فى مجموعه ظريف ! » • ان هذا الأسلوب الجديد لا يعجبها ، فعلى الرغم من نظرة الاعجاب ، كان عدم الاهتمام يرن فى حديثه •

قالت تحدث نفسها فى خيبة أمل ، رغم تظاهرها بالمرح والهدوء :
« اذا كان هذا ما سيصير اليه عندما يكبر ، فالأفضل أن يبقى صبيا » •

وعندما وصلت الى البنك ، وجدت البريد العزيز الذى تنتظره من البيت ، فأسلمت الأعنة للورى ، وجعلت تقرأ سعيدة ، والعربة تسير بها فى الطريق المتعرج الظليل ، بين الأسيجة الخضراء والورود المزدهرة تحية لفصل الصيف •

Twitter: @ketab_n

قالت وهى تنظر بحزن الى احدى صفحات الخطاب :

ـ تقول والدتى ان صحة بث تزداد سوءا ، وكثيرا ما كنت أشعر بأن الواجب يقضى على بالعودة الى البيت ، ولكنهم جميعا يلحون على بالبقاء ، ويعتقدون أنها فرصة لن تتاح لى مرة أخرى ، ولذلك بقيت عملا برأيهم .

قال وهو يقترب منها ، وينظر اليها نظراته القديمة :

ـ أحسنت بالبقاء يا عزيزتى ، وليس أدعى الى غبطتهم وراحة بالهم من أن تستمتعى بوقتك سعيدة هانئة .

وانزاح الخوف الذى جثم على قلب آمى ، وسرى عنها ، فقد وجدت فى تصرفه العطوف ونظراته الحانية ثم كلمة الاعزاز التى قالها ، ما أكد لها أنها سوف تجد فى غربتها هذه ، سندا تركن اليه اذا ما أصابها مكروه . واستخفها الطرب فضحكت وأرته رسما صغيرا من ريشتها ، صورت فيه أختها جو فى ملابس الكتابة ، وقد وقفت شرائط قلنسوتها رأسية متصلبة ، ومن فمها تخرج جملة تقول : « العبقرية تحترق » .

وابتسم لورى وأخذ الصورة وأودعها جيب سترته ، حتى لا يطيرها الهواء ، وراح ينصت فى اهتمام الى آمى وهى تقرأ عليه الخطاب المرح الذى تلقته .

ووقفت بهما العربة بين خرائب القلعة القديمة ، فقالت آمى وهى تهبط الى الطواويس الرائعة التى أقبلت عليهما تنشد الطعام :

ـ هذا ولا شك عيد بهيج ، تحققت فيه كل أسباب السعادة ، ففى

Twitter: @ketab_n

الصباح جاءتنى الهدايا ، وبعد الظهر تلقيت بريدا من الأسرة وفزت بلقائك ، وفى المساء ينتظرنى حفل رائع •

ووقفت تضحك وتتسلى بالقاء فتات الخبز الى الطيور الجميلة ، وكما تفحصت لورى من قبل ، استبد حب الاستطلاع بلورى ، فراح يفحصها بنظراته ، ليرى ماذا فعل الزمان بها ، وما أحدثته الغيبة فيها من تغيرات • ولم يجد لورى بها ما ضايقه أو خيب رجاءه ، بل كانت على العكس محط رضاه واعجابه : حقيقة أنها كانت تتصنع فى الحديث والحركات أحيانا ، ولكنها ظلت كعهده بها رشيقة جميلة مرحة ، ولم يزد عليها سوى شىء لا يمكن التعبير عنه ، فى طريقة الملبس والحركة ، هوما نسميه بالأناقة • كانت تتميز دائما بالنضج الباكر ، وقد أفادت من رحلتها خبرة فى أسلوب الكلام والمشى ، فبدت امرأة محنكة أكثر من حقيقتها البريئة الغريرة ، كما ظلت محتفظة بعزمها القوى وصراحتها الأصيلة اللذين لم يتأثرا بأى طلاء أجنبى •

لم يقرأ لورى كل هذه المعانى فى وجهها وهى تطعم الطواويس ، ولكنه رأى فيها من بواعث الرضا ما جعله يحتفظ فى قلبه بصورة جميلة ، لفتاة وسيمة تنعكس أشعة الشمس المشرقة على ثوبها الناعم وخديها المتوردين ، وشعرها الذهبى الوهاج ، وتزيد بحسنها جمال المنظر الطبيعى الذى تقف فى وسطه •

وحين صعدا معا الى الهضبة الحجرية التى تتوج التل ، لوحت آمى بيدها كأنما ترحب بمجىء الفتى الى بقعتها المفضلة • قالت وهى تشير هنا وهناك :

— أتذكر الكاتدرائية ؟ والصيادين وهم يجرون شباكهم فى الخليج ، ثم الطريق الى فيلا فرانكا وبرج شوبرت ؟ أتذكر ما هو أجمل من هذا

Twitter: @ketab_n

كله ، أى تلك البقعة اللامعة فى وسط البحر ، التى يسمونها جزيرة كورسيكا ؟

قال بلا اهتمام :

ـ أذكرها .. أنها لم تتغير كثيرا .

قالت آمى وهى تتمنى أن يشاركها فى سرورها ومرحها :

ـ ترى كم تدفع جو ، لترى هذه البقعة اللامعة ؟

ولم يزد رده عن كلمة « نعم » ، ثم التفت الى البحر يبحث بأنظاره عن تلك الجزيرة التى زاد اهتمامه بها من أجل شخص أعز عليه من نابليون .

قالت آمى وهى تجلس استعدادا لحديث ممتع :

ـ تأملها مليا من أجل جو ، ثم تعال وحدثنى عما مضى من أخبارك كلها . . .

ومع أن لورى جلس بجانبها يجيب على أسئلتها بصراحة ، غير أنها لم تشعر من حديثه بما كانت تنشده من متعة ، ولم تعرف منه أكثر من أنه جاب القارة الأوربية وزار اليونان . وبعد ساعة قضياها فى السير هنا وهناك ، عادا الى البيت راكبين ، حيث قدم تحياته واحترامه لمسز كارول ثم غادر الفندق على أن يعود فى المساء .

وجدير بالذكر أن آمى عنيت بتزيين نفسها فى تلك الليلة : فقد غير بعد الفتى عنها طوال هاتين السنتين نظرتها اليه ، وجعلها ترى صديقها القديم فى ضوء جديد . ولم يعد لورى ذلك « الصبى » ، بل أصبح

Twitter: @ketab_n

رجلا وسيما ترتاح اليه النفس • وأحست رغبة فى أن تعجبه ؛ وكانت تعرف مواطن الحسن فى نفسها ، فراحت تبرزها وتعنى بها بذوق ومهارة ؛ وهما رأس مال كبير لفتاة مثلها جميلة ولكنها معدمة •

وكانت أقمشة الترلتان والتل رخيصة الثمن فى نيس ، فكانت تستعملهما فى مثل هذه المناسبات • وتبعا الطراز الانجليزى الرصين ، الذى يليق بالفتيات ، تزينت بزهور طبيعية ، وأساور قليلة ، وحلى رخيصة الثمن ولكنها جذابة جميلة • وكانت الروح الفنية تتغلب عليها أحيانا فتتحذلق فى تصفيف شعرها ، أو ترتدى ملابس كلاسيكية غريبة ، أو تتخذ وقفات تتشبه فيها بالتماثيل ؛ ولكننا نغفر لها هذه الهنات ، فبكل منا نواح ضعيفة ، وللشباب نزوات تسر أنظارنا وتطرب قلوبنا •

قالت آمى تحدث نفسها وهى تلبس ثوب فلو الأبيض الحريرى القديم وتغطيه بغلالة جديدة برزت من بين ثناياها اللامعة كتفاها الناصعتان ورأسها المتوج بشعرها الذهبى الذى صففته على شكل فنى جذاب :

— « أريده أن يرانى فى أجمل حال ليخبرهم بذلك عند عودته » •

وكانت من الذكاء بحيث لم تتصنع فى تصفيف شعرها ، بل جمعت خصلاته الغزيرة وعقصتها فوق مؤخر رأسها فى عقدة بسيطة • وكانت تقول لمن ينصحها بتجعيد شعرها أو جدله :

— أعرف أننى لا أتبع الطراز الحديث ، ولكن طريقتى فى تصفيف شعرى تناسبنى جدا ، وأنا لا أحب أن أبدو فى شكل مخيف •

ولما لم يكن لديها من أدوات الزينة ما يناسب هذا الحفل الهام ، فقد ضمت أطراف ثوبها بزهور الأزاليا ، وزينت أكتافه بعناقيد خضراء

Twitter: @ketab_n

رقيقة ، وتطلعت فى غبطـة الى حذائها الأبيض المصنوع من الساتان ، وقد تذكرت حذاءها القـديم الذى كانت قـد طلته باللون الأبيض ، ثم لبست الحذاء وراحت تسير به فى الغـرفة جيئة وذهابا ، وهى معجبـة بقدميهـا الارستقراطيتين •

قالت وهى تنظر فى المرآة الى نفسها بعين ناقدة ، وقد أمسكت فى كل يد من يديهـا بشمعة مضيئة : « ان مروحتى الجديدة تتلاءم جـدا مع زهورى ، وقفازى منسجم جذاب ، والدنتلا التى تزين منديل عمتى توافق لون ثوبى ، ولو كان لى أنف وفم من الطراز الكلاسيكى لاكتملت بهما سعادتى » •

وعلى الرغم من هذا العيب الذى كان مصدر عذابها ، بدت فى تلك الليلة أرشق وأجمـل من المعتـاد • وكانت تؤمن أن الاسراع فى المشى لا يناسبها ، والخطوات المتئدة تلائم طولها الفارع ، فخرجت من غرفتها تخطر فى مشيتها ، وسارت الى القاعة الكبرى تنتظر لورى ، ثم وقفت تصلح هندامها تحت أنوار الثريا الكبيرة ، فكان لانعكاس الضـوء على شعرها أثره الجميل ، ولكنها لم تقف طويلا فى مكانها هذا ، فبعد تـردد قصير سارت الى ركـن بعيد ، كأنما أخجلتها رغبتها الصبيانية فى أن تكون أول مع يقع عليها نظره عندما يدخل • وقد أحسنت صنعا بذلك ، إذ أن لورى تسلل الى القاعة فى غفلة منها ، فلما رآها ، كانت تقف أمام النافذة البعيدة . وقد أدارت رأسها فى لفتة صغيرة ، وضمت أطـراف ثوبها باحدى يديها ، ومن خلفهـا انسدلت الستائر الحمراء ، فأبرزت قوامها النحيف وجسدها الناصع ، وعندئذ خيل اليه أنها تمثال جميـل أحسن اختيار مكانه •

Twitter: @ketab_n

ونظر لورى اليها برضا كانت تتمنى أن تراه فى عينيه ، وقال :

ــ مساء الخير أيتها الإلهة ديانا !

وكان لورى مرحا على غير عادته ، كان مجرد تفكيرها فى أنها ستدخل قاعة الرقص مستندة الى ذراعه الأنيقة ، يملأ قلبها سرورا وغبطة ، فأجابت باسمة :

ــ مساء الخير أيها الإله أبولو !

قال وهو يقدم لها باقة جميلة فى ماسك أنيق للأزهار ، كثيرا ما كانت تراه فى نافذة محل الزهور الفخم ، فتتمنى الحصول عليه :

ــ هذه زهورك ، ولقد نسقتها بنفسى على غير الطريقة التى تكرهينها والتى كانت حنة تسميها « الباقة البلهاء » .

قالت فى امتنان :

ــ هذا كرم عظيم منك ، ولو كنت أعلم بحضورك اليوم ، لأعددت لك بالمثل هدية ، ولو أنها لن تكون فى جمال هذه .

قال لها ، وقد شبكت الماسك الفضى حول معصمها :

ــ شكرا ، انها أقل مما يجب ، ولكنها ازدادت الآن جمالا .

قالت :

ــ خل عنك هذه الأقوال .

قال :

ــ كنت أظن أنك تحبين هذا النوع من المجاملات .

Twitter: @ketab_n

قالت :

ــ ليس منــك ، فمجاملاتك تبدو مصطنعة ، وأنا أفضــل عليهــا طريقتك القديمة الخشنة فى ابداء اعجابك •

قال بارتياح ملحوظ :

ــ يسعدنى أن أسمع منك هذا الكلام •

ثم زرّ لها قفازيها ، وسألها ان كان رباط رقبته فى موضعه المناسب كما تعود فى الماضى أن يفعل ، عنـدما كانا يذهبان معا الى حفل ما •

واجتمع عقد المدعوين فى قاعة الطعــام المستطيلة ، وكانت ليــلة لا يتأتى مثلها الا فى القــارة الأوربية • فقد دعــا الأمريكيون الكرماء كل من يعــرفون فى مدينة نيس ، ولمــا كانوا لا يتحيزون ضــد ذوى الألقاب ، فقد كان ضمن المدعوين عــدد قليل منهم ، أضفوا بوجودهم على الحفل بهجة ورواء : فهذا أمير روسى تنازل بالجلوس ساعة فى صحبة سيدة ضخمة الحجم ، تلبس ثوبا من المخمل الاسود ، وتحيط جيــدها بعقد من اللؤلؤ • وذلك كونت بولندى فى الثامنة عشرة من عمره ، كرس وقته لتســلية السيدات ، وبذلك اكتسب رضاهن عنه ، فقلن انه فتى لطيف جذاب • وكان هناك أيضــا شريف ألمانى ، جاء الحفل جريا وراء طعام العشاء وحده ، وراح طول الوقت يحوم فى أرجاء القاعة ، بطريقة غامضة ، بحثا عن شىء يلتهمه • كمــا حضر سكرتير البــارون روتشيلد الخاص ، وهو فتى فارع الطول يرتدى حذاء ضيقا ، ويبتسم دائما ، كأنما اسم سيده البارون قد أضفى عليه هالة ذهبية • وكان بين المدعوين فرنسى من أصدقاء الامبراطور ، ضخم الجثة مغــرم بالرقص ، فراح يشبع غرامه به طول الوقت • وجاءت ليدى دى جونز اتزين الحفل بأفراد

Twitter: @ketab_n

أسرتها الثمانية • وكان الحفل يزخر بالفتيات الأمريكيات ذوات الأقدام الرشيقة والأصوات المرتفعة الحادة ، وبالانجليزيات الجميلات بلا روح ولا حيوية ، ثم بعـدد قليل من الفرنسيات ممن ليس لهن من الحسن نصيب ، وان كن ماهرات لعوبات • هذا بالاضـافة الى الجمع المعتـاد من السياح الذين اندمجوا فى الحفـل مسرورين • وكانت الفتيات على اختلاف جنسياتهن يرقصن مع الشبان فى حين وقفت أمهاتهن على الجانبين يراقبنهن فى غبطة وانشراح •

ومن السهل على أية فتاة فى مقتبل الشباب أن تتصور مدى سعادة آمى ، وهى تحتل بجانب لورى مركزا بارزا فى تلك الليلة : كانت تعرف مدى حسنها وأناقتها ، وكانت تحب الرقص وتتقنه كل الاتقان ، فراحت ترتشف من مناهل المتعة منتشية بشعور المرأة حين تكتشف سلطانها على المملكة الجديدة ، التى ولدت لتحكمها بجمالها وشبابها وعفتها وأنوثتها • ولكن سعادتها لم تشغلها عن آلام غيرها ، فانتابها الأسف لما رأت بنات ليدى ديفيز المحرومات من الجمـال والأناقة ، لا يجدن فى الحفل رفقاء سوى أب مقطب الأسارير وثلاث عمات أشد تقطيبا • وقد انحنت لهن فى ود زائد وهى فى طريقها الى الرقص ، وكانت لفتة لطيفة منها ، سمحت لهن برؤية ثوبها ، كما أثارت فيهن منتهى الفضول لمعرفة ذلك الصديق الممتاز الوسـيم الـذى يصحبها • وعنـدما عزفت الفرقة أول أنغامها الراقصة ، تورد وجه آمى ولمعت عيناها ، وأخذت تطرق الأرض بحذائها فى صبر نافد ، لتلفت نظر لورى الى رغبتها فى الرقص ، ولذلك كانت صدمتها لا توصف حين قال لها بصوت غاية فى الهدوء :

ألديك مانع من أن نرقص ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ــ لا مانع على الاطلاق ، والناس يرقصـــون عادة فى مثل هـــذه الحفلات •

وأمام جوابها السريع ، وسيماء الدهشة التى بدت عليهـــا ، رأى الفتى أن يسرع باصلاح خطئه فقال :

ــ أقصد بسؤالى الرقصة الأولى ، فهل تمنحينني هذا الشرف ؟

قالت :

ــ أعطيك رقصة واحدة اذا أمكننى التخلص من الحاح الكونت • انه راقص بارع ، ولن يضيره أن يتنازل لصديق قديم مثلك عن احدى رقصـــاته معى •

وكان غرضها من هذا الكلام أن تؤثر فيه ، وتريه أنها ليست ممن يستهان بهن •

قال :

ــ انه صبى وسيم ، ولكنه أقصر قامة من أن يعتمد عليه !

ثم أضاف ينشد قطعة من الشعر :

« انهـــا ابنـــة الآلهـــة
قامتهـــا الفارعة رائعـــة
وجمالها الساحر أروع »

وكان هذا كل ما قاله لورى فى سبيل ارضائها •

كانت المجموعة الراقصة التى انضموا اليهـــا كلهـــا من الانجليز ،

Twitter: @ketab_n

فاضطرت آمى أن تسير فى الرقص بطريقتهم المزوّقة ، مع أنها كانت تفضل رقصة الترانتيلا • ولما انتهت الأولى ، سلم لورى آمى الى الكونت « الصبى الوسيم » ، وذهب الى فلو يحييها ويراقصها ، دون أن يحجز لنفسه رقصة أخرى مع آمى أو يطالب اليها الاشتراك معه فيما يلى من مباهج الحفلة • وشعرت آمى باهماله ، فاعتزمت أن تؤدبه عليه ، لذلك شغلت نفسها عنه بغيره حتى موعد العشاء ، وان كانت تنتوى فى قرارة نفسها أن تصفح عنه ، اذا ما أبدى ما ينم عن توبته واعتذاره • وقبل أن تبدأ الرقصة التالية ، وهى البولكا المزدوجة ، أقبل عليها متباطئا ، يطلب منها أن تراقصه ولم تجد فى لهجته الحماسة التى ترضى كبرياءها ، فاعتذرت ببرنامج رقصاتها الحافل ، وظلت عند رفضها رغم محاولاته الفاترة فى اقناعها بالعدول عنه • وعندما انسابت مع الكونت الصغير الى حلبة الرقص ، رأته يجلس الى جوار عمتها ، وقد بانت على وجهه سمات الارتياح ، مما أكد لها أنه كان يطلب مراقصتها تأدية للواجب •

ورأت فى تصرفه هذا غلطة لا تغتفر ، لذلك أهملت شأنه وقتا طويلا • وعندما كانت تعود الى عمتها بين الرقصات لتستريح لحظة ، أو تصلح مشبك ثوبها ، تتشاغل عن وجوده ولا تبادله سوى كلمة أو كلمتين •

وفعل سلوكها معه فعله المنشود ، فراح يتبعها بنظراته راضيا مغتبطا وهى ترقص فى الحلبة بمنتهى الرشاقة والاتقان • لم تكن تقفز فى رقصاتها فى خشونة ، أو تتحرك بلا هدف ، كما يفعل غيرها من الفتيات ، انما كانت تنساب مع أنغام الموسيقى فى تناسق من يحب الرقص ويقدره •

Twitter: @ketab_n

وكانت النتيجة مرضية للغاية ؛ فقبل أن ينتصف الحفل ، كان قد وصل الى رأى قاطع وهو : « ان آمى الصغيرة ستصبح امرأة جذابة بمعنى الكلمة » .

ودبت الحياة فى الحفل ، وسرعان ما سادت الروح الاجتماعية فى الموجودين ، فأشرقت الوجوه سعيدة بعيد الميلاد ، وامتلأت القلوب بنشوة الفرح ، وخفت أقدام الراقصين فى الحركة ، وتفنن الموسيقيون فى العزف وأخذتهم نشوة الجماعة ، فعزفوا فى مهارة ، والناس من حولهم يرقصون ، وكان من لا يرقص منهم يبدى اعجابه بحرارة وحماسة . وبينما ظلّ حال آل ديفيز سيئا معتما ، راح آل جونز يرقصون كقطيع من الزراف . وكان السكرتير ذو الهالة الذهبية ، يمرق فى المرقص كالشهاب وبرفقته سيدة فرنسية جميلة ، تفرش الأرض بذيل ثوبها الحريرى الطويل ؛ أما الشريف الألمانى فقد وجد ضالته فى مائدة الطعام ، فجلس اليها سعيدا يلتهم الأصناف بشراهة أثارت استياء الخدم ، لما تركه من آثار مدمرة . وسجل صديق الامبراطور لنفسه مجدا ، فقد اشترك فى كل رقصة سواء كان يعرفها أو لا يعرفها ، وكان مرحه الصبيانى مسليا ولافتا للانظار ، فعلى الرغم من سمنته ، كان يرقص مثل كرة من المطاط : يجرى ويلف ويقفز فيحتقن وجهه وتلمع صلعته ، وتتطاير أطراف سترته فى عنف . وحين سكتت الموسيقى ، راح يمسح قطرات العرق الذى تصبب على جبينه ، ويوزع ابتساماته على الأصدقاء هنا وهناك .

وتحولت الأنظار الى آمى وصديقها البولندى ، وأعجب الناس بحماستهما المتعادلة ، وحركاتهما الخفيفة المتناسقة ، حتى ان لورى لم يملك الا أن يتبع وقع الحذاء الأبيض ، وهو يرتفع ثم يهبط فى نشاط ،

Twitter: @ketab_n

كأنما تحركه أجنحة خفية لا تكل . وعندما اصطحبها الكونت الصغير الى مكانها ، وهو يعتذر عن اضطراره الى الانصراف من الحفل مبكرا ، كان التعب قد هدّها فى الواقع ، فجلست تستريح ، وهى ترقب من طرف خفى ، وقع العقاب الذى أنزلته بفارسها المذنب .

أدركت الفتاة لأول وهلة أنها وفقت فى عقابه . فعواطفنا ونحن فى الثالثة والعشرين تجد بلسما فى رفقة الأصدقاء ، مهما كانت شدة الصدمة التى لاقتها ، وأرواحنا الفتية تنتعش بشرا بسحر الجمال والأضواء والموسيقى والحركة . وقد حرم لورى من هذا كله بانشغال آمى عنه ، فما ان عادت حتى نهض يقظا يقدم لها مقعده ، ثم أسرع الى غرفة الطعام يحضر لها بعض ما تأكله . قالت لنفسها وهى تبتسم راضية : « كنت واثقة بأن هذا سيفيده كثيرا » .

ووقف لورى يروح لها باحدى يديه ، ويحمل فى اليد الأخرى قدح القهوة . قال :

ـ كأنك احدى لوحات بلزاك .

فأخذت تمسح خدها بقفازها الناصع ، ثم أرته إياه ، وهى تقول ببساطة أضحكته :

ـ هذا الأحمر ثابت لا يبهت لونه .

سألها وهو يلمس طرفا من ثوبها الشفاف حركه الهواء فارتكز على ركبته :

ـ ماذا تسمين هذا القماش ؟

قالت :

ـ إيليوجن .

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ اسم جميل لنسيج جميل ٠ أهو نوع جديد ؟

ــ بل قديم كالجبال ، وقد رأيت فتيات كثيرات يلبسنه ، ولكنك لم تدرك جماله الا الآن ، فيالك من غبى !

قال :

ــ ولكنى لم أره عليك من قبل ، وهذا كما ترين سبب الخطـأ ٠

ــ هذا الكلام ممنوع ! والأفضل أن أحتسى القهوة ، فمثل هـذه المجاملات تثير أعصـابى ٠

وجلس لورى منتصبا أمامها ، وتناول صحنها الفارغ فى خضوع ، وهو يشعر بلذة غريبة فى طاعة أوامر « آمى الصغيرة » ، وكانت قـد تغلبت على خجلها السابق ، وأحست برغبـة جامحة فى أن تعبث بـه وتسيطر عليه ، شأن الفتيات مع من يبدين لهن الخضوع من الرجـال المهـذبين ٠

سألها وهو ينظر اليها نظرة فاحصة :

ــ أين تعلمت هذه الأساليب ؟

ــ أجابت وهى تفهم تماما ما يعنيه ، ولكنها تتظاهر بالجهل لتجبره على الافصاح عن غرضه :

ــ أرجو أن تفصح عما تعنى بكلمة « الأساليب » ، فانى أراه تعبيرا غامضـا ٠

Twitter: @ketab_n

قال ضاحكا ، وقد غلب على أمره :

— انها الطريقة العامة فى اللبس والتصرف ، وارتداء نسيج الإيليوجين •

واغتبطت آمى لهزيمته ، ولكنها أبت أن تفصح عن ارتياحها ، وقالت فى استحياء :

— ان الحياة الأجنبية تصقل الانسان رغم أنفه ، وأنا أدرس كما ألهو ! أما بخصوص الإيليوجين هذا ، فهو نوع رخيص من التل ، والتزين به لا يكلف شيئا ، ومن عادتى أن أستغل مواردى المتواضعة الفقيرة أحسن استغلال •

وندمت آمى على كلماتها الأخيرة ، خشية أن تكون مجافية للذوق السليم ، ولكن لورى أعجب بها جدا ، ووجد نفسه يقدر ويحترم الشجاعة والصبر فى سبيل الحصول على الفرصة ، ويجل روح المرح التى تكسو الفقر بغلالة من الزهور • ولم تفهم آمى سر نظرته العامرة بالعطف ، أو لماذا ملأ برنامج رقصاتها باسمه ، وكرس لها وقته ما تبقى من السهرة • ولكن الدافع لهذا التغيير الطيب ، كان نتيجة لأفكار جديدة ، من تلك الأفكار التى تطوف أحيانا برأس أحدنا ، فيتلقاها الآخر دون أن يشعر •

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن والثلاثون

على الرف

فى فرنسا ، تقضى الفتيات وقتهن فى ملل وسأم حتى يتزوجن ، وإذ ذاك يتخذن مثلهن الأعلى من كلمة « تحيا الحرية » ! أما فى أمريكا فالفتيات يأخذن بالحرية فى سن مبكرة ، ويستمتعن بحرياتهن فى حماسة جمهورية ، فاذا تزوجن وأصبحن أمهات ، يتنازلون عن عروشهن لأول ولى للعهد يرزقن به ، ويعيشن فى عزلة تشبه الأديرة الفرنسية ، وان كانت أقل منها هدوءا • وسواء رضين أم كرهن ، فالواقع أنهن يوضعن على الرف حالما تنتهى مراسم الزواج وما يصاحبها من بهجة الزفاف • وقد تقول كثيرات منهن فى دهشة ، ما قالته سيدة جميلة ذات يوم : « انى مازلت جميلة كما كنت ، ولكن أحدا لا يعيرنى التفاتا لأنى متزوجة » •

ورغم أن ميج لم تكن يوما مشهورة بالجمال أو بالأناقة ، إلا أنها لم تشعر بأنها وضعت على الرف ، إلا بعد أن بلغ طفلاها العام الأول من عمرهما ، وذلك لأنها كانت تعيش فى عالمها الصغير العامر بالبساطة والعادات القديمة ، وكانت تشعر بأنها محبوبة مقدرة أكثر من أى وقت مضى •

ولما كانت شابة مليئة بالأنوثة ، فقد ذهبت غريزة الأمومة فيها الى أقصى حد : وحملتها على الانصراف كلية الى العناية بطفليها ، وشغلتها بأمرهما عن كل شىء وكل انسان • وأمضت أيامها ولياليها تفكر فيهما بحب أنساها واجبها نحو جون ، فتركته لرحمة الخادمة

Twitter: @ketab_n

الايرلندية الشفيقة ، التى عهد اليها بشئون الطهى بعد مولد الطفلين • ولما كان جون يحب الحياة العائلية بطبعه ، فقد افتقد الرعاية التى اعتادها من زوجته ، ولكنه رضى أن يتخلى عن راحته اكراما لطفليه ، مؤمنا — بجهله الرجالى — أن السلام لن يلبث حتى يعود الى البيت • ولكن أشهرا ثلاثة مضت ولم يعد السلام المرتقب الى البيت ، وكانت ميج خلال هذه المدة مرهقة عصبية المزاج ، تكرس وقتها كله لأولادها ، وتترك تدبير شئون البيت لكيتى الطاهية • ولم تكن كيتى ممن يتحمسن فى أداء العمل ، فأخذت الأمور على عواهنها ، واختارت أن تقدم لعميد الأسرة أبسط الطعام وأتفهه ، فكان يخرج من البيت كل صباح وقد اختلطت عليه الأوامر والطلبات الصغيرة التى قدمتها « ماما » الحبيسة مع طفليها ، فاذا عاد فى المساء مشتاقا الى قبلة الترحيب من أسرته ، بادرته زوجته بكلمة « هُسْ ! لقد ناما لتوّهما بعد عناد طول اليوم » • واذا اقترح نوعا من التسلية صاحت به : « لا ، فهذا يقلق الطفلين » • واذا ألح لها يوما بالخروج معه لسماع محاضرة أو حضور حفلة موسيقية ، أجابت وفى عينيها لوم وعتاب : « أيليق بنا أن نترك الطفلين وحدهما من أجل مسراتنا ؟ » • واضطرب نوم جون : تارة بسبب صراخ الطفلين بالليل ، وتارة أخرى لحركة ميج وهى تتسلل كالشبح فى الظلام لتطمئن عليهما كل ساعة ، أما وجبات الطعام فلم تعد لها لذة لكثرة ما تعودت ربة البيت أن تنصرف عن المائدة قبل أن تتم نصف طعامها اذا سمعت صيحة من عش الصغيرين بالدور العلوى • ولم يعد يهنأ بقراءة صحيفة المساء ؛ لأن مسز بروك ، التى لم تعد تهتم إلا بأخبار البيت وشئونه ، تلاحقه بمتاعبها ، فيختلط المغص الذى أصاب ديمى بقائمة سفن الشحن ، ويتدخل وقوع ديزى على الأرض فى أسعار الأوراق المالية بالبورصة •

Twitter: @ketab_n

وعاش جون المسكين محروما من جميع أسباب راحته ، فقد أخذ الطفلان منه زوجته ، وقلبا بيته كله الى دار للحضانة ، ولاحقته كلمة « هس » التى دأبت ميج على زجره بها كلما جاء من الخارج ، حتى بات يشعر أنه وحش متطفل لا مكان له فى أرض الطفولة المقدسة • وتحمل الأب آلامه صابرا ستة شهور كاملة ، ولكنه لما فقد الأمل فى عودة السكينة ، فعل ما يفعله الآباء المهجورون عادة ، بأن راح يبحث عن الهدوء فى مكان آخر •

كان صديقه سكوت قد تزوج وأقام فى بيت غير بعيد ، وكانت مسز سكوت سيدة مرحة حسناء لا يشغلها أمر عن أن تكون بشوشة لطيفة المعشر ، ولذلك كانت حجرة استقبالها مشرقة جذابة ، ورقعة الشطرنج دائما على استعداد ، والمعزف يردد أجمل الأنغام ، والحديث المسلى البهيج يدور بمهارة ولباقة ، والعشاء البسيط مجهز فى أناقة تغرى بالاقبال عليه •

وكان جون يفضل الجلوس الى نيران مدفأته ، ولكن غرفة جلوسه كانت مقفرة لا حياة فيها ، فاستعاض عن فردوسه المفقود بصحبة صديقه وجاره ، واعتاد أن يلجأ اليه كل مساء ساعة أو ساعتين ، حين تخلو غرفة استقباله من الزائرين ، وتنصرف عنه زوجته ميج الى ولديها الصغيرين تنشد لهما مالا نهاية له من الأغانى والأهازيج •

ورضيت ميج بهذا الوضع الجديد فى أول الأمر ، وسرها أن يتسلى جون بصحبة صديقه ، بدل أن يجلس فى غرفة الاستقبال نعسان ، أو يتجول فى أرجاء البيت فيوقظ الصغيرين بوقع خطواته • ولكن ما ان انقضت فترة التسنين المتعبة ، وتعود الالهان الصغيران أن يناما فى أوقات منتظمة ، حتى بدأت ميج تحس بغياب جون وتفتقده ، وأصبحت سلة

Twitter: @ketab_n

التطريز تثقل عليها عندما لا تجد زوجها يجلس بجانبها كعادته القديمة ، وقد أسند قدميه الى حاجز المدفأة فى استرخاء ودعة • وغاب عنها أنها أهملت شأنه ليالى لا تعد ، فثارت كبرياؤها لاهماله شأنها ، ولكنها كتمت عواطفها ولم تطلب منه أن يبقى معها • وأجهدها السهر والفكر والهم ، فتهدمت أعصابها ، ووصلت الى تلك الحالة الثائرة السيئة التى تعترى الأمهات أحيانا ، عندما يهدهن الارهاق فيضقن بشئون البيت ومشاكله ، وتفقدهن الحاجة الى الرياضة مرحهن وبشاشتهن ، ويجعلهن الافراط فى شرب الشاى — وهو شراب الأمريكيات المفضل — يشعرن كأنهن كتلة من الأعصاب بلا شحم ولا لحم •

وكانت تنظر الى وجهها فى المرآة وتقول :

— لقد أصبحت عجوزا شمطاء ، ولم يعد جون يجد فىّ ما يسليه ويسره ، ولذلك تحول عنى بعد أن ذبلت الى زوجة جاره الجميلة المرحة •• ولكن طفلىّ يحبانني ولا ينفرهما منى نحولى واصفرارى ، ولا يعنيهما أن جعدت شعرى أو أرسلته مهملا • انهما عزائى وسلوتى ؛ وسيعرف جون فى يوم من الأيام كيف ضحيت بشبابى راضية من أجل ولدى ••• أليس كذلك يا صغيرىّ العزيزين ؟

وتجيب ديزى على نداء أمها العاطفى بمناغاة بريئة ، ويرد ديمى بصيحة عالية ، فتشغل ميج مؤقتا عن همومها ، وتنسيها لذة الأمومة لواعج وحدتها • ولكن هذه الهموم لا تلبث أن تعود حين ينغمس جون فى قراءة الأخبار السياسية ثم يسارع الى بيت سكوت يناقشه فى تطوراتها الهامة ، غير مدرك كم تحتاج زوجته الى صحبته ولا تجدها • ومع ذلك أصرت ميج على الصمت ، ولم تشأ أن تلفت نظره بكلمة ، حتى

Twitter: @ketab_n

وجدتها أمها ذات يوم دامعة العينين ، فألحت فى معرفة سر بكائها ، فان تدهور حالة ميج المعنوية لم يفت نظرها الثاقب •

قالت ميج وهى تجفف دموعها فى ميدعة ديزى :

ــ لن أبوح لغيرك بما أعانيه يا أماه • والواقع أنى فى حاجة الى نصيحتك ، لأنه خير لى أن أترمل اذا استمر جو على حاله هذه •

سألتها أمها فى قلق :

ــ وما هى هذه الحال يا عزيزتى ؟

قالت :

ــ انه يغيب عن البيت طول النهار ، فاذا حل المساء وشعرت بشوق لرؤيته وصحبته ، تركنى الى بيت سكوت • ليس من العدل أن أتحمل متاعب البيت كلها ، وأحرم فى الوقت نفسه من أسباب التسلية • ان الرجال ــ بلا استثناء ــ أنانيون لا يحبون إلا أنفسهم •

قالت الأم :

ــ شأنهم فى ذلك شأن النساء ، لا تلومى جون قبل أن تعرفى مواطن الخطأ من نفسك •

قالت :

ــ ولكن لا حق له فى أن يهملنى هكذا !

قالت الأم :

ــ ألم تبدئى أنت بالاهمال ؟

قالت ميج :

Twitter: @ketab_n

— ماذا تقولين يا أماه ؟ ظننتك فى جانبى ؟

قالت الأم :

— أنا فى جانبك من حيث عطفى عليك ، ولكنى أعتقد أنهـا غلطتك يا ميج .

قالت :

— وكيف ؟

قالت :

— سأريك كيف كان ذلك . هل أهملك جون مرة واحدة ، عنـدما كنت تعطينه من صحبتك ما يريد فى أمسياته ، وقت راحته الوحيدة ؟

قالت :

— أبدا . ولكنى لا أستطيع الآن ذلك وورائى طفلان أعنى بهما .

قالت الأم :

— بل تستطيعين يا عزيزتى ، وواجبك يحتم عليك ذلك . سأكون صريحة معك ، واذكرى أن لائمتك هى أمك التى تعطف عليك .

قالت ميج :

— طبعا يا أماه ، كلمينى كما لو كنت ميج الصغيرة ، فانى فى حاجة الى مزيد من المعرفة منذ جاء الطفلان ، وازدادت مسئوليتى نحوهما .

وسحبت ميج مقعدا منخفضا الى جانب أمها ، وجلست الاثنتـان تتحدثان طويلا ، وكل منهما تهـز على حجرها طفـلا صغيرا ، وأحست الابنة أن رباط الأمومة لم يكن يوما ما أقوى منه فى هذه الجلسة .

Twitter: @ketab_n

قالت الأم :

ـ لقد وقعت فيما يقع فيه معظم الزوجات الصغيرات : آنساك حبك لطفليك واجبك نحو زوجك ، وهـذا خطـأ طبيعى جدير بالصفح يا ميج ، ولكنه خطـأ يجب أن يعالج قبل أن يستفحل أمره ، فالأطفال يجب أن يزيدوا الحب ويقووا الرابطة ، ولا يصح أن يكونوا سببا فى الخلاف والفرقة • انك تتصرفين كما لو كان الطفلان ملكا لك ، وليس لجون الا أن يعولهما وينفق عليهما • لقد رأيت الأمور تجرى فى هذا الطريق منذ أسابيع ، ولكنى لزمت الصمت راجية أن تنصلح الحال فى الوقت المناسب •

قالت ميج :

ـ أخشى ألا تنصلح ، وأخاف أن أطلب صحبته فيظن بى غيرة عليه وهى اهانة لا أحب أن تصدر منى • انه لا يرى مدى حاجتى اليه ، ولست أعرف كيف أخبره بذلك دون أن أتكلم •

قالت الأم :

ـ اجعلى الحياة فى البيت بهيجة سارة فلا يخرج يا عزيزتى •• انه يتوق الى الحياة العائلية التى لا تستقيم بغير وجودك ، فكيف تتأتى له بغيته وأنت مقيمة فى غرفة الطفلين لا تبرحينها إلا لماما ؟

فقالت ميج :

ـ ألا ينبغى أن أبقى فيها ؟

قالت :

ـ ليس كل الوقت ، فطول بقائك فيها يحطم أعصابك ويجعلك عديمة

Twitter: @ketab_n

الفائدة ، فضلا عن أن واجبك نحو جون يعادل واجبك نحـو الطفلين • لا تهملى زوجك من أجلهما ، ولا تبعديه عن غرفتهمـا ••• علميـه كيف يعاونك ، فمكانه فيها مكانك سواء بسواء ، والأطفال فى حاجة إليكما معا • أشعريه بأن له نصيبا يقوم به ، ولن يتوانى عن أدائه مخلصا مسرورا ، وبذلك يتحقق لكما الخير كل الخير •

قالت :

ـ أهذا ما تظنين حقًا يا أماه ؟

قالت :

ـ بل أنا على يقين يا ميج ، واعلمى أنى لا أنصح على غير أسـاس عملى • لقد مررت بهذه التجربة من قبل ، فعندما كنت أنت وجو صغيرتين ، أحسست أنى لن أؤدى واجبى نحوكما ما لم أنقطع لكما تمام الانقطاع • وفعلت ذلك دون تردد ، ورفضت المعونة التى قدمها أبوكما لى ، فانصرف المسكين وتركنى أقوم بتجربتى وحدى ••• وجاهـدت قـدر طاقتى ، ولكن جو كانت أكثر مما أحتمل ، فكدت أفسـدها بكثرة التدليل ، وكنت أنت ضعيفة عايلة فأقلقنى أمرك حتى أصابنى المرض • وعندئذ تقـدم أبوك لإنقاذك فى هدوء وسكينة ، وأعاد الأمور الى مجاريها ، فأدركت مدى المعونة التى يستطيع أن يقدمها لى ، ومنذ ذاك اليوم لا أسير خطـوة بدونه ، وهذا سر سعادتنا العائلية • إنه لا يدع عمله يصرفه عن تحمل متاعبنا الصغيرة ، ولا يسمح لأمر من الأمور أن يلهيه عن مشـاركتنا فى الواجبات التى تتصل بحياتنا الجماعية ، وأنا بدورى لا أترك مشاغل البيت تصرفنى عن الاهتمام بأعماله • كل منا يؤدى واجبه منفـردا فى معظم الأعمال ، ولكننا فى البيت نعمل دائما يدا واحدة •

Twitter: @ketab_n

قالت ميج :

ــ صدقت يا أماه ، وليتنى أكون لزوجى وأولادى ، كما كنت لزوجك وأولادك ••• أرشدينى الى الطريق يا أماه ، وسأعمل برأيك دون تردد •

قالت الأم :

ــعهدى بك دائما مطيعة ، فاستمعى جيدا لنصيحتى • لــو كنت مكانك ماتوانيت عن إعطاء جون أكبر نصيب فى رعايـــة ديمى ، فالصبى يحتاج الى تنشئة خاصة يصح أن تبدأ من الآن • وإذا شئت نفذنا ما سبق أن اقترحته عايك من إرسال حنة لمساعدتك •• إنها مربية ممتازة ، وليس أحب إليها من رعاية الصغيرين ، فاعهــدى بهما إليهــا ، والتفتى أنت لأعمال البيت ، وبذلك تجدين متسعا من الوقت للرياضة ، ويستعيد جون صحبة زوجته ورعايتهــا ، اخرجى معــه كثيرا ، واستردى ابتسامتك ، واشغلى وقتك بالعمل ، فأنت شمس البيت المشرقة إن خبت تعكر الجو وذهب الصفاء •• اهتمى بما يهتم به جون ، واسعدى لمــا يسعده •• حادثيه وكلميه ودعيه يقرأ لك ويبادلك الآراء والأفكار • عاونيه واطلبى معونته •• لا تغلقى دونك أبواب المعرفة ، ولا تعتزلى الحياة العامة لأنك امرأة •• تتبعى ما يدور حولك من الأحداث العالمية ، فإن لهذا كله أثره فيك وفيمن حــولك •

قالت ميج :

ــ إن جون رجل غزير المعرفة ، وأخشى أن يظننى غبية إذا سألته فى أمور السياسة وغيرها •

قالت :

ــ لن يظن بك الغباء ، فهو يحبك ، والحب أعمى عن العيــون ،

Twitter: @ketab_n

ثم ، من تسألين غير زوجك •• ؟ جربى نصيحتى وسيسعد بصحبتك أكثر من سهرات مسز سكوت •

قالت :

— سأفعل ذلك كله •• مسكين جون ، لقد أهملتـه بالفعل إهمالا ذريعا ، ولكنى كنت أعتقد بصواب ما أفعل ، ولم يشأ هو من جانبه أن يرشدنى •

قالت الأم :

— لقد حاول أن ينكر ذاته أمامك ، ولكنه شعر أخيرا بأنه أصبح كمًّا مهملا • إن هذا الوقت هو الذى يشعر الزوجان بدواعى الفرقـة يا ميج ، وهو أصلح وقت لاتحادهما قلبـا وقالبا • فالنشـوة الأولى لا تلبث أن تخمد ، ما لم يبذل الطرفان عناية خاصة فى المحافظة عليها • وليس أجمل ولا أعز على الأبوين من تلك السنوات الأولى التى يهبهما الله فيها أطفالا يربيانهم وينشئانهم • لا تجعلى جون يحس بأنه غريب على الطفلين ، ففيهما ما يسعده ويقيه شتى أسباب الفتنـة والغوايـة وسيعلمكما الطفلان كيف تعرفان بعضكما بعضا وكيف تتحابان • والآن وداعا يا عزيزتى ، فكرى فى نصيحتى ، واعملى بها إن رأيت فيها خيرا لك ، والله يتولاك برعايته •

وفكرت ميج فى نصيحة أمها ، ووجدتها خير نصيحـة ، فشرعت فى تنفيذها ، ولكن المحاولة الأولى لم تتم كما كانت تشتهى : فقد أمعن الطفلان — بالطبع — فى استبدادهما دون شفقة ، وسيطرا على البيت بصراخهما وعويلهما ، وأصبحت « ماما »أمة لنزواتهما • ولكن « بابا » لم يكن من السهل إخضاعه • وأحيانا ما كان فؤاد زوجته يتعذب حـين

Twitter: @ketab_n

يقوم بمحاولة فى ترويض ابنه على بعض الطاعة والنظام ، إذ كان ديمى مثل أبيه فى صلابة الرأى — ولا نقول العناد — إذا اعتزم أن يفعل أمرا أو يأخذ شيئا ، لا يمكن لقوة أن تثنيه عن عزمه • وكانت ميج تعتقد أن الصغير العزيز لم يبلغ سن التوجيه بعد ، ولكن جون كان يرى عكس ذلك فبدأ يأخذه بأسباب النظام ويعوده الطاعة • وفهم دميى من البداية أنه الخاسر فى كل معركة يخوضها مع « بابا » • ولكنه كان — كأى إنجليزى — يحترم الرجل الذى يهزمه ، لذلك أحب الولد أباه ، وعندما كان يقـول له « لا » بلهجته الرزينة الجادة ، تفعل فيه هذه الكلمة أضعاف ما يفعله تدليل أمه الصادر عن حب عميق •

وبعد أيام من الحديث الذى دار بين ميج وأمها ، قررت الشابة أن تجرب قضاء سهرة مع جون ، فأمرت بإعداد عشاء شهى ، وزينت قاعة الاستقبال مبكرة ، ثم ارتدت أحسن ثيابها ، وتأنقت فى زينتها ، ثم وضعت الطفلين فى فراشهما مبكرين ، حتى لا يعكرا صفو تجربتها المقبلة • ولكن ، يشاء سوء الحظ أن تتملك ديمى إحدى نزواته المعهودة ، فيمضى فى عبثه ويأبى أن يذهب الى فراشه مبكرا • وعبثا حاولت ميج أن تسلس قياده : غنت له ، وأرجحت سريره ، وروت له قصصا مسلية ، وجربت كل شىء يغريه بالنوم ، ولكن الشيطان ديمى أبى أن ينام ، وظلت عيناه الواسعتان تحملقان فى الأنوار ، وعلى سيماه ما يدل على منتهى اليقظة ، أما ديزى فقد أسلمت جفنيها للنعاس على عادتها الوديعة الطيبة •

فقالت له ميج حين سمعت باب الردهة يقفل فى هدوء ، وخطوات زوجها تتجه بخفة الى غرفة الطعام •

— ألا ينام ديمى كالولد الطيب ، حتى تعد ماما الشاى لبابا المسكين ؟
أجاب الطفل ، وهو يستعد للاشتراك فى الحادث البهيج :

— وأنا أشرب شايا !

قالت :

— لا ... ولكن إذا نمت كأختك ديزى ، أحتفظ لك ببعض الحلوى تأكلها فى الصباح ، نم يا حبيبى نم .. !

قال :

— حاضر ..

وأغمض عينيه بشدة ، كمن يتعجل النوم فى لقاء الصباح الموعود ، فانتهزت ميج هذه الفرصة ، وتسللت خارجة من الغرفة بسرعة لتحيى زوجها بوجه باش . وكانت قد ربطت شعرها بشريط أزرق على الطريقة التى تعجبه ، فلما رأى جون ذلك ، قال فى سرور يمتزج بالدهشة :

— لم كل هذا أيتها الصغيرة ؟ أتنتظرين ضيوفا ، أم تحتفلين بعيد ميلاد ، أم هى مناسبة سعيدة لا أعلم بها ؟

قالت :

— لا هذا ولا ذاك ، ولكنى سئمت إهمالى زينتى ، فقررت أن أتجمل على سبيل التغيير . إنك تحرص دائما على أناقتك مهما كنت متعبا ، فلم لا أحذو حذوك إذا سمح الوقت ؟

قال الزوج ذو الآراء التقليدية :

— إنى أفعل ذلك احتراما لك يا عزيزتى .

قالت ضاحكة ، وقد استردت شبابها وجمالها ، وجلست تشاركه فى احتساء الشاى :

Twitter: @ketab_n

ـ وأنا مثلك يا مستر بروك •

قال :

ـ أمر جميل يذكرنى بأيامنا الأولى •• إن طعم الشاى لذيذ ، فلنشرب نخب صحتك يا عزيزتى •

ورئفع جون فنجانه يرشف الشاى فى نشوة من الرضا والسرور ، ولكن هذه النشوة لم تدم إلا فترة قصيرة ، إذ ما كاد يضع الفنجان جانبا ، حتى تحركت أكرة الباب بهدوء ، وسمع صوت ديمى يقول فى ضيق :

ـ افتحوا الباب •• أنا قادم ••

فقالت ميج ترد النداء :

ـ إنه ذلك الولد الشيطان ، لقد أمرته أن ينام وحده ، ولكن هاهوذا يأتى حافى القدمين على الأرض الباردة •

وأقبل ديمى فى جلباب نومه الطويل المطرز ، وراح يقفز حول المائدة فتهتز خصلات شعره طربا وسرورا ، ثم قال وعيناه زائغتان بين صحون الحلوى الموضوعة فوق المائدة :

ـ نحن الآن فى الصباح ؟ !

قال الأب :

ـ لا ، الصبح لم يأت بعد ، وما زلنا بالليل ، فيجب أن تعود الى فراشك وتنام حتى لا تتعب ماما ، وبعد ذلك تأخذ نصيبك من هذه الحلوى •

Twitter: @ketab_n

فقال الطفل اللبق ، وهـو يشرع فى الجلوس على ركبتى أبيـه استعدادا للاشتراك فى الوليمة :

ــ أنا أحب بابا ••

ولكن جون هز رأسه وقال لميج :

ــ ما دمت أمرته بالنوم وحده ، فعليك أن تحمليه على التنفيذ ، وإلا عصاك دائما •

قالت :

ــ نعم ، بالطبع •• تعال يا ديمى •

وخرجت بالصغير من الغرفة ، ونفسها تراودها بضرب هذا الشيطان الذى يطمع فى رشوة بمجرد وصوله الى فراشه ، ولم تخيب ميج أمله هذا ، فما إن وصلت به الى غرفته ، حتى أغراها قصر نظرها بمنحـه الرشوة التى يتوق إليها ، فأعطته قطعة من السـكر ، ثم أدخلتـه فى فراشه ، وأمرته أن ينام حتى الصباح •

وقال ديمى : « نعم » ، وهو يمص السكر مزهوا بانتصاره فى أول جولة •

وعادت ميج الى مكانها ، واستؤنف العشاء فى سرور ، ولكن سرعان ما ظهر الشبح الصغير يدب على الأرض مرة ثانية ، وكشف عن خطـأ أمه حين طلب بجسارة قائلا :

ــ أريد قطعة أخرى من السكر يا ماما ••

قال جون فى حزم وجد :

Twitter: @ketab_n

ـ هذه طريقة مضرة ، ولن نعرف السلام أبدا حتى يتعلم هذا الطفل كيف يذهب الى فراشه بانتظام . لقد استعبدك وقتا طويلا ، فأعطيه درسا واحدا يضع حدًا لكل هذا العبث . ضعيه فى فراشه واتركيه يا ميج .

قالت :

ـ إنه لن يبقى فى سريره إلا إذا جلست معه .

قال :

ـ إذا دعينى أتولّ الأمر بنفسى ، ديمى .. هيا الى غرفتك ، واصعد الى سريرك كما أمرتك ماما .

وأجاب الطفل المتمرد ، وقد مد يده الى الكعكة التى اشتهاها ، وبدأ يقضم فيها فى تحد وهدوء .

ـ لا .. لن أصعد !

فقال الأب :

ـ لا تقل هذا الكلام لبابا . وإذا لم تصعد الى سريرك بنفسك ، حملتك إليه رغم أنفك .

وتعلق ديمى بذيل أمه يحتمى بها وقال :

ـ اذهب أنت .. أنا لا أحب بابا .

ولكن احتماءه بأمه لم يجده نفعا ، فقد تخلت عنه لأبيه وهى تقول :

ـ كن رفيقا به يا جون .

Twitter: @ketab_n

وأثارت كلماتها سخط المذنب ، إذ كان يعلم أن تنكر أمه له ، يعنى اقتراب ساعة الحساب ، وفار مرجل غضبه إزاء حرمانه من كعكته وعودته الى الفراش عنوة ، وراح يصرخ بأعلى صوته ويرفس برجليه وهو يصعد الى غرفته • وما إن وضعه أبوه على أحد جنبيه ، حتى انقلب على جنبه الآخر ، ونزل يجرى نحو الباب ، ولكن جون جره الى الفراش بيد قوية • وتكررت هذه التمثيلية حتى أنهكت قوى الرجل الصغير ، فاكتفى بالنحيب والصراخ والعويل • وفعلت هذه الجهود الصوتية فعلها فى ميج ، فراحت تتألم من أجل ابنها ، ولكن جون جلس بجواره ثابتا حازما : لا يربت على رأسه ، ولا يرشوه بالسكر ، ولا يغنى له أهازيج النوم ، ولا يقص عليه قصصا ! وحتى النور أطفأه • وكان وهج نيران المدفأة الأحمر يضىء فى الظلام ، فجعل ديمى ينظر إليه بدافع من حب الاستطلاع لا الخوف • وأثارت الأوامر الجديدة سخطه ، وحن الطاغية الصغير الى لين أمه ، فصاح محزونا يستغيث بها فى صوت ضعيف أنهكه الصراخ • وأثار نداؤه عطفها عليه ، فصعدت تجرى الى حجرة النوم ، وقالت لزوجها فى ضراعة :

— دعنى أمكث معه ، وسيهدأ حالا يا جون •

قال :

— لا يا عزيزتى ، لقد أمرته بالنوم ، فلا بد أن ينام ولو اضطررت الى قضاء الليل كله معه •

قالت تدافع عن الصغير ، وتؤنب نفسها لأنها هجرته :

— ولكنه سيبكى حتى يمرض •

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ لن يمرضه البكاء ، ولقد بلغ به التعب أقصاه ، وسيغلبه النوم وتنتهى المسألة • لابد أن أعلمه الطاعة ، فأرجوك ألا تتدخلى ، ودعينى أعالج أمره بنفسى •

قالت :

ــ إنه طفلى ، ولن أدعك تحطم نفسيته بهذه القسوة •

قال فى جد وحزم :

ــ وهو طفلى أيضا ، ولا أحب أن تفسدى خلقه بهذا التدليل • انزلى الى البهو يا عزيزتى ودعيه لى •

وكان من عادة ميج أن تطيع زوجها عندما يتكلم بهذه اللهجة ، ولم يحدث مرة أن ندمت على طاعتها ، فقالت :

ــ دعنى أقبله مرة واحدة يا جون •

قال :

ــ بالتأكيد • قل لماما « ليلة سعيدة » يا ديمى ، ودعها تذهب لتستريح فقد أتعبتها رعايتك طول النهار •

وكانت ميج تظن أن القبلة أقوى سلاح للنصر ، لذلك قبلته وانصرفت ، فانهمك ديمى فى نشيج هادىء ، هدأ بعده فى ركن السرير الذى عبث غضبه بنظامه •

وبعد لحظات هادئة ، ظن جون أن النوم غلب ابنه الصغير ، فاقترب من الفراش وهو يقول فى نفسه :

Twitter: @ketab_n

— يا للرجل الصغير المسكين ! لقد أنهكه البكاء ، فلأدثره بالغطاء ، ثم أهبط الى ميج وأطمئنها •

وما إن نظر الأب يستطلع حال الصغير ، حتى فتح ديمى عينيه ، وارتجف ذقنه ومد ذراعه قائلا وهو يشهق نادما •

— أصبحت ولدا طيبا ••

وعجبت ميج ، وهى تجلس على درجات السلم خارج الحجرة ، للصمت الطويل الذى أعقب الضجة الصاخبة • وبعد أن سرح بها الخيال فى عالم من التكهنات ، تسللت الى الغرفة لتهدىء مخاوفها ، فوجدت ديمى مستغرقا فى النوم ، وقد أمسك بإصبع أبيه ، وطوقه بذراعه ، كأنما أدرك أن الرحمة عماد العدل ، فنام أكثر تعقلا وإن كان أشد حزنـا • وترك جون إصبعه فى قبضة الصغير صابرا ، حتى تراخت هذه القبضة ، فرقد بجواره ، وقد أضناه جهده مع ابنه أضعاف ما أضناه العمل طول اليوم •

ووقفت ميج ترقب الـوجهين النائمين على الوسادة ، وقالت وهى تخرج من الغرفة راضية باسمة :

— لا خوف أن أترك ديمى لجون ، فهو يعرف كيف يسلس قياده ، وسيكون عونا كبيرا لى على متاعب الصغير ونزواته •

وحين نزل جون أخيرا ، وهو يتوقع أن تقابله زوجته غاضبة مهمومة ، أدهشه أن يجدها تطرز قلنسوة جديدة بهدوء ملحوظ ، وكانت تحيتها له رجاء بأن يقرأ لها أخبـار الانتخابات إذا لم يكن متعبا • وأحس جون بأن هناك انقلابا لا يدرك سره ، ولعلمه بأن ميج صريحة لا تكتم سرًا ،

Twitter: @ketab_n

فقد اختار عن حكمة ألا يستفسرها سر هذا الانقلاب ، واثقا بأنها لن تستطيع كتمانه طويلا • وراح يقرأ لها مقالا طويلا ، ويفسر لها ما جاء فيه بأسلوب مشوق جذاب • وأبدت ميج اهتماما شديدا بالحديث ، فراحت توجه إليه أسئلة بارعة ، وهى تركز فكرها فيما يقول حتى لا يشرد من مشاكل الدولة الى مشاكل القلنسوة التى تطرزها • وعلى الرغم من هذا المجهود الفكرى ، كانت تؤمن فى قرارة نفسها بأن السياسة معقدة كالرياضيات ، وأن رسالة السياسيين تنحصر فى تبادل الشتائم والسباب ، ولكنها احتفظت بآرائها النسوية لنفسها • وحين توقف جون عن القراءة ، هزت رأسها فى أسلوب دبلوماسى مبهم ، وقالت :

— حسنا ، لست أدرى فى الواقع الى أى طريق نسير •

وضحك جون ، وأخذ ينظر إليها لحظة وهى تستعرض على يدها بعض الدنتلا والزهور لتزين بها القبعة ، وتبدى من الاهتمام بها أضعاف ما أبدته فيما شرحه لها من أمور السياسة ، فقال يحدث نفسه :

— إنما تحاول أن تستسيغ السياسة من أجلى ، فلأحاول من أجلها أن أستسيغ شئون الحياكة والتطريز •

ثم رفع صوته وهو يقول :

— إنها تحفة جميلة ، أهذه ما تسمينها قلنسوة الصباح ؟

قالت :

— ليست هذه قلنسوة يا رجلى العزيز ، بل قبعة ، وستكون أجمل ما أرتديه فى المسارح والحفلات الموسيقية •

قال :

— أستميحك عذرا !! رأيتها صغيرة جدا ، فأخطأت وظننتها من

Twitter: @ketab_n

تلك الأشياء الهفهافة التى تلبسينها أحيانا • خبرينى كيف تثبتينها على رأسك ؟ •

قالت ، وهى تشرح كلماتها عليها ، وعلى سيماها تعبير لا يقاوم من الرضا والهدوء :

— قطع الدنتلا هذه تربط تحت الذقن ، وتزين الربطة بوردة ، هكذا •••

قال وهو يطبع على الوجه الباسم قبلة ، ربما أفسدت الوجه الوردة التى تزين أسفل الذقن :

— إنها قطعة فنية رائعة ، ولكنى أفضل عليها الوجه الذى بداخلها ، بعد أن استرد فتوته وسعادته •

قالت :

— يسرنى أنها أعجبتك ، وأريد منك أن تصحبنى ذات ليلة الى إحدى الحفلات الموسيقية ، فقد اشتقت الى الموسيقى ، وأحب أن أسترد بها انسجامى •• أتسمح من فضلك ؟

قال :

— يسرنى أن أصحبك الى أى مكان تحبين ، فقد طال بك الحبس ، والخروج يفيدك الى أقصى حد : وسأجد فى رفقتك غاية المتعة ، ولكن ، خبرينى ، من الذى وجهك الى هذا التفكير الجديد أيتها الأم الصغيرة ؟

قالت :

— لقد تحدثت مع أمى منذ أيام ، وشرحت لها ما أعانيه من ملل

Twitter: @ketab_n

وضيق وثورة أعصاب ، فنصحتني أن أقلل من انغماسي فى هموم الأسرة وأعبائها ، واتفقنا أن تقوم حنة برعاية الطفلين ، وأعنى أنـا بشئون المنزل ، وبذلك يتيسر لى فسحة من الوقت أقضيها فى ترفيه يعالج اضطرابي ، ويقيني شر التحطم قبل الأوان • إنها محاولة أحب أن أقوم بها من أجلك ومن أجلى فى الوقت نفسه ، وسأعيد البيت جنة كما كان • لقد طال إهمالى لشأنك ، وأملى ألا يكون لديك اعتراض •

ونمر مرور الكرام على ما قال جون ، وكذلك على القبعة التى كادت تنهرس فى غمرة العناق ، إذ كل ما يعنينا أنه لم يبد اعتراضا على التغير التدريجى الذى شمل حياته العائلية من مختلف نواحيها •• حقيقة أن البيت لم يتحول الى جنة خالية من العيوب ، ولكن تنظيم العمل وتوزيعه أشاع الراحة والاطمئنان : فقد ترعرع الطفلان تحت رعاية أبيهما ، واستتبت دعائم الطاعة فى مملكة الصغار ، واستردت ميج مرحها ، فهدأت أعصابها بالإكثار من الرياضة والإقلال من المسرات الفارغة ، والاستزادة من أحاديث زوجها الودية • وعادت البهجة العائلية الى البيت ، ورغب جـون عن الخروج من غير ميج ، أما آل سكوت فقد بدأوا يكثرون من زيارة آل بروك ، ووجد جميعهم فى البيت الصغير مكانا بهيجا تغمره السعادة ويظله الرضا والحب • وحتى سالى موفات أقبلت على زيارة ميج وكانت تقول لها : « إن بيتك دائما يسر الخاطر ، ووجودى فيه ينعشنى يا ميج » • ثم تنظر حولها كمن تبحث عن مواطن السحر فيه لتقتنيها فى بيتها الكبير ، الذى أضاعت الوحشة فخامته وعظمته ، ودبت الوحدة فيه لخلوه من ضجيج الأطفال ، وانصراف ند الى حياة لا مكان لها فيها •

ولم تأت السعادة طفرة واحدة ، ولكن الزوجين وجـدا الطـريق

Twitter: @ketab_n

إليها ، وجاءتهما السنوات بأساليب جديدة ، يغترفان بها من كنوز الحب العائلى ، ويستعينان بها على تبادل المعونة التى قد يعرف الفقراء السبيل إليها ، ولا يستطيع الأغنياء شراءها بالمال .

إنه النوع الوحيد من الرفوف التى ترضى الزوجات الشابات والأمهات الصغيرات بأن يوضعن عليه ، آمنات من قلق الدنيا ، حيث يجدن فى حب أولادهن وطاعتهم حمًى من أحزان الفقر ومتاعب الشيخوخة ، ويتمتعن فى رفقة أزواجهن بوفاء الحارس الأمين ، الشريك المخلص فى السراء والضراء .

إن الأولاد زينة الحياة ، والزوج الطيب على حد قول الإنجليز « رباط العائلة » ، وعندما تتوافر هاتان النعمتان لامرأة ، يتبين لها — كما تبين لميج — أن البيت أسعد مملكة لها ، وما من شرف يعدل حكمها لها ، لا كملكة متوجة ، بل كزوجة عاقلة وأم ذكية حنون .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع والثلاثون

لورنس الكسلان

عندما ذهب لورى الى نيس ، كان ينوى الإقامة فيها أسبوعا واحدا ، ولكنه مكث شهرا ، إذ كان قد مل السفر والترحال ، فوجد فى صحبة آمى ما أسبغ على المناظر الأجنبية المحيطة به سحرا من الوطن . وكان فى الواقع يتوق الى التدليل الذى حرمه طويلا ، فعاد يغترف منه مرة ثانية ، قانعا به عن كل تدليل سواه ، فلم تكن رعاية الأغراب ومجاملتهم له تعادل بعض ما يحس به من سعادة للإعجاب الأخوى ، الذى تغدقه عليه بنات مارش فى البيت . ولم يكن من عادة آمى أن تدلله كأخواتها ، ولكنها فرحت بلقائه ، واعتبرته مندوبا عن أسرتها التى جاوز شوقها إليها حد التصريح ، فتعلقت به سعيدة ، وصحبته فى روحاته وغدواته .. وكانا يركبان معا ، ويسيران معا ، ويرقصان معا ، ويثرثران معا ، وهو كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله خلال الموسم السياحى فى مدينة نيس ، ولكن هذا اللهو الظاهر كان يبطن أمرا آخر ، ففى غمرة الفراغ والدعة ، بدأ كل منهما يكتشف نواحى جديدة فى صاحبه ، ويكون فكرة عنه . وعلى مضى الأيام ازدادت آمى تقديرا لصديقها ، وازداد هو حبًا لها ، وأدركا الحقيقة فى نفسيهما قبل أن يبوح أحدهما بكلمة للآخر . وكانت آمى معترفة بجميل ما قدمه لها من أسباب السرور والتسلية ، فعملت من جانبها على إسعاده ، وكافأته على حسن صنيعه بتلك الخدمات الصغيرة التى تعرف المرأة ذات الأنوثة الفياضة كيف تضفى عليها سحرا لا يوصف . وكان لورى ينشد النسيان ، ويعتقد أن من حقه على نساء العالم كله أن يسلينه ويلاطفنه ، جزاء ما فعلته إحداهن بعواطفه المتأججة ، لذلك

Twitter: @ketab_n

ترك الأمور تسير فى مجاريها ، وتحمله كما تشاء • كان كريما بطبعه ، فتمنى لو استطاع أن يقدم لآمى كل ما حوته حوانيت مدينة نيس من أجمل الحلى وأفخرها ، ولكنه كان يعلم تمام العلم أنها لن تقبل شيئا منه ، إن هداياه مهما بلغت ، لن تغير رأيها فيه • ولم يكن رأيها فيه مشجعا ، بدليل ما يلمسه فى نظراتها من المعانى التى اختلط فيها الأسى بالاستخفاف والدهشة ، وقد ردته هذه النظرات عنها بعض الـرد ، وملأت قلبـه بالخشوع والرهبة •

وذات يوم أقبل لورى على عادته ليستريح قبيل الظهر ، فقالت له آمى :

ـ لقد ذهبوا جميعهم لقضاء اليوم فى موناكو ، ولكنى اخترت أن أتخلف لأكتب رسائلى ، وقد انتهيت منها الآن ، وأريـد أن أذهب الى فالروزا لأرسم بعض المناظر ، فهل ترافقنى ؟

قال فى بطء وهو يشعر بالفارق بين حرارة القيلولة فى الخارج وبين الجو الرطيب الذى يغريه بالراحة فى الصالون الظليل :

ـ لا مانع عندى ، ولكن ، ألا ترين أن حرارة الجو لا تشجع على المشى طويلا ؟ !

فقالت وهى تنظر ساخرة الى الفتيات الأنيقات اللواتى كن دائمـا موضع تقدير لورى :

ـ لا تخش المشى ، فسيقود لنا بابتيست العربة الصغيرة ، وما عليك إلا أن ترفع مظلتك ، وتحافظ على جمال قفازك •

قال وهو يمد يده نحو كراسة رسمها ليحملها لها :

Twitter: @ketab_n

— إذا سأذهب معك بكل سرور •

ولكنها سحبت الكراسة منه ، ووضعتها تحت إبطها وهى تقول بحدة :

— لا •• اتركها لى ، فحملها لا يجهدنى ، ولكنه يرهقك •

ورفع لورى حاجبيه دهشة ؛ وتبعها فى استرخاء وهى تهبط السلم جريا ، وعندما ركبا العربة ، أمسك بأعنة الجياد ، وترك بابتيست ينعس مرتاحا فى المقعد الخلفى •

ولم يتخاصم الاثنان : فقد كانت آمى آية فى حسن التربية ، وكان لورى فى تلك اللحظة أكسل من أن يبدأ معركة • ولم تمض دقيقة حتى اختلس نظرة متسائلة الى وجهها المختفى تحت إطار قبعتها الواسعة ، فأجابت بابتسامة رشيقة هادئة ، سارا بعدها فى صفاء ومحبة •

وكانت رحلة ممتعة ، انقضت فى طريق متعرج تكتنفه المناظر الطبيعية الخلابة ، التى تنعش النفس بالرضا والحبور : فهنا دير أثرى قديم تتعالى بين أرجائه تراتيل الرهبان ؛ وهناك على صخرة جانبية يجلس راع عارى الساقين ؛ يلبس حذاء خشبيًا وقبعة مدببة وسترة خشنة ، ويتسلى بالنفخ فى الناى ، ومن حوله عنزاته تقفز بين الصخور أو ترقد تحت قدميه • وعلى طول الطريق كانت الدواب تجرى محملة بسلال الحشائش الخضراء ، وقد اعتلت السلال بنات صغيرات أو نساء مسنات فى أيديهن مغازل يغزلن بها • وكان الأطفال يخرجون من الأكواخ الحجرية المنتثرة على طول الطريق ؛ يعرضون على المتنزهين باقات الأزهار والفروع المحملة بالبرتقال الطازج ؛ وكانت سفوح التلال تكسوها أشجار الزيتون بأوراقها الرمادية ، وأشجار البرتقال بأحمالها الذهبية ، وشقائق النعمان الحمراء تحف بالطريق من جانبيه • ومن وراء هذا كله تنحدر

Twitter: @ketab_n

السفوح الخضراء حول جبال الألب الشامخة التى ترتفع قممها البيضاء ، حتى تكاد تمس سماء إيطاليا الزرقاء •

وكانت غالروزا مكانا جميلا حقًا : جوها الدافىء يجعل مناخهـا صيفا مستديما ، وورودها المتفتحة تتدلى من التكاعيب ، وتطل برؤوسها من بين قضبان أسوار البيوت ، كأنها تحيي القادمين بعبيرها الشذى ، هذا الى أشجار الليمون والنخيل التى تصطف على طول الطريق الموصل الى الفيلا • وفى كل ركن ظليل كانت المقاعد المريحة تغرى بالجلوس ، والورود اليانعة تتكتل فوق كل مرتفع أخضر ، وقد وقف فى وسطها تمثال المرمر لحورية باسمة تحرسها غلالة مزهرة ، وعلى صفحة المياه المحيطة بالنافورات كانت تنعكس صور الورود الحمراء والبيضـاء والصـفراء والوردية ، التى تميل وكأنها تبتسم فرحا بجمالها • وكانت الورود تغطى حوائط الفيلا ، وتمتد فوق « كرانيشها » ، وتتسلق أعمـدتها ، وتلتف حول حواجز شرفاتها الواسعة المطلة على البحر المتوسط ، الذى تسطع على شاطئه الشمس ، وعلى نيس ذات المبانى البيضاء الأنيقة •

ووقفت آمى على الشرفة تستمتع بسحر المناظر وشذى الورود ، ثم سألت لورى قائلة :

ـ أليست هذه الجنة أمتع مكان يقضى فيه شـهر العسل ؟ وهل رأيت مثيلا لهذه الورود ؟

قال وهو يمص إصبعه الذى جرحته شوكة ، بعد أن حاول قطف وردة حمراء بعيدة المنال :

ـ لا •• ولم أرقط مثل هذه الأشواك !

Twitter: @ketab_n

قالت آمى ، وهى تقطف من فروق الجـدار القريب ثلاث وردات صفراء :

— جرب الورود المنخفضة ، واقطف ما ليس به أشواك •

وثبتت الورود الثلاث فى عروة سترته عربونا للسلام ، فظل الفتى يتأمل الورود برهة وعلى وجهه تعبير غريب ، فقد كانت الدماء الإيطالية التى تجرى فى عروقه تغريه أحيانا بالتشاؤم وأحيانا بالتفاؤل ، فجاءت هدية آمى ، على ما فيها من مجاملة له ، باعثا لقلقة ، شأن الشباب الذى يغلبه الخيال فيتلمس فى كل شىء تافه معنى يغـذى به خيـاله الخصب كان يفكر فى جو حين حـاول أن يقطف الوردة الحمراء ، لأن الزهـور الزاهية تناسبها ، وكانت تقطفها من حديقته وتتزين بها • وكانت الورود الصفراء التى قدمتها له آمى ، من ذلك النوع الذى يضعه الإيطاليون على قبور الموتى ولا يقدمونه هدية أو يتزينون به فى مناسبة مفرحة ، ولذلك وقف حائرا يسائل نفسه : أهى نذير شؤم له أو لجو ؟ ولكن ثقافتـه الأمريكية لم تلبث أن تغلبت على تطيره ، ففاضت عواطفه ، وأطلق ضحكة عالية مخلصة ، لم تسمعه آمى يضحكها منذ أن التقت به فى نيس ، قالت وهى تظن أن كلامها أضحكه :

— إنها نصيحة مخلصة ، ومن الخير أن تعمل بها رحمة بأصابعك •

قال فى مجاملة فاترة :

— أشكرك ، سأعمل بها •

ولم يكن يدرى أنه سيتحمس لهذه النصيحة بعد شهور قلائل •

وجلست آمى على مقعد خشبى المظهر ، وقالت بعد لحظة :

— متى تعود الى جدك ؟

Twitter: @ketab_n

قال :

— بعد وقت قصير جداً •

قالت :

— سمعتك تقول ذلك عشرات المرات خلال الأسابيع الثلاثة الماضية •

قال :

— صدقت ، وبمثل هذه الإجابات المختصرة يهرب المرء من المتاعب •

قالت :

— ولكنه ينتظرك ، فينبغى لك حقيقة أن تعود إليه •

قال :

— يالك من مضيفة كريمة ! أعرف أنه ينتظرنى •

قالت :

— ولم لا ترجع إليه ؟

قال :

— إنه عقوق طبيعى على ما أعتقد •

قالت وهى ترميه بنظرة قاسية :

— بل كسل طبيعى ، فيا للخزى !

قال وهو يتمدد راقدا على حافة السور العريض :

— ليس الأمر مخزيا الى هذا الحد ، فلن ينال جدى من عودتى إلا المضايقة والانزعاج ، ورأيى أنك أكثر احتمالا منه ، لذلك أفضل أن أبقى هنا لأزعجك ، وأظنك ترتاحين لذلك كل الارتياح •

وهزت آمى رأسها يائسة ، وفتحت كراسة الرسم فى استسلام ،

Twitter: @ketab_n

ولكنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تلقن « هـذا الصبى » درسا لا ينساه •

قالت بعد لحظة :

ــ ماذا تعمل الآن ؟

قال :

ــ أرقب بعض السحالى !

قالت :

ــ بل كنت أسألك عن العمل الذى تنوى أن تشغل نفسك به •

قال :

ــ سأشغل نفسى بتدخين سيجارة إن سمحت !

قالت :

ــ يالك من رجل مزعج ! إنى لا أحب التدخين ، ولكنى أسمح لك به إذا سمحت لى برسمك فى كراستى ، فإنى فى حاجة الى التمرن على رسم الأشخاص •

قال :

ــ إنك تغمريننى بسرور الدنيا كلها : فكيف تريديننى ؟ صـورة كاملة أم ثلاثة أرباع ؟ أأقف على رأسى أم على قدمى ؟ •• أقترح أن ترسمينى مضطجعا ، وترسمى نفسك بجانبى ، وتسمى اللوحة « الكسل اللذيذ » !

قالت فى حماسة :

ــ ابق كما أنت ، ونم إذا شئت ، فإنى أريد أن أعمل بجد لا أمزح •

Twitter: @ketab_n

قال راضيا وهو يستند الى جرة كبيرة مليئة بالزهر :

ـ هذه حماسة جميلة •

قالت وهى تحاول أن تثير اهتمامه بذكر أختها النشيطة المرحة :

ـ ترى ماذا تقول جو لو رأتك الآن ؟

قال وهو يضحك :

ـ كالعادة « ابعد عنى ياتيدى ، فأنا مشغولة الآن » •

ولكنها كانت ضحكة مفتعلة اكتسى فيها وجهه بظل من الحزن ، فقد مس اسمها العزيز جرحا فى قلبه لم يندمل بعد • وتنبهت آمى الى ما اعتراه وكانت قد لاحظت بعض الأمور من قبل ، ورفعت رأسها نحوه ، وعندئذ لاح لها وجهه عامرا بالجمود والمرارة والألم وعدم الرضا • ولكن هذه الانفعالات لم تلبث أن اختفت قبل أن تدرسها جيدا ، وعاد إليه بشره السابق • فراحت ترقبه وتفحصه من الناحية الفنية ، فرأته أقرب شبها الى الإيطاليين ، وهو يرقد عارى الرأس تحت أشعة الشمس ، وقد تاهت نظراته فى عالم الأحلام ، وأنسته تأملاته وجودها معه •

قالت ، وهى تمضى فى رسم وجهه من الجانب ، وقد أبرز لها الجدار الأسود القاتم من خلفه دقة ملامحه :

ـ إنك تبدو كنحت بارز لفارس صغير ينام على نصب مقبرته •

قال :

ـ ليتنى كنت كذلك !

قالت :

ـ هذه أمنية حمقاء ، ولست أفهم لها معنى إلا إذا كنت قد أفسدت حياتك • إنك تغيرت كثيرا ، وأظن أحيانا •••

Twitter: @ketab_n

وتوقفت ، وقد تجلى فى وجهها من علائم الحيرة والخجل والحزن ما يغنى عن الكلام •

ورأى لورى نظراتها ، وأدرك ما تنطوى عليه من قلق فضح عواطفها التى حرصت على إخفائها طويلا ، فواجهها بصراحة وقال ، كما كان يحدث والدتها :

— كل شىء على ما يرام ، يا سيدتى •

ونزل كلامه عليها بردا وسلاما • وانزاحت عنها الشكوك التى كانت تنتابها أخيرا • فقالت له فى تأثر :

— إنى سعيدة بذلك ، والواقع أنى لم أظنك سيئا فى يوم من الأيام ، ولكنى خشيت أن تكون قد خسرت مالا فى ذلك المكان الموبوء المسمى بادن بادن ، أو ربما وقعت فى شراك غانية متزوجة ، أو تورطت فيما يتورط فيه الشبان وهم فى بلاد غير بلادهم ••• لا ترقد فى وهج الشمس هكذا ، تعال هنا على هذه الحشائش الخضراء ، ولنتصالح مرة ثانية •

وكانت لهجتها فى الكلام شبيهة بجو حين تدعوة الى الجلوس معها على الأريكة بجانبها ، لتتبادل معه الأخبار والأسرار •

وأطاع لورى أمرها ، ورقد على البساط الأخضر ، وراح يرشق الأزهار الصغيرة فى قبعتها الملقاة أمامه ، ثم رفع رأسه اليها وهو يقول فى اهتمام واضح :

— علىّ بالأسرار ، فأنا على أتم الاستعداد لسماعها •

Twitter: @ketab_n

قالت :

ـ ليس لدىّ ما أقوله ، فابدأ أنت .

قال :

ـ ولا أنا أيضا ، ولكن ربما كانت لديك أخبار من الأسرة .

قالت :

ـ أنت تعلم آخر أخبارها ، وأعتقد أن جـو تكتب لك مجلدات ومجلدات .

قال :

ـ انها مشغولة جدا ، وأنا لا أستقر فى مكان واحد كما ترين ، فمن المستحيل أن تنتظم الرسائل بيننا .

وسكت لحظة وهو يتساءل فى نفسه اذا كانت آمى تعرف بما جرى بينه وبين جو ، وتريد بهذه الطريقـة أن تستدرجه الى الكلام . قال يغير الموضـوع :

ـ متى تبدئين عملك الفنى الخالد يا « رفائيلا » ؟

قالت :

ـ لن أبدأه أبدا ، فقد شغفتنى روما بأعاجيب فنها وتحفها ، فأمام عظمـة ما رأيت ، شعرت أن لا قيمة لـه ، فتنازلت يائسة عن آمالى الحمقـاء .

Twitter: @ketab_n

قال :

— ولم تتنزلين عن آمالك ، وأنت نشيطة موهوبة ؟

قالت :

— ليست الموهبة كل شيء والنشاط مهمــا بلغ لا يخلق العبقرية ، وأنا أحب أن أكــون عظيمة أو لا أكون شــيئا مطلقا • لا يرضينى أن أصبح رسامة عادية ، لذلك لم أشــأ أن أقوم بمحــاولة جــديدة فى هــذا الميدان •

قال :

— وماذا اعتزمت أن تفعلى بنفسك ؟

قالت :

— قررت أن أرعى مواهبى الأخــرى ، لأصبح زينة المجتمع اذا ما سنحت الفرصة •

وكان حديثها هذا ينم عن شخصية تؤمن بالمغامرة ، وكان لهــا من شبابها المتفجر ، وأطماعها الطيبة ، ما تستند اليه فى تحقيق آمالها • وابتسم لورى معجبا بحزمها وسرعتها فى التحول الى غرض آخر ، بعد أن ضاع أول أمل تعلقت به طول حياتها • قال :

— عظيم ••• ويخيل الى أنى أرى أثر فريد فوهن فى كل ذلك •

ولزمت آمى الصمت التــام : ولــكن النظرة الواعيــة فى عينيها المسبلتين ، جعلته ينتصب جالسا ويقول فى جد :

— أتسمحين لى أن ألعب الآن دور الأخ وأسألك بعض الأسئلة ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ـ سل ما شئت ، ولكنى لا أعدك بالاجابة .

قال :

ـ سأقرأ الرد فى وجهك اذا لم أسمعه بلسانك ، فلست المرأة المحنكة ، التى تعرف كيف تخفى مشاعرها . الواقع أنى سمعت فى العام الماضى اشاعات كثيرة عن علاقتك بفوهن ، وأعتقد أنه لو لم يستدع على عجل الى بلاده فجأة : ويضطر الى البقاء فيها مدة طويلة ، لحدثت بينكما أمور وأمور ، أليس كذلك ؟

قالت باقتضاب :

ـ لست أنوى الاجابة على هذا السؤال .

ولكن شفتيها فضحتا بسمة راضية ، وأفصح لمعان عينيها الماكرتين عن شعورها بسحرها ، ورضاها عن قدرتها على استغلاله .

قال فى جد ، وقد اتخذ لنفسه صفة الأخ الأكبر :

ـ أرجو ألا تكونا مخطوبين ؟

قالت :

ـ لا .

قال :

ـ ولكنك ستوافقين على خطبته اذا عاد من بلده ، وجثا على ركبتيه بالطريقة المثلى .. أليس كذلك ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ـ يحتمل جدا .

قال :

ـ أتحبينه اذاً ؟

قالت :

ـ من السهل أن أحبه اذا حاولت .

قال :

ـ لن تحاولى ذلك حتى يأتى الوقت المناسب ، فلست أراه الرجل الذى يعجبك يا آمى ، رغم طيبته وتهذيبه .

وأخجلتها أطماعها ، رغـم حسن نواياهـا ، فقالت وهى تصطنع الهدوء والوقـار :

ـ انه كريم الأخلاق ، غنى ومهذب .

قال :

ـ تعنين أن ملكات المجتمع لا يظهرن بغير المال ، فهل قررت أن تتمى هذه الزيجة الرابحة ، وتبدئى حياتك بهذه الصورة ؟ انه عـين الصواب فى كل أنحـاء الدنيا ، ولكنى أستغرب أن يصدر عن احـدى بنات والدتك !

قالت :

ـ ولكنها الحقيقة على كل حال .

Twitter: @ketab_n

ولم تكن الجملة الحازمة القصيرة تتفق مع صاحبتها الشابة البريئة ، فانتابت لورى خيبة أمل غريزية لا يفهم كنهها ، لذلك استلقى على الأرض مرة ثانية ، وأمسك عن الكلام ، ولكن صمته أقلق آمى ، كما أقلقها نفورها الداخلى من الرأى الذى أبدته • قالت فى حدة :

— هل تصنع فىّ معروفا فتستيقظ لنفسك وتستفيق ؟

قال :

— اذا أردت ذلك ، فأنقذينى أنت من فضلك !

قالت ، وكأنها تقصد التنفيذ بأخصر طريق :

— يمكننى اذا حاولت •

قال وهو يتلذذ باغاظتها بعد أن طال حرمانه من هذه الوسيلة اللطيفة للتسلية :

— وأنا أسمح لك بذلك ، فحاولى من فضلك •

قالت :

— ثم تغضب منى بعد خمس دقائق ؟

قال :

— تتوالد النار عادة باحتكاك حجرين من الصوان ، وأنت كالثلج هادئة ناعمة •

قالت :

— للثلج بريق وهاج ، واذا أحسن استعماله كانت له لسعة

Twitter: @ketab_n

قاسية : وفى مقدورى أن أفعل أكثر مما تتصور • انك تصطنع عدم المبالاة ، ومن السهل أن أثبت لك ذلك بقليل من الاستثارة •

قال :

— استثيرينى ما شئت ، فلن يصيبنى ضرر ، بل ربما أجد فيما تفعلين تسلية ، كما يقول الرجل الضخم عندما تضربه زوجته النحيلة • فافترضى أنى زوجك أو أنى بساط تفرشينه على أرضيتك ، واضربينى حتى يكل ساعدك ، اذا كان يلذ لك هذا التمرين •

ولما كانت آمى قد أوقعت نفسها بنفسها فى هذا المأزق ، وكانت فى ذات الوقت تتوق الى اخراجه عن جموده ، فقد شحذت لسانها مثلما شحذت قلمها وقالت :

— لقد اتفقنا أنا وفلو أن نطلق عليك اسما جديدا ، وهو « لورنس الكسول » ، فما رأيك ؟

وكانت تظن أنها ستغضبه بهذا الكلام ، ولكنه شبك يديه تحت رأسه وقال بهدوء :

— اسم لا بأس به ، شكرا لكما أيتها السيدتان •

قالت :

— أتريد أن تعرف رأيى فيك ؟

قال :

— انى أذوب شوقا لأعرفه •

Twitter: @ketab_n

قالت :

— حسنا ، انى أحتقرك ٠

ولو أنها اختارت أن تقول هذه الجملة فى تحدّ أو فى دلال ، لضحك منها ، وتقبل كلماتها ، ولكن لهجتها الحزينة جعلته يفتح عينيه ويقول :

— ولِمَ اذا سمحت ؟

قالت :

— لأنك رغم ما توافر لك من الفرص لتكون طبيا نافعا سعيدا ، فضلت حياة الخطأ والكسل والتعاسة ٠

قال :

— ألفاظ قوية يا آنسة !

قالت :

— اذا كانت تروقك ، فادىّ منها مزيد ٠

قال :

— استمرى من فضلك ، فان حديثك يسلينى الى أبعد حد ٠

قالت :

— كنت واثقة من ذلك ، فالأنانيون أمثالك يحبون الحديث عن أنفسهم ٠

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ وهل أنا أنانى ؟

ونطق بهذا السؤال فى دهشة طبيعية صادقة ، إذ كان يعتقد أن انكار الذات أبرز فضائله •

قالت :

ــ نعم • أنت أنانىّ جدا •

واستطردت تقول فى هدوء أشد وقعا فى النفس من ثورة الغضب :

ــ وسأبرهن لك كم أنت أنانىّ ، فقد درست أحوالك ونحن نمرح معا ولم أجد فيها ما يرضينى ، ومن ذلك مثلا أنك قضيت ستة شهور فى أوربا ، لم تؤد فيهـا أى عمل من الأعمال ، اللهم إلا اضاعة الوقت والمـال ، مما خيب آمال أصدقائك فيك •

قال :

ــ أليس من حقى أن أتمتع بوقتى بعد كفاح دام أربع سنوات ؟

قالت :

ــ ولكنك لا تبدو مستمتعا بوقتك ، ورأيى أنك لا تستحق هـذه المتعة ، لقد قلت لك حين التقينا انك تحسنت كثيرا عن ذى قبل ، ولكنى أسحب كلامى ، فأنت الآن نصف ما كنت عليه حين تركتك فى الوطن ، أصبحت كسولا خاملا : تحب الثرثرة والأقاويل ، وتضيع وقتك فى توافه الأمور ، تانعا عن تقدير العقلاء واحترامهم ، بما يضفيه عليك البله من رخيص التدليل والاعجاب • ورغم ما حباك الله به من مال وجاه وموهبة

Twitter: @ketab_n

وصحة وجمال — تلك الحقائق التى لا يسعنى انكارها مع ما فيها من اطراء يرضى غرورك — عزفت عن استغلال مزاياك هذه فيما يجعلك رجلا عظيما واخترت الدعة والعبث ، حتى أصبحت ...

وتوقفت آمى عن الحديث وفى عينيها أبلغ معانى الألم والرثاء ، فأكمل لورى جملتها قائلا :

— شرابة خُرْج !!

قالها بلهجة لطيفة هادئة ، ولكن حديث آمى — فى الحقيقة — أصابه فى صميمه ، فقد التمعت عيناه ، واتسعت حدقتاه ، وحلت علائم الغضب فى وجهه محل الاستهتار وعدم المبالاة .

قالت آمى بمرارة :

— قد تجيب على ذلك بأننا معشر النساء ملائكة ، وفى مقدورنا أن نصنع منكم ما نريد ، ولكن ما ان نبدأ فى المحاولة ، حتى تعرضوا عنا ساخرين مستهزئين ، مما يدل على زيف اطرائكم لنا .

وأدارت آمى ظهرها لصديقها المحنق الذى يرقد عند قدميها ، فلم تمض لحظة حتى أحست بيد تغطى الصحيفة التى ترسم فيها ، وسمعت صوت لورى يقول مقلدا لهجة الطفل التائب :

— سأكون ولدا طيبا ، سأكون ولدا طيبا .

ولم تضحك آمى ، فقد كانت جادة فى حديثها متحمسة له . قالت فى رزانة ، وهى تدق بقلمها على اليد التى تغطى كراستها :

— ألا تخجل من يدك هذه ؟ انها كيد امرأة : بيضاء ناعمة ، كأنك

Twitter: @ketab_n

لم تستعملها الا فى لبس القفازات الغالية التى تشتريها من محل « جيوفانى » ، أو حمل باقات الأزهار للسيدات . لست رقيعا والحمد لله ، فأصابعك مازالت خلوا من الخواتم والماسات ، ولست أراك تلبس سوى هذه « الدبلة » الصغيرة التى أهدتك اياها جو منذ زمن طويل ، فياليتها كانت معى الآن لتساعدنى عليك !

قال :

— ليتها كانت !

وسحب يده فجأة كما وضعها ، ولكن لهجته العامرة بالحيوية والقوة أثارت أفكارا جديدة فى رأس آمى ، فالتفتت اليه تبحث عن الحقيقة فى عينيه . وكانت قبعته الواسعة تغطى نصف وجهه ، وشاربه يحجب فمه ، فلم تر منه الا صدرا يرتفع وينخفض فى أنفاس طويلة ، كأنما يتنهد ليخفف عبئا يثقل عليه ، أما يده فقد غاصت بالدبلة فى الحشائش ، كما لو كان يحاول أن يخفى شيئا عزيزا ، أثمن وأدق من أن يتحدث عنه . وطافت برأس آمى فى هذه اللحظة القصيرة أشتات من الأفكار ، وتجمعت فى ذهنها اشارات وعبارات ، وتذكرت حركات وسكنات ، ثم بدأت تكون من كل هذا صورة ناطقة بالمعانى والدلالات . أدركت لفورها أن سرا لا تعرفه يربط لورى بأختها ، استعادت فى ذاكرتها كيف كان يغتم حين تحدثه عن جو ، وكيف تغيرت شخصيته وتبدل مسلكه فى رحلاته هذه . وكيف وضع الخاتم القديم فى اصبعه مع أنه لا يدسلح حلية ليده الأنيقة . وأرشدتها غريزتها النسائية — والنساء أسرع ملاحظة لمثل هذه الأمور الصغيرة ، وأشد ادراكا لمعانيها — أن وراء هذا التغيير فى نفسية لورى قصة حب فاشل ، فزايلتها قسوتها

عليه ، وفاضت عيناها الحادّتان أسى وعطفا ورقة ، وقالت تحدثه بصوت حنون تعرف كيف تصطنعه فى الوقت المناسب :

ـ أعلم أنه ليس من حقى أن أتحدث اليك بهذه اللهجة يا لورى ، ولولا كرم أخلاقك ما قبلت تطفلى على شئونك ، ولكن عذرى أننا جميعا نحبك ونفخر بك ، وليس أبغض الينا من أن تعود الى الوطن خائبا ، وان كنت على يقين أنهم هناك يدركون أسباب تغيرك أكثر منى •

قال لورى فى صوت أجش محطم ، وقد رفع قبعته عن وجهه :

ـ أظن ذلك •

قالت آمى فى دهاء تريد به أن تستدرجه الى اعتراف بالحقيقة :

ـ كان يجب على أخواتى أن يحدثننى بكل شىء ولا يتركننى أسىء بك الظن ، فأعنفك وألومك ، بدل أن أضاعف عطفى عليك • والواقع أننى لم أكن أحب مس راندل فى يوم من الأيام ، ولكنى الآن أكرهها من صميم قلبى !

وأزاح لورى القبعة عن وجهه فى غضب ، ونظر الى آمى نظرة قطعت بحقيقة عواطفه ، نحو مس راندل ، ثم قال بسرعة :

ـ فلتذهب مس راندل الى الشيطان ؟

قالت :

ـ أستميحك عذرا ، فقد ظننت •••

وتوقفت آمى عن اتمام حديثها فى مهارة دبلوماسية ، فقال لورى وهو يشيح بوجهه ثائرا :

Twitter: @ketab_n

— لم تظنّى شيئا ، لأنك تعرفين تماما أننى ما اهتممت يوما بامرأة غير جو •

قالت :

— لم يحدثنى أحد فى هذا الموضوع ، ولم أتلق فى رسائلى كلمة تشير اليه ، فمن أين لى أن أعرف بجفاء جو ، خصوصا بعد سفرك الى الوطن ومجيئك الى هنا ؟ أعتقد أنها تحبك أعمق الحب ، فلم تصرفت معك هكذا ؟

قال :

— كانت تعاملنى دائما بحنان ، ولكن حنانها كان من نوع آخر غير الذى أنشده ، ولعلها أحسنت بذلك مادمت رجلا تافها كما تقولين • لقد أخطأت فى حقى على كل حال ، ويمكنك أن تبلغيها هذا الكلام •

وعادت النظرة الصارمة المريرة الى وجهه ، فأشفقت عليه آمى ، واحتارت أى بلسم تستخدم لتخفف آلامه • قالت :

— أعتذر عن ثورتى عليك ، وقد أخطأت لجهلى بالأمر ، وعلى كل حال لم يكن فى استطاعتى أن أمنعها ، ولكنى كنت أظنك أهلا لاحتمال رفضها بطريقة أفضل ، يا تيدى العزيز !

قال :

— لا تقولى « تيدى العزيز » فليس لغيرها أن ينادينى بهذا الاسم !

Twitter: @ketab_n

ورفع يده الى فم آمى كأنه يريد أن يوقف الكلمات قبل أن تنطق بهـا فى لهجة جـو ، التى تجمع بين الحنـان والتأنيب ، ثم أردف فى صوت خفيض وهو يقتلع الحشائش من الأرض بكلتا يديه :

— انتظرى حتى تمرى بمثل هذه التجربة !

قالت :

— اذا لم أفز بالحب المنشود ، فلن أتردد عن احتمال الفشل فى رجولة ، وبذلك أصون كرامتى •

وكان لورى يظن أنه احتمل الصدمة صامتا صابرا ، وطوى صدره على عذابه ليعانيه وحيدا • ولكن حديث آمى فتح له آفاقا جديدة ، فرأى لأول مرة ، أنه من الضعف والأنانية أن يفقد المرء اتزانه عند أول فشل يصدمه ، فيعتزل الدنيا غير مبال بما يدور حوله فيهـا • وأحس بما يحس به النائم اذا استيقظ فجأة من كابوس ثقيل طير النوم من عينيه • سأل آمى فى تمهل :

— أتحتقرنى جو كما احتقرتنى أنت ؟

قالت :

— أخشى أن تفعل اذا ما رأتك على هـذه الحـال ، فهى تكره الكسالى ورأيى أن تأتى عملا عظيما يجعلها تحبك !

قال :

— بذلت غاية جهدى بلا جدوى •

قالت :

— أتعنى تخرجك فى الكلية بامتياز ؟ كان لهذا واجبا يتحتم عليك

Twitter: @ketab_n

أن تؤديه ارضاء لجدك ، وكان من العار أن تفشل بعد ما ضيعت من مال ووقت ، خصوصا وقد كنا جميعا نعلم أنك أهل للنجاح ، وفى مقدورك أن تنال أعلى درجاته اذا شئت •

فقال لورى ، وقد أسند رأسه على راحته فى قنوط :

ـ بل فشلت رغم كل ما تقولين ، فقد رفضت جو أن تحبنى !

قالت :

ـ لا ، لم تفشل ، وستدرك ذلك فى النهاية ، فقد أفدت وبرهنت على أنك تستطيع كثيرا متى شئت • ويقينى أنك اذا بدأت محاولة جديدة من هذا الطراز ، تسترد بشاشتك وسعادتك ، وتنسى همومك وأحزانك •

قال :

ـ مستحيل !

قالت :

ـ جرب ترَ ! •• لا تهز كتفيك وتقل « هذه الفتاة لا تعرف شيئا » فلست أدعى الحكمة والمعرفة ، ولكنى أرقب سير الأمور ، وأرى الأشياء أكثر مما تتصور • قد لا أستطيع تفسير أحوال الناس ؛ غير أنى أهتم كثيرا بتجاربهم وأخطائهم ، وأحاول أن أتذكرها دائما ، لأستفيد بما فيها من عظات وعبر • لا مانع من أن تحب جو طول حياتك ، ولكن لا تدع هذا الحب يفسد عليك أمرك • فحرام أن يدمر الانسان مواهبه من أجل امرأة يريدها ولا يستطيع الحصول عليها •

Twitter: @ketab_n

لن أمضى فى نصائحى ، وعلى كل حال ، فعن قريب تستجمع شتاتك نفسك ، وتصحو من غفوتك ، فتسلك مسلك الرجال رغم قساوة هذه الفتاة •

وساد الصمت برهة ، كان لورى خلالها يعبث بالخاتم فى اصبعه . وتشاغلت آمى عنه بوضع اللمسات الأخيرة فى الصورة التى كانت ترسمها ، وعندما انتهت منها ، وضعتها فوق ركبتيه وقالت :

ـ ما رأيك فى هذه الصورة ؟

وابتسم لورى أمام ما رأى فى هذه الصورة من مهارة واتقان ، اذ كانت آمى قد رسمته فيها ممددا على الحشائش فى استرخاء وكسل ، عيناه مسبلتان ، وعلى وجهه سيماء الشرود ، وكان يمسك سيجارا ينعقد دخانه فى حلقات حول رأسه الحالم •

وتأمل لورى الصورة مليًا ، ثم قال فى غبطة ودهشة :

ـ انك تحسنين الرسم •

ثم أضاف ضاحكا :

ـ نعم هذا أنا •• وهذه صورتى بعينها •

قالت آمى وهى تضع صورة أخرى بجانب الأولى :

ـ هذه صورتك الآن ، أما هذه فصورتك كما كنت أولا ••

ولم تكن الصورة الثانية متقنة كالأولى ، ولكن أخطاءها اختفت وراء ما فيها من حياة وحركة • وكانت تمثل الماضى بسعادته وجماله ، فتدفقت الذكريات الى ذهن لورى ، واكتسى وجهه بسحابة حزينة لم يخف أمرها

Twitter: @ketab_n

على الفتاة الحصيتة . ولم تكن الصورة إلا خطوطا مبدئية ، تمثل اورى وهو يروض حصانا بعد أن خلع قبعته وسترته ، وكان منظرا عامـرا بالحيوية المتدفقة : فقد خضع الحصان الجامح لمدربه الماهـر ، وحنى رأسه لقوة الفارس الذى يشد عنانه ، وأخذ يضرب الأرض بإحـدى قدميه فى صبر نافد ، فى حين انتصبت أذناه كأنما ينصب لصوت مدربه . وكانت صورة الفارس ، بقوامه المشوق وشعره المتموج ، تنطق بالقوة والشجاعة والفتوة والانشراح ، مما يتعارض كلية مع الصورة الأخرى التى أطلقا عليها « الكسل اللذيذ » .

ولم يتكلم لورى ، ولكن آمى أحست بحيرته ، وهو ينقل بصره من صورة الى أخرى ، وقد احمر وجهه وزم شفتيه ، كأنما فهم الـدرس الصغير الذى ألقته الفتاة عليه . واغتبطت نفسها بذلك ، فلم تنتظر حتى يتكلم ، بل بادرت تقول فى لهجة صافية :

ـ أتذكر يوم روضت الفرس الجموح على مشهد منا ، فخافت ميج وبث ، ولكن جو راحت تصفق لك وتقفز إعجابا ؟ جلست يومهـا على السور أرسم صورتك ، ثم وضعتها فى حافظتى ونسيت أمرها ، حتى عثرت عليها أمس الأول بمحض المصادفة ، فأكملت اللمسات الأخيرة فيها قبل أن أريكها .

قال :

ـ أنا شاكر ممتن ، وأشهد أنك تقدمت فى الرسم كثيرا منذ ذلك الوقت فلك مزيد التهانى . وبعد ، فهل لى أن أذكرك ، ونحن فى جنـة شهر العسل هذه ، أن الساعة الخامسة هى مـوعد تقـديم الطعام فى فندقنا !!

Twitter: @ketab_n

ووقف لورى أمامها ، وأعاد إليها الصورة بابتسامة وانحناءة ، ثم نظر الى الساعة كأنه يذكرها بوجوب الانتهاء من المواعظ والمحاضرات . وقد حاول أن يستعيد مظهر الاستهانة وعدم المبالاة ، ولكنه بان مصطنعا ، لأن آمى أصابت الهدف باستثارتها له ، وتركت فيه أثرا أعظم كثيرا مما يجب أن يعترف به . وأحست آمى بظل من البرود فى طريقة معاملته ، ولكنها قالت لنفسها :

— يسعدنى أن أغضبته لصالحه ، ويؤسفنى أن يكرهنى لما قلته ، ولكنها الحقيقة ولا تراجع عنها .

وفى طريقهما الى الفندق ، راح السائق باتست يرقبهما من مقعده ، ويقول لنفسه : « إن السيد والمدموازيل منسجمان جداً » ، إذ كانا يثرثران معا ويضحكان طول الوقت ، ولكنهما كانا يشعران بحرج داخلى ، ويحسان كأن غمامة غشيت صفاء مودتهما السابقة . وبالرغم من تظاهرهما بالمرح ، حل بقلب كل منهما بعض النفور والقلق .

وحين وصل الى باب عمتها ، سألته :

— أنراك هذا المساء يا أخى ؟

قال وهو ينحنى ، كأنما يهم بتقبيل يدها على الطريقة الأوربية التى يتقنها أكثر من غيره من الرجال :

— يؤسفنى أنى ارتبطت بموعد سابق . فوداعا يا آنسة !

ورأت آمى فى وجهه ما أقلقها ، فقالت بحرارة :

— خل عنك هذا التصنع يالورى ، ولنفترق بطريقتنا القديمة الحلوة ، فأنا أفضل أن تصافحنى بحرارة على هذه التحيات الفرنسية العاطفية .

Twitter: @ketab_n

فقال وهو يشد على يدها حتى أوجعها :

ــ مع السلامة يا عزيزتى •

وفى صباح اليوم التالى ، لم يأت لزيارتها كالمعتاد ، وجاءتها بدلا منه رسالته ! فما إن قرأت آمى السطور الأولى منهــا ، حتى تنهــدت باسمة •

قال فى رسالته :

« مرشدتى العزيزة

أرجو أن تبلغى عمتك تحية وداعى ، وتهنئى نفسك لأن « لورنس الكسول » عاد الى جده كأحسن الأولاد • أتمنى لك شتاء سعيدا ، وشهر عسل مباركا فى فالروزا • وأظن أن « فريد » سيفيد كثيرا من إرشاداتك ، فأبلغيه ذلك مع تهانئى •

« الشاكر الضال »

قالت لنفسها وهى تبتسم راضية :

ــ إنى مسرورة بذهابه ، فيا للولد الطيب !

ونظرت حولها فى الحجرة الخاوية فاغتم وجهها وقالت :

ــ سأفتقده كثيرا ، ولكنى سعيدة بذهابه •

Twitter: @ketab_n

الفصل الاربعون

وادي الظلال

حين انقضت لوعة الحزن الأولى ، تقبل أفراد الأسرة باستسلام قضاء الله الذى لا مفر منه ، وحاولوا جهدهم أن يخففوا وطأته بالتفانى فى بذل المحبة التى تقوى روابط الأسرة فى أوقات الشدائد ، فتركوا أحزانهم جانبا ، وتعاونوا على أن يشيعوا السعادة فى كل يوم من أيام السنة الباقية لبث .

وخصصت أبهج الغرف فى البيت لإقامة بث ، وجمع فيها كل ما تشتهيه الفتاة وتحبه من زهور وصور ، وكذلك وضع فيها معزفها و « طاولة » أشغالها وقطيطاتها العزيزة . وأودع الأب فى هذه الغرفة خير كتبه وأكثرها تشويقا للنفس ، وبعثت الأم إليها بمقعدها المريح ، وجاءت آمى بأحسن رسومها وجو بذخيرتها من المؤلفات العظيمة ، وحرصت ميج على أن ترسل أطفالها كل يوم لزيارة خالتهما بث ليبعثوا السعادة فيما تبقى من حياتها . وخصص جون جانبا من ماله لشراء الفواكه التى قد تحتاج إليها المريضة أو تشتهيها ، ولم تدخر حنة جهدا فى إغرائها على الأكل بصنع ألذ الأطعمة وأطيبها ، وكانت تعد تلك الأطعمة ودموعها تسيل على خديها حزنا وإشفاقا ، وكانت الهدايا المفرحة تأتيها من وراء البحار ، فتجلب معها نسمات عاطرة من بلاد لا تعرف برودة الشتاء .

وجلست بث فى هذه الصومعة العامرة بالحب ، هادئة مشغولة كعادتها ولم يغير المرض طبيعتها الحلوة النكرة لذاتها ، فظلت الى آخر ساعات حياتها تشيع الهناء فى قلوب أولئك الذين ستتركهم وراءها .

Twitter: @ketab_n

ولم تنقطع أناملها الواهنة لحظة عن العمل بلا كلل ولا ملل ، وكان يسعدها أن تصنع تحفا صغيرة تهديها لأطفال المدارس الذين يمرون بنافذتها كل يوم فى ذهابهم وعودتهم ، فكانت تلقى اليهم أشياء صغيرة مبهجة : مثل قفاز يحمى اليدين اللتين هرأهما البرد ، أو ثوب صغير لدمية ، أو ممسحة لقلم لكاتب صغير تائه فى بيداء الكتابة ، أو كتيب مصور لمحبى الفنون ، الى آخر هذه المبهجات البسيطة التى تسعد السائرين فى طريق المعرفة والعلم • وكان الأطفال يقدسون تلك الراعية الكريمة ، التى تمطرهم من برجها العالى بأجمل الهدايا وأحبها الى نفوسهم • وإذا كانت بث تنتظر جزاء على عملها هذا ، فقد وجدته وفيرا فى الوجوه المشرقة التى تتطلع دائما الى نافذتها محيية باسمة ، وفى الرسائل العجيبة التى كانت تصلها عامرة بالوفاء وبقع الحبر •

ومضت الشهور القلائل الأولى فى سعادة ، فكانت بث تنظر الى المجتمعين حولها فى حجرتها المشمسة وتقول : « ما ابدع هذا !! » ، فالتوأمان يلعبان على الأرض ، وأمها وأخواتها يشتغلن بجانبها ، وأبوها يقرأ لها بصوته الرخيم ، ويسمعها أجمل ما احتوته الكتب القديمة من حكم غلبت القرون بقوتها وسحرها • وكانت غرفتها أشبه بكنيسة صغيرة يفتن راعيها بالأمل ، وأن الإيمان يروض النفس على الرضا بحكم القدر • كانت دروسا بسيطة تلك التى يلقيها الأب ، ولكنها كانت عامرة بالإيمان الراسخ ، فأصابت من القلوب صميمها ، وزادها أثرا فى النفوس ، رجفة صوته ، واختلاجة نبراته •

وخيم السلام على تلك الفترة الحزينة ، وأشاع الإيمان فى نفوس أفراد الأسرة هدوءا أعدهم لقبول أحكام المحنة المقبلة عليها ، فقد استبدت العلة ببث وأتت على قواها ، حتى عجزت أصابعها الواهنة عن حمل

Twitter: @ketab_n

الإبرة فتركتها الى الأبد • وأصبح الحديث يجهدها ، والوجوه الحزينة تقلقها ، واستولى عليها الألم كلية ، واكتست روحها الهادئة بغلالة من الحزن الدفين فى جسدها النحيل الضعيف • وكم كان عسيرا على أفراد الأسرة أن يروا الأيام تحمل بث الى نهايتها المحتومة فى بطء يجعل من الساعة دهرا •• وكم كان مضنيا لقلوبهم أن تمد إليهم ذراعيها النحيلتين تطلب المعونة ، وهم على فرط حبهم لها ، عاجزون عن تلبية طلبها • كان صراعا عنيفا بين فتوة الروح وجبروت الموت ، ولكن رحمة الله لم تلبث أن أدركتها ، فكفت عن الصراع ، وسكنت روحها راضية مرضية ، وأصبحت نفسها أبهى ما تكون إيمانا واطمئنانا ، وأحس من حولها أنها قد أعدت العدة لتلبية نداء ربها رابطة الجأش ، وقنعت بالوقوف على حافة الحياة فى انتظار الملائكة الذين أقبلوا ليصحبوا روحها ، وهى تعبر المضيق الى الأبدية الخالدة •

ولم تفارق جو مكانها بجانب أختها منذ أن سمعتها تقول : « إنى أشعر بالقوة ما دمت معى ، » فكانت تنام على أريكة بغرفتها ، وتستيقظ بين ساعة وأخرى لتغذى نيران المدفأة بالوقود ، أو لتطعم المريضة ، أو تساعدها على الحركة ، أو تؤدى لها خدمة • لأن بث كانت تكره أن تكون عبئا على غيرها فلا تطلب شيئا من أحد • وفى أثناء النهار كانت جو لا تسمح لغيرها بتمريض أختها ، فخورة بأنها اختيرت لهذه المهمة ، التى تؤمن بأن قيامها بها ، هو أعظم مجد نالته فى حياتها • وكانت هذه الساعات عزيزة على نفس جو ، فقد تعلمت منها ما كان ينقصها من صبر وتسامح ، مع استعداد مخلص لغفران أخطاء الآخرين • وهكذا صقلتها المحنة عن ذى قبل ، ومنحتها التجارب قدرة على تذليل الصعب ، ومجابهة الأخطار فى إيمان عميق لا يعرف الخوف أو اليأس •

Twitter: @ketab_n

وكلما استيقظت جو وجدت بث تستعين على قطع الليل الطويل بالقراءة فى كتيبها الصغير العتيق ، أو بالغناء فى صوت شجى واهن ، أو تراها وقد اعتمدت وجهها على كتفيها ودموعها تتساقط فى بطء بين أصابعها البيضاء النحيلة ، وينفطر قلب جو وهى ترى أختها تحاول بطريقتها السهلة ، أن تقطع ما بينها وما بين الحياة العزيزة بترديد الأدعية والصلوات وبالموسيقى التى تحبها كل الحب .

وكانت هذه المناظر أعمق أثرا فى فؤاد جو ، من المواعظ الحكيمة ، والأناشيد المقدسة ، والصلوات الحارة ، فقد أدركت بعينيها الدامعتين وقلبها الذى أصفاه الحزن ، مدى جمال الحياة الفارغة التى عاشتها أختها ، جمال الحياة التى خلت من الأحداث والمطامع ، وإن عمرت بخير الفضائل التى يزهر نبتها ناضرا فى ثرى دنيانا الفانية ، فينعش النفوس بعبيره الزكى ، كما أدركت من سلوك أختها تجاه نهايتها المحتومة ، أن نكران الذات يجعل أقل الناس شأنا على الأرض ، أعلاهم مقاما فى السماء ، وهو أجمل نجاح يناله إنسان .

وبينما كانت بث ذات ليلة تقلب فى كتبها الموضوعة على المائدة ، باحثة عما ينسيها ضيقها بالدنيا ، وهو ما كانت تجد مشقة فى احتماله كالألم سواء بسواء ، عثرت فى طيات كتابها الحبيب المفضل « رحلة الحجيج » على ورقة صغيرة مكتوبة بخط جو . واستوقفت نظرها فى هذه الورقة ، حروف طمستها دموع كاتبتها ، فقالت فى نفسها وهى تلقى نظرة حانية على أختها الراقدة على السجادة ، وبجوارها قضيب حديدى وضعته فى متناول يدها لتحرك به نيران المدفأة حالما تستيقظ من نومها :

إن جو المسكينة مستغرقة فى نومها ، ولست أظننى فى حاجة الى أن أوقظها لأستأذنها فى قراءتها ، قد تعودت أن ترينى كتاباتها كلها .

Twitter: @ketab_n

وراحت تقرأ :

الى عزيزتى بث

جلستْ صابرة فى طيات الظلال •

تنتظر سطوع النور المقدس •

يا لها من روح راضية مرضية •

تنشر الرحمة فى بيتنا المكدود •

مسرات الدنيا ، وآمالها وآلامها •

تتكسر مثل أمواج صغار •

ترتطم بشاطىء النهر المقدس •

حيث تقف أقدامها فى استسلام •

أواه يا أختاه ! يا من سترحلين •

بعيدا عن هموم البشر وكفاحه •

أعطينى بعضا من فضائلك الغالية •

التى سبغت على حياتك منتهى الجمال •

أعطينى ، أيتها العزيزة ، صبرك العظيم •

الذى أطلق روحك بالرضا والانشراح •

وأعطاها من لدنه قوة •

Twitter: @ketab_n

وهى حبيسة فى سجن الألم •

أعطينى بعض حاجتى •

من حكمة شجاعتك الحاوة •

التى عبرت طريق الأبدية المرير •

تحت خطواتك الثابتة المطمئنة •

هبينى طبيعتك المنكرة للذات •

التى استطاعت ببرها القدسى •

أن تغفر الأخطاء من أجل الحب !

أيها القلب السمح : اغفر لى بدورى ما أخطأت •

وبهذا يهون ألم الفراق •

وتخف مرارة وقعه على النفس •

وتصقلنى المحنة بدرسها العصيب •

فأخرج من خسارتى بكسب عظيم •

يهدىء الحساب من طبعى الوحشى •

ويسبل عليه السكينة والهدوء •

ويحيل أحزانى آمالا وإيمانا •

وثقة بما يأتى به الغيب المجهول •

Twitter: @ketab_n

وإذا جاء دورى •

لأعبر النهر الى ذات المصير •

نحو روح عزيزة تقف فى الانتظار •

لتلقانى على شاطىء الأبدية الفسيح •

سأسير إليها ثابتة الجنان •

مع الأمل والإيمان ملكىّ الحارسين •

فتتلقانى أخت سبقتنى للرحيل •

ويأخذ كلهم بيدى الى مقرى الجديد •

وعلى الرغم مما أصاب هذه السطور من المحو وعدم الظهور ، وعلى الرغم من ركاكتها وضعف لغتها ، فقد أشرق وجه بث بالراحة والهدوء ، فقد كانت تظن آسفة ، أنها لم تفعل شيئا فى حياتها ، ولكن هذه السطور أكدت لها أن حياتها لم تنقض هباء ، وأن موتها لن يجلب اليأس الذى كانت تخشاه •

وبينما هى جالسة والورقة مطوية فى يدها ، سقطت قطعة خشب من نيران المدفأة ، فاستيقظت جو من غفوتها ، وقامت تغذى النيران ثم زحفت الى جانب فراش أختها وهى ترجو أن تجدها نائمة ، ولكن بث قالت فى حماسة وتواضع حزين :

— لست نائمة ، ولكنى سعيدة جدًا يا جو • انظرى ! لقد وجدت هذه الورقة فقرأتها ، ولا أظنك ترين بأسا فى ذلك •• هل حقًا تحبيننى كل هذا الحب يا جو ؟

Twitter: @ketab_n

قالت جو ، وهى تضع رأسها على الوسادة بجانب أختها :

– أواه يا بث ! بل أحبك أكثر من هذا .. أكثر كثيرا !

قالت :

– إذا فلم تذهب حياتى هباء ، لست طيبة بقدر ما تصفين ، ولكنى بذلت جهدى لأفعل الصواب دائما ، والآن ، وقد فات الأوان لعمل أفضل ، يسعدنى غاية السعادة أن أجد من يحبنى الى هذا الحد ، ويعتقد أننى فعلت شيئا يستحق الذكر .

قالت جو :

– لقد أحببتك أكثر من أى إنسان آخر فى هذه الدنيا يا بث ، وكنت أظن أننى لن أستطيع فراقك أبدا ، ولكنى أعرف الآن أن الموت لن يفرق بيننا وستكونين لى على الدوام أكثر مما كنت .

قالت بث :

– إنى أعرف أنه لن يفرق بيننا ، ولذلك لم أعد أخشاه ، وسأظل دائما حبيبتك بث التى تحبك وتساعدك الى الأبد . يجب أن تأخذى مكانى يا جو . فتملئى حياة أبى وأمى عندما أرحل ، سيلجآن إليك بطبيعة الحال فلا تخيبى رجاءهما ، وكونى لهما صدرا حنونا ، وإن شق عليك أن تقومى بهذه المهمة اذكرى أنى معك ، وتأكدى أن سعادة هذه الذكرى تفوق متعة التأليف والأسفار . فالحب هو كل ما نستطيع أن نحمله معنا حين نرحل . وهو وحده الذى يسهل النهاية ، ويجعل وقعها مقبولا على النفس .

Twitter: @ketab_n

قالت جـو :

ـ سأحاول يا بث !

وهكذا تخلت جو عن مطامحها القديمة ، وآثـرت أن تحيا حيـاة جديدة أفضل ، معترفة بتفاهة الشهوات الدنيوية ، شاعرة بما فى الإيمان بخلود الحب من أقدس عزاء على الألم •

وجاءت أيام الربيع وتوالت ، وصفت السماء واخضرت الأرض ، وأينعت الأزهار مبكرة ، وعادت الطيور فى موعدهـا ، كأنما تودع بث التى تلعقت كالطفل المتعب المستسلم بالأيدى التى تعهدتها طوال حياتها ، أيدى أبيها وأمها اللذين قاداها فى رقـة وحنـان خلال وادى الظلال ، ليتركاها وديعة عند الله •

ويندر ، اللهم إلا فى القصص ، أن يقول الذى يموت كلمات تذكر له بعد موته ، أن أن يرى حلما ، أو يفارق الحياة بوجه صبيح • ويعرف الذين ودعوا كثيرا من أعزائهم ، أن النهاية تكـون فى أغلب الأحيـان طبيعية سهلة ، كالنوم سواء بسواء • ولقد حقق الله أمانى بث ، فانحسر الجزر فى بساطة ويسر ، وفى الساعة الحالة التى تسبق الفجر ، لفظت الفتاة أنفاسها الأخيرة هادئة ، وهى تستند على الصدر الذى تنسمت فوقه أول أنفاسها • لم تنبس بكلمة وداع ، وكل ما فعلته ، أن نظرت إليهم بعينين يفيضان حبًا ، ثم شهقت شهقة صغيرة ، وصعدت بعدها روحها الى باريها •

وبين الدموع والصلوات والأيدى الرحيمة ، أعدت الأم والأخوات بث لاستقبال الرقدة الأخيرة الطويلة المريحة ، وقد حمدن الله حين رأين السكينة الوادعة تكسو وجه بث ، وتحل محل الصبر الحزين الذى كانت

Twitter: @ketab_n

تتقطع له نياط قلوبهن • وأثلج صدورهن أن عزيزتهن الغالية تلقت الموت لا كشبح مخيف بغيض ، بل كملاك عـزيز •

وحين أقبل الصباح ، خبت نيران المدفأة فى الغرفة لأول مرة منذ بضعة شهور وخـلا المكان من جـو ، وبدت الغـرفة ساكنة واجمة ، ولكن طائرا حط على غصن تفتحت أزهاره بجوار النافذة ، وبدد السكون بتغريده الشجى ، ثم تدفقت شمس الربيع فى الغرفة ، كأنها فيض من البركات يهبط على الوجه المسجى فوق الوسادة • هذا الوجه الذى فاض بالسلام الوديع ، سلام بعث بين دموع المحزونين بسـمة ، وجعلهم يحمدون الله أن أنقذ بث من آلامها المريرة •

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادى والأربعون

دروس فى النسيان

أفاد لورى كثيرا من الدرس الذى ألقته آمى عليه ، ولكنه لم يحتفظ به طويلا ، شأن الرجال إذا نصحتهم امرأة • فأصحاب الشخصية من هذا الجنس القوى ، لا يعملون بمشورة نسوية قبل أن يقنعوا أنفسهم بأنها تعبير عما كانوا يعتزمونه ، وعندئذ فقط يتبعونها ، فإذا نجحت اعترفوا للمرأة بنصف الفضل ، أما إذا فشلوا فيحملونها الوزر كله فى سخاء •

ولقد عاد لورى الى جده ، وكرس نفسه لخدمته أسابيع عدة ، حتى صرح السيد العجوز بأن جو مدينة نيس أفاده بشكل عجيب ، فمن الخير أن يعود إليها مرة أخرى • وكانت هذه النصيحة فى الواقع أقصى أمنية للفتى ، ولكن قطيعا من الأفيال ما كان يستطيع أن يحمله على العودة الى المدينة التى تلقى فيها ذلك التعنيف • وكان حين يشتد به الشوق الى متع نيس ومباهجها ، يستعين على شعوره بترديد ما آذاه من قول آمى : « إنى أحتقرك •• اذهب وافعل شيئا مجيدا يجعلها تحبك » !

وراح يقلب الأمر فى فكره مرة بعد مرة ، حتى اضطر أن يعترف لنفسه بأنه كان بالفعل أنانيا وكسولا ، ولكنه كان يعتذر عن ذلك بالحزن الذى يغرى بالنزوات طلبا للسلوان • وأحس أن عواطفه الثائرة هدأت عن ذى قبل ، فلا معنى لإعلان أحزانه على الناس رغم وجيعته على حبه الضائع • وما دامت السبل قد تقطعت به الى قلب جو ، فالأمثل له أن يقوم بعمل مجيد يحملها على احترامه ، ويثبت لها أن فتاة مثلها لا تستطيع تحطيم حياته بكلمة « لا » • وإرضاء لكبريائه راح يقنع نفسه بأن نصيحة

Twitter: @ketab_n

آمى لم تكن لها ضرورة ، لأنه كان يعتزم دائمـا أن يقـوم بعمل كبير مشرف ، وما أخره عن تحقيق هذا المجد إلا جراح قلبه ، التى أراد أن يمنحها فسحة من الوقت لتندمل .أما الآن فقد تم له الشـفاء وخفت وطأة الحب ، فأصبح لزاما عليه أن يسعى الى العمل المجد المفيد .

ومثلما كان « جوته » يصوغ همومه وأفراحه فى قصائد من الشعر ، فقد استقر رأى لورى على أن يغرق آلامه فى الموسيقى ، ويؤلف منهـا مقطوعات رائعة تتفتح لها نفس جو . وتطرب بها قلـوب من يسمعها . وبناء على ذلك نصحه جده بالسفر ؛بعد أن رآه قلق المزاج حزينا ، شـد رحاله الى فينا ، حيث يقيم بعض أصدقائه من الموسيقيين ، وهناك عكف على الدراسة بعزيمة صادقةطلبا للشهرة والمجد . وسواء أكان حزنه أكبر من أن تطويه الموسيقى ، أم كانت الموسيقى أضعف من أن تحمل هموم القلب البشرى ، فقد اكتشف لورى صعوبة شديدة فى وضع اللحن الذى يريده . ولم تكن آراؤه قد استقامت بعد ، ولا تبلورت أفكاره بشـكل نهائى ، فكان ذهنه يشرد أثناء محاولته التأليف ، حتى ليجد نفسه يترنم بلحن راقص يذكره بحفلة عيد الميلاد فى نيس ومن حضروها ، خصوصا الرجل الفرنسى السمين . وفى ظل هذه الظروف اضطر الى التوقف مؤقتا عن التلحين والتأليف .

وحاول بعد ذلك أن يؤلف أوبرا موسيقية ، وهانت عليه المهمة فى بداية الأمر ، ولكن سرعان ما انهالت صعوبات لا يتوقعها : فقد كان يريد أن يجعل من جو بطلة الأوبرا المنشودة ، وراح يشحذ ذاكرته بذكرياته العاطفية وصورهما الخيالية الرائعة ، فإذا بذاكرته تخونه ، كأنما ركبها عناد جو ، فلم تطالعه إلا بصـورة مشاكساتها وأخطـائها وشذوذها . ولـم يذكر لجـو موقفا عاطفيا يليق بخيـال الموسيقى ، إنما تذكر

Twitter: @ketab_n

كيف كانت تصب على عواطفه الملتهبة ماء باردا حين تحتمى منه على الأريكة بوسادتها الخشنة القاسية • وتوالت عليه مثل هذه الصور الفكهة ، فلم يستطع أن يكتم ضحكة أفسدت الخيال الذى كان يريد أن يصنع منه أجواء أوبراه ، وعندئذ أدرك أن جو لا يمكن بحال من الأحوال أن تلعب دورا فى هذه الأوبرا • قال لنفسه وقد عدل نهائيا عن تنفيذ فكرته : « لله كم عذبتنى هذه الفتاة ! » ، وأمسك بشعر رأسه يشده فى عنف حتى اختلط وتشعث فأصبح شكله يشبه الفنانين الحائرين •

وعاد يبحث من جديد عن بطلة أخرى لأوبراه ، ويفتش فيمن يعرفهن عن فتاة تصلح لأن يخلدها بألحانه ، فهدته ذاكرته الى واحدة تملك المؤهلات اللازمة لهذا الدور ، ولكنه لا يستطيع تحديدها بدقة ، لأن صورتها تراءت مع نساء أخريات ، كانت تتميز عليهن دائما بشعرها الذهبى ، وغلالتها الشفافة التى تسبح فى الهواء ، وسط خليط مشتت من الورود والطواويس والأمهار البيض والأشرطة الزرقاء • ولم يحاول لورى أن يطلق على هذا الطيف اسما ما ، ولكنه اتخذ منه بطلة الأوبرا ، وأسرف فى التعلق بهذه البطلة ، حتى خلع عليها مواهب الدنيا ومحاسنها ، وذهب فى الترفق بها الى حد يخنق أنفاس أى امرأة ، إذا تحقق فى واقع الحياة •

وحمله الخيال على أجنحته السحرية ، وحلق به رويدا رويدا ، حتى فقد الرغبة فى العمل والتأليف ، وقنع بلذة الأحلام التى كانت تستولى عليه وهو يجلس الى القلم والورق ، أو يجوب المدينة المرحة ترويحا عن ذهنه المكدود ، الذى بلغ فى هذا الشتاء أقصى حدود القلق والركود • ولم يكن إرهاقه الذهنى نتيجة للإسراف فى العمل ، فهو لم يفعل شيئا يذكر ، ولكنه كان يفكر كثيرا جدا ، ويشعر بأن تغيرا ما سيقع فى حياته بالرغم منه فيقول : « إذا كانت هذه تفاعلات العبقرية ، فلأدعها تأخذ مجراها

الطبيعى » • ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه أن هذه التغيرات مسائل عادية جداً ، لا تمت الى العبقرية بصلة • ومهما تكن هذه المسائل ، فقد كانت مراجلها تغلى فى صدره إيذانا بتحقيق هدف معين . فازداد مع الوقت سخطا على حياته المفككة ، وبدأ يحن الى أداء عمل ملموس ، يستغرق فيه جسدا وروحا • وخرج من ثورته الفكرية الى حقيقة حكيمة تقول : ليس كل من يعشق الموسيقى فنانا أو مؤلفا للأنغام •

وذات ليلة ، عاد من الأوبرا الملكية : بعد أن استمع الى إحدى أوبرات موزار العظيمة ، وكانت الفرقة قد أحسنت عزفها ، فأوحى إليه ذلك بإعادة النظر فى أوبراه التى ألفها ، وتقدير أحسن مقطوعاتها دون تحيز أو مجاملة ، وانكب عليها يدرسها قطعة قطعة ، فلما انتهى ، راح يحملق فيما حوله من التماثيل النصفية لعباقرة الموسيقى ، أمثال مندلسون وبيتهوفن وباخ ، ويتأمل ما أنتجوا من روائع الفن ، ثم أمسك فجأة بالأوراق التى سجل عليها أنغامه ، وجعل يمزقها بحزم وهدوء ، حتى أتى عليها كلها • ثم قال لنفسه فى رزانة :

ـ كانت آمى على حق حين قالت إن الموهبة ليست عبقرية ، والعبقرية لا يخلقها الإنسان • لقد شفتنى الموسيقى من غرورى ، كما شفتها روما من غرورها ! إننى لا أريد كما أكون مشعوذا ، فماذا أفعل الآن ؟

وبدا السؤال عسيرا أمام رغبته الملحة فى اكتساب رزقه بعرق جبينه ، وتذكر قوله عن نفسه ذات مرة : « فلأذهب الى الشيطان ! » ، ورأى أن فرصته لتحقيق ذلك أصبحت الآن أوسع منها فى أى وقت مضى بفضل المال والدعة ، فمن دأب الشيطان أن يستغل الأيدى المنعمة العاطلة • كانت المغريات الآثمة القوية تطوقه ، ولكنه صمد لها ، فقد كان بالرغم

Twitter: @ketab_n

من تقديسه للحرية ، يقدر الإيمان والاستقامة والثقة بالنفس • وصانته هذه الصفات من الفساد والانزلاق فى الرذيلة ، وشجعه على التمسك بأهداب الخير ، وعدّ قطعة لجده ، ورغبه خالصة فى أن يكون صالحا أمينا عندما يقول لأولئك الفتيات اللواتى أحببنه من صميم قلوبهن : « كل شىء على ما يرام » •

وقد تقول ثرثارة كمسز جراندى « لا أصدق أن الأمور حقيقة على ما يرام ، فالفتيان لا يستغنون عن الملذات ، ومن الحمق أن نطالبهم بإتيان المعجزات » • ولمثل هذه السيدة نقول : قد لا تصدقين يا مسز جراندى أن الأمور على ما يرام ، ولكنها الحقيقة ، ومن النساء من تصنع المعجزات ، وفى مقدور المرأة الصالحة أن ترفع الرجولة الى مستواها الحق ، إذا كفت عن مثل ما تقولين • دعى الصغار يتصرفوا كالصغار ، وكلما طال أمد ذلك كان خيرا وأبقى • اتركى الشبان يأخذوا حظهم من الدنيا إن أرادوا ، ففى إمكان الأمهات والأخوات والصديقات أن يساعدنهم على الخروج من فترة الطيش فى أقصر وقت ، ما دمن يثقن بهم ، ويعرفنهم أن أحب فضائل الرجل الى النساء ، الاستقامة والإيمان • وإذا قلت يا مسز جراندى إن كلامنا هذا من أوهام النساء ، فدعينا نستمتع بوهمنا ما شئنا ، فبدونه تفقد الحياة نصف جمالها وخيالها وبهجتها ، ولولا هذا الوهم لحطمت المرارة آمالنا فى الفتيان الشجعان الصالحين ، الذين ما زالوا يحبون أمهاتهم أكثر من أنفسهم ، ويقولون ذلك فى صراحة تامة •

كانت لورى يعتقد أن نسيان حبه لجو سينهك قواه سنين وسنين ، وكم كانت دهشته عظيمه حين اكتشف أن النسيان يأتيه مع الأيام سهلا ميسورا • ورفض فى بادىء الأمر أن يقبل هذا التحول أو يصدقه ، بل

Twitter: @ketab_n

ثار غضبا يتهم نفسه بالغدر ، ويتساءل عن سره ، إذ كان يجهل أن القلوب تأتى بالمتناقضات ، ومن طبع الزمن أن يؤثر فيها رغم أنوفنا •

أحس لورى بأن جرح قلبه قد اندمل بسرعة ، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر جو بعد أن كان يبذل الجهد فى نسيانها ، ولم يكن الفتى مستعداً لمثل هذا التغير ، فغلى قلبه بالغضب على نفسه ، وغلبه شعور تمتزج فيه الراحة بخيبة الأمل ، فجعل يحرك جذوة حبه الخابيه ، عساها تتقد ، ولكنها أبت إلا أن تتحول الى وهج خفيف يشيع الدفء فى جوانحه ، دون أن يعرضه للحمى • واضطر أخيرا الى الاعتراف بأن ثورة هواه الصبيانى قد هدأت بالتدريج ، حتى أصبحت عاطفة مستقرة لطيفة يغشاها الحزن أحيانا ، ولكنه حزن قصير الأجل لن يلبث أن يفسح الطريق لحب أخوى يدوم الى الأبد • وحين جال الحب الأخوى بفكره ، نظر باسما الى صورة موزار المعلقة أمامه ثم قال لنفسه : « الحق أنه كان رجلاً عظيما ، فحين أعياه الفوز بإحدى الأختين اتجه الى الأخرى ، وعاش معها هانئا سعيدا » • ولم ينطق لورى بهذه الكلمات ، ولكنها جالت بخاطره فانحنى على الخاتم القديم الصغير يقبله ، وقال لنفسه مستدركا : — لا •• لن أفعل ذلك ! لم أنس ولن أنسى • سأحاول مرة ثانية ، فإذا فشلت ، فعندئذ •••

ولم يكمل لورى كلامه ، بل أسرع الى القلم والورق يكتب الى جو ليخبرها بأنه لا يستطيع الاستقرار على أمر ، ما دام هناك أمل فى أن تغير رأيها ، ثم يسألها ملهوفا إذا كان فى مقدورها أن ترجع عن رفضها ، فيعود الى الوطن ويسعد بالحياة معها ؟

وبقى ينتظر حائرا قلقا وأخيرا أتاه ردها قاطعا ، فحسم الموقف نهائيًا إذ أرسلت تقول بإصرار وصراحة إنها لم تغير رأيها ولن تغيره ،

Twitter: @ketab_n

وإنها مشغولة ببث ، ولا تريد أن تسمع كلمة الحب مرة ثانية ، فرجاؤها إليه أن يبحث عن السعادة مع غيرها ، على أن يحتفظ بركن صغير فى قلبه لأخته جو . وكتبت على هامش الخطاب تطلب منه أن يخفى عن آمى سوء حالة بث ، وما دامت تنوى العودة فى الربيع القادم ، فلا داعى لتعكير صفو ما تبقى لها من أيام فى الخارج ، ثم توجهت الى الله بالدعاء أن يمنح بث فسحة من الوقت حتى ترى أختها . وطلبت من لورى أن يواظب على الكتابة الى آمى ، ولا يتركها فريسة للوحدة والقلق والحنين الى الوطن .

وقال لورى يحدث نفسه ، وهو يفتح مكتبه استعدادا لتحرير رسالة لآمى ، وكأنما وجد فى الكتابة لها النهاية الطبيعية للجملة التى لم يتمها منذ أسابيع .

— سأفعل ذلك فورا ! ويا للفتاة المسكينة ! أخشى أن تكون عودتها الى البيت مؤلمة محزنة !

ولكنه لم يكتب الرسالة فى ذلك اليوم ، فبينما كان يقلب فى أوراقه بحثا عن شىء تاه منه وسط قوائم الحساب وجوازات السفر ووثائق الأعمال ، عثر فى أحد أدراجه على رسائل كثيرة من جو ، وثلاث رسائل من آمى ، ربطت بشريط أزرق أنيق ، وفاحت منها رائحة الزهور المجففة بداخلها . وجمع لورى خطابات جو ، وقد كسا وجهه تعبير من العجب والألم ، ثم رتبها ونفض عنها الغبار وطواها ، وأودعها درجا صغيرا من أدراج مكتبه . وتوقف لحظة يفكر ، وهو يدير الخاتم الصغير فى اصبعه ، ثم أخذ يخلعه فى بطء ، ووضعه مع الخطابات ، وأغلق الدرج . وأحس كأنما هو عائد من مأتم ، فخرج الى كنيسة القديس ستيفان ليستمع الى عظة راعيها ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحس

Twitter: @ketab_n

بألم طاغ ، فقد بدا له أن هذا التصرف أليق به من الجلوس لكتابة رسائل الى فتيات جميلات •

وأرسل الخطاب سريعا ، وأجابت آمى دون تأخير ، اذ كانت تشعر ببالغ الحنين الى الوطن ، ولم تجد غضاضة فى أن تعترف بذلك فى كتابها وازدهرت المراسلة بينهما ، وانتظمت الخطابات جيئة وذهابا طيلة بواكير الربيع • وباع لورى ذخيرته من تماثيل الموسيقيين ، كذلك أحرق أوراقه وكراساته التى سجل فيها ألحان أوبراه ، ثم عاد الى باريس راجيا أن تصل اليها احداهن قبل مضى وقت طويل • وكان يتحرق شوقا الى مدينة نيس ، ولكنه ابتعد عنها من تلقاء نفسه ، ولم تشأ آمى من جانبها أن تدعوه لأنها كانت تمر بتجربة جديدة ، لا تحب أن يعرف بها الفتى الذكى •

كان فريد فوهن قد عاد من سفره ، وسألها ذلك السؤال الذى كان فى نيتها أن تجيب عليه قائلة : « نعم » وأشكرك ، ولكنها اختارت الآن أن تقول له بصراحة وأدب : « لا ، أشكرك » • • والحق أن شجاعتها خانتها فى اللحظة الحرجة ، بعد ما تبين لها كم غيرت التجارب أهدافها ، فأصبحت ترمى فى حياتها الى ما هو أسمى من المال والجاه ، ورنت فى أذنها كلمات لورى حين قال : « فريد شاب لطيف المعشر ، ولكنى لا أعتقد أنه الرجل الذى تتشوقين اليه » • ولم تستطع ابعاد كلمات لورى عن ذهنها ، لا ، ولم تستطع أيضا أن تنسى قولها له : « سأتزوج من أجل المال » ، وآلمتها ذكرى هذا الرأى المخجل الذى يتنافى مع دواعى الأنوثة ، فتمنت أن لو كان فى مستطاعها أن تسحبه ، حتى لا يظن لورى أنها امرأة مادية لا قلب لها ولا احساس ، لأنها لم تكن تبتغى فى الواقع سيادة المجتمعات ، قدر

Twitter: @ketab_n

ما تبتغى أن تكون محبة محبوبة . ومن حسن حظها أن لورى لم يكرهها من أجل هذه الكلمات المريعة ، انما تغاضى عنها وبدا أشد عطفا عليها من ذى قبل . وكانت خطاباته الأخيرة تأتيها بفيض من السرور يعوض عليها معانى الأسى المكبوت التى كانت تلمسها فى رسائل أهلها المتباعدة ، فانتظمت فى الرد عليها بلذة مضاعفة . كانت تشعر بأنه واجب يتحتم عليها أن تؤديه نحو الفتى المسكين الوحيد ، الذى عاندته جو فى موقفها منه ، ولم يرق قلبها القاسى لتوسلاته . وعجبت آمى كيف لم تبذل جو جهدا فى حبه ، مع أنه أمر ليس بالعسير ، وكثيرات غيرها يتمنين نظرة منه . ولكن جو تختلف عن الفتيات الأخريات ، ولذلك استعصى عليها أن تكون له أكثر من صديقة ، فآثرت آمى أن تظل له أختا شقيقة عزيزة .

ولو أن كل أخ لقى من المعاملة مثلما لقى لورى أثناء هذه الفترة ، لأصبح الإخوة أسعد أهل الدنيا قاطبة : امتنعت عن مضايقته بالمحاضرات والعظات ، وراحت تسأله الرأى فى كل أمر تقدم عليه ، وكانت تبدى منتهى الاهتمام بأحواله ، وتبعث اليه بهدايا صغيرة جميلة ، وتكتب له كل أسبوع خطابين تزينهما بأجمل الرسوم ، وتملؤهما بأرق عبارات الثقة والاخلاص .

وبعض الأخوات يسعدهن أن يحملن فى جيوبهن رسائل اخوتهن ، ليعدن قراءتها مرة بعد مرة ، فى اعزاز بالغ وشوق عظيم : يبكين اذا كانت قصيرة ، ويضحكن اذا كانت طويلة ويحرصن فى المحافظة عليها كأنها كنز ثمين .. ولكن آمى لم تفعل ذلك على وجه التحقيق ، انما شغلها التفكير حتى ذبل وجهها ، وفقدت اهتمامها بالمجتمعات ، فأعرضت عن الحفلات والتفتت الى الرسم تسلى به نفسها . ولم تكن ترسم

Twitter: @ketab_n

صورا جديرة بأن تحملها معها الى أسرتها ، ولكنها كانت تقضى جل وقتها فى دراسة الطبيعة وتجلس الساعات الطوال مكتوفة اليدين فى شرفة قصر « فالروزا » ، تسرح الطرف حولها ساهمة ، أو تخطط صورا لما يجول بخاطرها المشغول . فمرة ترسم تمثال فارس مفتول العضل منحوت على قبر ، ومرة ترسم شابا يستلقى على الحشائش وقبعته تغطى عينيه .. أو فتاة ذات شعر متموج تخطر أنيقة فى حلقة الرقص ، وهى تستند الى ذراع سيد فارع الطول ، وكانت الوجوه فى تلك الرسوم غير واضحة المعالم ، تمشيا مع التقاليد الفنية فى ذلك العهد .

وظنت عمتها بأنها نادمة على رفضها الزواج من فريد ، ولكن آمى نفت ذلك مرارا وتكرارا ، حتى اذا أعيتها الحيلة الى اقناع عمتها بخطئها ، تركتها لشأنها تظن ما يحلو لها ، مكتفية بأن تطمئن لورى الى أن فريد سافر الى مصر . ونزل الخبر عليه بردا وسلاما ، فهدأت هواجسه ، وقال فى نفسه :

— كنت واثقا من أنها ستغير رأيها . يا للفتى المسكين ! انى أقدر شعوره ، وأرثى لحاله ، فقد مررت بتجربة مماثلة .

وشعر بارتياح كمن أزيح عن عاتقه عبء ثقيل ، ثم أسند قدمه الى الأريكة ، وعاد الى خطاب آمى يقرأه بلذة ، كأنه قام نحو الماضى بالواجب كاملا .

كانت هذه الأمور تجرى فى الخارج ، والأحزان تبلغ أقصاها فى بيت آل مارش ، ولكن آمى لم تتسلم الرسالة التى تنبىء بضيعة الأمل فى

Twitter: @ketab_n

حياة بث ، وحين أتتها الرسالة التالية فى مدينة فيفاى ، كانت الحشائش قد اخضرت على قبر أختها الراحلة •

كانت حرارة الجو فى شهر مايو قد أغرت آمى وصحبها بالرحيل عن نيس الى سويسرا عبر جنوة والبحيرات الايطالية ، وهنـاك جاءها الخبر المحزن فاحتملته ، ولكنها لم تقطع رحلتها عملا بمشورة أهلها ، الذين رأوا أن تطلب السلوى فى السفر ، بعـد أن فاتتها رؤية أختهـا قبل موتها • ومضت بها الأيام مثقلة القلب بالهموم ، وغلبتها أحزانهـا فآثرت أن تقضى وقتها أمام البحيرة ، ترنو الى الأفـق ، راجيـة أن يعـود لورى ، ليسرى عنها ويعزيها • ولم تكذبها آمالها ، فعندما تلقى الفتى النبأ الحزين متأخرا ، بسبب سفره الى ألمانيا ، حـزم أمتعته ، وودع أصدقاءه ، ثم رحل اليها فورا ، وقلبه ملىء بالحزن والسرور ، والقلق والأمل •

وكان لورى يعـرف مدينة فيفاى جيدا ، فما ان مسـت سفينته رصيف المينـاء ، حتى قفز الى البر وهـو يحث الخطى نحـو مبنى « لافور » حيث يقيم آل كارول • وقابله الخادم بدهشـة ، وأخبره بانصراف جميع أفراد الأسرة الى النزهة فى البحـيرة الا المدمـوازيل الشقراء ، فقد تكون فى الحديقة ، ثم رجا السيد أن يتفضل بالجلوس لحظة حتى يخطرها بحضوره • ولكن السيد لم ينتظر ولا نصف لحظة ، بل غادر المكان مسرعا ، ليبحث بنفسه عن المدموازيل !

وعلى شاطىء البحيرة الجميلة ، كانت الحديقة مثل جنة رائعة ، تظللها أشجار الكستناء الفارعة وتزينها شـجيرات اللبلاب المتسلقة ، ومن بين الأغصان تنعكس صورة البرج الأسود على صفحة المياه الساطعة • وكانت آمى فى ركن منها تجلس على مقعد اعتادت أن تخلو الى نفسهـا

Twitter: @ketab_n

فيه لتقرأ أو ترسم أو تمتع نفسها بما حولها من الجمال الطبيعى • وكانت ، حين أقبل لورى ، تعتمد رأسها بيديها ، وقد فاض قلبها بالحنين للوطن ، ودمعت عيناها حزنا على بث ، فلم تنتبه الى وقع أقدامه وهو يعبر الفناء ، لا ، ولم تره وهو يقف فى الطريق الموصل الى الحديقة المزينة بالأقواس • ولزم الفتى مكانه لحظة يتأملها بعين جديدة ، فيرى فيها العاطفية الرقيقة ، ذلك الجانب من شخصيتها الذى لم يره من قبل • كان كل ما حولها يوحى فى صمت بالحب والأسى ، من الخطابات التى محت سطورها الدموع الى الشريط الأزرق الذى ربطت به شعرها ، الى الألم والصبر اللذين تجليا على وجهها ، وحتى الصليب الأبنوسى الأسود الذى كانت تزين به جيدها ، أثار فى نفسه شئونا وشجونا ، إذ كان قد أهداها إياه فى احدى المناسبات ، فاختارت اليوم أن يكون حليتها الوحيدة • واذا كان لورى فى شك من وقع زيارته عليها ، فقد تبخر شكه فى اللحظة التى وقع فيها نظرها عليه • والحق أنها أخذت بمجيئه ، فأسقطت ما فى يدها وحجرها وهرعت اليه تصيح فى لهجة تفيض بالحب والشوق :

— أواه يا لورى ! كنت واثقة من حضورك !

وجاءت لحظات الصمت التالية أبلغ من الكلام ، وقفا جنبا الى جنب خاشعين ، رأسه الأسود ينحنى عطوفا على رأسها الذهبى ، كأنما يريد أن يحميها من أحداث الزمن • وأحست آمى أن أحدا غير لورى لا يستطيع أن يعيد السكينة الى نفسها ، وشعر لورى أنه ما من امرأة فى العالم غير آمى تستطيع أن تملأ مكانة جو فى قلبه • ولم يفصح الفتى عن شعوره ، ولم تتضايق آمى لذلك ، فقد أدرك الاثنان الحقيقة بمنتهى الرضا ، وتركا للصمت البليغ تتمة ما بدأته العيون •

Twitter: @ketab_n

وبعد قليل عادت آمى الى مقعدها وهى تجفف دموعها ، فتشاغل عنها لورى بجمع الأوراق المتناثرة على الأرض ، متفائلا بما فيهـا من صور وأضواء تبشر بمستقبل سعيد • وحـين جلس الى جانبها احمـر وجهها خجلا على ما بدر منها عند لقائهما منذ لحظة ، وقالت وهى تحاول عبثا أن تستعيد هدوءها :

ـ لم تكن لى حيلة فى أمر نفسى ، فاعذرنى ! كنت وحيدة حزينة ، فجاءت رؤيتك مفاجأة سارة ، بعد ما كدت أفقد الأمل فى حضورك •

قال :

ـ ما ان بلغنى الخبر حتى أسرعت اليـك • ليتنى أعـرف كيف أعزيك عن فقد الصغيرة العزيزة بث • ولكنى فقط أحس •••

وتولاه هو الآخر خجل مفاجىء ، فتلعثم عاجزا عن الكلام • كان بوده أن تسند رأسها الى كتفه ، وتبكى أحزانها وآلامها ، ولكنه لـم يجرؤ على التقدم بهذا الاقتراح ، فاكتفى بأن أخـذ يدها بـين يديه وضغط عليها فى عطف أبلغ من الكلام • قالت آمى فى رفق :

ـ لا داعى للكلام ، ففى احساسك أجمـل العـزاء • ان بث الآن أسعد حالا ، وما من أحـد يتمنى لها العودة الى عذاب المرض ، ولكنى أتهيب الرجوع الى أهلى رغم شوقى البالغ اليهم •• دعنا من هـذا الحديث فانه يثير أشجانى ، وأنا أريد أن أسعد بوجودك معى ، فهـل تبقى معنا أياما ، أم تراك مضطرا الى العودة سريعا •

قال :

ـ لن أعود اذا كنت تريديننى معك •

Twitter: @ketab_n

قالت :

— بل أريدك أن تبقى ، فأنا شديدة الحاجة اليك ، لست أنكر حنان عمتى وفلو ، ولكنى أعتبرك واحدا من أهل بيتى ، وصحبتك تعالج أحزانى وتسرى عنى •

وبان الحنين الى الوطن فى لهجتها ، فكانت وهى تتكلم مثل طفل طالت غيبته ، فاستبد به الشوق الى بيته • وازاء ذلك تخلى لورى عن خجله ، وراح يسبغ عليها ما وسعه من التدليل ، فيقول لها بعطف امتزج فيه الرجاء بالأمر :

— يا للصغيرة المسكينة ! ! يبدو أن الحزن أورثك السقم والمرض ، فعلىّ أن أعنى بك وأرفه عنك • كفاك بكاء يا عزيزتى ، وهيا بنا نتمشى قليلا ، فجلوسنا فى مثل هذا الجو البارد غير مستحب •

وتأبط ذراعها ، وسارا يذرعان الممر المشمس جيئة وذهابا تحت أغصان الكستناء الخضراء الجديدة • وانتعش لورى بالسير على قدميه ، واغتبطت آمى إذ وجدت الى جانبها ذراعا قوية تعتمد عليها ، ووجها مألوفا يبتسم لها ، وصوتا حنونا يتحدث اليها فى غبطة وسرور •

كانت الحديقة القديمة قد سبق أن أظلت كثيرا من المحبين ، ولكنها بدت فى ذلك اليوم كما لو كانت أنشئت لهما وحدهما ، فالشمس تغمرهما فى عزلتهما ، والبرج الأثرى يطل عليهما دون غيرهما ، والبحيرة لا تردد إلا صدى صوتيهما • ومضت ساعة وهما يسيران ويتحدثان ، أو يستريحان على السور المنخفض فى نشوة بسحر اللقاء والمكان • ثم قطع حبل الخيال صوت ناقوس الغداء ذو الرنين الخالى من الجمال ، منذرا اياهما بالافتراق ، فسارت آمى الى البيت وهى تشعر

Twitter: @ketab_n

كأنما انزاح عن صدرها كابوس الوحدة والحزن ، وكأنما تركت أشجانها جميعا وراءها فى تلك الحديقة •

وما ان وقع نظر مسز كارول على وجه آمى ، ورأت ما حدث فيه من تغير ملحوظ ، حتى برقت فى ذهنها فكرة جديدة ، فقالت تحدث نفسها بدهشة : الآن عرفت كل شىء ، فقد كانت الفتاة تحن طول الوقت الى رؤية لورنس ، فليرحمنى الله ! ! لم يدر ذلك فى خلدى قط !

وكتمت السيدة الطيبة خبر ما رأت ، ولم تحدث أحدا به أو تفضح سرورها ، واكتفت بملاطفة الفتى ، راجية الى آمى أن تستمتع بصحبته بعد ما أمعنت فى الوحدة والانزواء • وأثبتت آمى أنها مثل يحتذى فى طاعة العمة ، فانصرفت الى تحية صديقها والترحيب به فى منتهى الحماسة والتوفيق ، وساعدها على ذلك تشاغل العمة عنها بأمور ابنتها فلو •

وتغيرت حال لورى فى فيفاى عنها فى نيس تغيرا أثار اعجاب آمى وسرورها ، فبعد أن كان خمولا كسولا ، أصبح متحمسا نشيطا ، لا يرى إلا وهو يمشى أو يركب ، أو يجدف فى قاربه بشدة ، أو يدرس فى همة واجتهاد ، وكان يعزو تغيره الى جو فيفاى المنعش فتؤمن آمى على قوله ، لتفسر هى الأخرى تحسن صحتها باعتدال روحها المعنوية •

وكان للجو المنعش فعله الطيب فيهما ، كما أفادتهما الرياضة جسدا وعقلا ، وترتب على ذلك أن تكشفت لهما الأمور على حقائقها ، ووضحت معالم الحياة وحدود الواجبات فى ربوع تلك البقعة الجبلية ، وبددت الرياح المنعشة سحب الشكوك وضباب الأحزان ، وأيقظت شمس الربيع

Twitter: @ketab_n

الدافئة ألــوانا حلوة من الأفكار والآمال والأحــلام ، وغسلت ميــاه البحيرة الرقراقة متاعب الماضى القاسية ، وأطلت عليهما الجبال الشاهقة تهمس فى أسماعهما حانية مترفقة : « أيها الطفــلان الصغيران ، دعــا الحب ينم فى قلبيكما » .

ومضى الوقت بهما سعيدا ، رغم مصابهما فى بث ، وكانت السعادة دافقة بحيث لم يجرؤ لورى أن يعكر صفوها بكلمة أو اشارة . ولقــد أدهشت الفتى تلك السرعة التى شفى بها من حبه الأول ، فضــلا الى نفسه يجمع شتات أفكاره ، كان يعتقد أن حبه لجــو هو حبــه الأول والأخير ، فراح يعزى نفسه على عدم ولائه لها بأن آمي أخت جــو ، فأنها جو نفسها ، ولو لم تكن كذلك ما انشغل قلبه بها .

لقد كان حبه الأول عاصــفا ، وكان ينظر اليــه كحلقة طويلة من الأحداث التى تبعث فى النفس خليطا من العاطفة والندم ، دون أن يكون فيها ما يدعو الى الخجل ، وقد نجح ، بعد طول تفكير ، فى تنحية هــذا الحب جانبا كتجربة حلوة مــرة ، ومن حسن الحظ أن مرت بآلامهــا وأشجانها .

أما حبه الجديد ، فقد قرر أن يجعــله هادئا ما اســتطاع : فآمى تعرف ما يكنه لها ، وليس هناك ما يدعو الى تعقيد الأمور بموقف يبثها فيه غرامه ، والواقع أنهــا أدركت الحقيقة من البداية ، ورضيت بالوضع مطمئنة ، وتم الأمر فى أسلوب طبيعى هادىء ســوف يسر لــه الجميع حتى جو نفســها ، ولكن صدمته فى غرامه الأول جعلته أكثر حــذرا فى تصرفاته وأشــد تمهلا فى شق طريقه الى تجربته الجديدة ، ولذلك ترك الأيام تمر ، وراح يستمتع بكل لحظة منها ، تاركا للظروف خلق الفرصة التى يبوح فيها بغرامه .

Twitter: @ketab_n

وكان الخيال يرسم له ختام هذه القصة الغرامية فى موقف جميل بالحديقة الرائعة تحت ضوء القمر الساحر ، وفى أسلوب جذاب رشيق ، يتفق وجمال القصـة والمكان ، ولكن الحوادث هدمت تخيلاته كلهـا ، إذ جاء الختام على مياه البحيرة فى وقت الظهر ، وبكلمات قليلة بسيطة : كانا يتنزهان معا فى القارب منذ الصباح ، يتنقلان من سان جينجولف الرزينة الى مونترو المرحة ، تحف بهما جبـال الألب من ناحية ، وقمـة جبل سان برنارد من الناحية الأخرى ، وأمامهما تظهر فيفاى وسـط الوادى وبجوارها لوزان فوق التلال ، ومن فوقهما سماء صحو زرقاء ، ومن تحتهما مياه البحـيرة التى انتشرت القوارب الجميلة على صفحاتها اللازوردية ، كأنها نوارس بيضاء ، تضرب الماء بجناحيها .

كانا يتحدثان عن بونيفارد وهما ينزلقان بالقارب أمام شيلون ، ثم ذكرا روسو وهما يمران بكلارنس .. المدينـة التى كتب فيها قصـته « هلواز » . ولم يكن أحدهما قد قرأ تلك القصـة ولكنهما كانا يعرفان أنها قصـة غرام ، ويتساءلان : هـل كانت كحبهما قصـة ممتعة ؟ .. وران عليهما الصمت لحظة كانت آمى خلالها تتأمل يدها المغموسة فى ماء البحيرة ، وحين رفعت رأسها رأت لورى يميل بجسده على المجاديف ، وفى عينيه تعبير جعلها تقـول فى عجلة :

— انك متعب ولا شـك ، فاسترح قليـلا ودعنى آخذ المجذافين منك ، فانا لم أجـذف منذ جئنا الى هذا المكان ، وحياتى كلهـا تنقضى فى خمول وكسل .

قال ، وكأنما الفكرة التى يعرضها ترضيه .

— لست متعبا ، ولكن لا مانع من أن تمسكى بأحد المجذافين ،

Twitter: @ketab_n

والمكان يتسع لكلينا ، وان يكن من الضرورى أن أجلس فى وسط المقعد حتى لا يدور بنا القارب •

ولم تجد آمى فى هذا الاقتراح حلا للموقف ، ولكنها قبلت ثلث المكان الذى قدمه لها ، ورفعت شعرها المتهدل على وجهها ، وأمسكت بالمجذاف وأخذت تحركه فى مهارة ، شأنها فى كل عمل تقوم به • وعلى الرغم من أنها كانت تستعمل كلتا يديها ولورى يستعمل يدا واحدة ، فقد تناسقت قوى المجذافين ، وسار القارب يشق الماء فى هدوء •

وقالت آمى تقطع حبل الصمت :

ـ ما أحسن تعاوننا على تسيير القارب !

قال :

ـ تعاون بديع • • بودى لو يدوم ، فهل توافقين يا آمى على أن نرتبط بمصير واحد ؟

همست قائلة :

ـ نعم ••• يا لورى !

ودون أن يشعرا بما يفعلان ، توقفا عن التجذيف ليضيفا منظرا جديدا جميلا الى لوحة الحب البشرى السعيد ، التى تنعكس صورها على صفحة البحيرة ••

Twitter: @ketab_n

الفصـل الثانى والأربعـون

بين زوايا الوحـدة

يسهل على المرء أن يقطـع على نفســه وعـودا بالتضحية وانكار الذات ، اذا اندمجت نفسه وتلاشت فى شخص آخر حبيب اليه ، يراه دائما أمامه كمثل يحتذيه فى صفاء الروح ونقاوة المثل العليا • ولـكن يشق على المرء أن يفى بوعوده هذه اذا غاب صوت الوحى عنـه الى الأبد ، وذهب المثل الأعلى الى غير رجعة ، واحتجب الحبيب عن العيون فى ثنايا الأبدية ، تاركا وراءه أحـزانا لا نهاية لها ••• فى مثل هـذا الوضع وجدت جو نفسها بعد رحيل بث ، ورأت صعوبة الوفاء بعهودها على التضحية وانكار الذات • فكيف تستطيع أن تبعث السكينة والهدوء فى قلبى أمها وأبيها وهى لا تقـوى على تهدئة سعير قلبها الذى يحترق بنيران الشوق الى أختها الراحلة ؟ وكيف يمكنها أن تشيع البهجـة فى البيت بعد أن هجره النور والدفء والجمال حين غادرته بث الى مرقدها الأخير ؟ وأين تجد فى العالم كله عملا نافعـا تسعد به وتشغل ، بعد أن انقضى عهد الخدمات العزيزة التى كانت تؤديها لأختهـا الراحلة ، فتلقى من تقديرها أجمل العزاء والسلوى ؟ لقد حاولت بكل جهـدها أن تؤدى واجبهـا مغمضة العينين بلا أمـل ، ولـكن ثورة مكبوتة تملكت قلبها ، فقد بدا لها ظلما أن تسلب منهـا مسراتها القليلة المحـدودة ، فى الوقت الذى يثقل فيه حمل أعبائها ، وأن تشتد عليها الحياة حـين يتضاعف نصيبها من العمل والكفاح • ليس من العدل فى شىء أن يجـد بعض الناس الحياة أمامهم كلها نضرة ونعيم واشراق ، ولا يجد بعضهم الآخر إلا ظلالا باردة موحشة • لقد جاهدت كى تصير فتاة طيبة صالحة

Twitter: @ketab_n

أضعاف ما فعلت آمى ولكنها لم تنل حقها من جزاء ، ولم تفز إلا بالشقاء والنصب وخيبة الأمل •

يا لجو المسكينة ! لقد مرت بها فى تلك الفترة أيام حالكة ، كان اليأس يستبد بها فيها حين تفكر فى أنها ستقضى بقية عمرها فى هذا البيت الهادىء ، لا تجد من المسرات إلا قليلا ، ولا من الأعمال إلا مُمِلَّها ، ولا من الواجبات إلا أثقلها !

وعندما فشلت جهودها فى قهر أحزانها ، وغلبتها التعاسة التى تولد عندما تخضع الارادة القوية لواقع الأمر مضطرة ، قالت لنفسها : انى لا أستطيع القيام بمهمتى ، لأنى لم أخلق لحياة كهذه ، واذا لم يبادر أحد بمعونتى ، فلابد أن تثور نفسى ، فأرتكب عملا طائشا •

ولم يخب رجاء جو ، فقد جاءها المعين دون أن تدرك ، وقيض الله لنجدتها ملكا بشريا ، وجهه مألوف لها ، وعباراته محببة الى نفسها •• كانت جو ، منذ رحيل بث ، تتخيل وسط الليل أن أختها تناديها ، فتقوم من نومها ملبية النداء مذعورة ، وما ان تنظر الى الفراش الصغير الخالى من صاحبته ، حتى تبكى بكاء حارا ، يكشف عن حزن عميق ، لم تستطع الأيام أن تتغلب عليه • ووسط هذه الدموع المنهمرة تصيح من أعماق قلبها : « بث ! أواه يا ربى ! عودى إلىّ » •• عودى إلىّ ! » ، ثم تمد ذراعيها فى ضراعة ، فلا تمتد عبثا ، إذ سرعان ما تسمع الأم صوت نحيبها فتهرع اليها كما كانت تفعل مع بث حين تسمع أناتها المتوجعة المكبوتة ، فتهرع اليها لتخفف عنها باللفظ الحلو والحنان البالغ ، فتمسح آلامها بلمسة خفيفة تنم عن حزن

أعمق من حزن جو ؛ أو بهمسة متقطعة أبلغ فى أثرها من الدعوات • ولا غرابة فقد كان تسليمها بقضاء الله لا يقل عن أملها فى رحمته • وفى هذه اللحظات المقدسة ، التى يتحدث القلب فيها الى القلب فى سكون الليل ، فتتحول الشدائد نعما بما تغرسه من حب وما تزيحه من حزن •• والتى يتدفق فيها الحب الأموى ، فيخفف عن النفس همومها ، استطاعت جو أن تحمل العبء بسهولة ، وأن تقبل على أداء واجبها راضية النفس ، وبين ذراعى أمها الحنون أصبحت الحياة محتملة مقبولة •

وحين سكنت آلام القلب قليلا ، واسترد العقل المتعب بعض هدوئه ، دخلت جو ذات يوم الى غرفة المكتب ، وانحنت على رأس أبيها الأشيب الطيب ، فرفع بصره اليها يحييها ببسمة هادئة • قالت فى تواضع :

ـ هلا حدثتنى يا أبى كما كنت تحدث بث ؟ ! انى أحتاج الى حديثك أكثر مما كانت هى تحتاج اليه ، لأنى غارقة فى الخطأ الى قمة رأسى !

قال فى صوت خفيض متقطع ، وهو يحتويها بين ذراعيه كما لو كان هو الآخر فى حاجة الى معونتها ولا يخجله أن يطلبها منها :

ـ ليس أبعث الى راحة نفسى من ذلك !

وجلست جو بجواره على مقعد بث الصغير ، وراحت تقص عليه أحزانها الثائرة لفقد أختها ، ثم فشل جهودها فى التغلب على تلك الأحزان حتى تزعزع ايمانها ، وأصبحت حياتها مظلمة موحشة • • • منحته ثقتها كاملة ، فأعطاها العون الذى تنشده ، ووجد كلاهما

Twitter: @ketab_n

العزاء كل العزاء فى هذه الجلسة التى مكنتهما من أن يتحدثا معا ، لا كأب وابنته ، بل كرجل وامرأة يسرهما أن يتبادلا المعونة عن حب وعطف •

وفى هذا المكتب القديم ، الذى كانت جو تسميه « كنيسة الفرد الواحد » ، قضت الفتاة الحزينة وقتا عامرا بالتفكير والسعادة ، وخرجت منه وقد جددت شجاعتها ، واستعادت بشرها ، وسيطرت على روحها ، وصفت نفسها • وهكذا تكاتف الوالدان ، اللذان استطاعا أن يعدا طفلتهما لاستقبال الموت راضية شجاعة ، على أن يعدا طفلتهما الأخرى لاستقبال الحياة فى ثقة تعلمها كيف تنتهز الفرص الجميلة ، وتستمتع بها قوية راضية شاكرة •

وتوالت المعونات على جو ، فاستطاعت أن تدرك أن فى أداء الواجبات المتواضعة مسرات صغيرة تخفف عن نفسها ، فتضاءلت كراهيتها للمكانس والمناشف التى كانت من اختصاص بث فيما مضى ، وراحت طبيعتها المحبة لبث تدفعها الى استعمال مكنسة بث وفوطتها ، اللتين لم يلق بهما فى سلة المهملات أبدا • واعتادت حملهما بالتدريج ، ثم وجدت نفسها تترنم بالأغانى التى اعتادت بث أن تترنم بها وهى تشتغل ، كما سلكت فى تنظيم البيت سلوكها أيضا ، فتضفى لمسة هنا ولمسة هناك لتعيد الى الغرف رونقها السابق • هكذا بدأت جو طريقها الى إعادة السعادة المنزلية دون أن تشعر ، ولم تدرك كم بذلت فى هذا الطريق من خير ، حتى قالت لها حنة ذات يوم ، وهى تضغط على يدها تقديرا وإعزازا :

— يالك من مخلوقة ذكية ، يبدو أنك قد قررت ألا تدعينا نفتقد جهود راحلتنا العزيزة ، فقمت عنها بكل ما كانت تفعله •• إننا نرى ولا نتكلم ، فبارك الله فيك من أجل معونتك لنا !

Twitter: @ketab_n

وذات يوم جلست جو وميج تطرزان معا ، وطال الحديث بينهما ، فأدركت جو مدى التقدم الذى أحرزته أختها فى إدارة بيتها ورعاية شئون أسرتها ، وارتاحت نفسها لما سمعتها تتكلم عن أطيب دوافع النساء وأرق مشاعرهن ، وتصف بحماسة كيف أصبحت سعيدة بزوجها وأطفالها ، والى أى مدى تتبادل وجون المعونة فى سبيل تحقيق الهناء المنزلى • قالت ، وهى تصنع طائرة لابن أختها ديمى فى حجرة الأطفال ، التى انقلبت رأسا على عقب :

— الزواج حياة جميلة على كل حال ، ولكنى أتساءل هل يكون فى استطاعتى إذا ما تزوجت أن أحرز نصف ما بلغته من سعادة ؟

فقالت ميج :

— إنه الأمر الوحيد الذى يكشف عن الجانب الرقيق من طبيعتك النسوية ، أنت كثمرة الكستناء يا جو ، خشنة الملمس فى ظاهرها ، ناعمة كالحرير فى داخلها ، حلوة المذاق إذا استطاع إنسان أن يصل الى غورها • سيكشف الحب يوما عن دخيلة قلبك ، وعندئذ تسقط عنك هذه القشرة الخشنة ويظهر لبك الجميل •

قالت جو وهى تعالج طائرة ديمى ، وقد تعلقت بها ديزى كحمل ثقيل يمنعها من الطيران :

— لا أود يا سيدتى أن أكون كالكستناء ، فإن الصقيع يشقق قشورها الخشنة ، ولا بد من هزة عنيفة لإسقاطها من أشجارها ، ثم إن الصغار لا يسكتون عن محاولة جنيها ، ولست أحب أن أوضع فى الحقائب التى يجمعونها فيها •

Twitter: @ketab_n

وضحكت ميج وقد سرها أن ترى وميضا من روح جو القديمة ، وأحست فى ذات الوقت بواجبها فى إقناع أختها برأيها ، فراحت فى حديثها تقدم الدليل بعد الآخر ، وتوضح ما كان منه متصلا بالأطفال الذين تحبهم جو . ولم يذهب حديثها سدى ، فالحزن عند بعض الناس خير مفتاح للقلوب المغلقة ، خصوصا أن جو كانت كالثمرة التى شارفت على النضج ، ولم يعد ينقصها سوى مزيد من أشعة الشمس لتبلغ كمالها .. لم يكن يصلح لقطافها هزة صبى صغير ضيق الصدر ، إنما كانت فى حاجة الى يد رجل قوى ، يخرجها برفق من بين الأشواك المحيطة بها ، ليستمتع بها سليمة كاملة . ولو أن مثل هذا الخاطر جال بفكر جو ، ما ترددت — عن إبراز أشواكها فى صمت وعنف ، ولكنها لم تكن عندئذ تفكر فى نفسها من حسن الحظ ، فلما حان الوقت سقطت ثمرتها الناضجة ، من غير أن تدرك أو تحس .

والعادة فى بطلات القصص الأخلاقية ، أن يظهرن فى صورة القديسات ، ويغفن أهل العالم فى عمل الخير ، ويملأن جيوبهن بالكتب الدينية . ولكن جو لم تكن بطلة بحال من الأحوال ، وإنما كانت امرأة تجاهد فى الحياة وتكافح ، شأنها شأن مئات من مثيلاتها . ولقد تصرفت بما توحيه عليها طبيعتها المتقلبة بين الحزن والغضب ، وبين الشرود والنشاط .

وجميل أن يقول المرء : سأكون طيبا ، ولكنه لن يستطيع أن يكون كذلك فورا ، فالأمر يحتاج منه الى مجهود طويل شاق ، وتعاون بالغ مع الناس ، حتى تتضح له طريق الخير ، فيستطيع أن يسير فيها . ولقد وضعت جو قدميها فى أول الطريق ، بعد أن تعلمت كيف تؤدى واجبها ، ثم قطعت فيها خطوة أخرى حين روضت نفسها على الرضا بأداء هذا الواجب . كانت أمنيتها دائما أن تقوم بعمل مجيد ، وأن تبلغ به غاية

Twitter: @ketab_n

الكمال مهما اعترضها من صعاب ، فكان من حسن حظها أن تحققت أمنيتها بأنبل عمل تستطيع أن تقوم به فى حياتها ، ألا وهو خدمة والديها ، وإسعادها فى شيخوختهما ، مثلما أسعداها فى طفولتها . وإذا كانت الصعاب والشدائد ضرورية لتتمة الجهاد ، فليس أشق على فتاة طموح من أن تنزل عن آمالها وأمانيها مختارة ، لتحيا وتفنى فى خدمة الآخرين راضية !

لقد أخذتها المقادير عند كلمتها ، فأبرزت لها هدفا جديدا يختلف تمام الاختلاف عن أهدافها الأولى ، ولكنه يفوقها جمالا لخلوه من النفع الشخصى ، فهل تنجح فى بلوغه ؟ كان فى نيتها أن تحاول ، وقد شاءت الظروف أن تنجح فى محاولتها بفضل معونة والديها ، ثم عرضت لها معونة أخرى قبلتها شاكرة ، لاكجزاء تستحقه ، بل وسيلة الى الترفيه عن النفس . فقد قالت لها أمها ذات يوم ، بعد أن انتشعت عن نفسها موجة القنوط :

– لم لا تكتبين ، وقد كانت الكتابة تسعدك دائما ؟

قالت :

– قلبى لا يطاوعنى على الكتابة ، وحتى إذا استطعت أن أتغلب عليه فلن يهتم أحد بما أكتب .

قالت الأم :

– إننا معنيون جميعا بما تكتبين ، فاكتبى لنا ولا تهتمى ببقية العالم . حاولى يا عزيزتى ، فلا شك أن الكتابة تفيدك مثلما تسعدنا .

Twitter: @ketab_n

قالت جو :

ـ لا أستطيع ذلك على ما أعتقد .

ولكنها رغم ذلك . أخرجت محتويات مكتبها ، وبدأت تنظم مخطوطاتها التى لم تتم .

وبعد ساعة من هذا الحديث . استرقت أمها نظرة من ثقب الباب ، فوجدتها غارقة فى الكتابة وقد لبست ميدعتها السوداء : وبدا عليها منتهى الاهتمام والاستغراق ، فانسحبت مسز مارش بهدوء وعلى شفتيها ابتسامة الرضا بنجاح فكرتها .

ولم تدر جو كيف تسربت روحها الى القصة فسمت بها حتى جعلتها تصل الى صميم قلب من يقرؤها . وعلى غير إرادة منها أرسل أبوها القصة الى إحدى المجلات المعروفة ، فتلقتها الجريدة لا بالإعجاب فقط بل بدفع أجر عنها ، وطلب المزيد من أمثالها . وعندما نشرت القصة توالت على جو خطابات التقريظ التى بعث بها إليها أناس يعتبر مديحهم شرفا عظيما ، وتناقلت الصحف اليومية القصة ، وأعجب بها الأغراب والأصدقاء على السواء . ولقيت القصة ، على قصرها ، نجاحا كبيرا أدهش جو أكثر مما أدهشها مديح الناس وذمهم لقصتها الطويلة السابقة .. قالت وقد عقدت الحيرة لسانها :

ـ لست أفهم شيئا ! ماذا وجد الناس فى القصة ليغدقوا عليها هذا الثناء كله ؟

فقال أبوها :

ـ وجدوا فيها الصدق يا بنيتى ، فالقصة واقعية ، وهذا سر نجاحها .

Twitter: @ketab_n

لقد أضفى عليها اجتماع الحزن والمرح حيوية بالغة ، وسما فيها الأسلوب وبلغ منتهى الكمال ؛ لأنك كنت تكتبين بوحي من ذاتك ، لا من أجل الشهرة أو المال • كتبتها بقلبك فأخلصت وأبدعت • لقد ذقت المــرّ يا عزيزتي ، وها أنت تتمتعين بالحلو أخــيرا ! ابــذلي جهــدك يا جــو واسـعدي بنجاحك مثلما نحن سعداء •

قالت وقد غلبها التأثر لكلمات أبيها :

— إذا كان في القصة شيء صادق أو جميل فهو ليس من صنعي ، والفضل لك ولأمي ولبث •

وهكذا تعلمت جو من الحزن والسرور أمــورا كثيرة ســطرتها في قصصها فكسبت لنفسها ولقصصها من بين القراء أصدقاء يعتد بهم • وقلد وجدت أيضا أن العالم بار بهذه الشــوارد الذهنية المتواضعة يتقبلها في رفق ، ليعيدها إليها في صورة تقدير جميل •

وحين كتبت آمي ولــوري ينبئان الأسرة بخطبتهما ، خشيت مسز مارش أن يشق الأمر على نفس جو ، فلا تستقبل الخبر بما يستحقه من غبطة وسرور ، ولكن سرعان ما تبددت مخاوفها ؛ فبالرغم من أن جــو دهشت للنبأ في بداية الأمر ، غير أنها لم تلبث أن استردت هــدوءها ، وراحت تسلي نفسها بإعداد مشروعات عظيمة للخطيبين الصغيرين • وكان الخطاب في الحقيقة أشبه بمبارزة غرامية ، تسابق فيها كل من المحبين الى الإشادة بصاحبه في أسلوب جميل ينطق بالإعزاز ، فجــاء الخطاب مبهجا لمن يقرؤه ، مرضيا لمن يفكر فيه ، وليس لأحد اعتراض عليه •

قالت جو لأمها ، بعد أن وضعت الخطاب الضخم جانبا :

— أيسرك هذا الأمر يا أماه ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

ـ نعم ، وكنت دائما أتمنى ذلك . لقد أدركت يوم أنبأتنا آمى برفضها خطبة فريد فوهن ، أن شيئا أغلى مما أسميته « الروح التجارية » قد غلب على نفسها . وأحسست من بعض الإشارات والكلمات التى وردت فى رسائلها أن الحب ولورى سيكسبان المعركة .

قالت جو :

ـ ما أقوى ملاحظتك يا أماه ، وما أشد صمتك ! كنت تتوقعين الأمر ، ولكنك لم تشيرى إليه بكلمة واحدة .

قالت :

ـ على الأمهات إذا أردن تسوية أمور بناتهن أن يلاحظن فى صمت ، وكنت أخشى ، الى حد ما ، أن أصارحك بما يجول فى ذهنى ، فتسرعى بتهنئتهما قبل الأوان .

قالت جو :

ـ لم أعد طائشة الذهن يا أماه ، أنا الآن عاقلة رزينة ، ولى من الحكمة ما يجعلنى أحرص على ثقة الناس ، وأصون أسرارهم .

قالت الأم :

ـ نعم أنت حريصة وكتوم يا بنيتى ، وكان بودى أن أستودعك سرى . ولكنى خشيت أن تتألمى إذا عرفت أن عزيزك « تيدى » قد أحب فتاة غيرك .

Twitter: @ketab_n

قالت :

— لا يا أماه • لست غبية أو أنانية لأتألم بعد أن رفضت حبه حين عرضه فى أبهى صـورة •

قالت الأم :

— لست أشك فى أنك كنت مخلصة حين رفضت حبه يا جـو ، ولكن لا أخفى عليك أن نفسى كانت تحدثنى أخيرا أنه إذا عاد وطلب يدك مرة أخرى ، فقد تقولين له قولا آخر • سامحينى يا صـغيرتى ، فلم يكن يسيرا علىّ أن ألمس عذابك فى وحدتك ، وأرى فى عينيك أحيانا نظـرة جائعة تقطع نياط القلوب • ظننت الفتى قد يملأ فراغ نفسك إذا عـاد الى طلب يدك من جديد •

قالت جو :

— لا يا أماه ! الخير فيما اختاره الله ، وأنا سعيدة أن أحبته آمى • ولكنك محقة فى أننى أشعر بالوحدة والوحشة ، وربما قلت نعم للورى إذا حاول مرة ثانية ، لا لأنى ازددت حبًا له ، بل لأنى أصبحت أهتم بأن أكون محبوبة أكثر من ذى قبل •

قالت أمها :

— ما أعظم سرورى بهذا القول يا جو ! فهو يدل على أنك تتقدمين فى معنوياتك • هناك كثير يحبونك ، فحاولى أن تقنعى بمحبة أبيك وأمك وأخواتك والطفلين والأصدقاء ، حتى يخـرج من بينهم خير المحبين ، فتنالى بذلك أحسن الجزاء •

Twitter: @ketab_n

قالت جو :

— إن الأمهات خير المحبين فى الدنيا ، ولكن لا يخجلنى أن أهمس فى أذنك يا أماه بأنى أريد تجربة كل أنواع الحب • وهذا شعور عجيب • فكلما حاولت إرضاء نفسى بأنواع الحب الطبيعى ازددت شوقا الى المزيد ولم أكن أعتقد أن القلوب يمكن أن تتسع لكل هذا ، وقلبى فى غاية المرونة وأخشى أنه لم ينل غايته بعد • لقد اعتدت أن أقنع بمحبة أسرتى ، ولست أفهم سر هذا التحول الذى انتابنى •

وانحنت جو على خطاب آمى تعيد قراءة ما كتبته أختها عن لورى ، فقالت مسز مارش وهى تبتسم برزانة :

— ولكنى أفهمه !

وقرأت جو ما كتبته آمى :

« إنه لشعور جميل أن يكون الإنسان محبوبا بالقدر الذى يحب لورى به • إنه لا يتكلم عن الحب إلا قليلا ، ولكنى أشعر بعواطفه فى حركاته وسكناته وفى كل ما يقول وما يفعل • وهذا الشعور يجعلنى سعيدة جدًّا وضئيلة جدًّا أمام هذا الحب العظيم • الحقيقة أنى تغيرت ولم أعد الفتاة التى كنتها من قبل • وما عرفت طيبة لورى وكرمه ورقته كما عرفتها الآن ، فهو يسمح لى أن أستشف ما انطوى عليه قلبه من دوافع نبيلة وآمال واسعة أفخر بها • لأنى أعلم أنها كلها لى • إنى أحب لورى من صميم قلبى وروحى ، وبكل ما فى من قوة وعزم ، ولن أتخلى عنه ما أمد الله من عمرنا معا ، أواه يا أماه ! لم أكن أدرى أن الحب المتبادل يحول هذه الأرض الى جنة سماوية !! » •

Twitter: @ketab_n

وطوت جو صحائف الخطاب معا بعناية ، كما تطوى صحائف قصة جميلة تستهوى القارىء ، وتستأثر بمشاعره حتى يتمها ، فإذا أتمها وتلفت حوله وجد نفسه وحيدا وسط مشاغل الحياة اليومية •

قالت لأمها :

ـ أهذه أختنا آمى العاقلة المتحفظة الهادئة ؟ حقًا إن الحب يصنع المعجزات ! ما أعظم سعادتها ! لا بد أنهما غارقان فى بحور الهناء •

وبعد قليل أخذت جو تطوف أنحاء البيت وهى فى طريقها الى الطابق العلوى ، فقد كان الجو مطيرا لا يسمح بالمشى ، وتملكتها روح القلق ، وطغى عليها ذلك الشعور الذى كاد يجرفها بتياره أول الأمر ، ولكنه لم يكن قاسيا فى هذه المرة ، بل كان مجرد أصداء حزينة لأسئلة تتردد فى نفسها قائلة : لماذا تنــال أخت كل مـا تطلب وتحرم أخت من كل شىء ؟ • • وكانت جو أعلم بما فى ذلك الخاطر من سوء ، فحاولت ابعاده من رأسها ، ولكن رغبتها فى أن تكون محبوبة كانت قوية متمكنة ، فأيقنت أن سعادة آمى تعطش نفسها الى أن يكون لها من يحبها قلبا وروحا ، ويتمسك بها ما أمد الله فى عمرهما معا • وظلت جو تطوف بالبيت على غير هدى ، حتى ساقتها قدماها الى غرفة السطح ، حيث وجدت أربعة صــناديق مصفوفة ، يحمــل كل منهــا اسم صاحبته • وكانت الصــناديق مليئة بمخلفــات الطفولة التى انقضت من حياتهن جميعا ، فألقت جو على الصناديق نظرة فاحصة ثم استقرت عيناها على صندوقها ، وأسندت ذقنها على حافته ، وراحت تحملق مشدوهة فى محتوياته المشوشة ، حتى رأت حزمة من الكراسات القديمة • فأخرجتها ، وأخذت تقلب صفحاتها وتستعيد ذكريات أيام الشتاء الحلوة ، التى عاشتها مع مسز كيرك العطوف • وابتسمت فى أول الأمر ، ثم استسلمت لموجة من التفكير انتهت بها الى الحزن ، وحين

عثرت على رسالة صغيرة مكتوبة بخط الأستاذ ، بدأت شفتاها ترتجفان ، وسقطت الكتب من حجرها ، وجلست تنظر الى الكلمات العزيزة ، كأنما تقرأ فيها معانى جديدة تمس شغاف قلبها ، كانت الكلمات تقول :

« انتظرينى يا صديقتى .. قد أتأخر قليلا ، ولكنى سأحضر حتما ! »

قالت لنفسها : أواه ! ليته يأتى حقًا ! إنه طيب حنون صبور ، ذلك العزيز فريتز ! لم أكن أقدره حق قدره حين كان معى ، أما الآن ، فبودى أن أراه ، بعد أن تخلى الناس عنى ، وتركونى وحيدة حزينة .

وضمت الورقة الصغيرة الى صدرها بقوة ، كأنما هى وعد ما زال قائما ، ثم أسندت رأسها الى حقيبة مريحة ، وأخذت تبكى بدموع لا تقل غزارة عن الأمطار المنهمرة فوق السطح .

أكان البكاء رثاء لنفسها وما صارت إليه ، أم كان للوحدة : أم لانهيار روحها المعنوية ؟ أم تراها بكت ليقظة عاطفة جديدة ظلت حبيسة فى صدرها ، تنتظر الفرصة التى حان وقتها ؟ ترى ، من يعرف الحقيقة ؟؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث والأربعون

مفاجـآت

رقدت جو على الأريكة القديمة وحيدة ، تقضى ساعة الغسق على طريقتها الخاصة ، دون أن يعكر صفوها أحد ، وقد استغرقت فى التفكير وسرحت ببصرها الى النار • كانت قد اعتادت أن تستند الى وسادة بث الحمراء وهى تصوغ أفكارها فى قصص ممتعة ، أو تفكر حزينة فى أختها الراحلة • وكانت فى ذلك اليوم بادية الحزن والتعب والإرهاق ، فقد كان عيد ميلادها الخامس والعشرون فى اليوم التالى ، فراحت تفكـر كيف تعاقبت السنوات بهذه السرعة ، وكيف تقدم العمر بها هكذا ولم تحقق إلا قليلا من آمالها • كانت تعتقد لأول وهلة أنها لم تأت عملا قيما ، فلما استوضحت أحوالها ، وجدت أنها فعلت كثيراً فى الـواقع • قالت وهى تتنهـد :

— ترى ما المصير ؟ ! لقد تقدم العمر بى ، ولست أكثر من عانس أديبة ، زوجها القلم ، وقصصها أسرتها وأطفالها ! وقد يمضى عشرون عاما حتى أنال بعض الشهرة ، ولكن ما الفائدة ؟ سأكون عجوزا فلا أتمتع بها ، وحيدة لا أجد من يقاسمنى إياها ، قانعة فلا أحتاج إليها ! على أى حال ، لا داعى لأن أصبح لاذعة اللسان انانية ، فبعض العوانس يعشن حياتهن فى راحة ، بعد أن يعتدن عليها ، ولكن •••

وتنهدت جو • فقد كانت الصورة التى تتخيلها قاتمـة مؤسـفة ، لا ترضى فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعتقـد أن سن الثلاثين التى تقترب ، هى نهاية كل شىء فى الحياة ، والحقيقة غير ذلك ، فباستطاعة الفتاة أن تعيش الى تلك السن سعيدة إذا كان فى ماضيهـا

Twitter: @ketab_n

ما يعمر حاضرها بالذكريات الحلوة • والفتاة فى الخامسة والعشرين تتكلم عن نفسها كأنها عانس ، مع أنها لا تنوى أن تكون عانسا بأى حال من الأحوال • فإذا بلغت الثلاثين ، لا تذكر كلمة عانس مطلقا ، ولكنها تقبل الواقع صامتة ، واذا كانت فتاة عاقلة ، تعزت بأن أمامها عشرين عاما أخرى من الحياة النافعة ، التى تتعلم خلالها كيف تصير عجوزا طيبة •••

لا تضحكن من العوانس يا فتياتى ، فكثيرا ما كانت ملابسهن القاتمة تخفى تحتها مآسى عاطفية صنعتها التضحيات البالغة بالشباب والآمال والصحة ، بل بالحب أيضا •• وهذه التضحيات الكريمة تكسب الوجوه الذابلة أمام الله جمالا ما بعده جمال • يجب أن نترفق بأخواتنا العانسات ، حتى الحزينات منهن أو سليطات اللسان ، فقد فاتهن التمتع بأحلى وقت فى حياتهن •• انظرن إليهن نظرة رحيمة لا ازدراء فيها ، وعلى كل فتاة فى زهرة العمر أن تذكر دائما أنه قد يفوتها موسم القطاف ، وأن ورد الخدود لا يدوم ، وأن الشيب يغزو الخصلات الفاحمة فى يوم من الأيام ، وعندئذ تصبح للشفقة والاحترام حلاوة تضارع الحب والتقدير ة

وأنتم أيها السادة ، أو بالأصح أيها الفتيان ، احترموا العوانس مهما كن فقيرات أو دميمات أو عجبيات ، فإن أشهم الرجال أقدرهم على احترام الشيخوخة ، وحماية الضعف وخدمة الجنس اللطيف ، بغض النظر عن المركز أو الشكل أو اللون • اذكروا العمات الطيبات ، لا لنصائحهن ومحاضراتهن ، بل لما تجشمن من عناء فى تربيتكم وتدليلكم ولم يتلقين شكرا أو تقدير •• وأذكروا الورطات التى أنقذنكم منها ، والهبات المالية التى نفحنكم بها • ، واذكروا الثقوب التى رتقنها بأصابعهن الواهنة ، والخطوات التى مشينها من أجلكم بأقدامهن الواجفة ••

Twitter: @ketab_n

اذكروا كل هذه الصنائع وقدموا فروض الاحترام اعترافا بجميل أولئك العانسات ، وأحيطوهن بمظاهر العناية التى يحبها النساء ما حيين . واعلموا أنه لو فرق الموت بين أحدكم وأمه ، وليس غير الموت من قوة تستطيع ذلك ، فسيجد العوض فى الخالة بريسلا مثلا ، التى ما زالت تحتفظ لابن أختها المحبوب بأدفأ ركن فى قلبها العجوز .

لابد أن جو قد استسلمت للنعاس — كما استسلم له القارىء أثناء هذا الموعظة الصغيرة — إذ تخيلت أن لورى واقف أمامها ، ولكنها لم تلبث حتى تبينت أن الأمر حقيقة لا خيال فيها ، فقد كان الفتى يقف أمامها ، وفى عينيه تلك النظرة التى تفيض بالعاطفة المكتومة ، ولم تصدق أنه لورى بلحمه ودمه ، فظلت تحملق فيه فى صمت واجف ، حتى انحنى عليها وقبلها . وعندئذ هبت من رقدتها وهى تصيح مسرورة :

— أوه ! أنت ياتيدى ! أهذا تيدى العزيز ؟

قال :

— إذن فأنت مسرورة برؤيتى يا عزيزتى جو ؟

قالت :

— مسرورة ؟ إن الكلمات لا تستطيع ان تعبر عن مدى سرورى يا ولدى المحبوب ! أين آمى ؟

قال :

— عرجنا فى الطريق على بيت ميج ، فتركت زوجتى هناك مع أفراد الأسرة بعد أن أخفقت فى إنقاذها من قبضتهم .

صاحت جو ، وقد لمست فى صوته إعزازا يكشف عن حقيقة شعوره :

— زوجتك ! ؟ ماذا تعنى ؟

Twitter: @ketab_n

قال وقد بدا عليه الحرج :

ـ يا إلهى ! لقد بحت بسرى عن غير قصد !

فأردفت جو تقول بسرعة :

ـ إذن فقد تزوجت ؟

فركع على ركبتيه وقد ضم يديه كمن يطلب المغفرة ، ثم قال وفى عينيه أجلى معانى المزح والنصر :

ـ نعم ، تزوجت ، ولن أفعلها مرة ثانية !

قالت :

ـ تزوجت فعلا ؟

قال :

ـ نعم ، تزوجت الى أقصى حد !

فجلست جو على كرسيها وقالت وهى تتنفس الصعداء :

ـ رحمتك يا إلهى ! ترى أى عمل مخيف ترتكب بعد ذلك ؟

قال وهو يبتسم فى رضا وسرور ، وما زال راكعا على ركبتيه أمامها :

ـ طريقتك المعهودة فى التهنئة ، وما زالت غير مشجعة !

قالت :

ـ وهل كنت تتوقع غير ذلك بعد أن تسللت إلىّ كاللصوص فأفزعتنى ؟ انهض أيها الفتى المضحك ، وحدثنى بقصتك كلها .

Twitter: @ketab_n

قال :

ـ لن أنطق بكلمة واحدة إلا بشرطين : أن تسمحى لى بالجلوس فى مكانى القديم ، وألا تقيمى حاجزا بينى وبينك !

وضحكت جو كما لم تضحك منذ زمن طويل ، وربتت على الأريكة بيدها تدعوه ، ثم قالت فى صوت حنون :

ـ وضعنا الوسادة القديمة فى المخزن بعد أن زال الاحتياج إليها ، فتعال واعترف لى بما حدث يا تيدى .

قال وهو يجلس على الأريكة ، وقد تملكه شعور بالرضا :

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين « يا تيدى » ، فما من أحد ينادينى بهذا الاسم إلا أنت .

سألته :

ـ وبماذا تدعوك آمى ؟

قال :

ـ تقول : « مولاى » !

قالت وقد امتلأت عيناها إعجابا بفتاها الذى ازداد ظرفا ووسامة عما كان :

ـ هذه طريقتها ! ولكنك أهل لهذا النداء .

لم تكن هناك وسادة تحجز بينهما ، ولكن كان هناك حاجـز غير منظور ، أقامة الزمن والبعد وتغير القلوب ، وأحس الاثنان به ، فأمعن

Twitter: @ketab_n

كلاهما النظر فى وجه صاحبه ، كأنما هذا الحاجز قد ألقى عليهما ظـلا خفيفا لم يلبث أن انقشع . قال لورى وهو يصطنع الوقار :

— ألا أبدو كرجل متزوج ورب أسرة ؟

قالت :

— أبدا ! ولن تبدو كذلك فى يوم من الأيام . ولقـد كبرت قليلا وازددت وزنا ، ولكنك ما زلت كما كنت ، ولا أمل فى إصلاحك .

قال :

— لا يا جو . يجب أن تعامليني الآن باحترام أكثر من ذى قبل .

قالت ، وقد أشرق وجهها بالابتسام :

— وكيف أحترمك ، ومجرد التفكير فى أنك تزوجت يضحكنى ويذهب بوقارى ؟

وانخرطت فى الضحك ، وسرت العدوى الى لورى ، فراح يضحك معها ، ثم هدءا بعد لحظة وجلسا يتبادلان الحديث بطريقتهما القديمـة المحبوبة ، قالت :

— لا فائدة من أن تخرج لإحضار آمى فى هـذا الجـو البارد ، وسيحضرون جميعهم فورا .

قال :

— لم أستطع الصبر ، وأردت أن أكـون أول من ينبئك بالمفاجأة الكبرى . تماما كما كنت ألعق أول قطفة ، ونحن نتشاحن على القشدة !

Twitter: @ketab_n

قالت :

— أشهد أنك وفقت ، ولكنك بدأت القصة من نهايتها فأفسدتها • والآن ، عد إلى أولها ، وأخبرنى كيف حدث ذلك ، فأنا مشوقة لسماع أخبارك من أولها •

قال وقد التمعت عيناه :

— حسنا ، لقد فعلتها لأدخل السرور على آمى !

فصاحت جو :

— هذه أول كذبة مفضوحة ! قل إنك فعلتها لتدخل السرور على قلبك • عليك بالصدق إذا استطعت يا سيدى !

فقال لورى ، وقد سره أن يرى بزيقا من صورة طبعها القديم :

— الأمر سواء فى الحالتين • كنا قد قررنا العودة الى الوطن فى صحبة آل كرول منذ شهرا أو أكثر ، ولكن آل كرول قرروا ، فى آخر لحظة أن يقضوا شتاء آخر فى باريس ، ولما كان جدى يريد العودة الى الوطن ، وهو كما تعلمين لم يسافر الى الخارج إلا من أجلى ، فلم يكن فى الإمكان أن أبقى مع آمى ونتركه يعود وحيدا ، ولم يكن فى الإمكان كذلك أن أترك آمى وحدها وأعود مع جدى • ولما كانت كارول شديدة التمسك بالتقاليد الإنجليزية المحافظة ، فقد رفضت أن تسمح لآمى بالعودة معى وحدى دون مرافقة ترعاها • وتعقدت المشكلة بهذا الشكل ، فرأيت أن نتزوج ثم نفعل ما نريد •

فقالت جو :

— ونفذت رأيك بالطبع ، لأنك تفعل عادة ما يعجبك !

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ ليس دائما !

وأحست جو فى نبرات صوته بما جعلها تبادر بسؤالة قائلة :

ــ وكيف أمكنك أن تقنع العمة بالموافقة ؟

قال :

ــ كانت مهمة عسيرة ، ولكننا تذرعنا بأقوى الحجج ، فهزمناها فى حلبة المناقشة ، وذكرناها بأن الوقت لا يتسع لاستئذانكم كتابة ، وليس من داع الى ذلك ، ما دمتم وافقتم على الخطبة ورحبتم بها ، وهكــذا وقفت الظروف الى جانبنا ، وأصبحت المسألة لا تحتاج إلا خطوة حازمة كما قالت زوجتى .

فقاطعته جو ، وقد رأت فى عينيه لهيب العاطفة ، وأسعدها أن ترى ذلك اللهيب يحتل مكان الحزن الذى غلبه حين تقابلا آخر مرة :

ــ ألا تشعر بالفخر وأنت تردد كلمة « زوجتى » ؟

قال :

ــ قليلا وأحيانا ، إنها امرأة صغيرة فاتنة لا يملك المرء إلا أن يفخر بها . وعلى كل حال ، استطعنا أن ننال موافقة العمة والعم كارول ، فتولينا الأمر كوالديها . وكان الترتيب الذى اقترحته سببا فى تيسير الأمــور كلها ، فقد كنت وآمى غارقين فى الحب تماما ، ولو افترقنا لصرنا عديمى القيمة ، ولذلك نفذنا الاقتراح كما ترين .

Twitter: @ketab_n

قالت جو ، وقد تملكتها حمى الفضول النسوى ، فأرادت أن تعرف كل صغيرة وكبيرة :

— ومتى كان ذلك ، وأين كان وكيف كان ؟

قال :

— تزوجنا منذ ستة أسابيع فى القنصلية الأمريكية بمدينة باريس ، ولم ننس فى غمرة سعادتنا عزيزتنا بث ، لذلك أقمنا شعائر الزواج بلا احتفال .

وتأثرت جو لكلامه فضغطت بيدها على يده ، وتشاغل لورى بتسوية الوسادة الحمراء الصغيرة ، التى يذكرها جيدا ولا ينساها . وخيم الصمت عليهما لحظة ، ثم عادت جو تسألة فى لهجة أشد هدوءا :

ولمَ لم تخبرنا بالأمر بعد ذلك ؟

قال :

— أردنا أن نفاجئكم به ، وكنا نظن أننا سنعود فورا للوطن ، ولكن الجد العزيز أجل السفر حين عرف بالخبر ، وسمح لنا بشهر عسل نقضيه أينما نريد . وكانت آمى قد وصفت الحياة فى فالروزا بأنها شهر عسل مستديم ، فذهبنا إليها وسعدنا كما لم يسعد أحد من قبل .. كان غراما بين الورود !

واغتبطت جو إذ لمست فى حديثه دلائل نسيانه التام لما كان بينه وبينها ، وأكد لها أسلوبه الصريح الواضح أنه سامحها ونسى حبها . وهمت بسحب يدها من يده ، ولكنه تشبث بها ، وقد أدرك الشعور الذى أوحى إليها بهذه الحركة ، ثم قال فى رزانة لم تعرفها فيه من قبل :

Twitter: @ketab_n

— أريد أن أقول لك شيئا واحدا يا عزيزتى جو ، ثم نترك الأمر كله جانبا الى الأبد .. عندما ذكرت لك فى خطابى أن آمى تعطف علىّ ، أكدت الى جانب ذلك حبى لك ، وكنت صادقا كل الصدق ، ولكن حبى تغير الى الأحسن ، بعد أن تبادلت وآمى مكانيكما فى قلبى . وكان لا بد أن ينتهى الأمر الى ذلك ، لو أننى أخذت بنصيحتك وانتظرت للتأكد من عاطفتى ، ولكنى لم أستطع على الموقف صبرا ، فأصبت بوجيعة فى قلبى ... كنت صبيًا عنيفا عنيدا ، فاحتاج الأمر الى درس قاس لأتبين خطئى . وأقسم لك أننى تحيرت فى وقت ما ، اختلطت على عواطفى نحوكما ، حتى لم أميز أيكما أحب إلىّ من الأخرى .. حاولت أن أقسم حبى بينكما مناصفة فلم أستطع ، وحين تقابلت معها فى سويسرا ، تكشفت عواطفى فورا ، راحتلت كل منكما مكانها الصحيح فى قلبى ، وتأكد لى أن الحب القديم قد ذهب قبل أن يحل محله حب جديد ، كما أدركت أنى أستطيع أن أقسم قلبى بين أختى جو وزوجتى آمى وأحبهما معا حبًا خالصا . فهل تصدقيننى الآن ، وهل تعدينني أن نعود سيرتنا الأولى ، كما كنا فى الأيام السعيدة الماضية ؟

قالت :

— نعم ، أصدقك من كل قلبى ، ولكن ألا ترى يا تيدى أننا لن نستطيع أن نعود صبيًا وفتاة ، ولا يصح أن نتوقع ذلك ، بعد أن ذهبت الأيام السعيدة وانتهى أمرها ؟ إننا الآن رجل وامرأة ، علينا واجباتنا نؤديها ويجب أن نكف عن المجون ، فوقت اللهو قد انقضى . لست أشك فى أنك توافقنى على ذلك ، فإنى أراك قد تغيرت ، وأظنك ترانى قد تغيرت كذلك .. أؤكد لك أننى سأفتقد لورى الصبى ، ولكنى سأحب لورى الرجل وأحترمه من صميم قلبى ، لأنه سيحقق آمالى فيه . دعك من

Twitter: @ketab_n

صداقة المزاح واللعب ، والأفضل أن نكون أخا وأختا يتبادلان المحبة والمعونة طيلة حياتهما .. أليس كذلك يا لورى ؟

وفى صمت تام أخذ لورى اليد التى قدمتها له ، وأسند وجهه إليها لحظة ، وهو يشعر بأن صداقة جميلة قوية تنبعث من بين أنقاض هوى الشباب الماضى .. وانشرح قلب جو ، فبادرت تقول بسرعة ، كارهة أن ينسيه الحزن جمال عودته الى الوطن :

— لا أكاد أصدق أن طفلىّ قد تزوجا ، وأنهما فى طريقهما للعناية بشئون بيتهما ، فما زلت أتخيل الماضى كأنه أمس قريب ، حين كنت أثبت أزرار آمى فى مرولتها ، وأشد شعرك عندما تغيظنى ! رحمتك يا إلهى ! كم يسرع الوقت فى مضيه ! ؟

قال لورى ، وهو ينظر إليها مسرورا بلهجتها الأمية :

— كفى عن لهجة الجدّات هذه ، فأحد الطفلين اللذين تذكرينهما يكبرك سنًا . إنى لأفخر أحيانا بأننى كبرت ، وأصبحت سيدا ناضجا ، وعندما تأتى آمى سترين بعينيك كم نمت الطفلة قبل الأوان !!

قالت جو :

— قد تكون أكبر منى سنًا ، ولكنى أكبر منك حسًا وشعورا يا تيدى : شأنى فى ذلك شأن النساء ، أشعر أننى بلغت الأربعين بعد ما اختبرتنى محن السنة الماضية .

قال لورى وهو يشد شعره أسفا :

— مسكينة أنت يا جو ! لقد تركناك تحملين العبء وحدك ، ورحنا نجرى وراء مسراتنا . نعم ، أنت أكبر منى ، والدليل على ذلك هذه

Twitter: @ketab_n

التجاعيد والخطوط .. عيناك حزينتان إلا عندما تبتسمين ، ودموعك ما زلت ألمسها على الوسادة .. لقد تحملت وحدك أعباء جسيمة ، فيالى من وحش أنانى !

وقلبت جو الوسادة التى أفشت سرها ، وقالت فى صوت حرصت ان تملأه بالبشاشة والبهجة :

— لا ، لم أكن وحدى ، فقد وقف أبى وأمى الى جانبى يساعداننى ، وراح طفلا ميج يروحان عنى ويسليانني ، وكان مجرد التفكير فى سعادتك مع آمى تخفيفا عظيما للألم . إن الشعور بالوحدة ينتابنى أحيانا ، ولكنه شعور مفيد لى ، و ..

وقاطعها لورى وهو يضع ذراعه حولها ، كأنه يحميها من كل شر :

— لن تكونى وحيدة بعد الآن . أنا وآمى لا نستطيع السير بدونك ، فيجب أن تأتى إلينا ، لتعلمى طفليك كيف يدبران شئون بيتهما ، على أن نتقاسم كل شىء على عادتنا القديمة .. دعينا ندللك ونعنى بك ، فنعيش معك أسعد الناس .

قالت :

— إذا لم يعكر وجودى صفوكما ، فليس أحب إلىّ من صحبتكما ، ولقد بدأت أشعر بالشباب من جديد .

ومالت برأسها على كتفه ، كما كانت تفعل منذ سنوات ، عندما كان مرض بث يشقيها ، فيهيب بها لورى أن تعتمد عليه . ونظر لورى إليها وهو يسأل نفسه : أما زالت تذكر تلك الأوقات ؟ ولكن جو كانت تبتسم راضية ، كأنما متاعبها قد اختفت بقدومه . وضحك لورى وقال :

Twitter: @ketab_n

— ما زلت على عهدك يا جو ، تبكين لحظة ، ثم تضحكين بعدها ، المكر واضح فى عينيك الآن ، فما الأمر يا جدتاه ؟

قالت :

— إنى لأتساءل كيف تسير الأحوال بينك وبين آمى ؟

قال :

— كأننا ملائكة !

قالت :

— البداية هكذا دائما ، ولكن أيكما ياترى الحاكم الآمر ؟

قال :

— لا يضيرنى أن أعترف بأنها الحاكمة ، أو هذا على الأقل ما أشعرها به لأسعدها ، ولكن الأوضاع ستتغير بمضى الوقت ، فالزواج — كما يقرلون — يقسم الحقوق ويضاعف الواجبات •

قالت :

— ستبقى الأوضاع على ما بدأت به ، وستحكمك آمى طول حياتك •

قال :

— يسرنى أن تحكمنى دون أن أشعر ، فهى قديرة على سياسة الرجال ، وبوسعها أن تلف الواحد منهم حول إصبعها كخيط من الحرير ، وتجعله يعتقد فى ذات الوقت أنها تكرمه بذلك وتبجله •

Twitter: @ketab_n

فصاحت جو وهى ترفع يديها :

— من كان يظن أن يطول بى العمر حتى أرى رجلا سعيدا بسيطرة زوجتـــه عليه ؟ !

وكان منظرا ممتعا أن فرد لورى كتفيه فى زهو وخيلاء كأنه يقول : « يا أرض ما عليك إلا أنا » !

قال :

— ليس أبغض إلى نفسى من الطغيان ، ولا أظن تربية آمى تسمح بذلك وأنا وزوجتى نتبادل الاحترام بمـــا لا يـــدع سبـــيلا الى العراك أو الاستبداد •

وأعجبت جو بما رأت من اعتداده بنفسه ، واختلط إعجابهـــا على الصبى الذى يتحول بسرعة الى رجل : قالت :

— إنى واثقة بذلك ، ويقينى أن آمى لن تتعارك معك مثلما كنا نفعل أنا وأنـــت ، فهى الشمس المشرقة ، رأنا الريـــاح العاصفة ، والقصص الخرافية تقول إن الشمس المشرقة أقدر على حكم الإنسان •

فضحك لورى وقال :

— قد تشرق الشمس ، وقد تحرق أيضا ! أؤكد لك أن المحاضرة التى ألقتها على فى مدينة نيس ، كانت أقسى من أى تعنيف سمعته منك •• إن لها قدرة عجيبة على الاستثارة ، وسأقص عليك يوما ما قالته اذ ذاك ، ولكنها لن تكرر أقوالها مرة أخرى ، فبعد أن أعلنت احتقارها لشأنى ، عادت فأحبتنى ثم تزوجتنى •

Twitter: @ketab_n

فقالت جو :

— يا للوضاعة ! اذا أساءت اليك مرة أخرى فتعال الىّ لأدافع عنك ! قال :

— كما لو كنت محتاجا الى هذا الدفاع !

وهب واقفا ، وقد انقلب من الصرامة الى المرح ، حين سمع صوت آمى تنادى :

— أين هى ؟ أين عزيزتى جو ؟

ودخل صف « طابور » الأسرة كله ، وابتدأ العناق والتقبيل من جديد ، وبعد عدة محاولات يائسة ، استطاع الرحل الثلاثة أن يجلسوا أمام النظرات الفاحصة : كان مستر لورنس قويا معافى كشأنه دائما ، وأفادته رحلته الى الخارج كما أفادت الآخرين تماما ، فزال عنه تصلبه ، وتهذبت طريقته القديمة فى الحفاوة والترحيب ، وازدادت لهجته رقة وحنانا • وكان جميلا أن يشرق وجه مستر لورنس كلما نظر الى « طفليه » ، كما كان يسمى العروسين الشابين : وكان أجمل من ذلك أن نرى آمى تأسر قلبه بحبها البنوى الخالص • وكان أجمل من كل هذا وذاك أن نرقب لورى وهو يدور حول الأختين ، كأنه لا يمل النظر الى جمالهما •

وحين وقع نظر ميج على آمى ، أدركت لفورها أن الثياب التى ترتديها خالية من الطابع الباريسى الظاهر فى ثياب أختها ، وأن روعة مسز لورنس الشابة ستكسف مسز موفات نهائيا ، وأن العروس الجديدة غاية فى الأناقة والرشاقة • وقالت جو لنفسها وهى ترقب الزوجين :

Twitter: @ketab_n

« ما أجملهما معا ! كنت على حق فى رفضه ، فقد وجـد لورى من تلائمه أناقة وتهذيبا ، وبوسعها أن تحسن ادارة بيته أضعاف جو العجوز الخرقاء ، وتكون مدعاة لفخره لا مجلبة لشقائه • » وابتسمت مسز مارش لزوجها ، وأومأ كل منهما للآخر برأسه ، وقد علت وجهيهما علائم السعادة والبشر ، إذ أدركا أن ابنتهما الصغرى قد فازت كل الفوز ، لا من الناحية المادية ، بل من الناحية المعنوية ، فكسبت بمهارتها ثروة لا تقدر من الحب والثقة والسعادة •

وكان وجه آمى مشرقا بالبشر الذى ينبعث عن قلب عامر بالسلام ، وكان صوتها ناعما عذبا هادئا ، وزالت مسحة الجمود عنها أمام روح الوقار التى زادتها حسنا وجمالا • ولم يكن فى مظهرها أثر للتصنع ، وانسابت تصرفاتها فى حلاوة طبيعية ، أكثر جاذبية من جمالها الجديد ورشاقتها القديمة ، وكان من الواضح أنها أصبحت السيدة الكاملة ، التى كانت تحلم بها طول عمرها •

قالت أمها فى رقة :

ـ لقد غير الحب ابنتنا كثيرا •

وهمس زوجها فى أذنها يقول ، وهو يلقى نظرة على وجهها الذى أنهكته الأيام ، وشعرها الذى بيضته الأحداث :

ـ والفضل لك ، فقد كنت لها مثلا أعلى طول حياتها •••

ووجدت ديزى أنه من المستحيل عليها أن ترفع نظرها عن عمتها الصغيرة ، فتعلقت بها ، وتبعتها أينما سارت مثل جرو صغير ، أما ديمى ، فقد شغل فى بداية الأمر بدراسة هؤلاء الأقارب الجدد ثم أقنع

Twitter: @ketab_n

نفسه بقبول رشوة مغرية ، أحضرتها له عمته من برن • وكانت الرشوة عبارة عن مجموعة من الدببة الخشبية ، لم يستطع ديمى بعدها الا التسليم بلا قيد ولا شرط •

قال العم لورى العملاق ، وهو يهز الطفل يمينا وشمالا ، بطريقة أفسدت وقاره :

— اسمع أيها الرجل الصغير ، حين تشرفت بمعرفتك أول مرة ، لكمتنى فى وجهى ، وأنا الآن أطالبك ، كسيد مهذب ، بالترضية اللازمة •

وقالت حنة :

— فليباركهما الله ! انها تجلس وقد كساها الحرير من رأسها الى قدمها ، أليس جميلا أن نرى آمى تخلب القلوب بحسنها ، ويناديها الناس بمسز لورنس ؟ !

رحمة يا إلهى ! كيف كان يتحدث هؤلاء الناس ؟ يبدأ الواحد ، ويتلوه الثانى ، ثم ينفجرون فى الكلام معا ، ليسردوا تاريخ ثلاث سنوات فى نصف ساعة !!

ولو طال الحديث بهم على هذه الصورة ، لتعبوا وبحت أصواتهم ، ولكن الشاى كان قد أعد فى هذه اللحظة ، فتهيأت لهم فرصة الهدوء •

وانتقل الركب السعيد الى غرفة المائدة ، وقد صحب مستر مارش ابنته العزيزة مسز لورنس ، ومالت مسز مارش على ذراع « ابنها » لورى ، وسار السيد العجوز مع جو وهو يهمس فى أذنها قائلا :

— ستكونين من الآن ابنتى •

Twitter: @ketab_n

وألقت جو نظرة سريعة على الركن الخالى بجانب المدفأة وهمست بشفتين مرتجفتين :

— سأحاول أن أملأ مكانها يا سيدى •

وسار التوأمان خلف الصفوف ، يمرحان فى غفلة من الجمع • وانتهزا فرصة انشغال أفراد الأسرة بتحية الضيفين ، فأعملا أسنانهما فى الفطائر دون حرج ، ثم حشوا جيوبهما بما تبقى من فطائر الزنجبيل والبسكويت الساخن ، التى لم تلبث أن تفتتت وعلقت حلواها بملابسهما • وأثقل عليهما تأنيب الضمير : لما ارتكبا من خطايا ، وخافا أن تكشف عيون « بابا » حجب القماش الرقيق الذى يخفى غنائمهما ، فلاذا بحمى جدهما : مطمئنين الى أنه يجلس بلا نظارتيه ••

وعادت آمى ، التى كانت تتناقلها الأيدى كالمرطبات ، الى حجرة الاستقبال مستندة الى ذراع الجد لورنس ، وسار الباقون مثنى مثنى كما دخلوا حجرة المائدة ، وبذلك الترتيب بقيت جو بلا رفيق ، ولكنها لم تشعر بوحدتها ، لأنها كانت فى شغل مع حنة تحدثها عن أسئلتها ، قالت حنة :

— ترى هل تركب آمى العربة المقفلة ؟ وهل تستعمل الصحون الفضية المخزونة فى القصر ؟

أجابت جو راضية :

— لن يدهشنى أن تركب عربة يجرها ستة جياد بيضاء ، ولا أن تستعمل صحونا ذهبية ، ولا أن تلبس الدنتلا أو تتحلى بالماس ، فلا يمكن أن يبخل عليها تيدى بشىء •

Twitter: @ketab_n

قالت حنة :

— جميل ! وعلى فكرة ، ماذا ستأكلون فى الافطار ، لحما أم سمكا ؟

ولم تر جو أن الوقت مناسب للمناقشة فى مثل هذه الأمور ، فقالت وهى تقفل الباب :

— الأمر يستوى عندى •

ووقفت جو تتأمل الجماعة وهم يختفون فى أعلى السلم ، وما ان غادرت قدما ديمى آخر درجة أمامها ، حتى غلبها شعور مفاجىء بالوحدة • وكان شعورا طاغيا ، جعلها تتلفت حولها بعيون غائمة ، وكأنما تبحث عن شىء تستند اليه ، فقد تركها الجميع حتى تيدى • ولو علمت ما يعده لها الغيب فى عيد الميلاد ، ما قالت تحدث نفسها :

— سأذرف دموعى الحارة حين أذهب الى فراشى ، أما الآن فلا يليق بى أن أكتئب •

ووضعت يديها على عينيها ، فهى ، كعادتها الصبيانية ، لا تعرف أبدا مكان منديلها • وفيما هى تحاول أن تبتسم ، إذ دق الباب الخارجى •

وأسرعت تفتح الباب فى حفاوة ، ولكنها ما كادت تفتحه ، حتى روعت كأنما رأت شبحا يفاجئها بمقدمه • كان بالباب سيد فارع الطول يبتسم لها فى الظلام كشمس تشرق فى منتصف الليل ! وصاحت جو وهى تتشبث به ، كأنما تخشى أن يعود الظلام فيبتلعه ، قبل أن تتمكن من ادخاله الى البيت :

Twitter: @ketab_n

— أوه ! أهذا أنت يا مستر باير ؟ انى مسرورة جدا برؤيتك !

قال الأستاذ ، وقد توقف قليلا حين سمع ضجيج الأصوات ، ووقع أقدام الراقصين :

— وأنا مسرور جدا برؤية مس مارش • ولكن ، لا ، ان لديكم حفلة !

قالت :

— لا ، انها الأسرة فقط ، فقد عادت أختى وبعض الأصدقاء من الخارج ، ونحن جميعا سعداء ، فتعال وانضم الينا كواحد منا •

وكان مستر باير رجلا اجتماعيا يعرف أصول المجاملة ، ويعرف أن اللياقة تقتضيه الانسحاب الى يوم آخر ، ولكن ماذا يفعل بعد أن أغلقت جو الباب وأخذت منه قبعته ؟ وأغلب الظن أنه بقى بتأثير السرور الذى بدا واضحا على وجه جو ، وتحيتها التى فاقت فى حرارتها ما كان يتوقع •

قال :

— يسرنى أن أراهم جميعا ، اذا لم يكن فى وجودى معكم أى ازعاج •

وعندما سقط النور على وجهها وهى تعلق معطفه ، لم تفت عينيه التغييرات التى أصابتها ، قال :

— أكنت مريضة يا صديقتى ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

— بل كنت حزينة متعبة ، فقد مرت بنا أحداث كثيرة منذ رأيتك آخر مرة •

قال :

— أعرف بما حدث ، وحزنت من أجلك حين سمعت بالأنباء •

وعاد يصافحها من جديد ، بوجه ينم عن عطفه عليها : وبالغ مشاركته الوجدانية فى أحزانها ، وأحست جو ، وهو يصافحها ، أن شعوره أفضل بلسم لآلامها ، ولا شىء فى دنياها يعدل نظرته الحانية التى أدخلت السكينة على نفسها •

واصطحبت جو صديقها مستر باير الى الجماعة ، وقالت فى زهو ، وكأنها تريد أن تقدم صديقها لأسرتها بين دق الطبول :

— أبى ، أمى ، هذا صديقى الأستاذ باير •

واذا كان القادم الغريب قد ساورته الوساوس حول استقباله . فقد زالت هواجسه فى اللحظة التى دخل فيها على الأسرة • إذ حياه كل فرد برقة زائدة من أجل جو ، واكراما لشخصه كذلك • ولم يمض على وجوده وقت طويل حتى أحبوه جميعهم ، ولا فضل لهم ، فقد كان مستر باير يحمل معه ذلك الطلسم الذى تنفتح له القلوب مطمئنة • • واستطاع الأستاذ أن يدفىء القلوب التى استقبلته بالمحبة ، وازدادت مكانته فى تقديرهم لفقره ، فالفقر يغنى النفوس التى تعيش فيه بالود والعطف والمحبة •

Twitter: @ketab_n

وجلس مستر باير وسط الأسرة يتطلع حوله ، وعلى وجهه سمات السائح الرحالة الذى يدق بابا غريبا ، فاذا انفتح وجد نفسه وسط أهله وأصحابه • وانجذب الطفلان نحوه كما ينجذب النحل الى العسل ، وجلس كل منهما على احدى ركبتيه ، وبدءا يعبثان فى جيوبه ويشدان لحيته ، ويفحصان ساعته الضخمة فى جرأة الطفولة • وتبادلت السيدات نظرات الرضا ، وفتح مستر مارش خزانة معارفه المختارة ، وقد أحس أنه وقع على روح تآلفت مع روحه ، وقبع جون صامتا يستمع الى ما يدور من أحاديث ويستمتع بها ، كما وجد مستر لورنس العجوز أنه من المستحيل أن يترك هذا الحديث الشائق ليذهب الى فراشه •

ولو لم تكن جو مشغولة بأشياء أخرى ، لوجدت فى مسلك لورى ما يسليها ، فقد أحس بألم خفيف يحز فى صدره ، كان ألم الشك لا الغيرة ، فراح يرقب الأستاذ من بعيد فى تحفظ واحتراس • ولم يدم الشك طويلا ، فقد أثار الرجل اهتمامه بالرغم عنه ، ووجد نفسه مسوقا الى الاشتراك مع من يستمعون بحديث مستر باير الساحر ، ولم يتوجه الأستاذ اليه بالكلام ولكنه كان يلقى اليه نظرة ثم يعود الى حديثه ، وقد اكتسى وجهه بالأسف على ضياع شبابه ، ثم ينقل بصره من لورى الى جو فى انتباه زائد ، لعلها ترد على نظراته بما يريح فؤاده الحائر • وكان حريا بجو أن تجيب على نظراته هذه بما يريح قلبه ، ولكنها كانت مشغولة عنه بالسيطرة على نفسها هى ، خشية أن يستشف الجالسون حقيقة شعورها ، فحنت رأسها على جورب صغير ترفوه ، وركزت اهتمامها فيه ، حتى لا تنم عيونها عما يعتلج فى قلبها • وبين آن وآخر تختلس اليه نظرة تنعش فؤادها ، مثلما ينعش الماء التائه فى الصحارى والقفار • وكشفت لها نظراتها المختلسة عن بشائر

Twitter: @ketab_n

مطمئنة ، فقد كان مستر باير غاية فى اليقظة والانتباه ، بعد أن زايله شروده القديم ، وبدا سعيدا بوجوده معها ، مهتما بما يدور حوله ، أما وجهه فكان وسيما بحرارة الشباب المتفجر • وانساب الرجل فى حديثه ، فانتقل الى وصف العوائد الجنائزية عند القدماء ، وهو موضوع لا يمكن أن يوصف بالمبهج ، وانتفخت أوداج جو زهوا وخيلاء لما غلب لورى على أمره فى نقاش بينه وبين الأستاذ باير ، وقالت تحدث نفسها وهى تنظر الى وجه أبيها الذى استغرق فى الحديث : « ترى ماذا يقول أبى فى ابقاء هذا الرجل معه دائما ؟ »

وكان باير يرتدى حلة سوداء جديدة ، بدا فيها سيدا فاضلا بمعنى الكلمة ، وكان شعره ، الأشعث عادة ، مقصوصا ممشطا مرتبا ، ولكنه لم يبق على هذا الحال طويلا ، إذ راح كعادته يشد خصلاته إذا حمى وطيس المناقشة ، فلم تمض لحظة إلا ووقفت خصلة من الخصلات فى وسط رأسه ، وكانت جو تفضل شكله بخصلته الناشزة ، لأنها تضفى على جبهته مزيدا من الوقار • ولم تكتف المسكينة بالاعجاب فقط . وانما راحت تعظم من شأنه ، وترقبه فى هدوء فلا يفوتها شىء ، حتى أزرار قميصه الذهبية ، وقالت لنفسها وهى ترمقه فى تقدير :

— يا للصديق العزيز ! لقد بالغ فى تأنقه كأنه ذاهب لعقد خطبته !

وبعث هذا الخاطر فى رأسها فكرة مفاجئة تخضب لها وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت يدها حتى سقطت بكرة الخيط منها • فانحنت تلتقطها راجية أن تخفى بذلك مشاعرها عن الجالسين • ولكن المناورة لم تنجح كما كانت تأمل ، فما ان رأى الأستاذ البكرة تسقط ، وكان منهمكا فى وصف كيفية اشعال النيران فى بعض الشعائر الجنائزية ،

Twitter: @ketab_n

حتى ترك النار والجنازة ، وقفز وراء كرة الخيط الزرقاء ، فاصطدمت رأسها برأسه صدمة شديدة ، واستقام كلاهما بعدها مغرقا فى الضحك ، ولكنه خجل لما بدر منه ، فعاد الى جلسته نادما ، ولم ينقذ البكرة ..

ومضى الوقت سريعا ولا من يشعر بمضيه ، فقد هدأت الجلسة بعد أن انصرفت حنة بالطفلين الى فراشهما ، واستأذن مستر لورنس فى العودة الى بيته ، واجتمع الباقون حول النار يتسامرون ويتحدثون ، حتى قامت ميج تنشد العودة الى بيتها خشية أن تكون ديزى قد سقطت من سريرها ، أو أن يكون ديمى قد أحرق قميص نومه وهو يعالج تركيب عيدان الثقاب .

قالت جو وقد أغراها المرح بالغناء :

ـ فلننشد أغنيتنا المعهودة بطريقتنا القديمة ، احتفالا باجتماعنا كاملين مرة ثانية .

ولم يكن عددهم كاملا فى الواقع ، ولكن أحدا لم ير فى كلامها تجنيا على الحقيقة ، لأن بث وان غابت بجسدها ، فروحها حاضرة تنشر السلام والمحبة ، والموت لا يستطيع أن يفرق أسرة وثق الحب العميق عراها : كان الكرسى الصغير مازال فى مكانه القديم ، وسلة التطريز تقبع حيث تركتها يد صاحبتها على الرف المعتاد حين ثقلت الابرة على أصابعها ، والمعزف الذى قل أن يمسه أحد ، لم يتحرك من موضعه ، وفوقه صورة بث فى أيامها الأولى ، تطل عليهم بوجهها الباسم الهادىء : وكأنها تدعوهم قائلة :

« كونوا سعداء فهأنذا دائما معكم » .

Twitter: @ketab_n

وقال لورى يدعو زوجته فخورا بتلميذته النابهة :

— اعزفى لهم يا آمى ، وأريهم كيف تقدمت فى الموسيقى •

فهمست آمى ، وعيونها مغرورقة بالدموع :

— لا ، ليس الليلة يا عزيزى ••

ولكنها فى تلك الليلة بالذات كشفت عن شىء أكثر من النبوغ والمهارة ، فقد غنت أغنيات بث بصوت عذب رقيق ، لا يستطيع أن يلقنه أمهر الأساتذة ، ومست برخامة صوتها قلوب سامعيها ، واستحوذت على مشاعرهم بقوة تفوق أى الهام • وكانت الغرفة هادئة يسودها الصمت حين وصلت الى البيت الأخير من الأغنية ، فخفضت صوتها وهى تقول فى حزن بالغ :

« ليس فى الأرض حزن لا تستطيع السماء أن تشفيه » •

ومالت آمى برأسها تسنده الى صدر زوجها الواقف خلفها ، وقد أحست بأن سعادة الاستقبال والعودة تنقصها قبلة من بث •

وبادرت جو تقول بسرعة ، لتنقذ الموقف قبل أن يتحول الصمت الى حزن مؤلم :

— لنختم الليلة بأغنية « مينيون » ، فمستر باير يجيد غناءها •

وتنحنح مستر باير واستعد للغناء ، بعد أن تقدم الى الركن الذى وقفت فيه جو ، ثم قال لها :

— شاركينى فى الغناء ، فنحن ننسجم معا انسجاما رائعا •

Twitter: @ketab_n

وكان فى قوله هذا خيال كبير ، فجو لا تعرف من الموسيقى أكثر مما تعرفه جرادة هائمة ، ولم تكن لتتردد فى تلبية رجاء أستاذها ، ولو طلب منها أن تغنى أوبرا كاملة .

وبدأت تردد معه الأغنية فى سرور ، بغض النظر عما أصاب النغم . لم يكن للنشاز أهمية ، فقد كان مستر باير يغنى بحماسة الألمانى القح فى اتقان زائد ، مما جعلها تقنع من الغناء بالهمهمة ، راضية بالانصات الى صوته الشجى ، الذى بدا كأنه ينشد لها وحدها ويقول :

« أتعرفين هذه البلاد ، حيث تنمو أشجار الليمون وتزدهر ! »

وكان هذا البيت أحب ما فى الأغنية الى نفس الأستاذ ، فهذه البلاد تعنى عنده ألمانيا ، ولكنه تحول باهتمامه وحماسته الى الأبيات التى تقول :

« هناك .. نعم هناك سنذهب معا

أنا وأنت يا معبودتى » .

واغتبط قلبها وهى تصغى لدعوته العاطفية ، وكان بودها لو استطاعت أن تقول له انها تعرف هذا المكان ، وليس أحب اليها من أن تذهب اليه معه .

ولاقت الأغنية من الحاضرين اعجابا شاملا ، ولكن لم تمض لحظات بعد ذلك حتى حدث ما جعل الأستاذ ينسى آداب السلوك كلية ويتصرف تصرفا أرعن .. كانت جو قد قدمت له آمى بقولها « هذه أختى » ، وطوال السهرة لم ينادها أحد باسمها الجديد ، فلما

Twitter: @ketab_n

قامت تضع قبعتها على رأسها ، نهض لورى الى مستر باير يودعه ويقول :

— لقد سررت أنا وزوجتى بلقائك يا سيدى ، وأرجوك أن تذكر أننا نرحب دائما بلقائك .

واذ ذاك نسى الأستاذ نفسه وراح يحملق فى آمى وهى تضع قبعتها ، وطغت عليه الغبطة فراح يبالغ فى شكر لورى على دعوته ، حتى ظن الفتى أن الأستاذ أظرف شخصية قابلها فى حياته . ثم قال الأستاذ يحدث مسز مارش ، وان كان ينظر الى جو :

— وأنا أيضا أستأذن فى الذهاب يا سيدتى ، ولكن يسرنى أن أعود لزيارتكم ثانية ، إذا سمحتم ، فبعض الأعمال الصغيرة تستلزم بقائى أياما فى هذه المدينة .

ولم تكن مسز مارش لتغمض عينيها عن مصالح بناتها — كما قالت مسز موفات فى يوم من الأيام — فأجابت على قوله بمنتهى الترحيب .

قال مستر مارش بعد انصراف الضيوف ، وكان لا يزال فى موقفه أمام المدفأة :

— أعتقد أنه رجل حكيم عاقل .

وقالت مسز مارش وهى تملأ الساعة :

— لا شك أنه رجل طيب .

واكتفت جو بأن تقول وهى تنسحب الى غرفة نومها :

— أعتقد أنكم ستحبونه .

Twitter: @ketab_n

وراحت تسائل نفسها فى عجب عما جاء بمستر باير الى المدينة ، وأخيرا ، خيل اليها أنه جاء لحضور حفل تكريم يقام خصيصا من أجله ، ولكن تواضعه يجعله يخفى هذه الحقيقة • ولو أنها رأت ما ارتسم على وجهه من تعابير ، حين أوى الى حجرته ، ووقف ينظر الى صورة فتاة صارمة الملامح ، ذات شعر كثيف منسدل ، تتطلع عيناها الى المستقبل الغامض لعرفت نوع المهمة التى جاء من أجلها الى المدينة •

ولو أنها رأته وهو يطفىء المصباح ، ثم يقبل تلك الصورة فى الظلام ، لتأكد لها ذلك بصورة قاطعة •

Twitter: @ketab_n

الفصـل الرابع والأربعـون

مـولاى ومـولاتى

دخل لورى فى اليوم التالى بيت آل مارش ، فوجـد مسز مارش وقد أجلست مسـز لورنس على حجـرها ، كأنما عـادت هذه طفـلة صغيرة ، فقال :

ــ أتسمحين لى يا سـيدتى الأم أن أسـتعير منك زوجتى لمـدة نصف ساعة ، فقد وصل متاعنا ، وكدت أفسـد أدوات الزينة الباريسية فى بحثى عن بعض أشياء أريدها ؟

قالت مسز مارش وهى تضغط على اليـد البيضـاء التى ازدانت بخاتم الزواج ، وكأنها تعتذر عن استحواذها لها :

ــ بالتأكيد • اذهبى يا عزيزتى ، لقـد نسيت أن لكما بيتا غـير هـذا •

قال :

ــ ما كنت أطلبها لولا حاجتى اليها • • اننى لا أستطيع أن أفعل شيئا دون معونة زوجتى الصغيرة ، وبغيرها أشعر كأننى •• كأننى ••

وتوقف يبحث عن التشبيه المناسب ، فقالت جو ، وقد استعادت سلاطة لسانها ، منذ عاد لورى الى الوطن :

ــ كأنك دوارة رياح • • بلا رياح !

Twitter: @ketab_n

قال :

— بالضبط • فآمى تجعلنى أشير دائما الى الغـرب مع الهتة الى الجنوب بين آن وآخـر ، ولم أتجه نحو الشرق منذ تزوجت ، ولا أكاد أعرف شيئا عن الشمال ولكنى دائما فى جو صحو معطر • • أليس كذلك يا سيدتى ؟

قالت آمى بلهجة الأمومة المحببة الى اورى :

— الطقس غاية فى الجمال الآن ، ولست أدرى الى متى يستمر كذلك ! ولكنى لا أخشى العواصف ، فقـد تعلمت كيف أسـير سفينتى فيها • هيا بنا الى البيت يا عزيزى ، لأجد لك ما كنت تبحث عنه فى متاعى ، وأظن أنه « لبيسة » الأحذية • ان الرجـال قليـلو الحيـلة يا أماه !

وقالت جو وهى تزر معطف آمى كمـا كانت تزر لهـا مرولتها فى الماضى :

— ماذا تفعلان حين يستقر بكما المقام ؟

قال لورى :

— لدينا خطط كثيرة نفضل أن نبقيها الآن فى طى الكتمان • مازلنا جددا فى وظيفتنا ، نكره اضاعة الوقت فى الخمول والكسل ، وفى نيتى أن أشغل نفسى بعمل يسعد جدى ، ويثبت له أننى لست مدللا • لقـد سئمت الثرثرة ، ولى رغبة فى أن أشتغل كرجل كامل الرجـولة ، وأظننى فى حاجة الى عمل جدى يحفظ وقارى •

قالت مسز مارش ، وقد أعجبت بقرار لورى وعزيمته :

— وآمى ؟ ماذا فى نيتها أن تصنع بنفسها ؟

أجاب لـــورى :

— بعد أن ننتهى من واجب المجامـلات ونستريح بعض الوقت ، سندهشكم بما نقدمه فى القصر من كرم الضيافة ، وبمن ندعو من كرام القوم ، ستجدون ما يرضيكم من نشاط طيب فى عالمنـا كله • هـذه مشروعات آمى المستقبلة • أليس كذلك يا مدام ريكاميه ؟

قالت آمى ، وفى نيتها أن تكون أصلح الزوجات ، قبـل أن تفتح صالونها كملكة للمجتمع :

— دع الأمر للأيام ، وكفاك قحة أمام أسرتى ، فهيا بنا ننصرف •

قال مستر مارش بعد أن خرج الزوجان وقد عجز عن تركيز ذهنه فى كتب أرسطوطاليس :

— ما أسعد الطفلين معا ! !

قالت زوجته ، بلهجة الربان الذى قاد سفينته الى شاطىء الأمان سالمة :

— نعم انهما سعيدان ، وستدوم سعادتهما على ما أعتقد •

وقالت جو وهى تتنهد :

— وأنا واثقة بذلك • والله ، ما أسعدك يا آمى !

وأشرق وجهها حين رأت الأستاذ باير يدفـع البوابـة فيفتحهـا متعجـلا •

Twitter: @ketab_n

وفى المساء ، بعد أن أخذ لورى قسطه من الراحة ، وعثرت لـه زوجته على ما كان يبحث عنه ، قال لها وهى غارقة فى تنسيق كنوزهـا الغنيـة الجـديدة :

ــ مسز لورنس !

أجابت :

ــ مولاى !

قال :

ــ أيتزوج ذلك الرجل من جو ؟

قالت :

ــ ألست تتمنى معى أن يحدث ذلك ؟

قال :

ــ نعم يا حبيبتى ، فهو رجل فذ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكنى كنت أفضـل لو كان أنضر شبابا ، وأكثر مالا .

قالت :

ــ لا تكن ماديا الى هذا الحـد يا لورى ، فالحب لا يعترف بعمر أو ثروة ، ومن الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المـال .

وأمسكت آمى لسانها بعد أن أفلتت هذه الكلمات منها ، ونظرت الى زوجها متطلعة ، فأجابها بخبث :

Twitter: @ketab_n

— مؤكد •• من الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال وحده ، وان كنا نسمع من بعض الفتيات الرشيقات غير ذلك ، فقد جاهرت مرة — على ما أذكر — برغبتك فى الزواج من ثرى ، ولعل ذلك كان السبب فى زواجك من رجل مثلى لا يصلح لشىء •

قالت :

— لا تظن ذلك يا عزيزى ، فأنا لم أفكر فى ثرائك حين قبلتك زوجا ، وما كنت لأتردد لو كنت معدما •• وانى لأتمناك فقيرا فى بعض الأحيان ، حتى أثبت لك اخلاص عاطفتى •

وفى خلوة الحب هذه ، قدمت له آمى التى يعرفها الناس وقورة ، أدلة مقنعة على صدق كلامها • ثم أردفت تقول :

— لا أظنك تعتقد حقًا أننى المرأة المادية التى كنت أريدها فيما مضى ، فإنه ليتعسنى أن تتصورنى طامعة فى مالك •• فالله يعلم أننى ما تزوجتك إلا لأضع مصيرى بين يديك ، وأقاسمك حياة سعيدة ، وما كان لينتقص من حبى أن تكون معدما تكسب قوتنا من التجذيف على سطح البحيرة •

قال :

— أأبله أنا أم أحمق ليجول بخاطرى مثل هذا الظن ، بعد أن رفضت الزواج من رجل أغنى منى ، ثم منعتنى من أن أعطيك نصف ما أحب أن أمنحك من هدايا ؟ إن المسكينات يتزوجن من أجل المال كل يوم ، كسبيل الى الخلاص من همومهن ، ولكنك ذات خبرة وتجربة ، وليست حقائق الحياة خافية عليك • وأعترف بأننى خفت عليك فى وقت

Twitter: @ketab_n

من الأوقات ، ثم لم ألبث أن أطمأننت الى حكمتك وعقلك ، ولا غرابة فالبنت سر أمها . لقد صارحت ماما برأيى هذا أمس ، فأشرق وجهها بالبشر ، كأنما أعطيتها صكًا بمليون من الجنيهات لتصرفها فى أوجه البر .

وتوقف لورى عن الحديث لحظة عندما رأى عينى آمى تنظران إليه فى شرود تام ، ثم قال :

— إنك لا تتبعين موعظتى الأخلاقية يا مسز لورنس !

قالت :

— إنى أتتبع حديثك وفى ذات الوقت أتأمل بإعجاب طابع الحسن الذى يزين ذقنك . لا أريد أن أثير خيلاءك وغرورك ، ولكنى أعترف أنى فخورة بوسامة زوجى أكثر مما أنا فخورة بثرائه .

ثم ربتت على أنفه الجميل ملاطفة ، وقالت بابتهاج :

— لا تضحك منى ، فأنفك يبعث الراحة الى نفسى .

وكان لورى معتادا على سماع عبارات الإطراء ، ولكن عبارة مما سمعها لم تبلغ من نفسه ما قالته آمى ، فبان عليه الفرح بوضوح رغم أنه ضحك من مزاح زوجته الغريب :

قالت آمى فى بطء :

— أتسمح بأن أسألك سؤالا واحدا يا عزيزى ؟

قال :

— طبعا ، سلى ما شئت !

Twitter: @ketab_n

قالت :

ــ هل يضايقك أن تتزوج جو من مستر باير ؟

قال :

ــ أهذا كل ما يقلقك ؟ ظننت أن فى طابع الحسن شيئا لا يروقك ! تأكدى أننى سأكون أسعد مخلوق بزواجها منه ، وسأرقص يوم زفافها بقلب يفيض طربا وابتهاجا ، فهل يكفيك هذا أم لديك سؤال آخر ؟

وكانت آمى ترقبه وهو يتكلم ، فاطمأنت نفسها ، وتبخرت مخاوفها ، وانقشعت عن قلبها ظلال الغيرة الى الأبد • قالت بمنتهى الحب والثقة :

ــ ليتنا نفعل شيئا لهذا الأستاذ العجوز العظيم ! ألا نستطيع أن نخلق له قريبا غنيًا مات فى ألمانيا عن ثروة صغيرة يرثها ؟

وتأبط لورى ذراع آمى ، وسار الاثنان فى الغرفة جيئة وذهابا ، وهى طريقة لقطع الوقت أغرما بها لما فيها من تذكرة بالساعات الهنيئة التى قضياها معا فى حديقة القصر بفيفاى •

قالت آمى :

ــ ستكتشف جو أمرنا وتفسد حيلتنا ، فهى فخورة برجلها كما هو ، وقد سمعتها أمس تشيد بجمال الفقر •

قال :

ــ فليبارك الله قلبها الطاهر ! قد تغير رأيها فى الفقــر حين يتحتم عليها أن تعول زوجا أديبا وذرية كبيرة من صغار الأدبــاء والأديبات !

Twitter: @ketab_n

الأفضل ألا نتدخل حتى تحين الفرصة الملائمة ، فنتقدم لهما المعونة وغما عنهما . إنى مدين لجو بجزء كبير من ثقافتى وهى تؤمن بضرورة وفاء الديون ، وبهذه الحجة أستطيع أن أتغلب عليها .

قالت :

— أجمل ما فى الحياة أن يسعد الإنسان نفسه بمساعدة الآخرين ! كنت دائما أتمنى أن يكون لى من القوة ما يمكننى من إعطاء غيرى بسخاء وبفضلك تحققت أمنيتى : فشكرا لك .

قال :

— سنحقق معا خيرا كثيرا . فهناك نوع خاص من الفقر أحرص كل الحرص على مساعدته ، لأنه يختلف عن فقر المتسولين الذين يلقون بعبئهم على المحسنين ! فالأسر الطيبة التى أخنى الدهر عليها ، لا تجد من يعينها ، لأنها لا تطلب إحسانا ، والناس عادة لا يجرؤون على مساعدتها محافظة منهم على كرامتها ! فى حين أنه توجد ألف طريقة وطريقة تفى بالغرض ولا تجرح الشعور أو تمس الكبرياء . وأؤكد لك أنى أفضل معونة سيد محترم أخنى عليه الدهر على معونة متسول محترف ، وقد أكون مخطئا فى ذلك ، ولكن هذا ما أفعله على ما فيه من مشقة .

قالت آمى فى إعجاب :

— هذا خلق الرجل الكريم ، ولا يتحلى به إلا كريم مثلك .

قال :

— أشكرك ، وإن كنت لا أستحق هذا الثناء كله .. كدت أنفى

Twitter: @ketab_n

إليك بهذه الآراء ونحن في خارج ، فقد قابلت شبانا موهوبين يقومون بتضحيات جسيمة ، ويتحملون مشقات كبيرة في سبيل تحقيق آمالهم .. كانوا شبانا رائعين لا مال لديهم ولا أصدقاء . ومع ذلك يكافحون كالأبطال بصبر وشجاعة وطموح ، فخجلت من حالى ، وتمنيت لو أمكننى أن أقوم بنفسى بمساعدتهم لأنهم إذا كانوا على عبقرية حقة ، نالنى شرف إظهارها ، بدل أن تموت وتفنى فى أحضان الجوع والعرى .. وإذا لم يكونوا على ما يرجون من نبوغ ، فكفانى أن أخفف عنهم وقع الحقيقة حين يكتشفونها .

قالت آمى :

— هذا صحيح ، وهناك فئة أخرى لا تستطيع أن تمد يدها بالسؤال ، فتتعذب فى صمت . إنى أعرف كثيرا عن هذه الفئة ، لأنى كنت أنتسب إليها قبل أن تجعلنى أميرة ، كما فعل الملك بخادمته فى القصة القديمة . الفتيات الطموحات يتعذبن يا لورى ، وكثيرا ما يخسرن الشباب والصحة والفرص ، لحرمانهن من معونة صغيرة فى الوقت المناسب . ولكنى كنت أحسن حالا من غيرى ، بفضل عطف الناس علىّ ، وحنانهم بى ، لذلك كلما رأيت فتيات يجاهدن مثلما كنا نجاهد ، أشعر برغبة فى مساعدتهن كما سوعدت فى جهادى .

واستقر رأيه فى هذه اللحظة على إنشاء مؤسسة لمعونة الفتيات الموهوبات فى الفن ، فصاح وهو يلتهب حماسة الى عمل الخير ، قال .

— ستكونين لهم ملك الرحمة ، يا ملك الرحمة ، فليس من حق الأغنياء أن يقبعوا فى أعقار دورهم ، قانعين من الجهاد بجمع المال ، ليبدده من بعدهم أولاد عابثون ، أجمل بالإنسان أن يستغل ماله فى النفع

وهو حى ، ويستمتع بإسعاد غيره من الناس . فانها رسالة تستحق أن يعيش الغنى من أجلها .. سوف نسعد بحياتنا إن شاء الله ، ونضيف الى متعنا لذة إشراك غيرنا فيها بأنصبة سخية . فهل لك أن تكونى كالإلهة الإغريق الصغيرة التى تجوب البلاد ، لتفرغ سلتها المليئة بالسعادة والراحة ، وتعود بها عامرة بالأعمال الصالحة ؟

قالت :

– بكل سرور . إذا أنت تشبهت بالقديس مارتن ، فرحت تقف عند كل محلة تمر بها فى رحلتك حول العالم ، لتدفىء الفقير والمحروم بعباءتك .

– اتفقنا ، والكسب لنا !

وتصافح الزوجان الشابان تأكيدا لاتفاقهما ، ثم استأنفا سيرهما . جيئة وذهابا فى سعادة بالغة ، وقد شعرا بأن بيتهما ازداد نورا بما سوف يضفيان من نور على بيوت الآخرين ، وأن طريقهما قد ازدهر واتسع بجهودهما فى تعبيد طريق المحتاجين ، وأن قلبيهما قد ارتبطا الى الأبد بذلك الحب السمح الذى لا تغفل عينه الخيرة عمن حرموا من مثل نصيبهما فى الحياة .

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والأربعون

ديزى وديمى

لن أشعر ، كمؤرخة متواضعة لأسرة مارش ، أننى أديت واجبى على أكمله ، ما لم أخصص فصلا على الأقل لأهم وأعز عضوين فى الأسرة ، فقد بلغ ديمى وديزى سن الفهم والإدراك الآن ، وفى عصر السرعة الذى نعيش فيه ، يثبت أبناء الثالثة أو الرابعة حقوقهم ، وينالونها أكثر مما يفعل الكبار .

إذا كان هناك توءمان تعرضا لخطر التدليل ، نتيجة لحب الوالدين المفرط ، فهما توءما بروك الصغيران . كانا بالتأكيد أعجب طفلين فى الوجود ! فقد مشيا فى الشهر الثامن من عمرهما ، وتكلما بطلاقة فى تمام العام ، وفى العام التالى جلسا الى مائدة الطعام ، وأحسنا فيها التصرف بشكل أدهش الناس ! وفى الثالثة طلبت ديزى إبرة ، وحاكت حقيبة بثلاث غرزات فقط ، ثم اهتمت بتنظيم شئون البيت وترتيب خزانة الطعام ، واستخدمت موقدا صغيرا للطهو بمهارة أثارت دموع الفرح والفخر فى عينى حنة ! وفى الوقت نفسه تعلم ديمى الحروف الأبجدية من جده الذى ابتكر له طريقة لحفظها بذراعية وساقية ، وهكذا جمع بين العلم ورياضة الرأس والرجلين ! وأبدى الطفل منذ حداثته ، نبوغا فى الميكانيكا سر له والده وقلقت أمه ، فقد راح يقلد كل آلة يراها ، مما جعل حجرة الأطفال فى حالة يرثى لها ! قلد ماكينة الخياطة مرة بمجموعة عجيبة من الخيوط والكراسى والدبابيس ، واستعاض عن العجل ببكرات تدور عليها الماكينات ! ومرة علق سلة خلف كرسى كبير ، وحاول أن يضع فيها أخته المطيعة المجاملة ، فلم تسفر التجربة إلا عن حشر رأسها فى السلة ،

Twitter: @ketab_n

وبقيت على هذا الحال حتى وجدت المسكينة من ينقذها من مخترعاتـه ، وعندئذ صاح يقول محتجا : « وماذا جرى ؟ هذا دلو أريد أن أرفعها من البئر » .

ورغم أختلاف شخصيتى التوءمين ، فقد توافقا معا بشكل واضح ، وقلما كانا يتشاجران أكثر من ثلاث مرات فى اليوم الواحد . وكان ديمى يتحكم فى ديزى طبعا ، ولكنه كان يـرد عنها اعتـداء الآخرين بمنتهى الشهامة ، وقبلت ديزى أن تكون له مطيعة تعمل بأوامـره وتوجيهاته ، ولكنها كانت تحبه وتعتبره أكمل مخلوق على وجه الأرض . وكانت ديزى ذات خدين ممتلئين موردين ، وكانت تعرف كيف تجتذب القلوب ، وتتربع على عروشها ، فأحبها الناس وتعلقوا بها . وكانت كإلهة صغيرة تستهوى الأنظار بجمالها ، وتوحى بالرغبة فى تدليها وتقبيلها ، ولولا بعض الشيطنة التى تربطها بالبشر أحيانا ، لرفعتها فضائلها الحلوة الى مرتبة الملائكة ، كانت ترى الدنيا صحوا دائما ، فتتسلق النافذة كل صباح ، وهى ما زالت فى قميص نومها ، وسيان سطعت الشمس أم هطلت الأمطار تقول : « إنه يوم جميل ، جميل جدا » . وكان من عادتها أن تهدى الأغراب قبلاتها بسخاء ، فيلين بطيب معشرها أشد القلوب صلابـة ، وتجعل من محبى الأطفال عبادا مخلصين .

وقد قالت ذات مرة ، وهى تفتح ذراعيها ، وفى إحدى يديها ملعقة وفى الأخرى كوب :

ـ أنا أحب الناس كلهم .

وكأنما كانت تريد أن تضم العالم الى صـدرها وتشرك أهله على طعامها .

Twitter: @ketab_n

وكلما كبرت ديزى ، ازدادت أمها شعورا بالبركة التى تطرد فى « عش الحمائم » بوجود هذه الابنة الهادئة اللطيفة ، وما تسبغه بروحها الحلوة من سعادة على البيت الصغير العتيق . فتتوجه بقلبها الى الله ضارعة ألا يريها مكروها فيها . كما حدث لملاكهم بث . وكان جدها يناديها دائما « ببث » وجدتها تدللها بعطفها الزائد . كأنها تريد بذلك أن تكفر عن خطأ قديم لا يعرف بسره سواها .

أما ديمى فكان طفلا أمريكيا بمعنى الكلمة : كثير الأسئلة . محبا للاستطلاع ، يريد أن يعرف كل شىء ، يضايقه ألا يحصل على أجوبة مرضية للأسئلة التى لا تخلو من كلمة « ولماذا هذا » ؟

وكان له أيضا اتجاه فلسفى أدخل سرورا عظيما على قلب جده ، الذى اعتاد أن يقضى معه وقتا طويلا فى جلسات سقراطية ، يتصرف الطفل فيها تصرفات تثير إعجاب نساء العائلة !

دخل ذات ليلة الى فراشه لينام ، وراح يتأمل ساقيه تحركانه ، ثم جعل يفكر تفكيرا عميقا ، وأخيرا قال يسأل جده :

— ما الذى يجعل ساقىّ تمشيان يا جدى ؟

أجابه الجد العاقل ، وهو يمسح بيده فى احترام على شعره الأشقر :

— إنه عقلك الصغير يا ديمى .

سذله الطفل :

— وما هو هذا العقل الصغير ؟

Twitter: @ketab_n

قال ؟

— إنه القوة التى تجعل جسمك يتحرك ، كما يحرك الزمبرك تروس ساعتى التى فتحتها لك وأريتك ما بداخلها •

قال :

— إذا افتحنى يا جدى ، لأرى كيف يشتغل العقل •••

قال الجد :

— لا يمكننى ذلك ، كما لا يمكنك أنت أن تفتح الساعة ، فقد ملأك الله لتسير حتى يوقفك بقدرته •

قال الصبى ، وقد التمعت عيناه لفكرة جديدة طافت بذهنه :

— وهل أملأ أنا كما تملأ الساعة ؟

قال الجد :

— نعم •

وتحسس ديمى ظهره ، كأنما كان يتوقع أن يجده كظهر الساعة . ثم قال فى رزانة :

— أعتقد أن الله ملأنى وأنا نائم •

وشرح الجد فى عناية ، واستمع الطفل فى انتباه ، مما حدا بالجدة أن تقول فى قلق :

— أمن الحكمة يا عزيزى أن تحدث الطفل بهذه الأمور ؟ إنك تفتح عيونه وتعلمه أن يسأل فيما لا يمكن الإجابة عليه ••

Twitter: @ketab_n

قال :

— مادام قادرا على السؤال ، فهو قادر على الفهم أيضا .. أنا لا أحشو رأسه بالأفكار ، بل أساعده على تفسير ما يعن له منها ، ولست أشك فى أنه يفهم كل كلمة أقولها . فالأطفال أكثر حكمة مما نظن .

والتفت الى الطفل يسأله : قل لى الآن يا ديمى ، أين تحتفظ بعقلك ؟

وما كان الجد ليدهش إذا أجاب ديمى بما أجاب به تلميذ سقراط ، عندما قال : « والله لا أعرف ياسقراط » ، ولكن الطفل وقف على إحدى ساقيه كما يفعل طائر البشاروس وراح يفكر قليلا ، ثم قال بلهجة المقتنع :

— إنه فى بطنى الصغير !

ولم يستطع الجد إلا أنه يشارك زوجته فى ضحكها ، وانتهى درس الميتافيزيقا بما لا يدع مجالا للشك فى أنه طفل طبيعى بمعنى الكلمة ، بالرغم من اتجاهه الفلسفى الذى كان أحيانا يقلق أمه ، ويدفع حنة الى التشاؤم ، حتى لتقول متحسرة : « مثل هـذا الطفل يمكن أن يعمـر طويلا » . والحق أنه كان بعد نوباته الفلسفية يعود الى طبيعة عمـرة فيخرج يلهو ويتمرغ فى الأقذار ويرتكب شتى الحماقات التى تعرفهـا الأمهات جيدا ، فيتضايقن منها ، ويسعدن بها فى الوقت ذاته .

وكانت ميج قد أعدت قواعد خلقية كثيرة ، أرادت أن تطبقها على طفليها ، ولكن أين الأم التى استطاعت أن تمنع مكر الأطفال وخداعهم ، وتتغلب على جرأتهم وتملصهم ؟ وهكذا عجزت ميج عن السيطرة على تصرفات طفليها بعد أن أثبتت التجارب لها أنهما على مكر ودهاء .

وتقول ميج لديمى حين يقف فى المطبخ ، شأنه فى اليوم المخصص لصنع الفطائر :

Twitter: @ketab_n

ــ كفاك أكلا فى الزبيب يا ديمى ، وإلا مرضت .

... فيجيب :

ــ وأنا أريد أن أمرض !

فتقول :

ــ ولكنى لا أريد أن تمرض ، فكفاك أكلا ، وأسرع الى مساعدة ديزى فى صنع فطائرها الصغيرة .

ويتلكأ ديمى فى الخروج ، ثم لا يلبث أن يؤنبه ضميره ، فينصرف من المطبخ ، لينتصر على ماما فى أول فرصة مواتية ، بحيلة جديدة أو بمساومة ماكرة .

وبعد أن تطمئن ميج على الفطائر ، تقود الطاهيين الصغيرين الى الدور العلوى ، وتقول لهما :

ــ لقد كنتا كطفلين مطيعين ، ولذلك سألعب معكما أى لعبة تريدانها .

ويسأل ديمى وقد لمعت فكرة فى ذهنه :

صحيح يا ماما ؟

وتجيب الأم الساذجة ، وهى تظن أنه لن يطالبها ــ على أسوأ الفروض ــ بأكثر من أن تغنى معه « ثلاث قطيطات صغيرات » ست أو سبع مرات .

ــ صحيح ... طلبا ما شئتما .

وينتهز دب... ق فيقول بهدوء :

Twitter: @ketab_n

— إذا هيا بنــا يا ماما نعــود الى أكل الزبيب !

وكانت الخالة « دودو » صديقة الطفلين وموضع ثقتهما ، فإذا ما اشترك ثلاثتهم فى اللعب ، قلبوا البيت رأسا على عقب ، ولم تكن الخالة آمى عندهم سوى اسم لا مدلول له ، أما الخالة بث : فقد اختفى اسمها بالتدريج ، وتحولت على مضى الأيام الى ذكرى سارة غامضة • وظلت الخالة « دودو » مخلصة فى صداقتها للطفلين ، حتى جاء مستر باير ، فشغلت عن اللعب معهما . مما أورثهما الحزن والكآبة • فهذه ديزى التى كانت تجول هنا وهناك سعيا وراء القبل الحنونة ، قد فقدت خير عملائها ، وأدرك ديمى بذكائه أن الخالة « دودو » أصبحت تفضل اللعب مع الرجل باير ، فتألم لذلك غاية الألم ، ولكنه آثر أن يخفى ألمه فى نفسه ، خشية أن يفقد محبة « الرجل الدب » الذى يخفى فى جيوبه كنوزا من الحلوى ، ويملك ساعة يستطيع أن يأخذها منه وقتما يشاء ، ويلعب بهــا كيفمــا أراد • وقد يظن بعض الناس أن مستر باير يرشو الصبى بهذه الحرينات ، ولكن ديمى لم ير الأمر على هذه الصورة ، فواصل رعايته للرجل الدب فى بشاشه لا تخلو من بعض التحفظ ، أما ديزى فقد منحته حبها بعــد زيارته الثالثة ، وكانت ترى فى كتفيه عرشا تعتليه ، وفى ذراعيه ملجــأ تلوذ به ، وفى هداياه كنوزا لا نهاية لها •

وأحيانا ما يصاب الرجال بحب مفاجىء للأطفال الذين ينتمون الى حبيباتهم ، ولكن هذا النوع من الحب المغرض لا يخدع أحدا ، فالناس يرون الزيف بسهولة ، وحتى أصحاب الحب هذا لا يلبثون أن يضيقوا ذرعا بمن كانوا يصطنعون حبهم من الأطفال ، ولكن حب مستر باير ظل بإخلاصه حيًا ، فقد كان الرجل بطبعه مشغوفا بالأطفال ، يحب مجالستهم وملاعبتهم ... لذة فى انفعالات الحزن والفـ... فى نفوسهم ، وتباين آثارها ...

Twitter: @ketab_n

وكانت مشاغل باير تمنعه من الحضور فى الصباح ، ولكنها لم تكن تعوقه عن أداء واجبات الزيارة فى المساء • وكان إذا ما حضر بادر بالسؤال عن مستر مارش كأنه جاء خصيصا من أجله • وانطلت الحيلة على الرجل الطيب ، وظل ممعنا فى وهمه ، حتى أدرك الحقيقة فجأة من إشارة عابرة قالها حفيدة الذكى •

فقد حدث ذات ليلة أن حضر مستر باير كعادته ، وبينما هو يسير نحو غرفة المكتبة ، استوقفه فجأة منظر مدهش ، إذ كان مستر مارش راقدا على الأرض وساقاه مرفوعتان فى الهواء ، وبجانبه يرقد ديمى فى شغل شاغل بتقليد جده • وانهمك الاثنان فى تمرينهما ، فلم ينتبهان الى وجود الاستاذ ، حتى ضحك هذا عاليا ، وصاحت جو فى استنكار :

ـ أبى ! أبى إن الأستاذ هنا • •

وأنزل الأب ساقيه ، ورفع رأسه الأشيب ليقول فى وقار :

ـ مساء الخير يا مستر باير . اسمح لى بلحظة ، حتى نتم درسنا والآن يا ديمى ، ارسم الحرف واذكره •

وبعد محاولات رسم الطفل برجليه رقم « سبعة » ثم قال بسرور :

ـ أنا أعرفه ! « فى » ، إنه حرف « فى » يا جدى •

وضحكت جو ، وبينما نهض الأب على قدميه ، وراح ديمى يحاول أن يقف على رأسه ، علامة ابتهاجه بانتهاء الدرس • قال مستر باير للطفل وهو يرفعه عن الأرض :

ـ وما فعلت اليوم يا طفلى العزيز ؟

Twitter: @ketab_n

قال :

ــ ذهبت لأرى مارى الصغيرة .

سأله باير :

ــ وماذا فعلت هناك ؟

قال ديمى بمنتهى الصراحة :

ــ قبلتها !

فسأله مستر باير محاولا أن يستكمل اعترافات المذنب الصغير ، الذى وقف على ركبتيه وأخذ يبحث فى جيب سترة الأستاذ :

ــ نشاط مبكر ! وماذا فعلت مارى الصغيرة ؟

قال ديمى مسرورا بقطعة الحلوى التى تملأ فمه :

ــ اغتبطت وقبلتنى بدورها ، فاغتبطت أنا أيضا . وهكذا يحب الأولاد الصغار البنات الصغار . أليس هذا جميلا ؟

فقالت جو وهى تستمتع بمجون الطفل مثل استمتاع الأستاذ به :

ــ من الذى وضع هذا فى رأسك أيها الكتكوت الماكر ؟

وظن ديمى أنها تسأله عن قطعة الحلوى ، فأخرجها على لسانه وقال :

ــ إنها فى فمى لا فى رأسى !

Twitter: @ketab_n

فقال باير :

— لا تنس أن تحتفظ ببعض الحلوى لصديقتك الصغيرة ، فالحلوى للحلو أيها الرجل الصغير !

وقدم الأستاذ بعض الحلوى لجو ، وفى عينيه نظرة جعلتها تظن أن الشيكولاته رحيق الآلهة ! ولم تفت معانى ابتسامتها عن عينى ديمى الذكى ، فقال يسأل الأستاذ بصراحة :

— وهل يحب الفتيان الكبار الفتيات الكبيرات أيضا يا أستاذ ؟

ولم يكن من طبع الأستاذ أن يكذب ، فأجاب بكلام غامض مقتضب لفت نظر مستر مارش ، وجعله يترك فرشاة الملابس التى كان يحملها فى يده ، وينظر الى وجه جو مليًا ، ثم يغرق فى كرسيه ، وقد بدا لــه أن الكتكوت الماكر قد نبه ذهنه الى فكرة جديدة ، فيها من الحلاوة ما فيها من المرارة •

وتواردت على ذهن ديمى بعد ذلك أسئلة كثيرة ، لم يجد لها إجابات شافية : لماذا لم تنهره الخالة دودو وتهزه كعادتها بعنف عندما وجدته ، بعد ما قال بنحف ساعة ، وهو يعبث فى خزانة الخزف ! ولماذا ضـمته الى صدرها وقبلته حتى كادت تعصره وتزهق أنفاسه ؟ ولماذا كافأته بقطعة كبيرة من الخبز والمربى ؟

وظلت هذه المشاكل تحير ذهن ديمى ، حتى يئس من حلها ، فتركها الى الأبد بدون حل •

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والأربعون

تحت المظلة

فى الوقت الذى كان فيه لورى وآمى يذرعان الغرف ذهابا وإيابا فوق الأبسطة المخملية ، وهما يرتبان منزل الزوجية الجديد ، ويضعان خطط مستقبلهما السعيد ، كان باير وجو يستمتعان بنزهات من طراز مختلف ، على طول الطرق الموحلة والحقول الغدقة •

كان الوصول الى بيت ميج له طريقان ، واحتارت جو أيهما تسلك ، ففى كل مرة سارت الى زيارة أختها فى أحدهما ، لقيت الأستاذ إما ذاهبا أو عائدا • قالت لنفسها ذات يوم :

— لقد اعتدت أن أسير الى بيت ميج كل مساء ، فلماذا أعدل عن رياضتى هذه ، لا لسبب إلا أن الأستاذ يتمشى بدوره فى ذات الطريق ؟

وكان من عادة الأستاذ أن يسير مسرعا ، لا يبدو عليه أنه يراها حينما يصبح على بعد خطوات قليلة منها ، كأن نظره الضعيف، لا يمكنه من تمييزها إلا فى اللحظة الأخيرة •• ويسألها عن وجهتها ، فإن كانت ذاهبة الى ميج ، قال بأن لديه هدايا صغيرة للأطفال يحب أن يعطيها إياها ، وإن كانت راجعة الى بيتها ، ادّعى أنه — بعد أن انتهى من رياضته عند النهر — كان فى نيته أن يزورهم ، ما لم يكونوا قد ملوا كثرة تردده •

ولم يكن أمام جو ، إزاء هذه الظروف ، إلا أن تجيبه بلطف وتدعوه الى رفقتها ، وإذا كانت جو قد ملت من زياراته ، فقد أخفت ذلك فى مهارة ، بل إنها كانت تغالى فى العناية بإعداد القهوة بعد العشاء ، لأن فردريك •• أعنى باير لا يحب الشاى !!

Twitter: @ketab_n

ولم يمض الأسبوع الثانى إلا وقد اتضح الموقف لجميع أفراد الأسرة ، ولكنهم أغمضوا عيونهم عن التطورات التى طرأت على وجه جو ، فلم يسألها واحد لماذا تغنى أثناء عملها فى البيت ، أو لماذا تمشط شعرها ثلاث مرات يوميا ، أو لماذا تعود من رحلاتها المسائية مشرقة الوجه ، بارقة العينين ! ولم يشك أحدهم فى أن مستر باير يتعمد بمناقشته الفلسفية مع الأب ، تلقين الابنة دروسا فى الغرام •

ولم تستطع جو ، بحكم طبعها الجامح ، أن تسلم بالحب لأول وهلة ، ولذلك جاهدت ما وسعها فى إخفاء عواطفها ، فلما لم توفق ، اضطربت حياتها نوعا ما • كانت فى ذعر شديد من أن يسخر الناس منها إذا استسلمت بعد أن أعلنت مرارا أنها استقلالية لا يمكن أن تخضع لمؤثر • كانت تخاف لورى أكثر من أى شخص آخر ، ولكن الفتى الحكيم أخذ بنصائح آمى ، وتصرف فى أدب ولباقة ، فلم يتحدث عن باير مطلقا ، ولم يصفه علنا « بمستر باير العجوز الممتاز » ، أو يغيظها بالإشارة الى ما طرأ عليها من تحسن ، بل لم يبد عجبا لتردد الأستاذ باير كل مساء تقريبا على أسرة مارش • كان يتذرع بالصمت أمام جو ، ويحتفظ بآرائه لحين يخلو بزوجته ، فيبدى لها سروره العظيم بتحسن نفسية أختها ، ويتطلع بشوق الى اليوم الذى يستطيع فيه أن يهديها درعا من الصفيح ، منقوشا عليها صورة دب ، لتتخذها رمزا للعائلة •

واتخذ الأستاذ سمة العشاق ، فكان يتردد على بيت مارش كل مساء خلال أسبوعين ، ثم غاب ثلاثة أيام كاملة ، لم يظهر له فيها أثر • وأثار انقطاعه اهتمام الأسرة ، وبدت جو فى أول الأمر مفكرة شاردة الذهن ، ثم تملكها الغضب بعد ذلك ، فقد خيل إليها أنها خاتمة قصة حبها وأسفاه •

Twitter: @ketab_n

وذات مساء تأهبت جو للخروج ، ووقفت تنظر الى البوابة بمنتهى الأسى ، ثم قالت تحدث نفسها :

— لا شك أنه سئم الانتظار ، فعاد فجأة من حيث أتى ، وهـذا لا يهمنى بطبيعة الحال ، ولكن كان حريًا به أن يسلك مسلك السيد المهذب ويودعنا قبل رحيله •

قالت لها أمها ، وقد لاحظت أنها ترتدى قبعتها الجديدة :

— أرى أن تأخذى مظلة معك ، فالجو ينبىء بالمطر يا عزيزتى •

قالت جو وهى تثبت رباط القبعة أمام المـرآة ، لتتحاشى نظـرات أمها :

— سمعا وطاعة يا أماه ، إنى ذاهبة لشراء بعض الورق ، فهل تريدين شيئا من المدينة ؟

قالت :

— نعم أريد قطعة من التل المنقوش ، ودستة إبر نمرة تسـعه ، ومترين من الشريط البنفسجى الرفيع ، ولكن ، هل انتعلت حذاءك السميك وارتديت ملابس ثقيلة تحت معطفك ؟

أجابت جو وهى شاردة اللب :

— أظن ذلك •

قالت الأم :

— إذا تصادف وقابلت مستر باير ، فادعيه لتناول الشاى معنـا ، لأنى مشتاقة لرؤية هذا الرجل العزيز •

Twitter: @ketab_n

ولم تحر جو جوابا ، واكتفت بقبلة أودعتها خد أمها ، ثم انحرفت مسرعة . وقلبها الحزين يفيض بالشكر لهذه العزيزة التى تقدر إحساسات ابنتها تمام التقدير • قالت جو تحدث نفسها :

ـ ما أشد عطفها على ! ترى ماذا تفعل من ليس لها أم تعينها على احتمال متاعب الحياة ؟ !

لم تكن محلات بيع الأقمشة فى نفس الحى الذى تقوم فيه المصارف ودور المحاسبة والبيع بالجملة ، والذى يزدحم بالرجال وأصحاب الأعمال ! ومع ذلك وجدت جو نفسها ـ قبل شراء الأشياء المطلوبة منها ـ تسير على مهل فى هذا الحى من المدينة ، كأنما تنتظر شخصا بالذات • وأخذت تتسلى على طول الطريق بالتطلع الى واجهات حوانيت الأصواف والآلات الهندسية ، وتبدى اهتماما بأشياء لا تمت الى جنسها بصلة ، وتحشر نفسها بين البضائع والبراميل التى يفرغها العمال من العربات ، حتى كادت تقع عليها إحدى البالات المحمولة • وكان رجال الأعمال يسرعون الخطى فيدفعونها فى غير اهتمام . فإذا نظرت إليهم أبدوا دهشتهم لوجود فتاة مثلها فى هذا المكان • ووسط هذا الزحام ، أحست بقطرات من المطر تتساقط على خدها ، فانتقل تفكيرها من آمالها الى أشرطة القبعة التى كاد يفسدها المطر • ولما كانت امرأة أولا . ثم عاشقة ثانيا ، فقد رأت أن تنقذ قبعتها من التلف ، ما دامت عاجزة عن إنقاذ قلبها من الحب الفاشل • وتذكرت مظلتها الصغيرة التى نسيت فى عجلتها أن تأخذها معها ، ولم تجد فائدة من التأسف عليها ، فالموقف يضطرها الى الإسراع باقتراض واحدة . وإلا غرقت فى هذا المطر المنهمر ، وتطلعت الى السماء ثم الى الشرائط القرمزية ، وقد أغمق لونها بقطرات المطر ، ثم ألقت نظرة على

Twitter: @ketab_n

الطريق الموحل ، وقالت لنفسها وهى تقف أمام مخزن للحديد ، كتب على واجهته « هوفمان وشفارتز وشركاؤهما » :

— هذا أقل ما أستحق ، فما الذى يجعلنى أرتـدى خير ثيابى ثم أجىء الى هذا المكان أملا فى رؤية الأستاذ ؟ ! واخجلاه منك يا جو ! لا ، لا يليق بك أن تستعيرى مظلة من هذا المستودع ، أو تسـألى فيـه عن الأستاذ ، والواجب أن تمضى الى شراء ما كلفت بـه ، وإذا تعرضت للموت أو فسدت قبعتك ، فهذا جزاؤك الحق !!

وحين انتهت من تأنيب نفسها ، اندفعت مسرعة الى الطريق ، حتى كادت تدهسها إحدى العربات ، لولا أنها سقطت بين ذراعى سيد وقور عجوز ، قال وهو فى غاية من الحرج : « إنى آسف يا سيدتى ! » . وكبحت جو غضبها واعتدلت فى سـيرها ، وقـد وضعت منديلها فوق قبعتها ، وأسرعت وقد ازداد البلل تحت قدميها ، وأخـذت مظـلات السائرين تتشابك فوق رأسها . واستوقفت أنظارها مظلة زرقاء باهتة ، طال بقاؤها فوق رأسها ، ولم تتحرك بعيدا كغيرها ، فرفعت بصرها الى صاحبها ، فإذا بها ومستر باير وجها لوجه .

قال :

— أردت أن أعرف تلك السيدة التى تذرع الطـريق فى شجاعة ، تحت أنوف الخيول المتواثبة ، ووسط الوحول المتراكمه ، فماذا جاء بك الى هنا يا صديقتى ؟

— جئت أتسوق بعض الأشياء .

وابتسم مستر باير ، وهو ينظر يمينا الى الشركات وبيوت المـال ، ويسارا الى محلات بيع الجلود بالجملة ، ولكنه قال يستدرك فى أدب :

Twitter: @ketab_n

— أنت لا تحملين مظلة ، فهل تسمحين لى أن أرافقك وأحمل لفائفك عنك ؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بلون أشرطتها القرمزية :

— نعم وأشكرك .

وراحت تسائل نفسها : ترى ماذا يظن بها الأستاذ ؟ . ولكنها لم تفكر فى هذا السؤال طويلا ، إذ لم تمض دقيقة حتى وجدت نفسها تتأبط ذراعه وقد خامرها شعور بأن الشمس قد أشرقت فجأة بشكل عجيب ، وأن الدنيا قد عادت الى صفائها ، وأن امرأة فى قمة السعادة تسير تحت الأمطار فى ذلك اليوم . ورأت الأستاذ يطيل النظر إليها ، ولم تكن قبعتها واسعة الحافة لتخفى وجهها عنه ، فخشيت أن يقرأ فى بريق عينيها سر سعادتها ، قالت بسرعة :

— ظننت أنك سافرت !

فنظر إليها فى عتاب وقال :

— وهل تظنيننى الرجل الذى يسافر قبل أن يودع من أغـرقوه بعطفهم وحنانهم ؟

وشعرت جو أنها أحرجته بكلامها ، فقالت من صميم قلبها :

— لا ، ولكنى أعرف بمشغولياتك الكثيرة ، والحقيقة أننا افتقدناك جميعا ، خصوصا أبى وأمى .

قال متسائلا :

— وأنته ؟

Twitter: @ketab_n

قالت :

– يسرنى أن أراك يا سيدى •

وآثرت جو أن تجعل صوتها هادئا لا أثر للانفعال فيه ، فجاء جوابها البارد خلوا من العاطفة ، ونزلت كلمتها الأخيرة « يا سيدى » على قلب الأستاذ كالثلج ، فغاضت الابتسامة من وجهه ، وقال فى وقار :

– أشكرك ، وسوف أزوركم مرة أخرى قبل رحيلى •

قالت :

– إذا فأنت راحل حقًا ؟

قال :

– لقد انتهيت من أعمالى هنا ، ولم يبق ما يسوغ بقائى •

وأحست جو بما فى إجابته المقتضبة من خيبة أمل ومرارة ، فقالت :

– آمل أن تكون قد وفقت فى مهمتك ؟

قال :

– أظن ذلك ، فقد وجدت طريقا أكتسب منه عيشى ، وأساعد به الأطفال الصغار •

قالت تسأله بلهفة :

– حدثنى عن هؤلاء الأولاد ، فانى أحب أن أعرف عنهم كل شىء •

Twitter: @ketab_n

قال :

— عطف منك أن تهتمى بهم ، ويسرنى أن أحدثك بتوفيقى ، فقد وجد لى أصدقائى وظيفة فى إحدى الجامعات ، لأدرس كما كنت أفعل فى بلادى ، وبذلك أكتسب ما يوفر الرغد لفرانز وإميل . أليست هذه نعمة يجب أن أحمد الله عليها ؟

صاحت جو ، وكأن سعادة فرانز وإميل هى سر فرحها الظاهر :

— دون شك ! ما أجمل أن تمارس العمل الذى تحبه : وتستطيع فى ذات الوقت أن نراك أنت والأولاد .

قال :

— أخشى أننا لن نتقابل كثيرا ، فالوظيفة فى جامعة بغرب أمريكا .

وأفلت ثوبها من يدها . وهبطت أطرافه الى الوحول المتراكمه فى الطريق ، وقالت كمن لا تهتم بثيابها ولا بمصيرها :

— أبعيدا الى هذا الحد ؟؟

وكان الأستاذ ضليعا فى كثير من اللغات ، اللهم إلا لغة أفكار النساء ، وكان يطرى نفسه لمعرفته التامة بشخصية جو ، ولكن الحيرة غلبته فى هذا اليوم أمام المتناقضات التى لمسها فى صوتها ، فبسرعة توالت عليها عواطف متباينة وأمزجة مختلفة ، وفى خلال نصف ساعة تقلبت بين ست أحوال على الأقل : فقد بدت الدهشة عليها عندما قابلته ، مع أنها جاءت الى هذا المكان بحثا عنه ، ولما أعطاها ذراعه استندت إليه بمنتهى السعادة والغبطة ، وعندما سألها إذا كانت قد افتقدته لطول غيابه عنها ، اجابته

Twitter: @ketab_n

بفتور حطم قلبه ، وحين أخبرها بالوظيفة هللت وصفقت طربا ، فهل كان سرورها من أجل الأطفال وحدهم ؟ ولما سمعت أخيرا بمقر عمله الجديد أسفت بلهجة يائسة ، أحيت فى نفسه ميت الأمل • ثم لم تكد تمضى دقيقة ، حتى أذهلته بقولها فى رنة عملية بحتة :

ـ من هنا سأشترى لوازمى : ولن أغيب طويلا فى الحانوت ، فهل تأتى معى ؟

وكانت جو تفخر بمهارتها فى التسوق ، وقد أرادت فى هذه المرة أن تعطى لرفيقها صورة حية عن دقتها وسرعتها فى ذلك • ولكن القلق النفسى الذى كانت تعانيه جعل الأمور تسير على غير هواها : إذ أسقطت دستة الإبر ، ولم تتذكر أن أمها تريد تلا منقوشا إلا بعد أن قص البائع القماش ، وعند الحساب أخطأت فى دفع الثمن ، ثم حاولت أن تستر اضطرابها بشراء الأشرطة ، ولكنها مع الأسف طلبتها من بائعة الأقمشة الصوفية ، فتعقد الموقف أكثر وأكثر •

ووقف مستر باير يرقبها وهى تمعن فى خجلها وتزداد فى ارتباكها ، وفجأة زايلته حيرته ، واطمأنت نفسه ، إذ بدأ يدرك أن النساء كالأحلام يفسرن بعكس ما يبدو منهن •

وعندما خرجا الى الطريق ، وضع باير اللفافة تحت إبطه فى غبطة ، وخاض الوحول وبرك الماء فى متعة • وحين وصل الى واجهة حانوت يبيع الفاكهة والزهور قال لها :

ـ أتسمحين بأن أشترى للأطفال بعض الأشياء الصغيرة ، لنحتفل الليلة فى بيتكم بزيارتى الأخيرة ؟

Twitter: @ketab_n

وتجاهلت جو الجــزء الأخير من عباراته ، وقالت وهى تستنشق عبير الأزهار بسرور بالغ :

ــ وماذا تشترى لهما ؟

قال مستر باير فى لهجة أبوية :

ــ أيحبان البرتقال والتين ؟

قالت :

ــ ليس أحب اليهما منهما اذا استطاعا الحصول عليهما !

سألها :

ــ وهل تحبين الجــوز ؟

قالت :

ــ مثل السنجاب !

قال :

ــ وما رأيك فى عنب هامبورج ؟ انه يذكرنى ببلادى ، وسنشرب نخبها الليــلة .

وأسرف فى الشراء ، فقطبت جو جبينها ، وسألته لمــاذا لا يعقد الموقف أكثر بشراء صندوق من البلح وبرميل من الزبيب المجفف وزكيبة من اللوز وبذلك يأتى على البقية الباقيــة له من المــال ؟ وأخرجــت كيسها تهم بالدفع ، فرده اليها ، واشترى بنقــوده عــدة أرطــال من العنب ، وباقة من الأزهار الجميلة ، وإنــاء مليئــا بالعســل . ودسّ

Twitter: @ketab_n

مشترياته فى جيوبه ، وترك لها الباقة تحملها ، ثم نشر مظلته القديمة واستأنفا سيرهما مرة أخرى •

قال بعد أن قطعا مرحلة من الطريق المبلل :

ــ ألا تواتيننى معروفا يا مس مارش ؟

قالت ، وقد تسارعت دقات قلبها وعلت ، حتى خشيت أن يسمعها :

ــ بكلّ سرور •

قال :

ــ لم يبق لى وقت طويل فى هذا المكان ، ولدى من الجرأة ما يسمح لى بالكلام رغم هذه الأمطار المنهمرة •

قالت جو ، وهى تضغط بيدها على الزهور حتى كادت تفسدها :

ــ نعم يا سيدى •

قال :

ــ أريد أن أبتاع ثوبا للصغيرة « تينا » ، لأنى أجهل الناس بهذه الأمور ، وأخاف أن أشتريه وحدى •

قالت ، وقد نزل كلامه على قلبها باردا كالثلج :

ــ نعم ، يا سيدى •

قال :

ــ ونشترى أيضا شالا لأمّ تينا ، فهى فقيرة ومريضة وزوجها مثقل بالهموم •

وسكت قليلا ، ثم قال :

— نعم شال سميك خير ما تهدى به هذه السيدة المريضة .

قالت جو :

— بكل سرور يا مستر باير .

وقالت تحدث نفسها :

— انى أتعجل الأمور والمسكين يزداد فى كل لحظة رقة ولطفا .

وهزت رأسها كأنها تطرد الأفكار عنها . ثم دخلت المحل بنشاط ، لتشترى حاجات مستر باير . وترك الرجل الأمر كله لها . فاختارت ثوبا جميلا لتينا ، ثم طلبت الشيلان ، وكان البائع رجلا متزوجا ، فتلطف بمن ظنهما زوجين جاءا لشراء لوازم الأسرة . قال البائع وهو ينشر شالا رمادى اللون على كتف جو :

— أعتقد أن سيدتى تفضل هذا ، فهو نوع ممتاز وصنعه دقيق ولونه أنيق .

وكانت فرصة تخفى بها انفعالها . فقالت وهى تولى ظهرها لمستر بايـر . حتى يرى الشال جيدا :

— أيرضيك هذا يا مستر باير ؟

وتشاغلت بالتقليب فى البضائع ، فقال :

— انه ممتاز جدا ، فلنأخذه .

وقال بعد أن دفع الثمن :

Twitter: @ketab_n

ـ هل نذهب الآن الى البيت ؟

قالت فى صوت حزين :

ـ نعم ، فالوقت متأخر وأنا متعبة جدا .

وخيل اليها أن الشمس غابت فجأة ، واكتست الدنيا بكآبة الغسق : وبدت الأرض موحلة والتعاسة شاملة • وسرت البرودة فى قدميها لأول مرة ، وأصاب الصداع رأسها ، وتجمد قلبها كقطعة ثلجها الألم •

إن مستر باير راحل عنها ، وهو لا يعتبرها أكثر من صديقة ، وقد أخطأت تقدير شعوره نحوها ، وخابت آمالها ، فخير لها أن تنهى الأمور بسرعة : وتخرج نفسها من ظلام الأوهام •

جالت هذه الخواطر برأسها حين اقتربت منهما مركبة عامة ، فأسرعت جو تشير اليها بالوقوف فى عجلة أطارت الباقة من يدها ، فوقعت الزهور على الأرض وانحل رباطها وفسدت أوراقها • وأشار الأستاذ الى المركبة بمواصلة سيرها ، ثم انحنى على الأرض يجمع الزهور المتناثرة ، وقال :

ـ هذه السيارة لا تمر بحيكم •

قالت ، وهى تسبل عينيها لتخفى دموعها المتساقطة ، إذ كانت تفضل الموت على أن تمسح عبراتها علنا :

ـ متأسفة ! لم أتبين رقمها بوضوح : ولا يضيرنى أن أمشى ، فأنا معتادة على خوض الوحول •

Twitter: @ketab_n

وأدارت رأسها رغما عنها ، فقد رأى مستر باير العبرات المنهمرة على خديها ، فمس حزنها شغاف قلبه . قال يسألها فجأة فى عطف أثر فى نفسها أشد التأثير :

لماذا تبكين ، يا أعز الناس ؟

ولو كان لجو سابق خبرة بهذه المواقف ، ما استعصى عليها أن تنكر بكاءها ، وتدعى أن البرد يوجع رأسها ، أو تختلق عذرا آخر مناسبا : ولكنها لم تفعل أمرا من هذا ، انما قالت وهى تنشج :

— لأنك سترحل عنى !

صاح مستر باير ، وهو يضم ذراعيه رغم ما يحمله من مظلة ولفائف :

— يا الهى ! هذا عظيم ! ليس عندى يا جو ما أهديكه سوى حبى ، لقد جئت لأرى ان كنت تهتمين بأمرى ، وانتظرت لأتأكد من أنك تعتبريننى أكثر من صديق ، فهل أنا كذلك ؟ وهل فى مقدورك أن تفسحى من قلبك ولو مكانا صغيرا لفريتز العجوز ؟

قالت جو :

— نعم !

وأسعده ردها القصير ، وأرضاه أنها عقدت يديها حول ذراعه ، ورفعت اليه وجها يفيض بالثقة والهناء ، كأنها تشير بذلك الى عزمها على السير بجانبه دائما فى طريق الحياة ، وأن مظلته خير مأوى لها مادام ممسكا بها .

Twitter: @ketab_n

كانت خطبة تكتنفها المتاعب حقا : فلم يكن فى مقدور مستر باير أن يركع أمامها فى الوحـول : ولا كان يستطيع أن يحتضنها إلا مجازا ، بسبب ما يحمله فى كلتا يديه من مظلة ولفـائف • كذلك لم يـكن من اللائق أن يطارحها الغرام على قارعة الطريق ، وإن كان على وشـك أن يفعل ذلك •• ولم يبق أمامه الا حـل واحد يعبر به عن نشوته • وهو أن ينظر اليها بكل ما فى قلبه من حب واخـلاص ؛ اكتسى معهما وجهـه بزهوة الانتصار . حتى خيل لمن ينظر اليه ؛ أن ألوان قوس قزح كلها ، تظهر خلال قطرات المطر العالقة فوق لحيته • ولـو لم يـكن يحبهـا مخلصا : ما خطبها فى هذه اللحظة بالذات . فقد كان حالهـا يرثى لـه : ثيابها رثة ، وحذاؤها موحـل حتى كعبيه ، وقبعتها مشوشة مشوهة • ولكن مستر باير ، لحسن الحظ ، كان يراها أجمـل امرأة فى الوجـود ، وكانت هى أيضا تراه أقرب الى الآلهة منه فى أى وقت مضى على الرغم من قبعته المتقلصة بمياه الأمطار ، وقفازه الممزق عند أطراف أصابعه كلهـا •

وظن المارة أنهما زوجـان من المجانين : فقـد نسيا تمـاما أمـر المركبات العامة واختارا أن يسيرا فى الطريق متمهلين ، رغم حلكة الغسق وشدة الضباب • وفى الواقع كان رأى الناس لا يهمهما فى غمرة سعادتهما بهذه الساعة المجيدة التى لا تأتى فى العمر إلا مرة واحدة • تلك الساعة التى تخلع على المسنين شبابا ، والدميمين جمالا ، والفقراء ثروة ، وتضىء القلوب البشرية بنور من السماء •

وكان الأستاذ يبدو كأنه غزا الدنيا بأكملها ، وحصل على نعم العالم بأسرها • وكانت جو تسير بجانبه كأنه مكانها الوحيد فى الحياة ، وراحت تسائل نفسها : كيف كان يمكنها أن تختار زوجا غيره ! وكانت بطبيعة

الحال هى البادئة بالحديث . بعــد الانفعــالات الصــامتة ، التى تلت موافقتها على الزواج منه . قالت :

ــ فريدريك . لمــاذا لم ٠٠ ؟

فصاح الأستاذ ، وقد وقف وسط بركة من مياه الأمطار . يرمقهــا سعيدا :

ــ يا إلهى ! انها تناديني بالاسم الذى لم أسمعه من أحــد منــذ ماتت أمى •

قالت :

ــ انى أناديك بهذا الاسم دائما بينى وبين نفسى ، ولقد انزلق به لسانى ، ولن أعيده اذا لم تكن تحبه •

قال :

ــ أحبه ! ؟ انه أحلى ما يتردد فى أذنى ، خاطبينى بلا كلفــة ، وثقى أننى أحب لغتك مثل لغتى الألمانية تماما •

قالت :

ــ انك تحب الكلمات العاطفية • أليس كذلك ؟

قال فى لهجة أقرب الى الطـالب العاشــق منهــا الى الأســتاذ الرزين :

ــ العاطفية ؟ بلا شك ! فنحن الألمان نؤمن بالعاطفية ، لأنها تبعث فينا الشباب الدائم • خاطبينى بلغة العاطفة يا أعز المخلوقات ، فمعانيها أعظم من أن تقــدر •

Twitter: @ketab_n

سألته جو فى خجل :

ــ حسنا ، لماذا لم تخبرنى بكل هذا منذ وقت طويل ؟

قال :

ــ ليس أحب الىّ من أن أكشف لك عن كل ما فى قلبى ، بعد أن أصبح ملكك . انظرى يا جو العزيزة .. ويالـه من اسم لطيف حبيب كنت أريد مصارحتك بعواطفى يوم رحيلك من نيويورك ، ولكنى خفت أن تكونى مخطوبة لصديقك الوسيم ، فسكت عن الكلام . . أكنت توافقين لو خطبتك فى ذلك اليوم ؟

قالت :

ــ لست أدرى ، وأعتقد أننى كنت أرفض ، إذ لم يكن لى قلب حين ذاك .

قال :

ــ بل كان قلبك نائما حتى أتى أمير أحلامك من غياهب الغابة فأيقظه ! حسنا . . حسنا . . ما الحب إلا للحبيب الأول ! .. وهذ أكثر مما كنت أنتظر .

قالت جو تصحح له الأوضاع :

ــ نعم ، ما الحب إلا للحبيب الأول ، واطمئن الى أننى لم أحب سواك ، أما تيدى فكان صبيا صغيرا ، ولم يلبث أن نسى غرامه بى .

قال :

ــ يسعدنى غاية السعادة أن أسمع هذا الكلام الجميل ، ولست

Twitter: @ketab_n

أشك فى أنك ستمنحيننى حبك كله . لقد طال الانتظار بى ، حتى صرت أنانيا كمـا ترين يا أستاذتى .

صاحت جو مبتهجة باللقب الجديد :

ـ ما أحب ذلك الى نفسى .

ثم أردفت تسأله :

ـ لمـاذا جئت وأنا فى مسيس الحاجة اليك ؟

وأخرج مستر باير من جيبه ورقة صغيرة بالية ، وقال :

ـ هذا ما أتى بى اليك .

وعرفت جو فى الورقة قصيدة كانت احدى المجلات قد نشرتها لها فى يوم من الأيام ، ثم قالت فى حيرة مما يقصد :

ـ وكيف جاءت بك هذه القصيدة ؟

قال :

ـ عثرت عليها بطريق المصادفة ، وعرفتها من الأسماء والحروف الأولى التى وقعت بها ، وكان فيها بيت واحد شعرت أنه دعوة توجهينها الىّ ، فاقرئى القصيدة ، وحاولى أن تخرجى البيت ان استطعت. ومرت جو بسرعة على أبيات قصيدتها التى جاء فيها :

« بين ثنايا المخلفات »

« أربعة صناديق صغيرة ، كلها فى صف واحد

أبلاها الزمن وعلاها الغبار

Twitter: @ketab_n

صنعت وملئت من وقت بعيد
عبأها شباب اليوم . عندما كانوا صغارا
تدلت مفاتيحها الأربعة جنبا الى جنب
فى أشرطة بهيجة . أحال لونها الزمن
ربطتها أصابع الصغار فى زهو الطفولة
ذات يوم مطير فى العهد الخالى ،
وعلى كل غطاء اسم من أربعة
حفرته يد بريئة طاهرة .
وتحت الغطاء سجل خفى .
يضم تاريخ « شلة » سعيدة .
كم لعبت هنا . وكم وقفت فى هدوء .
تصغى لترديد نغم جميل .
يأتى حينا ويعود حينا .
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى أول صندوق اسم الجميلة ميج .
فنظرت بحب الى رباط الذكريات .
وهو يضمها فى حنان .
وقد عقدته بعنايتها المعهودة .
وكان سجلا لحياة هادئة .
فيه هدايا الطفلة والفتاة .
لعروس فى ليلة الزفاف .
وحذاء صغير وخصلة شقراء .
وخلا الصندوق من لعب الصغار .

Twitter: @ketab_n

فقد أخذتها بعد طول الزمن •
لتنعم بها ميج أخرى صـغيرة •
وتحييها من زوايا العدم •
أنا أعلم أيتها الأم السعيدة •
أنك مازلت ترددين نغم الطفولة
يعلو حينا وينخفض حينا
مع مطر الصيف المنهمر •

وعلى ثانى الصناديق اسم جو
وفيه ترقد مجموعة عجيبة :
عرائس بلا رءوس ، وكتب ممزقة ،
وطيور محنطة ، وأحياء قديمة ،
وتحف جاءتها من أرض الخيال
المحرمة الا على أقدام الشباب •
مجموعة خلت من أحلام الزواج ،
وتضمنت ذكريات كلها عاطرة ،
قصائد لم تتم : وقصص عابرة ،
ورسائل فى الربيع دافئة وباردة ،
ويوميات طفلة كلها عزم وأمل ،
وأفكار امرأة تعيش فى بيت وحيد
وتسمع أنغاما حزينة تقول :
كونى خليقة بالحب ، يأتيك الحب
مع مطر الصيف المنهمر •

Twitter: @ketab_n

عزيزتى بث ، لن يبقى غبار
على الغطاء الذى يحمل اسمك
ستمسحه دموع تنساب من العيون
وتزيله أيد لن تنقطع عن زيارته •
لقد رسم الموت لنا قديسة مخلدة ،
أقرب الى الآلهة منها الى البشر ،
ومازلنا نحفظ لها ــ وعيوننا دامعة ــ
أجمل الذكرى فى هذا البيت الصغير :
جرس فضى لم يعد يدق
وعباءة صغيرة هى آخر ما ارتدت ،
وأغان كانت تنشدها بلا دموع
وهى حبيسة فى سجن الألم •
ستظل أغانيها هذه تمتزج بحنان
مع مطر الصيف المنهمر •

وعلى صفحة الغطاء الأخير وجدت
خرافة جميلة تحققت :
فارس رشيق على درعه نقش
أسم آمى بحروف زرقاء ومذهبة •
وفى داخل الصندوق شبكات رقيقة للشعور
وخف بلته الأقدام الراقصة ،
وأزهار مجففة حفظت بعناية ،
ومراوح ذهب عهدها انتهى •
وتمنيات تفيض بلهيب الجوى ؛

Twitter: @ketab_n

وتحف صغيرة كان لها دورها
فى آمال الفتاة ومخاوفها وأخطائها •
سجل حافل لقلب عذراء ،
تتعلم الآن حكمة أعمق ،
وتسمع ترديد أنغام شجية
يصاحبها رنين أجراس الزفاف
مع مطر الصيف المنهمر •

أربعة صناديق صغيرة ، مصفوفة معا ،
علاها الغبار ، وأبلاها الزمن ،
وأربع نساء تعلمن من السعد والألم
ما الحب ، وما العمل فى شرخ الشباب •
أربع أخوات افترقن لحظة ،
وعدن الى الاجتماع ماعدا واحدة ،
خلدها الحب برباطه السحرى
وقربها الى القلوب عما مضى •
ويوم تتكشف كنوزنا هذه
لعين الاله عز وجـــل ،
عساها تغنينا بخير الجزاء ،
وتحيل أعمالنا حسنات طيبات ،
فتدق موسيقى نفوسـنا الى الأبد
بقوة تحرك أعماق الروح
وتحلق سعيدة وهى تغنى

Twitter: @ketab_n

تحت شمس تخلد بعد المطر »

ج • م •

قالت جو ، وهى تمزق الوريقة التى احتفظ بها الأستاذ طول هـذا الوقت :

ـ هذا شعر ردىء جدا ، ولكنه كان يعبر عن مشاعرى ذات يوم وكنت وحيدة أجلس فوق حقيبة قديمة أقرضه وأنا أبكى أحـر البكاء ، وما كنت أتوقع أن يفضحنى بهـذا الشكل •

قال مستر باير باسما ، وهـو يرقب تطـاير الأوراق المزقة مـع الهـواء :

ـ لقد أدت القصيدة رسالتها ، فدعيها تذهـب ، وسأحصل على أخرى جديدة ، عندما أقرأ الكتاب الأسمر الذى تحتفظين فيه بأسرارك • قلت لنفسى ، وأنا أقرأ هذه القصيدة : انها وحيدة وحزينة ، وعـزاؤها فى حب صادق ، وبقلبى منه ذخيرة وفيرة ، فلماذا لا أذهب وأقول لها : « اذا لم يكن هذا القلب بدلا تافها لمـا أرجو أن أناله ، فخذيه باللـه عليك » •

وهمست جو :

ـ وهكذا جئت لتجد أنه أثمن ما كنت أتمناه •

فصاح مستر باير قائلا :

ـ لم أكن أجرؤ على هذا الظن فى البداية ، رغم ما استقبلتنى به من عطف وحفاوة ، ولكن سرعان ما انبعث الأمـل فى نفسى ، فانتويت أن أفوز بك ، ولو مت فى سبيل ذلك • وهكذا فزت بك !

Twitter: @ketab_n

وكان يتكلم فى تحد ، كأنما الضباب الذى يحيط بهما حواجز عاتية ، إما أن يجتازها أو يهدمها •

واغتبطت جو كل الاغتباط ، وصممت أن تكون خليقة بفارسها ، رغم أنه لم يأتيها على جواده وفى كامل عدته •

سألته بعد لحظة ، وهى تجد لذة بسؤاله عنها ، لتلقى إجابات ترضيها :

— ولماذا أطلت غيبتك عنى ؟

قال :

— كان رزقى ضعيفا ، ولم يطاوعنى قلبى على حرمانك من بيتك السعيد ، قبل أن تطمئن نفسى الى عمل مضمون ، ولم يتيسر لى هذا العمل إلا بعد وقت وجهاد • فهل كنت تتوقعين أن أطلب منك التضحية بما تعيشين فيه من رغد من أجل عجوز فقير مثلى ، لا يملك غير علمه القليل ؟

قالت جو فى عزم :

— إنى سعيدة بفقرك ، وما كان يمكننى أن أحتمل زوجا ثريا •

ثم قالت بصوت ناعم رقيق :

— لا تخف من الفقر ، فقد عرفته طويلا : حتى بت لا أخشاه ، ويسعدنى أن أشتغل من أجل من أحب • لست عجوزا كما تقول ، فالأربعون زهرة العمر ، ولو كنت فى السبعين ما استطعت إلا أن أحبك !

واغرورقت عيناه بالدموع تأثرا • وود لو استطاعت يده أن تصل الى المنديل ، ليمسح عبراته ، ولكنه لم يجد الى ذلك سبيلا ، فمدت جو

Twitter: @ketab_n

يدها بمنديلها وجففت وجنتيه • ثم حملت عنه بعض اللفافات ، وقالت ضاحكة :

ـ قد أكون عنيدة صلبة الرأى ، ولكنى أحسن القيام بدور المرأة ؛ فرسالتها الأولى أن تجفف الدموع وتحمل الأعباء : وهأنذا أحمل نصيبى من الواجبين ، وسأحمل نصيبى أيضا من أعباء الأسرة ، وأعمل لأسهم فى رزق البيت • فكر فى هـذا الكلام واتخـذ قرارا ، وإلا فلن أذهب معك أبـدا •

وكان الحزم واضحا فى كلماتها ، فقال وهو يسترد منها اللفائف :

ـ سوف نرى ! ولكن أتصبرين على انتظارى طويلا يا جو ؟ يجب أن أذهب أولا لأؤدى عملى وحدى ، وأساعد الأولاد ، فقد وعدت أمهم برعايتهم ، ولا أستطيع التخلى عنهم ولو من أجلك ، فهل تغفرين لى ذلك وتبقين سعيدة حتى أعود ؟

قالت :

ـ هذا أسهل ما يكون ، وما دمنا نتبادل الحب ، فكل صعب يهون • هذا الى أنى ملزمـة بأداء بعض الـواجبات ، ولن تطيب لى حياة إذا أهملتها ؛ ولن أهملها حتى من أجلك ، فلا داعى اذا للتسرع • اذهب الى واجبك فى الغرب ، وسأبقى مع واجبى هنا • وعلينا أن نسعد بالأمل ، تاركين المستقبل لإرادة الله •

صاح الأستاذ ، وقد غلبته عواطفه :

ـ إنك تمنحيننى الأمل والشجاعة ، وليس عنـدى ما أجزيك به سوى يدى الفارغتين وقلبى المفعم بحبك •

Twitter: @ketab_n

ولم يكن من طبع جو أن تتصرف بلباقة ، فما إن انتهى الأستاذ من كلامه ، وهما واقفان على درج البيت ، حتى وضعت يديها فى يديه ، وهمست فى أذنه برقة :

ـ لم تعد يداك فارغتين الآن !

ثم انحنت على رجلها فردريك تقبله تحت المظلة • وكان هذا تصرفا لا يليق ، ولكنها كانت قد سارت شوطا بعيدا ، ولم يعد يهمها سوى سعادتها الحاضرة ، وما كانت لتتنزل عن الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة ، حتى لو تحولت صفوف العصافير التى تتراقص فوق السور الى آدميين ، والحق أن هذه الفرصة السعيدة ، التى توجت حياتها ، جاءت فى بساطة وسهولة ، فتحولت وحشة الليل وقسوة العاصفة ومرارة الوحدة ، الى نور وضياء ، يغمر البيت الذى كان فى انتظارها •

قالت جو لحبيبها ، وهى تقوده الى داخل المنزل ، وتغلق الباب خلفه :

ـ أهلا بك ، وعلى الرحب فى بيتك •

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والأربعون

الحصـــاد

مضت سنة كاملة ، كان الأستاذ وجو خلالها يعملان وينتظران ، يتحابان ويأملان ، يتقابلان بين حين وآخر ، ويكتبان رسائل مستفيضة قال عنها لورى إنها تسببت فى ارتفاع ثمن الورق . وبدأ العام الثانى فى جوّ من الحزن ، فمشروعاتها لم تزدهر ، وماتت العمة مارش فجأة ، وقد حــزن عليها جميع أفراد الأسرة ، رغم سلاطة لسانها ، فلما هــدأت أحزانهم ، جدت عليهم أمور سارة ، إذ تركت العمـــة قصر « بلومفيــد » لجـــو ، فجاءت هبتها نعمة تمكن الفتاة الفقيرة من الاستمتاع بكثير من المسرات

وبعد مضى أسابيع ، جلس أفراد الأسرة يتحدثون فى هذا الموضوع ذات يوم ، فقال لورى :

— إنه بيت قديم جميل ، ولا شك أنك ستبيعينه بمبلغ محترم .

قالت جو بحزم :

— لا ، لن أبيعه .

قال :

— لا أظنك ستقيمين فيه ؟

قالت :

— بل سأقيم فيه .

قال :

— ولكنه بيت كبير جدًا يا فتاتى العزيزة ، ولا بد من مـــال كثير

Twitter: @ketab_n

للعناية به • فالمزرعة والحديقة يحتاجان وحدهما الى رجلين أو ثلاثة • والزراعة ليست من اختصاص باير كما أعلم •

قالت :

ـ سيتدرب عليها اذا أردت •

قال :

ـ أو تأملين أن تعيشى من دخل هذا المكان ؟ حديثك عنـه يجعلنى أتصوره جنة ، ولكنك ستجدين العمل بالغ المشقة ••

قالت وهى تضحك :

ـ وسيكون محصوله مجزيا •

سألها :

ـ ومن أين يأتى هـذا المحصول المجزى ؟

قالت :

ـ من الأولاد ! فأنا أفكر فى فتح مدرسة للصغار ، تشبه فى روحها البيت ، وتتوافر فيها أسباب الراحة والسعادة ، وسأشرف عليها ، وأترك مهمة التدريس لفرتز •

وتوجه لورى بحديثه الى الأسرة ، وقال يناشدهم الرأى ، وتكلم فى دهشة عظيمة :

ـ أهذا مشروعك يا جو ؟ إن له طابع جو من كل الوجوه !

فقالت مسز مارش بلهجة التأكيد :

Twitter: @ketab_n

ــ هذا مشروع يعجبنى •

وقال مستر مارش ، وقد وجدها فرصة ليجرب طريقته « السقراطية » فى تعليم النشء :

ــ وأنا أيضا •

وقالت ميج ، وهى تربت بيدها على رأس ابنها المشغول بنفسه دائما :

ــ ولكن •••• سيكون العبء ثقيلا على جو !

وقال مستر لورنس ، وبنفسه رغبة فى معونة الحبيبين ، وإن كان يخشى رفضهما • :

ــ ليس أكفأ من جو لهذا العمل ، وسوف تؤديه سعيدة راضية •• إنها فكرة عظيمة ، فحدثينا بتفاصيلها •

قالت جو :

ــ كنت واثقة من تأييدك يا سيدى أنت وآمى ، فإنى أرى الرضا فى عينيها ، رغم ما يبدو عليها من رغبة فى التروى قبل الكلام • ثقوا أيها الأعزاء أن هذه الفكرة ليست جديدة على ، فطالما فكرت فيها ، وتمنيت تحقيقها • كنت أرجو ــ قبل أن يأتى فريتز ، ويوم يستغنى البيت عن خدماتى ــ أن أقتصد ما يكفى لاستئجار بيت كبير أجمع فيه صغار اليتامى ، الذين يعيشون فى أحضان الوحدة والإهمال ، ثم أعنى بهم وأسعد حياتهم قبل فوات الأوان ، لقد رأيت كثيرين يحيق بهم الدمار ، لأن أحـدا لم ساعدهم فى الوقت المناسب ، ولأمثال هؤلاء أحب أن أفعل شيئا • إنى

Twitter: @ketab_n

أحس بإحساساتهم ، وأعطف على متاعبهم وآلامهم ، وبودى أن أكون أمًّا لهم .

ومدت مسز مارش يدها الى جو ، فأمسكتها باسمة ، والدموع تترقرق فى عينيها ، فمضت الفتاة فى حديثها تقول بحماسة لم تبد منها منذ زمن طويل :

— وقد حدثت فريتز عن مشروعى هذا ، فأكد أنه أقصى ما يتمناه ، واتفق معى على تنفيذه عندما نصبح أثرياء .. ليبارك الله نفسه الطاهرة ! فهذا ما كان يفعله طول حياته ، أقصد مساعدة الفقراء ، لا يسعى الى الثراء ، لأنه لن يكون فى يوم من الأيام غنيا ، فما من مال يبقى فى جيبه ليدخره . أما الآن : فقد صرت غنية بفضل عمتى الطيبة التى أحبتنى أكثر مما أستحق ، أو هذا ما أشعر به على الأقل . واذا وفقت فى إنشاء مدرسة كان فى الإمكان أن نعيش على خير حال فى « بلومفيلد » — والواقع أنه خير مكان يلائم الأطفال : فأثاثه بسيط متين ، وبداخله متسع لكثيرين ، وفى خارجه حديقه فسيحة يستطيع الأولاد — خلال أوقات فراغهم — أن يعملوا فيها ، فيساعدونا ، وهو مجهود يفيدهم صحيًّا ، أليس كذلك يا سيدى ؟ أما التدريس ، ففرتز خير من يقوم به ، وربما عاونه أبى فى ذلك ، وسأقوم أنا بدور الأم التى تعنى بأولادها عن كثب . طالما اشتقت أن يكون لى عدد كبير من الأولاد ولم يكن هناك سبيل الى ذلك ، ولكنى أستطيع الآن أن أملأ البيت بهم ، وأطرب قلبى بإعزازهم . ألا ما أسعدنى بما أتانى من ترف ! قصر كبير أملكه ، وجيش من الأولاد أرعاه !

ولوحت جو بيديها سرورا ، وتنهدت فى نشوة وارتياح ، وانفجرت الأسرة فى عاصفة من الضحك ، اشترك فيها مستر لورنس حتى كاد يغمى عليه ، وحين هدأت العاصفة قالت جو فى وقار :

Twitter: @ketab_n

ــ ماذا يضحك فى هذا الموضوع ؟ ليس أليق بأستاذى من أن يفتح مدرسة ، ولا بى من أن أقيم فى مزرعتى الخاصة !

قال لورى وهو يعتبر المشروع كله مزحة لطيفة :

ــ لقد بدأت تنفخ أوداجها عظمة وتكبرا ! ولكن ، من أين تمولين هذه المؤسسة ! إذا كنت ستختارين تلاميذك من اليتامى الصعاليك ، فلن يكون محصولك المالى مربحا يا مسز باير !

قالت :

ــ لا تثبط عزيمتى يا تيدى ! سأبدأ طبعا بأولاد الأثرياء ، عندما تستقيم أمور المدرسة أضم إليها صعلوكا أو اثنين لأسعد نفسى بوجودهم . إن أولاد الموسرين كأولاد الفقراء يحتاجون الى العناية والراحة ، ولقد رأيت كثيرين من أبناء الأثرياء يتركون للخدم ، ورأيت غيرهم ممن تخلفوا فى إدراكهم الذهنى ، يدفعهم أهلهم الى الأمام فى قسوة . منهم أيضا من فقدوا أمهاتهم ، أو أهملت تربيتهم فاعوج سلوكهم . هذا الى ما تحتاج إليه الأطفال جميعا من صبر وحنان خلال المرحلة الأولى من عمرهم ، فمن عادة الناس أن يسخفوا الأطفال فى هذه المرحلة ، ويضيقوا بتصرفاتهم ، فيخفوهم عن العيون ، تاركين للزمن مهمة تحويلهم الى رجال نافعين . ويحتمل الأطفال البواسل متاعبهم هذه صامتين لا يشكون ، وأنا أقدر متاعبهم حق قدرها ، لأننى مررت بها ، ولذلك يهمنى أن أعنى بهم عناية خاصة ، وأحب أن أكشف لهم عن إحساسى بما تنطوى عليه صدورهم من قلوب دافئة أمينة مخلصة ، على الرغم من أجسامهم غير المتناسقة وأفكارهم المشوشة . ثم إن لى سابق مجهود فى هذا الميدان ، ألم أنشىء صبيًا أصبح اليوم فخر أسرته وموضع اعتزازها ؟

Twitter: @ketab_n

قال لورى شاكرا مقدرا الجميل :

ــ أشهد أنك حاولت ذلك •

قالت :

ــ ونجحت نجاحا يفوق ما كنت أتوقع ، فها أنتذا رجل أعمال ماهر ، تؤدى أعمالا نافعة كثيرة ، فتنهال عليك الدعوات الصالحات بدل الدولارات . ثم إنك لست رجل أعمال فحسب ، إنما أنت محسن أيضا ؛ تحب أن تفعل الخير ، وتستمتع بلذة إشراك غيرك فى نعمك ، شأنك معنا فيما مضى • إنى فخورة بك يا تيدى ، ويسعدنى أن أراك تزداد مع السنين كرما وطيبة ؛ وكلنا يشعر بذلك ، وإن كنت تكره أن نعترف لك به •

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

ــ نعم ، عندما أجمع قطيعى الصغير ، سأشير إليك وأقول لهم : هذا مثلكم الأعلى فاحتذوه أيها الصغار !

واحتار لورى أين يدير وجهه ، فرغم رجولته الناضجة • طغى عليه الخجل أمام ثنائها الجزيل • وأمام نظرات الرضا التى أحاطه بها الموجودون ، قال بلهجة الصبيان القديمة :

ــ هذا كثير جدًّا يا جو ! فلقد فعلتم من أجلى أكثر مما أستطيع أن أشكركم عليه ، وعهدى لكم أن أبذل جهدى فى الاحتفاظ بتقديركم • ان أخيب ظنكم فىّ ، واذا كنت قد نبذتنى أخيرا يا جو ، فقد شاء الله أن يعوضنى بخير المعونة والتوجيه ، فاشكرى لهذين العزيزين فضلهما العميم علىّ •

ووضع لورى إحدى يديه على رأس جده الأشيب ، ووضع الأخرى على شعر آمى الذهبى •

Twitter: @ketab_n

قالت جو فى انشراح عظيم :

ـ الأسرة أجمل ما فى الدنيا كلها ، وأملى أن تسعد أسرتى ـ يوم يكون لى واحدة ـ سعادة هؤلاء الأصدقاء الأعزاء الثلاثة .. والله لولا غياب جون وفريتز لأصبحت جلستنا هذه جنة على الأرض .

وحين أوت جو الى مخدعها فى تلك الليلة ، بعد الجلسة العائليـة العامرة بأغلى النصائح والآمال والمشرروعات ، وجدت قلبها يفيض بالغبطة والسعادة ، فعملت على تهدئته بالركوع الى جانب الفراش الخالى ، الذى كانت بث تحتله فى يوم من الأيام ، وراحت تفكر فى الراحلة العزيزة ، تستعيد أرق ذكرياتها وأجملها .

كانت تلك السنة ، على العموم ، فريدة فى تطور أحداثها السعيدة ، فقبل أن يمضى وقت طويل ، وجدت جو نفسها تعيش مع زوجها مستقرة فى قصر « بلومفيلد » ، ومعها أسرة مكونة من ستة أو سـبعة أولاد ، سرعان ما زاد عددهم من بين الأغنياء والفقراء على السواء . وكان الفضل كل الفضل فى ذلك لمستر لورنس الذى دأب على تغذية المدرسة بأولاد الفقراء ، راجيا من آل باير أن يحيطوهم بالرعاية ، وكان يدفع نفقاتهم بسخاء ، وبهذه الوسيلة الماهرة ، استطاع السيد العجوز أن يعين جـو بدون أن يخدش كبرياءها .

وكان العمل فى المدرسة شاقا أول الأمر ، ولم تبرأ جو من الوقوع فى أخطاء عجيبة ، ولكن حكمة الأستاذ كانت تقودها دائما الى شاطىء الأمان ، فتأتى لها أن تروض أشد الأولاد مروقا وشراسة . وكم استمتعت جو بهذا الجيش البرىء من الأولاد ! وكم فكرت فى ثورة العمة مارش ، لو كان العمر قد امتد بها ، لترى الأقدام الصغيرة الشاردة تدوس أراضيها

Twitter: @ketab_n

المقدسة . ولعلها عدالة جميلة أراد الله بها الانتقام للأطفال الذين كانت العمة تخيفهم بما تنشره من رعب حول قصرها الكبير ، فقد فتحت لهم جو أبواب الأرض المحرمة على سعتها ، وتركتهم يمرحون فيها ما شاءوا ، بل حولت لهم أيضا مرعى البقرة الشرسة الى ملعب جميل للكريكيت . وهكذا أصبح المكان جنة للأولاد ، وكان الحق يقال ، جنة بمعنى الكلمة حتى إن لورى اقترح تسميه القصر « حدائق باير » تكريما للأستاذ الطيب الذى يشرف عليه .

ولم تكن المدرسة كغيرها من المدارس الحديثة ، ولم يكسب الأستاد من ورائها ثروة ولا مالا ، ولكنها كانت كما أرادت جو تماما : مكانا مؤنسا سعيدا يجد الأطفال فيه حاجتهم من العلم والرعاية والحنان . وسرعان ما امتلأت غرف البيت كلها بالتلاميذ الجدد ، ووجد كل ركن فى الحديقة من يزرعه ، وشغل المخزن والحظيرة بالحيوانات الأليفة . وكانت جو تبتسم لرجلها فريتز ثلاث مرات فى اليوم ، وهى تتصدر المائدة الطويلة ، التى يزين جانبيها صفان من الأولاد السعداء ، الذين يتجهون الى الأم « باير » بقلوب تفيض ثقة وعرفانا بالجميل . لقد أصبح لديها الآن كفايتها من الأولاد ، ولكنها لم تملّ منهم او تتعب ، رغم أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الملائكة ، فمنهم من كبّدها هى والأستاذ شتى ألوان القلق والمتاعب ، ولكن إيمانها بطيب معدن الأطفال ، كان يعينها فى الوقت الملائم . وما كان الطفل يستطيع أن يثبت على عناده طويلا تحت نظرات الأب باير ، التى تتسع رحمة وحنانا ودفئا كأشعة الشمس ، ولا أمام الأم باير التى تصفح عن الأخطاء سبعا وسبعين مرة ! وكانت جو تعتز بصداقة الأولاد ، وكان مما يزيدهم قربا الى قلبها ، دموع الاستغفار والندم ، وهمسات التوبة بعد الأخطاء ، وثقتهم البالغة بها ، وحماستهم الغالبة فيما يبنون للمستقبل من آمال ومشروعات . وكان بين تلاميذ

Twitter: @ketab_n

المدرسة متخلفون وخجلون وضعاف البنية وشياطين ، كما كان بينهم من يلثغون أو يثأثئون ، وكذلك أعرج أو أعرجان وزنجى مولد لا يمكن أن يقبل فى مدرسة أخرى ، ولكن روضة باير رحبت به ، رغم خوف بعض الناس من أن يقضى وجوده بين البيض على سمعة المدرسة •

وعلى الرغم من العمل الشاق ، والقلق الشديد ، والضجة التى لا تنقطع عاشت جو فى مدرستها هذه سعيدة الى أقصى حد ، وكانت تتحف بقصصها الشائقة صغارها المؤمنين بها ، فإذا هتفوا شكرا لها ، أحست أنها امتلكت الدنيا كلها •

ومع مضى السنوات ، رزقت بولدين ازدادت بهما حياتها سعادة على سعادة ، وقد أسمت الأول باسم جده ، والثانى تيد • وكان هذا الأخير طفلا لطيفا ، يجمع بين بساطة أبيه وحيوية أمه • أما كيف أمكن أن يشب هذان الطفلان بين ضجيج الأولاد فمعجزة سرها عند جدتهما وخالاتهما ولكن حياتهما على كل حال تفتحت كأزهار الربيع ، تحت إشراف أولئك السيدات المحبات ، وفى رعايتهن القويمة •

وكان يتخلل الحياة فى بلومفيلد عطلات ، أكثرها مرحا عطلة موسم جنى التفاح ، إذا كان آل مارش ولورنس وبروك وباير يجتمعون فى كامل هيئتهم ليحتفلوا بهذا اليوم لأبهج احتفال • وبعد خمس سنوات من زواج جو ، جاء يوم الحصاد فى شهر أكتوبر ، وكان الهواء عليلا منعشا ، والأشجار محملة بأطيب الثمار ، فتدفقت الحماسة فى عروق أفراد الأسرة وراحوا يرقصون فى البستان ، بين أشجار الزهور المتناثرة ، وشجيرات اللبلاب المتسلقة • وشاركتهم الكائنات كلها فى فرحتهم : فغنى الصرصور بصوت كأنه ناى سحرى ، وتسارعت السناجب الى جمع نصيبها من المحصول وشدت العصافير بأنغامها الشجية من فوق أشجار الحور العالية •

Twitter: @ketab_n

وكانت كل شجرة فى الحديقة على أتم الاستعداد لإفراغ حمولتها من التفاح الأحمر والذهبى عند أول هزة ، وكانت سعادة الموجودين شاملة بهذا اليوم الفريد ، فضحكوا وغنوا وتسلقوا الدوح وتساقطوا مرحا من فوقها • وكم أكدوا أنهم لم يستمتعوا فى حياتهم بمثل هذا اليوم البهيج ، وكانوا صادقين بعد ما اغترفوا من المتع والمسرات ، كأن دنياهم خلت من الهموم والأحزان •

وكان مستر مارش يسير الهوينى مع مستر لورنس ، ويصغى الى مقتطفات من الشعر الجميل ، والأستاذ باير يقطع الأرض الخضراء جيئة وذهابا ، ليراقب التلاميذ فى لعبهم ويوجههم ، وكأنه بقامته الطويلة فارس تيوتونى أصيل يحمل بدل الرمح عصا • وكرس لورى نفسه لرعاية الأسرة ، فأركب ابنته الصغيرة فى عربة السلال ، وحمل ديزى الى عش العصافير لتراها ، وأنقذ روب المغامر من أن يسقط فيدق عنقه • وجلست مسز مارش وميج بين أكوام التفاح تفرزان أنواعه ، وانصرفت آمى الى رسم كل مجموعة من الثمار ، وكانت بين آن وآخر تلقى نظرة عامرة بالعطف والحنان على طفل شاحب ، يجلس بعيدا وقد ألقى بعكازه جانبا •

أما جو فكانت فى هذا اليوم أصدق مثال للسعادة ، تجرى هنا وهنالك وقد شمرت ثوبها ، وخلعت قبعتها ، واحتضنت ابنها تحت إبطها فى استعداد تام لأى مغامرة يقتضيها الموقف • ولقد تمتع تيد الصغير بنصيبه من مباهج اليوم ، ومن حسن الحظ لم يحدث له حادث ، حين علقه أحد الصبيان بين أفرع شجرة ، ولا حين حمله صبى آخر على ظهره وراح يقفز به فى أرجاء الحديقة ، ولا عندما أطعمه أبوه نوعا من التفاح الحامض ، مطمئنا — على اعتقاد أهل بلاده — بقدرة الأطفال على هضم الكرنب

Twitter: @ketab_n

والأزرار والمسامير ، وحتى الأحذية التى يلبسونها . وتركت جو تيد الصغير على سجيته ، واثقة بأنه سيعود الى البيت فى الوقت المناسب ، سالما هادئا قذرا مورد الخدين ، فتستقبله كالعادة بفيض حبها الذى يشمل الأطفال كلهم .

وفى الساعة الرابعة ، حلت فترة هدوء ، حين جلس جامعو التفاح بجوار السلال الفارغة ، يستريحون ويتحدثون عما كوفئوا به من قروش وخدوش . وقامت جو وميج مع فريق من الصبيان الكبار بإعداد الطعام فوق الحشائش الخضراء ، فجاء تناول وجبة الشاى فى الهواء الطلق ، خير ختام لهذا اليوم البهيج . ولم تلبث الأرض أن امتلأت بالعسل واللبن ، إذ كانت الحرية أهم مبدأ فى دستور هذا الاحتفال ، فاستغلها الأولاد الى أبعد حد ، وجلسوا على سجيتهم يتناولون الحلوى والمرطبات . ولم يكن هناك ما يمنعهم من أن يفعلوا ما يريدون ، فحاول بعضهم أن يجرب شرب اللبن وهو واقف على رأسه ، وعمل بعضهم الآخر على الجمع بين اللعب والأكل فكنت ترى أولادا يلتهمون الشطائر وهم يقفزون ، أو ينثرون الكعك على الأرض كالحبوب ، أو يصفون التفاح على فروع الأشجار كأنه طيور . أما البنات الصغيرات فقد أعدت لهن ولنيمة خاصة . ولكن بيتر الصغير لم يشأ أن يتركهن فى سلام ، فصال وجال بين المآكل ينتهب منها على هواه .

وعندما انتهى المجتمعون من الأكل ، وامتلأت بطونهم حتى لم يبق فيها مكان لمزيد ، اقترح الأستاذ — على ما اعتادوا فى مثل هذه المناسبات — أن يشربوا النخب الأول فى ذكرى أفضال العمة مارش رحمها الله ، وقد شربه مع الأولاد الذين عليهم أن يحتفظوا بذكراها حية فى قلوبهم . ثم شربوا نخب الجدة بمناسبة بلوغها الستين ، وهتفوا جميعا بحياتها

Twitter: @ketab_n

ثلاثا : هذا العيد الستون للجدة .. تعيش الجدة .. تعيش .. تعيش .. تعيش ، واندمجوا فى هتافاتهم بقلوبهم وأرواحهم ، حتى صعب إسكاتهم عن تحية السيدة الطيبة التى يخلصـون لها الحب والتقـدير . وتوالت الأنخاب بعد ذلك فى صحة مستر لورنس راعى المدرسة ، وفى صحة غيره من الأصدقاء . حتى الأرنب الذى خرج من جحره يبحث عن صـاحبه الصغير . وقدم ديمى — بصفته أكبر الأحفاد سنًا — الى جدته ، ملكة الحفلة ، مجموعة كبيرة من الهدايا ، احتاج الأمر الى نقلها فى عربة يد صغيرة وكانت الهدايا كلها من صنع الأطفال . فجاءت مضحكة قد تنبو عنها العين ، ولكن الجدة كانت تراها غير ذلك ، فقد قالت عن المنديل الذى طرزته ديزى بأناملها الساذجة إنه قطعة من الفن الرفيع ! وعن صندوق الأحذية الذى صنعه ديمى ولم ينجح فى تثبيت غطائه إنه معجزة لم يرد لها مثيل !وعن الكرسى الصغير الذى صنعه روب على أرجل غير متساوية إنه مريح الى أبعد حد ! أما الكتاب الذى قدمته ابنـــة آمى ، فلم يكن فيــه أثمن من الصفحة التى كتبت عليها بحروف كبيرة « الى جدتى العزيزة ، من الصغيرة بث » .

وبينما أفراد الأسرة فى شغل بهذا الاحتفال ، اختفى أولاد المدرسة بشكل غامض ، وعندما قامت مسز مارش تشكر أسرتها ، والدموع تندى من عينيها ، فيمسحها لها تيد الصغير بميدعته ، بدأ الأستاذ يغنى فجأة ، وإذا بأصوات الصبيان تعلو من فوقه ، وإذا بالغناء يصدر من شجرة بعد شجرة . حيث اختفى الأولاد بين الغصون ، وراحـوا كلهم ينشـدون بحماسة مقطوعة وضعتها جو ، ولحنها لورى ، وتدرب الأولاد على غنائها تحت إشراف الأستاذ باير . وكانت الأغنية طريفة بمعنى الكلمة ، وجاء إخراجها الناجح مفاجأة سارة لمسز مارش ، فأصرت على أن تصافح كل

صبي ممن اشتركوا في هذه الحفلة ، من الطويلين فرانز وإميل الى الزنجي الصغير صاحب أجمل الأصوات كلها •

وبعد هذا ، تفرق الصبيان مرة أخرى في أرجاء الحديقة يستكملون لعبهم ولهوهم ، تاركين مسز مارش وبناتها تحت شجرة الحفلة •
قالت مسز باير ، وهي تخرج إصبع تيد الصغير من إبريق اللبن الذي كان يعبث فيه مسرورا :

— لن ألعن سوء حظي ، بعد أن تحققت كل آمالي ، بهذا الشكل المفرح البهيج •

قالت ، آمي وهي ترقب لوري وجون في لعبهما مع الأولاد :
— ومع ذلك حياتك تختلف اليوم كل الاختلاف عن الصورة التي كنت ترسمينها في الماضي ، أتذكرين القصور التي كنا نبنيها في الهواء والتفتت جو الى حيث تنظر آمي ، وقالت في حنان :

— يا للرجال الأعزاء ! كم يسرني أن أراهم ينسون أعمالهم . ويقضون يوما في المرح واللعب ! نعم •• أذكر تلك القصور يا آمي . وأرى الآن آمالي الماضية مفرطة في الوحشة والأنانية . ولكني ما زلت أرجو أن أؤلف كتابا قيما ، ولن يضيرني الانتظار ، فوراءه من الخبرة والتجارب التي أستقيها من حياتي خير كثير •

وأشارت الى الأولاد الذين يمرحون بعيدا في نشاط ، والى أبيها الذي يعتمد على ذراع الأستاذ وهما يسيران تحت أشعة الشمس ذهابا إيابا ، وقد استغرقا في حديث طويل ممتع ، ثم الى أمها وقد أحاط بها بناتها وأحفادها ، وتطلعت إليها عيونهم ، كأنها تستمد العون والبركة من الشعر الفضي والوجه الصبيح الذي لم تفسد حسنه الأيام •

Twitter: @ketab_n

قالت ميج فى قناعة ، وهى تربت على رأس ابنتها :

— أما قصرى أنا ، فقد تحقق على وجه أقرب ما يكون الى الأصل • حقيقة أننى كنت أتوق الى أجمل الأشياء وأفخمها ، ولكنى كنت أومن فى قرارة نفسى بأننى سأقنع راضية ببيت صغير ، وزوج طيب ، وأطفال أعزاء كهذين • ولقد فزت بآمالى ولله الحمـد ، وأصبحت أسعد امرأة فى الوجـود •

وقالت آمى :

— أما قصرى فقد جاء مختلفا عما تخيلت ، ولكنى لا أحب أن أغيره لأنى مثل جو لم أتخل عن آمالى الفنية نهائيًا ، ولم أقطع نفسى لمساعدة الآخرين على تحقيق أحلامهم ! إنما أحاول أن أجمع بين الاثنين • وقد بدأت بالفعل فى صنع تمثال لطفلتى ، ويؤكد لورى أنه أجمل ما أنتجت ، وأنا أوافقه على ذلك . وفى نيتى أن أنحته من رخام ، حتى تبقى لى صورة من ابنتى مهما حدث •

وانحدرت دمعة كبيرة من عينى آمى ، وسقطت على الشعر الذهبى لطفلتها النائمة بين ذراعيها ، وكانت الطفلة العزيزة ، ضعيفة البنية واهنة القوة ، مما يعكر صفو أمها بسحابة من القلق والخوف • وكان الشعور بالقلق على الطفلة ، يقرب بين الأم والأب ، فالحب الواحد ، والخوف الواحد ، يوثقان الصلة برباط أبدى •

وكانت آمى قد ازدادت نضجا وحساسية ولطفا ، كما صـار لورى جادًا حازمًا قويًا ، والفضل للأيام التى علمتهما أن الجمال والشـباب والثراء ، وحتى الحب نفسه ، لن يجنبهما الهمـوم والآلام وفقـدان الأحياء ، أو كما قيل :

Twitter: @ketab_n

« فى كل حياة ، لا بد أن تسقط بعض الأمطار

وتسودّ أيام بالحزن والوحشة » .

قالت مسز مارش ، عندما انحنت ديزى اللطيفة على ابنة خالتها ، ووضعت خدها المتورد على خدها الباهت :

— إنى أراها فى تقدم صحىّ مطرد ، فلا تقنطى يا عزيزتى . وكونى دائما مستبشرة متفائلة .

قالت آمى :

— لن أقنط ، يا أماه ، وأنت بجانبى ترفهين عنى ، ولورى معى يحمل أكثر العبء ، ولا يدعنى أحس بما يعانيه من قلق ومخاوف . إنه يخفى آلامه فى قلبه ، ويتفانى فى رعاية بث ، ويلقانى دائما بوجه صبور بشوش ، وبذلك يبعث فى نفسى سكينة واطمئنانا . لن أوفيه حقه من الحب مهما فعلت .فعلىّ أن أقول مع ميج — رغم السحابة التى تخيم على حياتنا — حمدا لله فأنا امرأة سعيدة .

وأردفت جو ، وهى تنقل بصرها بين زوجها الفاضل وولديها التويين اللذين يتقلبان بجوارها على الحشائش مسرورين :

— لا أظننى فى حاجة الى الكلام ، فكلكم يرى أننى أسعد مما أستحق ، إن غريتز يزداد سمنة ومشيبا ، وأنا أصبحت نحيلة كالظل ، وقد بلغت الثلاثين ولا أمل فى أن نصبح أثرياء ، ولا أستبعد أن تأكل النيران يوما « بلومفيلد » ، ما دام الشيطان تومى بانجز يصر على التدخين تحت ملاءة سريره ، وبعد أن أحرق نفسه ثلاث مرات من قبل ! ومع هذه الحقائق المزعجة ، فأمورى تسير على ما يرام ، و « انبساطى » اليوم لم يرد اه

Twitter: @ketab_n

مثيل فى حياتى • ومعذرة إذ استعملت هذا التعبير الصبيانى فى كلامى ، فمن يعش مع الصبيان ، فلا بد أن يتشبه بهم أحيانا !

قالت مسز مارش وهى تطرد صرصورا كبيرا أسود أخاف تيد الصغير :

— نعم يا جو ، وسيكون محصولك طيبا على ما أعتقد •

وهتفت جو فى حماستها المحبوبة ، التى تتخل عنها رغم تقدم السن :

— ولكنه لن يبلغ جودة محصولك على كل حال • فها نحن أولاء بين يديك ، وليس بمقدورنا أن نوفيك حقك من الشكر على ما فعلت منذ بذرت حتى جنيت •

وقالت آمى فى حنان بالغ :

— أرجو أن يزداد القمح ويقل التبن عاما بعد عام !

وأضافت ميج بصوتها الحنون :

— إنها سنابل ضخمة يا أماه ، ولا شك أن فى قلبك متسع لها •

وغلب التأثر مسز مارش ، وعقد العطف لسانها عن الكلام فبسطت ذراعيها كأنها تريد أن تضم بناتها وأحفادها الى صدرها ، قالت فى أمومة عامرة بالتواضع والحنان :

— مهما امتد العمر بكن يا بناتى العزيزات ، فلن أرجو لكن أكثر من هذه السعادة الغامرة •

تم بحمد الله •

Twitter: @ketab_n

محتويات الكتاب

الجزء الثالث

الموضوع	صفحة
الفصل الرابع والعشرون : ثرثرة	٥
الفصل الخامس والعشرون : الزفاف الأول	٢٥
الفصل السادس والعشرون : محاولات فنية	٣٦
الفصل السابع والعشرون : دروس فى الأدب	٥٥
الفصل الثامن والعشرون : تجارب منزلية	٦٨
الفصل التاسع والعشرون : زيارات	٩٣
الفصل الثلاثون : نتائج	١١٧
الفصل الحادى والثلاثون : مراسلنا فى الخارج	١٣٩
الفصل الثانى والثلاثون : متاعب رقيقة	١٥٥
الفصل الثالث والثلاثون : أخبار جو	١٧٩
الفصل الرابع والثلاثون : صديق	١٩٩

الجزء الرابع

الموضوع	صفحة
الفصل الخامس والثلاثون : آلام قلب	٢٢٤
الفصل السادس والثلاثون : سر بث	٢٤٥
الفصل السابع والثلاثون : أفكار جديدة	٢٥٥
الفصل الثامن والثلاثون : على الرف	٢٧٥
الفصل التاسع والثلاثون : لورنس الكسلان	٢٩٧
الفصل الأربعون : وادى الظلال	٣٢٤
الفصل الحادى والأربعون : دروس فى النسيان	٣٣٤
الفصل الثانى والأربعون : بين زوايا الوحدة	٣٥٢
الفصل الثالث والأربعون : مفاجآت	٣٦٦
الفصل الرابع والأربعون : مولاى ومولاتى	٣٩٤
الفصل الخامس والأربعون : ديزى وديمى	٤٠٤
الفصل السادس والأربعون : تحت المظلة	٤١٤
الفصل السابع والأربعون : الحصاد	٤٤٠

رقم الايداع ٣٥٢٤ لسنة ١٩٨٦

مطابع سجل العرب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n